

من قطيعة فوشيوس

حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين

٨٦٩ – ١٢٠٤

الدكتور اسحاق تاوضروس عبيد

مدرس العصور الوسطى

بكلية الآداب — جامعة عين شمس

١٩٧٠

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

فهرست

تمهيد

هذا الكتاب يبحث فى موضوع العلاقات بين روما وبيزنطة من وقت القطعية الدينية بين الجانبين على عهد البطريرك فوشيوس حتى الغزو اللاتينى للقسطنطينية سنة ١٢٠٤ . والفترة التى وقع عليها الاختيار (من ٨٦٩ – ١٢٠٤) شهدت أخطر الأحداث الكنسية والسياسية ، ومن بينها محاولات الغرب اللاتينى مهاجمة الإمبراطورية البيزنطية فى أكثر من مناسبة ، وذلك بتأييد البابوية . غير أن بيزنطة آنذاك صمدت بفضل جهود الأباطرة الذين جلسوا على عرش قسطنطين العظيم ، إلى أن حانت فرصة الكنيسة الغربية لتنقض على بيزنطة وكنيستها المسكونية فى عام ١٢٠٤ .

والنظرية التى يعتمد عليها هذا الكتاب تتلخص فى أن الغزو الصليبى لبيزنطة سنة ١٢٠٤ لم يكن وليد «إنحراف» أو «صدفة» كما يذهب الكثيرون، وإنما تتمة لمخطط ساهمت فيه البابوية بدور كبير . ولذا كان لزاماً على الكاتب الرجوع إلى جذور المشكلة من عام ٨٦٩ ، عام القطيعة الدينية بين روما القديمة وروما الجديدة ، وذلك لتقصى الحقائق الكامنة وراء هذا الصراع الذى انتهى بسقوط مدينة قنسطنطين العظيم سنة ١٢٠٤ فى أيدى جنود البابا أنوسنت الثالث .

والله الموفق .

المؤلف

الفصل الأول

قطيعة فوشيوس

كان المجتمع البيزنطى مجتمعاً عقائدياً بطبيعة تكوينه ، ولهذا فلقد كان للعقيدة آثارها البالغة فى كافة المجالات المتصلة بحياة الإمبراطورية . ونجم عن ذلك أن قامت الكنيسة البيزنطية بدور خطير فى تاريخ الإمبراطورية ، وكانت شخصية بطريرك أيا صوفيا لا تقل هيبة واحتراماً عن شخصية الإمبراطور ذاته . ولقد زاد من ثقل تلك الأهمية تلك الحقوق الطائلة المدى التى منحها مجمع القسطنطينية المسكونى[1] (٣٨١) لبطريرك بيزنطة ، ثم ماجاء من قرارات فى مجمع خلقدونية[2] (٤٥١) لتعزيز كيان كرسى بيزنطة . واستناداً على قرارات آباء خلقدونية ، اتخذ بطريرك بيزنطة لقب « مسكونى » منذ القرن السادس . وبعد الفتح العربى لأقاليم سوريا وفلسطين ومصر — فى القرن السابع — وبعد أن استقلت بطريركيات أنطاكية وأورشليم والإسكندرية عن النفوذ البيزنطى ، أصبح بطريرك القسطنطينية الرأس الأوحد للكنيسة الأرثوذكسية الإمبراطورية ، وصار بمثابة البابا الفعلى فى المشرق .

ولقد جرى التقليد فى بيزنطة على أن يقوم البطريرك بمسح الإمبراطور الجديد بالزيت المقدس قبيل تتويجه ، فى حين تعهد الأباطرة بحماية الكنيسة وعدم المساس بمقدساتها وامتيازاتها المتعارف عليها . وكانت الكنيسة البيزنطية وافرة الثراء والكنوز ، وموردا غنياً للحكومة تأخذ منه فى وقت المحنة العسكرية . وكانت فوق ذلك صاحبة أثر عميق على خاصة الشعب وسواده . وعلى هذا الثقل المعنوى واستناداً إلى الثراء المادى كان بمقدور البطريرك أن يسدى عديد

(١) Mansi, Vol. III, col. 560.

(٢) Ibid., Vol. VII, col. 428.

النعم إلى الإمبراطور لحظة التوافق ، غير أنه إذا ما دب الخلاف بين الطرفين، كان فى وسع البطريرك أن يعرقل على حامل التاج الكثير من خططه ؛ بل إنه فى كثير من الأوقات كانت معارضة البطريرك سبباً فى خلع بعض الأباطرة عن العرش .

وإلى جانب طبقة القسيسين والأساقفة ورؤساء الأساقفة الذين كانوا يديرون شئون الكنيسة فى أبروشياتهم فى كافة أنحاء الإمبراطورية ، كانت هناك طبقة رجال الدين النساك ، الذين تمتعوا باحترام بالغ والذين اشتهروا بالتقوى ونقاوة القلب . ونظرت الجماهير إلى الرداء الديرانى الأسود على أنه خير ضمان للعبور فوق قنطرة هذه الدنيا قبالة النعيم الأزلى . ولهذا فقد عمرت أقاليم الإمبراطورية بالأديرة ، فى العاصمة وفى سوريا وفى العراق وفى فلسطين وفى شبه جزيرة سيناء وفى صحارى مصر وعلى جبل أولمپ فى بيثينيا وفى كبادوكيا ثم على قمم آثوس . ومن تلك البيوت الصامتة المتأملة تخرج خيرة اللاهوتيين والساسة ، ووجد البعض منهم عرش البطريركية يرحب به زعيما لشعب آيا صوفيا .

كان طبيعياً أن يقوم الخلاف فى كثير من الأحايين بين الزعيم الروحى وبين الإمبراطور : فالإمبراطور ، بصفته خليفة لقسطنطين العظيم ، كان من حقه أن يرأس المجامع ويدير المجادلات ويناقش الهراطقة ويملى على آباء الكنيسة ما يراه صالحاً من قرارات . كما كان من حقه الأوتوقراطى والثيوقراطى تنفيذ قوانين المجامع الكنسية بحد السيف ، مما خول له السلطة فى سجن أو نفى أو خلع أو إعدام « أعداء الله » والكنيسة . غير أن الأباطرة ما كانوا يجرؤون على اتخاذ قرار — سياسياً كان أو دينياً — دون مشاورة البطريرك . وتشهد السجلات المعاصرة بأن بعض البطارقة قد صبوا لعنة الحرمان والقطع ضد أعتى الأباطرة وأشدهم بأساً ، فلقد أصدر نيقولا قرار الحرمان ضد ليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢) وأمر الشعب أن يغفل كافة مراسيمه الإمبراطورية .

كانت روما القديمة — وعلى رأسها خليفة بطرس الرسول — ترقب النفوذ

المتزايد لبطريركية بيزنطة فى قلق شديد . ولقد أجج من نار الحقد فى قلب البابوات ذاك القانون الثامن والعشرون لمجمع خلقدونية الذى منح بطريرك القسطنطينية « روما الجديدة » ما كان لأسقف روما « القديمة » من حقوق وامتيازات . ورغم المعارضة الشديدة التى أبداها البابا ليو الأول ضد هذا القرار الخلقيدونى ، فإنه منذ عام ٥٨٨ تلقب أسقف بيزنطة بلقب « المسكونى » وصار مساوياً لأسقف روما فى المرتبة الكنسية . وكان هذا هدماً صريحاً للنظرية البطرسية الرومانية التى أعطت لخلفاء بطرس « أمير رسل المسيح » الإمارة على الكنيسة العالمية (الصخرة) .

حتى القرن الثانى عشر بز رجال الدين فى بيزنطة الإكليروس فى غرب أوربا اللاتينى فى العلوم اللاهوتية والفلسفية ، فبينما كانت اللغة اليونانية من المرونة والمقدرة لأن تعبر عن أدق المعانى المجردة والفوق طبيعية ، عجزت اللغة اللاتينية — بسبب جفافها وخشونتها — عن مجاراة لسان البيزنطيين . ولهذا كان عسيراً على دارسى اللاهوت فى غرب أوربا أن يتابعوا أعماق ما تنطوى عليه كتابات اللاهوتيين البيزنطيين .

ولما ظهرت الهرطقات الشرقية ، من أريوسية ونسطورية ومونوفيزيتية ويوطاخية نظر إليها أهل الغرب اللاتينى فى شك وريبة ، ذلك لأنهم لم يدركوا كنهها لعجز أداة تعبيرهم .

ولقد عبر عن تلك الحيرة البابا جريجورى العظيم فى قوله بأن اللاتين وإن كانوا لا يملكون ما للبيزنطيين من مهارة لغوية وفلسفية ، إلا أنهم قد صانوا العقيدة المسيحية من الغموض والإبهام والانحراف . وللدفاع عن كيانها ، أخذت كنيسة روما تدعو إلى الحفاظ على البساطة الأولى التى صاغها الآباء الأول للعقيدة ، وتزعم أن « صخرة » القديس بطرس هى رأس الكنائس المسئولة عن الوحدة المسيحية العالمية وعن التوافق اليقينى فى مجال العقيدة والطقوس . غير أن هذا الزعم البابوى كان بدعة فى تاريخ الكنيسة ، ورد البيزنطيون هذه الحجة بإعلان بطلانها لأنها مغايرة لتقاليد الآباء الطوباويين الذين أرسوا بناء

الكنيسة والذين وضعوا قانون الإيمان النيقى فى عام ٣٢٥ « بوحى من الروح القدس » .

والحق أن الظروف السياسية التى حلت بالإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس والتى انتهت بسقوط روما فى أيدى البرابرة الجرمان ، قد قضت على سلطان الإمبراطور فى الغرب من ناحية ، بينما أخذ نفوذ أسقف روما فى الزيادة من ناحية أخرى كنتيجة غير مباشرة لهذه الأحوال . فلقد غدت كنيسة روما — فى أعين قبائل الجرمان — النظام القديم الأوحد الذى قدر له الصمود والبقاء بعد سقوط الإمبراطورية فى عام ٤٧٦ . فقد اختفى الأمراء والأباطرة الرومان ، ولم يبق لروما سوى البابا وأساقفته . وفى غياب السلطان الإمبراطورى فى الغرب ، اضطلع أسقف روما بمهام القيادة كما فتح باب المفاوضات السياسية مع الزعماء الجرمان القادمين من كل صوب . وليس بمستغرب أن نظر المتبربرون إلى زعيم روما الدينى وإلى مؤسساته الكنسية على أنها السلطة الشرعية الوحيدة الباقية من المجد الرومانى العتيد ، يؤيدها فى هذا المظهر القانون الرومانى الرابض فى أكناف الكنيسة والجلالة الإمبراطورية التى اتسم بها البابوات أنفسهم ، إذ بدا البابا فى نظرهم منبع القانون الرومانى والأوتوقراط الأوحد فى الغرب . والنتيجة الخطيرة التى ترتبت على هذا هى أن البابوات فى القول وبالفعل قد اضطلعوا بالمهام الحكومية للإمبراطور عدة قرون عندما قطعت جحافل القوط والهون سبل الاتصال بين روما وبيزنطة .

وجاءت الأسرة السورية (٧١٧ — ٨٠٢) لتوسع الهوة بين روما وبيزنطة ، إذ أشعل أفراد هذه الأسرة ناراً لا تهدأ فى الأيقونات . فسر البابوات ورجالات الكنيسة الغربية حملات الأيسوريين ضد تبجيل الأيقونات والصور المقدسة على أنها هرطقة جديدة فى سلسلة الانحرافات العقائدية داخل كنيسة بيزنطية . ولهذا فقد كتب البابا جريجورى الثانى (٧١٧ — ٧٣١) إلى الإمبراطور الأيسورى (السورى) ليو يهدده بالعقاب وفق السلطات التى فوضها إياه القديس بطرس ، كما أنه أعلن لليو أنه قد قطعه من جسد الكنيسة العالمية . ولعل أهم

فقرة وردت فى خطاب البابا هذا تلك التى أكد فيها لمخاطبه أن الغرب اللاتينى بات يلتف حول خليفة بطرس الرسول ، وأن دول الغرب وضعت آمالها عليه . وأنه إن جرؤ الإمبراطور على أن يقدم لتحطيم أيقونات القديس بطرس — كما ذكر فى رسالة له — فإن غرب أوربا سوف يهب قاطبة للانتقام منه . وقد بين البابا للإمبراطور البيزنطى أن لا سلطان له على غرب أوربا المسيحى ، وبأنه عاجز عن الاقتراب من مدينة روما [٣] .

ولما جاء البابا جريجورى الثالث (٧٣١ — ٧٤١) عقد مجلساً فى مدينة روما أصدر فيه قراراً بحرمان أعداء الأيقونات ومحطميها [٤]. ولقد قرر ليو معاقبة البابا لموقفه هذا ، ونهج فى ذلك المنهج البيزنطى التقليدى ، إذ أرسل أسطولا قوياً للقبض على جريجورى الثالث . غير أن عاصفة حطمت الأسطول وهو إذ فى البحر الأدرياتى . وعلى هذا فقد أصدر الإمبراطور أمراً بجبى الضرائب من صقلية وكلابريا ثم صادر دخول البابوية من الضرائب المستحقة لها فى جنوبى إيطاليا . هذا إلى جانب أن قام ليو بسلخ كلابريا وصقلية وأقاليم الليريا ومقدونيا وثيساليا وآخايا وداخيا وموئيزيا ودالاردونيا وپرايڤالس من التبعية لبطريركية روما وضمها إلى نفوذ بطريرك بيزنطة ، مما كان له بالغ الأثر فى تدهور العلاقات بين الطرفين فيما تلى من تاريخ .

على أن الحدث الأفدح الذى استشاط له البيزنطيون غضباً هو تتويج شارلمان ، زعيم الفرنجة ، إمبراطوراً رومانياً فى كنيسة القديس بطرس بروما على يد البابا ليو الثالث فى نهاية صلاة قداس عيد الميلاد لعام ٨٠٠ م . والذى حدث أن أحرز ليو الثالث تاجاً وعباءة أرجوانية وألبس شارلمان هذه الأوسمة الإمبراطورية ، بين هتاف المصلين :

"Carolo augusto, a Deo coronato magno et pacifico imperatori Romanorum, Vita et victoria" [٥]

(٣) Patrologia Latina, Vol. LXXXIX, cols. 520 - 21; Mansi, Vol' XII, cols. 959-74.

(٤) L. Duchesne, Liber Pontificalis, Vol I, p. 416.

(٥) Annales Regi Francorum (ed. Pertz), in SS. R.G. SC., p. 112.

وما من شك فى أن البابا والزعيم المتبربر كانا يعلمان علم اليقين أن الإمبراطورية الرومانية كانت قائمة – وفى صلابة – على ضفاف البسفور ، بحكومتها المركزية وبمجلس شيوخها وبجيوشها الإمبراطورية الجرارة . وعلى هذا فلم تكن هنالك كينونة شرعية ولا سند واقعى ليبرر هذا الاغتصاب الصارخ للتاج الرومانى من أصحابه الشرعيين ، خلفاء قسطنطين العظيم والجالسين على عرش الإمبراطورية فى مدينة القسطنطينية .

حقيقة أن العاصمة البيزنطية قد شهدت فى تلك الفترة مؤامرة نسائية قامت بها إيرينى الوصية على العرش ضد ابنها القاصر قنسطنطين بأن سملت عينيه وأودعته السجن ثم انفردت بالحكم ، غير أن لتلك الحادثة سوابق مماثلة فى تاريخ بيزنطة ، ولم تكن – على أية حال – لتبرر اغتصاب الحقوق الشرعية للإمبراطورية والإمبراطور لصالح زعيم جرمانى من قبائل الفرنجة . والتبرير الكلاسيكى لفعلة ليو الثالث وحليفه شارلمان قد ورد فى رسالة موجهة من الإمبراطور « الغربى » لويس الثانى إلى الإمبراطور البيزنطى بازل الأول فى عام ٨٧١ . جاء فى هذه الرسالة أن حاكم بيزنطة ليس إمبراطوراً رومانياً ، لأنه يونانى كما أن البابا لم يتوجه ، ولن يتوجه لهذا السبب ، ولأن اليونان يتبعون قانون الإيمان المغلوط والضال ، كما أن « الأمير البيزنطى » عاجز عن الدفاع عن روما .

وهكذا فإن عوامل الخلاف والشقاق على المستويات العقائدية والسياسية كانت جد وفيرة بين روما القديمة وروما الجديدة ، بين الغرب اللاتينى والشرق اليونانى ، وبين البابا الرومانى والبطريرك البيزنطى . ولقد بدأ الصدام الفعلى بين الطرفين عندما وجدت روما فرصة سانحة للتدخل فى شئون الكنيسة البيزنطية وذلك وقت النزاع الشخصى بين البطريرك إجناشيوس ومنافسه القوى فوشيوس فى النصف الثانى من القرن التاسع .

فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ – ٨٦٧) ، قامت الإمبراطورة الأم ثيودورة – بطلة إعادة عبادة الأيقونات – بتعيين إجناشيوس

بطريركاً لبيزنطة . وكان إجناشيوس — رغم تقواه — متطرفاً لا يعرف الهوادة مع خصومه ، ولهذا فبمجرد أن تولى مهام منصبه قام بحرمان معارضيه ثم طردهم من مناصبهم الأسقفية (٦) . وكان إجناشيوس ضحل الثقـــافة الكلاسيكية والفلسفية ، كما أنه كان يشير إلى علوم القدامى على أنها من « دنس الأمور » (٧). وفى ذلك الحين كان بيت فوشيوس — الأستاذ فى جامعة القسطنطينية — الصالون الفكرى الذائع الصيت ، والذى كان يرتاده محبو الكلاسيكية وفلسفتها . وكان أمراً طبيعيًّا أن أخذ فوشيوس ومريدوه من جماعة الراديكاليين فى التعريض « بجهل » إجناشيوس وأتباعه .

كان فوشيوس صديقاً مقرباً للقيصر بارداس عم الإمبراطور ميخائيل الثالث . وكان بارداس هذا على خلاف شديد مع الإمبراطورة الأم ثيودورة ، وبالتالى فقد كان كارهاً لإجناشيوس حليف الإمبراطورة ولوزيرها القوى النفوذ ثيوكتستوس . وفى عام ٨٥٦ اغتال بارداس ذلك الوزير ففقدت ثيودورة الكثير من سلطانها فى البلاط . والحق أن بارداس كان رجلا خليعاً ، فبعد أن طلق زوجته بات يعاشر أرملة ابنه فى غير كتمان . ولهذا فإن البطريرك إجناشيوس قد حرمه من شركة التناول على مشهد من جميع المصلين فى أيا صوفيا .

وفى عام ٨٥٧ وجه بارداس تهمة الخيانة العظمى إلى إجناشيوس لأنه قد آوى شخصاً يدعى جيبيون ، الذى كان يدعى الأحقية فى العرش . وأمام هذا قرر الإمبراطور ميخائيل الثالث — بتوجيه من عمه بارداس — نفى إجناشيوس إلى تيريبنثوس بعد أن اضطر لتوقيع إقرار بالتنازل عن منصبه البطريركى . وفى نفس الوقت نجح بارداس فى إجبار ثيودورة على اعتزال حياة القصر والتوارى فى أحد الأديرة .

اختير فوشيوس ليشغل الكرسى البطريركى لبيزنطة بعد ذلك . وقد رغب

(٦) Nicetas the Paphlagonian, 'Vita Ignatii'; in P.G., Vol. CV, col. 512.

(٧) Mansi, Vol. XVI, col. 6.

فى مجاملة البابوية فأرسل سفارة للبابا نقولا الأول يبلغه أن إجناشيوس قد اعتزل منصبه طواعية وبأنه قد انتخب وفق القانون لتبوأ مهام البطريركية بدلا منه . غير أن البابا وجد فى هذا الموقف فرصة طيبة لمحاولة التدخل فى الشئون الداخلية لكنيسة بيزنطة ، فكتب رسالة إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث مبدياً دهشته لخلع إجناشيوس دون علم البابوية ، مضيفاً بأنه مرسل مندوبيه للتحقيق فى الأمر عن كثب ، « وبعدهاسوف نوجه أوامرنا الرسولية للفصل فى الأمر حتى تتمكن كنيستكم ، المضطربة قلقاً وإقلاقا ، من أن تبرأ من الشغب » . واختتم البابا رسالته طالباً من الإمبراطور أن يعيد للبابوية حقها ونصابها فى إلليريا وكلابريا وصقلية[٨] .

وبالفعل حضر مندوبو البابا إلى القسطنطينية وعقدوا مجلساً فى عام ٨٦١ ، حيث اضطر إجناشيوس أن يظهر أمامهم . غير أن البطريرك المخلوع صرخ فى وجه الرسل الرومان بأن لا حق لهم ولا سلطان فى استجوابه[٩] . عاد مندوبو البابا وأطلعوا سيدهم على الموقف ، غير أن نقولا الأول لم يكن راضياً عن النتائج التى توصل إليها سفراؤه . وقد زاد من حنقه أنه تلقى رسالة خشنة العبارة من الإمبراطور ميخائيل الثالث . ولهذا فقد أرسل إلى الإمبراطور البيزنطى يعلمه بأنه غير قانع بقرارات مجلس ٨٦١ ، موجهاً التقريع لميخائيل بسبب « وقاحة اللفظ وقبيح العبارة » فى رسالته . وراح البابا يقول : « لعله قد لا يغيب عن بالكم أنه منذ انعقاد المجمع المسكونى السادس والأباطرة البيزنطيون تباعاً قد لطخوا أنفسهم بعار الهرطقة » . وفى ختام كلامه هاجم نيقولا الإمبراطور لوصفه اللغة اللاتينية على أنها « لسان البرابرة » ، مستنكراً عليه أن يحمل لقب « إمبراطور الرومان »[١٠] من ناحية ، ومن ناحية أخرى أكد النظرية البطرسية من جديد ، معطياً حق الكرازة لروما والإسكندرية

---

(٨) Ep. VI, in M.G.H. S.S., Vol. VI, pp. 443 - 49.

(٩) Nicetas the Paphlagonian, op. cit., cols. 517-19.

(١٠) M.G.H. SS., Vol. VI, p. 459.

وأنطاكية [حيث كان بطرس الرسول وتلميذه مرقص الانجيلى أساقفة] ، فى حين أوضح أن القسطنطينية ليس لها سند رسولى ألبتة ، وعلى هذا وجب عليها الإذعان للبابا ، خليفة أمير الرسل ، الذى أعطيت له سلطات الربط والحل على الأرض وفى السماء ، وعلى كافة أعضاء الكنيسة العالمية(١١).

والواقع أن رسالة الإمبراطور ميخائيل الثالث الخشنة العبارة لم تكن العامل الأساسى وراء غضب البابا نيقولا الأول ، بل كانت هناك أسباب أخرى . فى تلك الفترة تأججت غيرة البابوية وحقدها بسبب النجاح الهائل الذى أحرزته البعثات التبشيرية البيزنطية فى بلغاريا تؤيدها فى ذلك القوات العسكرية الإمبراطورية . وتفصيل ذلك أن الأمير المورافى راستزلاف عقد حلفاً عسكرياً مع بيزنطة ضد البلغار فى عام ٨٦٢ . وتكملة لهذا التحالف توجه المبشران الشهيران الأخوان قنسطنطين وميثوديوس إلى مورافيا حيث رحب بهما الأمير ، ومن ثم أخذا فى التبشير بين هذه الشعوب بالديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسى . وفى نفس الوقت كانت روما تضع مخططاً للتبشير بالمسيحية على المذهب اللاتينى بين تلك الشعوب السلافية . ولهذا فقد أيد البابا نيقولا الأول الملك الألمانى لويس فى حربه ضد الأمير راستزلاف المورافى حليف بيزنطة ، ووعد لويس بالصلاة من أجل معركته ، آملا أن يتم على يده أيضاً نشر الكاثوليكية بين شعوب البلغار . غير أن آمال البابا لم تتحقق ، إذ غزت الجيوش البيزنطية مملكة البلغار ، وأذعن ملكها بورس لقبول شروط الصلح ووافق على اعتناق الأرثوذكسية هو وشعبه . وكان موقف بورس هذا طعنة لحليفه لويس الألمانى وخيبة أمل كبيرة للبابوية .

كانت المسألة البلغارية إذن عاملا أساسياً من عوامل غضب البابا نيقولا الأول ضد الإمبراطور ميخائيل الثالث وضد البطريرك فوشيوس الذى كان الموجه الفعلى للأمور السياسية فى ذلك الوقت ، والذى أرسل القديسين قنسطنطين وميثوديوس لنشر الأرثوذكسية فى بلغاريا .

---

(١١) Ibid.

ويعتقد المؤرخون أن الرسالة التى رد بها ميخائيل الثالث على البابا كانت فى واقع الأمر من وضع البطريرك فوشيوس ذاته[١٢]. جاء فى هذه الرسالة أن البابا نيقولا الأول قد كان جاحداً للفضل الكريم الذى أبداه الإمبراطور والبطريرك المسكونى عندما سمحا لإجناشيوس المخلوع بالظهور فى مجلس أمام مندوبى البابا . كما أنه ليس من شأن روما أن تحشر أنفها فى أمور الكنيسة الأرثوذكسية القويمة . ومضت الرسالة تقول إن البابا قد أخطأ الفهم عندما أرسل مندوبيه لمحاكمة إجناشيوس ، لأنه لم يطلب منه ذلك ، وإنما ما قصد إليه الإمبراطور بالفعل فى كتابه المبكر هو أن يرسل البابا سفراءه للمشاركة فى مجلس غايته إدانة هرطقة تحطيم الأيقونات التى كان لها بقايا من الأنصار لا فى بيزنطة فحسب وإنما أيضاً فى غرب أوربا اللاتينى . أما فيما يتصل بادعاءات البابا فى إمرة الكنيسة ، فإن كاتب الرسالة قد أوضح للرومان زيف هذا الادعاء وبطلانه . ولم ينس ميخائيل الثالث فى ذيل خطابه الهام أن يصم اللاتينية بأنها « لسان البرابرة » .

وفى أثناء ذلك حدثت تطورات هامة فى موقف بورس ملك البلغار ، إذ راح يطلب من بيزنطة السماح له بتعيين بطريرك بلغارى لمملكته . غير أن فوشيوس استنكر على هذا الأمير جرأته فى هذا الطلب . فما كان من بورس إلا أنه فتح باب المفاوضات مع البابا طالباً منه الإذن بتعيين بطريرك بلغارى لمملكة البلغار (أغسطس ٨٦٦) . سارع البابا نيقولا الأول فأوفد أسقفين ، بولس من بوبيلونيا وفورموزوس من بورتو ، للتبشير بين ظهرانى هذا الجنس[١٣]. ثم كتب رسالة إلى الملك بورس عدد له فيها الأغلاط الطقوسية والعقائدية داخل الكنيسة البيزنطية ، مؤكداً له أن بيزنطة لم تشرف بأصل رسولى لأسقفيتها ، وعلى هذا فليس من حقها أن تتلقب بلقب « البطريركية » .

---

(١٢) See J. Hergenröther, Photius, Patriarch von Konstantinopel (3 Vols., Regensburg, 1887 - 89), Vol I, p. 553; also. F. Dvornik, The Photian Schism, Cambridge, 1948, p. 109.

(١٣) L. Duchesne (ed.) Liber Pontificalis, Vol. II, p. 184.

ولقد طار الخان البلغارى فرحاً ونشوة وهو يقرأ الرسالة البابوية خاصة وأن البابا قد كشف له أن بطريرك بيزنطة « المتعجرف » لم يكن سوى أسقفاً عادياً لا يحق له التزين بلقب بطريرك . وعليه فقد أمر بورس كافة المبشرين البيزنطيين بالرحيل فوراً عن أراضى ملكه ، ثم أحل مكانهم أصدقاءه الجدد الوافدين من روما .

وعاد المبشرون البيزنطيون ليعلنوا لبطريركهم فوشيوس أن اللاتين قد دنسوا العقيدة فى بلغاريا ، وبأنهم يبشرون بتعاليم المانوية وقد حرموا على القسيسين الزواج ، وأدهى من هذا كله فقد زيفوا قانون الإيمان النيقى بأن أضافوا إليه أن « الروح القدس ينبثق أيضاً من الابن » . وفى نفس الوقت أعلن المبشرون اللاتين لشعب البلغار أن كنيسة بيزنطة منبع للهرطقة وأن رجال الدين فيها جلهم من الخصيان . وغلت المشاعر .

أمسك فوشيوس بقلمه وكتب مقالا بعنوان[١٤] De Spiritu Mystagogia هاجم فيه انحراف قانون الإيمان عند اللاتين بسبب إضافة الـ Filioque « الروح القدس المنبثق من الإبن أيضاً » ، معلناً أن فى هذه الإضافة انحرافاً عما اتفق عليه آباء الكنيسة الأولى فى المجامع المسكونية ، ومنافاة لنص الكتاب المقدس . وأوضح البطريرك أن مثل هذه الإضافة « البدعة » تؤدى إلى الخلط بين طبيعتى الآب والابن ، مما يبعث من جديد هرطقة أصحاب الطبيعة الواحدة التى قد أدينت فى مجمع مسكونى سابق[١٥] .

وكان اللاتين يبررون تلك الإضافة بالاستشهاد بالعبادة التى وردت على لسان المسيح وهو يخاطب تلاميذه قائلا « إن الروح انبثقت بواسطتى من الآب » . والنص اللاتينى لهذه العبارة — أوضح فوشيوس — ترجمة خاطئة للنص الأصلى الوارد باللغة اليونانية . ولما كانت اللاتينية لغة عاجزة فإن الأصل اليونانى للعبارة قد ترجم فى اللسان اللاتينى إلى Spiritus de me accipiet .

(١٤) Patrologia Graeca, Vol. CII, cols. 283 seq.

(١٥) Ibid.

وهنا يسخر فوشيوس من العقلية اللاتينية التى فات عليها أن تترجم النص اليونانى ترجمة صحيحة إلى de meo بدلا من de me ، لأن الفرق بين الاثنتين جد خطير ، فالأولى تعنى « الروح القدس المنبثق بواسطتى من الآب » بينما تعنى الثانية « الروح القدس المنبثق منى » وراح البطريرك البيزنطى يقول إن صغار التلاميذ لا شك يدركون الفرق بين العبارتين (١٦) .

ومضى فوشيوس فى كتابته فانتقد القديسين أو غسطينوس وامبروز لأنهما كانا يعلمان انبثاق الروح القدس من الابن ، وانتقد رجال الدين اللاتين لتسليمهم لما قاله القديسان رغم تعارض هذا مع ما ورد فى الإنجيل على لسان بولس الرسول : « ولكن إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن اناثيما » (١٧) .

والحق أن قانون الإيمان المتفق عليه فى مجمع نيقيا المسكونى فى عام ٣٢٥ قد نص فى بساطة على الآتى : « فى الحقيقة أؤمن بالروح القدس » . ولما عقد مجمع القسطنطينية المسكونى فى عام ٣٨١ لإدانة بدعة ماسيدونيوس ، اتفق الآباء المؤتمرون على توضيح النص السابق فصار كالآتى : « فى الحقيقة أؤمن بالروح القدس المنبثق من الأب » .

وفى القرن الثامن ظهرت الإضافة « والمنبثق من الابن أيضاً » ، ومصدر هذه البدعة إسبانيا ، ثم تحمست لها الكنيسة الفرنجية بوجه خاص . غير أن البابا ليو الثالث (فى أوائل القرن التاسع) اعترض فى حزم على هذه الإضافة « Filioque » ، ولكى يؤكد تمسكه بنص قانون الإيمان المتفق عليه فى مجمع القسطنطينية السابق أمر بأن ينقش هذا النص فى صيغته الأصلية باليونانية واللاتينية على لوحات فضية فى كنيسة القديس بطرس بروما .

وأهم من هذا كله أن البطريرك فوشيوس قد كتب فى عام ٨٦٠ إلى البابا

---

(١٦) Ibid., col. 300.

(١٧) Gal. I. 8.

نيقولا الأول يبلغه باختياره لكرسى بيزنطة ، معلناً « قانون إيمانه » — كما جرت العادة من قديم عند تبادل الرسائل فى مثل هذه المناسبات — وكان قانون الإيمان لفوشيوس — بطبيعة الحال — ينص على « انبثاق الروح القدس من الأب » [فقط] (١٨) . ولقد رد البابا على كتاب فوشيوس فى رسالة بتاريخ ١٨ مارس ٨٦٢ يعلن فيها البابا أن « إيمان فوشيوس أرثوذكسى وقويم » (١٩) .

من هذا يتضح أنه بينما تميزت كنيسة بيزنطة بالثبات على قانون الإيمان المتفق عليه منذ عام ٣٨١ ، والذى وافقت عليه روما ، فإن الأخيرة كانت تصر على إضافة الـ Filioque . وواقع الأمر أن نمو كنيسة بيزنطة وازدياد نفوذها وهيبتها كانا مبعث حقد كبير لدى البابوية . والغريب أن البابا نيقولا الأول الذى امتدح « أرثوذكسية فوشيوس وعلمه وقوامة إيمانه » سرعان ما كتب إلى صديقه الكاردينال هنكمار يهاجم مدينة القسطنطينية وبطريركها لتلقيبه نفسه بلقب « المسكونى » (٢٠) .

وما من شك فى أن كنيسة روما قد وجدت فى شخص فوشيوس متحدياً جباراً لادعاءاتها فى الزعامة والإمارة على الحواس الخمس للكنيسة العالمية . والحق أن فوشيوس قد قوض النظرية البطرسية : إذ بين للعالم انحراف قانون الإيمان فى الغرب ، وجرد روما من الإمارة ، لأن بطرس كان أيضاً أسقفاً لمدينة إنطاكية قبل أن يذهب إلى روما ، ولأنه فى إنطاكية ظهرت لفظة « مسيحى » لأول مرة . هذا كما أن أورشليم لها من السند القدسى ما يبرر لها المطالبة بالزعامة العالمية لأن فيها قد ولد المسيح فمات ثم صعد فى اليوم الثالث . أما عن « الصخرة » التى شيد عليها المسيح « كنيسته » ، فهذه لم تكن شخصية بطرس الذى لا يتوافق سلوكه قبل وبعد الصلب مع صفات الصخرة . وإنما الصخرة ، كما أوضح فوشيوس ، هى « إيمان » بطرس الذى لا يمكن تمييزه

---

(١٨) Patrologia Graeca, Vol. CII, col. 589.

(١٩) M.G.H. SS., Vol. VI, p. 440.

(٢٠) M.G.H.SS., Vol. VI, p. 605 - The letter is dated 23 October, 867.

عن « إيمان » إخوته الرسل الباقين . ولقد نعت فوشيوس مزاعم روما فى إمارة الكنيسة على أنها امتداد للروح الوثنية القديمة الراسخة هناك . وعلى هذا فإن فوشيوس عندما كتب إلى بورس ملك البلغار يرده إلى صوابه ، فقد تعمد أن يدرج بطريركية القسطنطينية فى المرتبة قبل بطريركية روما ، وذلك فى مجال حديثه عن قصة المجالس المسكونية السبعة (٢١) .

وفى ٢٤ سبتمبر ٨٦٧ ، اغتال بازل المقدونى سيده الإمبراطور ميخائيل الثالث وجلس على عرش بيزنطة . وتبع هذا الانقلاب أن أعيد إجناشيوس إلى كرسى البطريركية بعد أن خلع فوشيوس عنه . ولقد تلقت روما هذا النبأ بارتياح شديد . وعندما عقد إجناشيوس مجلساً فى القسطنطينية فى ٥ أكتوبر ٨٦٩ ، سارع البابا هادريان الثانى ، خليفة نيقولا الأول ، فأرسل مندوبيه ليضموا صوتهم إلى صوت إجناشيوس عند إدانة البطريرك المخلوع فوشيوس . وكان هادريان قد عقد مجلساً سابقاً فى روما حيث لعن فوشيوس وتعاليمه « المهرطقة » ووصفه بالعجرفة « ودنس الفم » والتجديف (٢٢) . ويحدثنا نيكيتاس البفلاجونى — كاتب حياة إجناشيوس — أن السفراء البابويين الذين شاركوا فى مؤتمر إجناشيوس قد وقعوا قرار الحرمان ضد فوشيوس « بمداد من دم المسيح » (٢٣) .

على أنه يجب أن ندرك أن المجلس الذى قد دعا إليه إجناشيوس لم يصدر قرار الحرمان ضد فوشيوس بسبب هجومه على كنيسة روما ، وإنما بسبب دوره فى خلع إجناشيوس ولأنه كان من أنصار القيصر برداس من العهد « البائد » . ومع أن فوشيوس قد عزل من منصبه ، إلا أن تعاليمه قد بقيت .

وجدير بالملاحظة أن إجناشيوس ذاته راح يجادل مع روما بنفس الحجج

(٢١) P.G., Vol. CII, cols. 623 seq.

(٢٢) Mansi, Vol. XVI, col. 123.

(٢٣) Nicetas the Paphlagonian, op. cit., col. 545.

التى ابتكرها خصمه . ذلك أن إجناشيوس قد أعلن فى مجلسه هذا الرفض التام لادعاءات روما فى الإمارة على الكنيسة العالمية ، وأكد أن البطارقة الخمسة (لروما وبيزنطة والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم) متساوون فى الرتبة الكنيسة دون تمييز على الإطلاق . وشهدت الجلسة الختامية لمجلس إجناشيوس حدثاً خطيراً ، إذ وصلت إلى القسطنطينية فى ذلك الوقت سفارة بلغارية فسمح لأعضاءها بحضور هذه الجلسة . وفيها قضى الإمبراطور بازل الأول والبطريرك إجناشيوس أن بلغاريا ملك للامبراطورية البيزنطية . وهنا وقف المندوب البابوى وأبرز من جيبه خطاباً من البابا هادريان الثانى يحذر فيه إجناشيوس من « التآمر اليونانى » ضد روما فى بلغاريا ، غير أن البطريرك أهمل كلام المندوب ورفض قراءة خطاب البابا(٢٤) .

وبعد قليل أمر بورس ملك البلغار رجال الدين اللاتين بأن يغادروا بلاده ، وأحل محلهم القساوسة البيزنطيون . فكان هذا الموقف مدعاة لغضب البابا الجديد يوحنا الثامن (٨٧٢ — ٨٨٢) ، الذى أرسل كتاباً إلى بورس يتوعده فيه ويهدد بعقاب إجناشيوس ولعنه وخلعه « هذا الشخص الذى أعدناه إلى منصبه بفضل عطفنا الرسولى » . كما كتب البابا إلى دوماجوى الأمير الكرواتى رسالة يؤكد له فيها أن إجناشيوس وكافة رؤساء الأساقفة الذين عينهم فى بلغاريا « انفصاليون » ومنحرفون(٢٥) .

توفى إجناشيوس فى ٢٨ أكتوبر ٨٧٧ ، وعندها أعاد الإمبراطور بازل الأول البطريرك المخلوع فوشيوس إلى عرش أيا صوفيا مرة أخرى . ويعتقد بعض الباحثين أن بازل كان قد أجرى صلحاً بين فوشيوس وإجناشيوس ، **وأن الأول كان قد مارس مهام البطريركية قبل وفاة إجناشيوس ببضعة شهور(٢٦) .**

---

(٢٤) Liber Pontificalis, Vol. II, p. 185.

(٢٥) M.G.H. SS., Vol. VI, p. 278.

(٢٦) See F. Dvornik, op. cit., p. 178.

كان انتصار فوشيوس مبعث حرج للبابوية ، ففتح يوحنا الثامن باب المفاوضات مع هذا « البيزنطى العنيد » يساومه فيها بأن يعترف بشرعية انتخابه للبطريركية مقابل تسليم بلغاريا لروما . وبعد قليل بدأت المصادر المسئولة فى روما تتحدث عن فوشيوس « التقى الورع » ، كما امتدحت فيه الحكمة والرصانة والقدسية . وكتب يوحنا الثامن إلى أتباع إجناشيوس يأمرهم « بالعودة إلى الأب الورع فوشيوس » ، وإلا فإنه مصدر ضدهم قرار الحرمان(٢٧) .

عقد فوشيوس مجلساً فى القسطنطينية فى ٨٧٩ — ٨٨٠ ، شارك فيه مندوبو البابا ومندوبون عن بطريركيات الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم . ووقف المندوب البابوى ، الأسقف بولس من أنكونا ، فلعن المجلس الذى كان إجناشيوس قد عقده عام ٨٦٩ وأعلن إلغاء قراراته . ثم راح بولس يعلن قرار الحرمان ضد « من تسول له نفسه الانفصال عن أو العصيان ضد السيد الكبير والبطريرك المسكونى المقدس فوشيوس »(٢٨) . ولهذا المجلس أهمية فريدة فى نوعها ، ففيه أجبر الرسل البابويون على الاستماع — دون معارضة — لنص قانون الإيمان النيقو — قنسطنطينى ، والذى كان — بطبيعة الحال — خالياً من الإضافة « Filioque » . واتخذ المؤتمرون قراراً بأن البابا بطريرك كسائر البطارقة الأربعة الآخرين ، ومن ثم فليس له سلطان ألبتة على الكنيسة العالمية ، وعليه فليس هناك ما يبرر أخذ موافقته عند اختيار بطريرك جديد لكنيسة القسطنطينية .

ولما علم البابا يوحنا الثامن بهذه القرارات أرسل مندوبه الخاص مارينوس (الذى أصبح بابا فيما بعد من ٨٨٢ — ٨٨٤) إلى القسطنطينية ليطالب بإلغاء تلك القرارات ، غير أن الإمبراطور بازل الأول والبطريرك فوشيوس أمراً بالقبض على المندوب البابوى وإيداعه السجن !

ولقد كان الاعتقاد حتى وقت قريب أن قطيعة ثانية حلت بين فوشيوس

(٢٧) Liber Pontificalis, Vol. II, p. 187.

(٢٨) Mansi, Vol. XVII A - XVIII A, col. 507.

وروما فى عام ٨٧٩ – ٨٨٠ ، إلا أن جماعة من الباحثين وعلى رأسهم Amann و Dvornik و Grumel يطالبون بأن هذا لم يحدث (٢٩) .

حقيقة أن العلاقات بين بيزنطة وروما لم تنقطع تماماً أثناء اضطلاع فوشيوس للمرة الثانية بمنصب البطريركية ، على أنه لا بد من مراعاة أن تلك العلاقات كانت من النوع العرضى المتقطع والتى كان يشوبها الكثير من المرارة ، الأمر الذى يدعونا إلى القول أن شيئاً أشبه بالقطعية الفعلية كان قائماً بين الطرفين . ويؤيد هذا القول ما نسوقه هنا من الأدلة التاريخية .

عندما علم البابا يوحنا الثامن بقرارات مجلس ٨٧٩ – ٨٨٠ وقف أمام المصلين فى كنيسة القديس بطرس بروما وهو يمسك بالإنجيل ، فلعن فوشيوس ولعن سائر الذين لا يشاركونه فى الموافقة على هذه اللعنة (٣٠) .

لم يكن البابا يوحنا الثامن الوحيد الذى لعن فوشيوس ، وإنما تبعه فى هذا كافة البابوات الذين خلفوه وهم : مارينوس الأول (٨٨٢ – ٨٨٤) ، هادريان الثالث (٨٨٤ - ٨٨٥) ، ستيفن الخامس (٨٨٥ – ٨٨٦) ، فورموزوس (٨٩١ – ٨٩٦) ، بونيفاس السادس (٢٣ مايو ٨٩٦ – ٦ يونيو ٨٩٦) ، ستيفن السادس (٨٩٦ –٨٩٧) ، رومانوس (أغسطس ٨٩٧ – أكتوبر ٨٩٧) ، ثيودور الثانى (٨٩٧ – ٨٩٧) ، يوحنا التاسع (٨٩٨ – ٩٠٠) . هؤلاء جميعاً أعتبروا فوشيوس مجرد علمانى « لعين » (٣١) .

وقد كان موقف البابوية هذا مشجعاً لأقلام كتاب غرب أوربا اللاتينى فى نهاية القرن التاسع وأوائل العاشر لأن تتطاول على البيزنطيين بالسب والقذع بوجه عام وعلى فوشيوس بوجه خاص . ومن بين الذين تعرضوا لفوشيوس

---

(٢٩) E. Amann, Photius, in Dict. de Théol. Cathol. (1935), Vol. XII, cols. 1536-1604; F. Dvornik, op. cit., loc. cit.; V. Grumel, " Y'eut -il un second Schisme de Photius"? in Revue des Sciences Phil. et Théol. (1933), Vol. XII.

(٣٠) Mansi, Vol. XVI, cols. 447 - 49.

(٣١) Ibid., col. 475.

أودو أسقف بوفية[٣٢] ، إينياس أسقف باريس[٣٣] ، راترامنوس مقدم دير كوربيه[٣٤] ، ثم الراهب أرشمبرتوس[٣٥] . وصف إينياس أسقف باريس الكنيسة البيزنطية على أنها مصدر الهرطقة والتجديف ، كما أنه نعت بطارقة أيا صوفيا على أنهم هراطقة وأصحاب « ألسنة أفعوانية »[٣٦] .

أما مقدم دير كوربيه فقد أعلن أن البيزنطيين قد جدفوا بالمسيح بإنكارهم انبثاق الروح القدس من الابن . وقد زعم الكاتب اللاتيني أن القديس آثاناسيوس بطل نيقيا الشهير قد قال بانبثاق الروح القدس من الابن ، لكنه قد جانب الحق والصواب في قوله هذا[٣٧] . وراح الراهب ارشمبرتوس يلعن اليونانيين على أنهم من جنس الحيوان ، مسيحيون بالاسم فقط ، ولكنهم على خلق قميء[٣٨] .

قال البعض إن البابا فورموزوس (٨٩١ — ٨٩٦) قام بمحاولات لمصالحة كنيسة بيزنطة وبأنه قد أظهر روحاً من التسامح تجاه بطارقتها . ولكن هذا القول مردود ، لأن فورموزوس قد كتب رسالة إلى صديقه فولكو أسقف مدينة ريمز يطلب منه فيها الصلاة من أجل كنيسته الأم (روما) في صراعها الذي لن يهدأ ضد الكنيسة البيزنطية « المنحرفة المهرطقة »[٣٩] .

---

(٣٢) Odo's work had been lost.

(٣٣) Aeneas de Paris, 'Liber adversus Graecos', in P.L., vol. CXXI, cols. 719 Seq.

(٣٤) Ratramnus de Corbie, Contra Graecorum Opposita Romanam Ecclesiam Infamantium', in P.L., Vol. CXXI, cols. 225 - 346.

(٣٥) Erchemberti Cassinensis Monachi, 'Historia Longobardorum,' in P.L., vol. CXXIX, cols. 782 Seq.

(٣٦) Aeneas de Paris, loc. cit :

(٣٧) Ratramnus de Corbie, loc. cit.

(٣٨) Erchembertus, loc. cit.

(٣٩) Flodoradi 'Historia Remensis Ecclesiae, lib. IV, in M.G.H. SS., vol. XIII, p. 559.

ولعل أهم وثيقة دامغة تثبت نظرية العداء المستمر تجاه بيزنطة وبطريركها المسكوني فوشيوس ما ورد في قرارات مجلس Trosley الذى دعا إلى عقده Hérivée رئيس أساقفة ريمز بناءاً على أوامر البابا سيرجيوس الثالث (٩٠٤ — ٩١١). تقول أعمال المجلس بأن الكرسى البابوى قد أحاط المؤتمرين علماً بأن تعاليم فوشيوس « الدنسة » ضد الروح القدس لا زالت متفشية فى المشرق، وعليه فإنه يتحتم على الآباء اللاتين أن يخرجوا من بطون الكتاب المقدس « سهاماً حادة ليسحقوا بها رأس الأفعى »[٤٠].

هذا الرجل — فوشيوس — الذى استمطره الغرب اللاتينى اللعنات بتوجيه من البابوية الحاقدة، أدرجه البيزنطيون فى عداد القديسين. وظلت سيرته مبعث إلهام وقوة للأجيال التى تليه، وباتت تعاليمه وأقواله ضد كنيسة روما والنظرية البطرسية وضد انحراف قانون الإيمان فى الغرب هادياً لسائر البطارقة الذين أتوا من بعده. يحدثنا يوحنا، كاتب سيرة القديس يوسف صاحب الألحان الكنسية، أن فوشيوس كان أعلم رجال عصره، وأنه بقوة شخصيته وخفة ظله قد سحر أفئدة العالم أجمع[٤١]. ووضع آريثاس من قيسارية، وهو من تلامذة فوشيوس، سيده البطريرك المسكونى فى النعيم الخالد بجوار القديس يوحنا كرايزوستوم « صاحب الفم الذهبى »[٤٢]. أما البطريرك نيقولا مستيكوس فرأى فى فوشيوس « رجل الله الحسن الأحسن . . سيدى وأبى فى الروح القدس »[٤٣].

---

(٤٠) Mansi, Vol. XVII A — XVIII A, cols. 263 - 308.

(٤١) John the Deacon, 'S. Josephi Hymnographi Vita,' in P.G., Vol. CV, cols. 908 Seq.

(٤٢) 'Epitaphius' in Euthymium Patr., republished by M. Jugie, in Patr. Orient., vol. XVI, p. 498.

(٤٣) In Nicholas Mysticus' letter to the Emir of Crete, in P.G., Vol. CXI, cols. 35 - 38.

هذا وقد ظهر اسم فوشيوس فى السنكساريا (سير القديسين) فى كنيسة بيزنطة فى نهاية القرن العاشر ، ويرجح أن قرار خلع القداسة عليه قد تم فى عهد بطريركية سيزينيوس (٩٩٦ — ٩٩٨) [٤٤].

(٤٤) M. Jugie, "La Culte de Photius dans l'Eglise Byzantine," in Revue de l'Orient Chrétien (1922 - 23), 3rd ser. III, pp. 109 seq.

الفصل الثانى

الشقاق الدينى الأكبر بين روما وبيزنطة

(١٠٥٤)

كان القرن الذى أعقب قطيعة فوشيوس من أمجد صفحات الدولة البيزنطية ، إذ جلس على عرشها جماعة من أمهر القواد العسكريين من أفراد الأسرة المقدونية الذين أصلحوا نظم الإدارة ، وقوضوا ملك البلغار ، ثم استرجعوا ما كان لبيزنطة من نفوذ وهيبة فى جنوبى إيطاليا . وجنباً إلى جنب مع هذه الانتصارات العسكرية بدأت الحركة التبشيرية الأرثوذكسية فى روسيا تحرز ثمارها . وأينما حلت فيالق الإمبراطورية ، نشرت كنيسة أياصوفيا ألويتها ونظمها الكنسية وفق التراث المسكونى القويم .

غير أننا لا نكاد نجد شيئاً فى الحوليات عن العلاقات بين البطارقة العشرة والبابوات الواحد والعشرين من معاصريهم فى تلك الفترة الطويلة . ومرد ذلك أن الكتاب البيزنطيين فى القرن العاشر أيقنوا أن غرب أوربا قد ضل الطريق فانسلخ متوارياً يوم أن أصبح للبابا خليلة شريرة ويوم أن أمسى الفاتيكان بيت سوء يشرب فيه البابا (يوحنا الثانى عشر) الخمر فى صحبة الشيطان فى ليلة عيد الميلاد !

وفى نفس الوقت دب الخلاف بين أوتو العظيم « الإمبراطور الجرمانو — رومانى المقدس » وبين نقفور فوكاس وخليفته يوحنا زيمسكس . وفى عام ٩٧٤ اغتال البابا الخامس فرانكو البابا الشرعى بنيدكت السادس ، ولما طرده الملك الألمانى أوتو الثانى ،لجأ إلى القسطنطينية حيث رحب بهزيمسكس . وهكذا فإن بيزنطة لم تعترف بالبابوات الشرعيين بنيدكت السابع (٩٧٤—٩٨٣)

ويوحنا الرابع عشر (٩٨٣ – ٩٨٤) اللذين اختارهما الملك الألمانى .

مات أوتو الثانى وهو لا يزال فى الحادية والعشرين من عمره ، تاركاً على العرش طفلا لا يتجاوز الثالثة هو أوتو الثالث . واتبع هذا سياسة أبيه فعين برونو ابن عمه للبابوية (جريجورى الخامس / ٩٩٦ – ٩٩٩) ثم جربرت (سلفستر الثانى / ٩٩٤ – ١٠٠٣) . وحمل الملك الألمانى الشاب لقب إمبراطور الرومان Romanorum Imperator ، كما كان يوقع رسائله إلى أهل روما بصفته « خادم يسوع المسيح » (Servus Iesu Christi) وهو نفس الأسلوب الذى ابتدعه القديسان بطرس وبولس . وفى نفس الوقت كان أوتو الثالث يحتقر البيزنطيين وينكر على حامل التاج التلقب بلقب إمبراطور الرومان . وفى عام ١٠٠٢ توفى أوتو الثالث دون أن يترك وريثاً للعرش . وفى عام ١٠١٤ اختار النبلاء الدوق هنرى الثانى ملكاً على الألمان ، وقام البابا بتتويجه إمبراطوراً . وجاء بعد هنرى الأمير البرجندى كونراد الثانى (١٠٢٤–١٠٣٩) ، وخلفه ابنه هنرى الثالث على الحكم (١٠٣٩–١٠٥٦) .

فرض هنرى الثالث نفوذاً كاملا على مدينة روما . وحدث أن نشب نزاع على عرش البابوية بين ثلاثة مرشحين ، فطردهم هنرى جميعاً وعين البابا كلمنت الثانى (١٠٤٦ – ١٠٤٧) ، الذى منح الملك الألمانى لقب Patricius وبذا صار له حق تعيين البابوات .

كانت بيزنطة فى تلك الفترة تسيطر على جنوبى إيطاليا الذى كان يشمل الإمارتين اللومبارديتين سالرنو وكابوا – بينيفنتو ، والمدن التجارية جايتا ونابلى وآمالفى . كذلك كان لها الإشراف على كلابريا وأبوليا . غير أن نفوذ بيزنطة تعرض لأشد اللطمات بداية من عام ١٠١١ . ففى ذلك العام تمرد القائد الأبولى ميلو ضد الحكم البيزنطى مستعيناً فى ثورته بالفرسان المرتزقة من النورمان الذين كانوا وقتها يحجون إلى وليهم القديس ميخائيل على جبل جارجانو . ومع أن السلطات البيزنطية قد نجحت فى قمع ثورة ميلو ،

إلا أن الفرسان النورمان قرروا الإقامة فى جنوب إيطاليا ، وأرسلوا إلى ذويهم (فى نورماندیا) ، فحضروا واستقروا هم أيضاً هناك . ومن عام ١٠٤٠ فصاعداً راح أبناء تانكرد دى هوت ڤيل فى تقويض نفوذ بيزنطة فى الجنوب الإيطالى بشكل مذهل وسريع ، مما أزعج السلطات الحاكمة فى القسطنطينية .

ولم تكن ممتلكات بيزنطة وحدها فريسة للنورمان فى جنوب إيطاليا ، إذ وجه هؤلاء ضرباتهم أيضاً ضد الإمارات البابوية هناك .

فى عام ١٠٤٨ اختار الإمبراطور الألمانى هنرى الثالث البابا ليو التاسع لعرش القديس بطرس . وليو هذا كان أسقفاً لمدينة تول فى إقليم اللورين ، المدرسة الأولى للإصلاح الكنسى . أحضر ليو معه إلى روما أشهر زعماء الإصلاح من أمثال فردريك اللوريني ، وأودو من تول ، وهيو الأبيض من ريمرمونت ، ثم همبرت من سلفا ــ كانديدا .

وقد كان أثر هذا الحزب الإصلاحى عميقاً للغاية ، مما جعل المؤرخ Fliche يتحدث عن « الإصلاح اللوريني » وكأنه النواة الأولى لنقطة التحول فى تاريخ الكنيسة اللاتينية (١) .

كان الهم الأول والأخير لجماعة ليو تحرير البابوية من قبضة الملوك الألمان الذين منذ أيام شارلمان كانوا يحركونها كيفما شاءوا . وما من شك أن الـ Constitutio Romanorum الذى صدر فى عام ٨٢٤ ، والمرسوم الإمبراطورى الذى جاء فى عام ٨٩٨ ، و« الامتياز » الذى حصل عليه أوتو العظيم ــ كل هذا قد ثبت من نفوذ الإمبراطور على البابا . يلاحظ أيضاً أن النبلاء الرومان كان لهم نفوذ كبير على البابوية . وهكذا فإن سلطان البابا والكرادلة لم يكن له وزن يذكر فى القرنين التاسع والعاشر . ولما جاء هنرى الثالث أثبت لمعاصريه أنه أشد العلمانيين استغلالا لسلطانه

(١) A. Fliche, et Martin, Histoire de l'Eglise. Paris, 1948, Vol. I, pp. 113 - 128, and II, pp. 173 - 204.

القيصر – بابوى ، ولكنه رغم هذا قد خسر المعركة ؛ لأنه هو الذى جاء بليو التاسع وحزبه من اللورين إلى روما ؛ وسرعان ما انقلب هؤلاء المصلحون ضد الملك الألمانى بهدف تحرير الكنيسة من السيطرة العلمانية .

نقطة أخرى أخذ المصلحون على عاتقهم إنفاذها ؛ هى تحقيق وحدة الكنيسة العالمية تحت إمرة خليفة بطرس « سيد الرسل » . وكان هذا داعياً لأن تبدى المدرسة الجديدة رأيها منذ وقت مبكر فى كنيسة بيزنطة . رأى ليو وأتباعه أن كنيسة بيزنطة قد أذنبت فأخرجت سلسلة من الهرطقات والبدع ، إلا أن الجرم الأكبر فى نظر هذا الحزب كان إصرار بيزنطة على عدم الاعتراف بإمرة البابا على « الصخرة » .

وعلى هذا فإن الدلائل باتت تشير إلى صدام بين اللاتين والأرثوذكس ، وقد كان .

فى تلك الأثناء كان النورمان فى جنوبى إيطاليا قد زحفوا على ممتلكات البابوية ، بعد أن أجهزوا على أراضى الدولة البيزنطية هناك . وهنا قرر البابا ليو التاسع عقد محالفة مع الإمبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٩ – ١٠٥٥) لمحاربة النورمان . وتم التحالف بين الطرفين بعد أن توسط القائد اللومباردى آرجيروس بين البابا والإمبراطور من أجل محاربة النورمان .

كان بطريرك بيزنطة فى تلك الفترة ميخائيل كريورلايوس ، الذى شغل قبـــل ذلك منصباً سياسياً هاماً وأصبح من أبرز رجال البلاط الإمبراطورى . فى عام ١٠٤٠ كان كريلاريوس طرفاً فى مؤامرة لإطاحة الإمبراطور ميخائيل الرابع عن العرش . غير أن المؤامرة فشلت ، وعندها قرر الإمبراطور معاقبة كريولاريوس بإجباره على دخول سلك الرهبنة . ولكن كريلاريوس وقف فى وجه الإمبراطور رافضاً الإذعان . وعندما انتحر شقيقه طرأ على حياته تغير كبير ، إذ قصد بنفسه إلى أحد الأديرة

وانخرط فى سلك الرهبانية . وفى عام ١٠٤٣ استولى قسطنطين التاسع مونوماخوس على الحكم ، ولما كان صديقاً لكريولاريوس فقد اختاره لكرسى البطريركية خلفاً للبطريرك المتوفى الكسيوس .

كان كريولاريوس معارضاً للتحالف بين بيزنطة والبابوية ، إذ رأى بثاقب نظره أن هذا قد يعطى روما فرصة للتدخل فى شئون الكنيسة الشرقية . كذلك كان البطريرك مرتاباً فى موقف ارجيروس القائد اللومباردى الذى وكلت إليه مهمة الإشراف على جيش بيزنطة فى جنوبى إيطاليا ، ومن أجل هذا فقد أصدر قراراً بالحرمان ضده .

بدأ الخلاف بين كنيستى روما وبيزنطة بعد أن علم كريولاريوس أن النورمان قد منعوا اليونانيين فى جنوبى إيطاليا من ممارسة طقوسهم الدينية وذلك بموافقة كنيسة روما . ورداً على هذا الموقف فقد أمر كريولاريوس الكنائس اللاتينية فى القسطنطينية باتباع الشعائر اليونانية ، وعند رفضها أمر بإغلاقها (نهاية عام ١٠٥٣) .

ولما علم البابا ليو التاسع بغلق الكنائس اللاتينية فى بيزنطة أرسل للإمبراطور يتهم كريولاريوس « بالوقاحة » وبتحدى قانون الله ، كما شبه سلوكه بموقف « الفريسيين والكتبة الذين يوصدون ملكوت السماوات فى وجه البشر »[٢] . وقد اتهم الكاردينال همبرت من سلفا — كانديدا السلطات البطريركية بأنها دبرت فتنة عند غلق الكنائس اللاتينية وأنها أمرت بأن « يداس خبز التناول المقدس » اللاتينى تحت الأقدام[٣] .

وهكذا تجدد العداء الدفين بين الكنيستين فى صورة أكثر عنفاً مما سبق . حث كريولاريوس صديقه ليو من أوخريدا رئيس أساقفة الكنيسة البلغارية على أن يكتب رسالة إلى يوحنا أسقف مدينة ترانى « فى أبوليا » ليسلمها إلى

---

(٢) P.L., Vol. CXLIII, cols. 758 - 64.

(٣) Ibid., col. 1004.

البابا وسائر أساقفة الفرنجة[٤]. تبدأ رسالة ليو بتوضيح أن الكنيسة اللاتينية باستخدامها « الخبز الغير مختمر » فى التناول تبقى فى شركة مع اليهود الذين يفعلون نفس الشيء وفق القوانين الموسوية . وأوضح الكاتب أن الخبز الذى تناول منه المسيح هو وحواريوه فى العشاء الأخير مختمر (آرتوس) ، أما الخبز الغير مختمر فلا حياة فيه ، أصم كالحجر . وراح يقول إن شركة التناول بالخبز المختمر تمثل الميلاد الجديد : شركة الغبطة والعهد الجديد فى نعمة جسد المسيح .

ثم يمضى الكاتب مستنكراً على اللاتين صيام السبت : « ألم تطالعوا مافعله الملك داود ، عندما كان معوزاً وخاوى البطن ، هو ومن كانوا معه . . ألم يدخل المعبد على الكاهن الأكبر آبى آثار فأكل من خبز التناول هو وصحبه رغم مخالفة ذلك للقانون ، قائلا لمعارضيه « لقد جعل السبت لابن الإنسان لا ابن الإنسان للسبت ، وهكذا فإن ابن الإنسان سيد على يوم السبت نفسه». إن رجال الدين اللاتين — كتب ليو — يماثلون الفهد لأن جلده لا هو بالأبيض ولا بالأسود . وعلى هذا فاللاتين يظلون معلقين بين طرفى نقيض، فهم ليسوا يهوداً ولا هم بمسيحيين[٥] . ثم يمضى رئيس الأساقفة البيزنطى فيهاجم اللاتين لأنهم يأكلون المنخنقة ولأنهم يحرمون على القساوسة الزواج .

وصل خطاب ليو هذا إلى إيطاليا فى وقت حرج من عام ١٠٥٣ ، إذ أن جيوش بيزنطة والجيش البابوى قد لقيت هزيمة فادحة على يد النورمان . وفى موقعة Civitate (يونية ١٠٥٣) وقع البابا ليو التاسع أسيراً فى يد النورمان ، فحملوه إلى مدينة بينيفنتو ، غير أنهم سمحوا له بإدارة شئون الكنيسة من هناك ، إذ كان النورمان أنفسهم أعضاءاً متحمسين للكنيسة اللاتينية . ولهذا سمح النورمان للسكرتير البابوى — همبرت من سلفا — كانديدا — بأن يلحق بسيده عندما يشاء . وأثناء رحلته من روما إلى بينيفنتو ، عرج همبرت على مدينة ترانى ، وهناك سلمه الأسقف البيزنطى

(٤) Ibid., cols. 929 - 32.

(٥) Ibid., col. 931.

يوحنا رسالة ليو رئيس أساقفة بلغاريا السالفة الذكر .

لم يكن همبرت ضالعاً فى اللغة اليونانية ولكنه قام بعمل ترجمة سريعة للرسالة ، ولأنه كان كارهاً لبيزنطة وكنيستها ، ضخم من عبارات الهجوم على كنيسة روما الواردة فى الرسالة . وعندما وصل إلى بينيڤنتو قدم الرسالة وترجمتها إلى سيده ليو التاسع ، الذى كان يشغل وقت أسره فى تعلم اللغة اليونانية ، غير أنه من المشكوك فيه أن البابا كان على دراية كاملة باليونانية تمكنه من مراجعة ترجمة همبرت (٦) .

ثار ليو التاسع غاضباً عندما قرأ هذه الرسالة الهجومية الواردة من رئيس الأساقفة البيزنطى ، فأمر همبرت بأن يكتب رسالتين ، إحداهما موجهة فى لهجة غير مهذبة إلى « الأسقفين كريولاريوس وليو من أوخريدا (٧) » ، والثانية لم ينص فيها على الشخص المرسلة إليه (٨) . وأهم ما ورد فى هاتين الرسالتين ، أن كنيسة روما لم تلطخ طوال تاريخها بالهرطقة لأن « المسيح ذاته قد صلى من أجل بطرس ليثبت إيمانه » ، أما الكنيسة اليونانية فقد كانت منبعاً للتجديف ، فهى التى أخرجت آريوس ونسطور ويوطاخيوس وغيرهم . وراح البابا يقول إن كرسى روما هو الذى تصدى لتلك البدع فسحقها ونظف العقيدة من الانحرافات المشرقية . وقد أصر البابا فى كتابه على إبراز إمارة روما على سائر الكنائس والبطريركيات الأخرى مسبقاً الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم على كنيسة القسطنطينية ، طالباً خضوعها جميعاً لخليفة القديس بطرس ، أمير الرسل (٩) .

ثم ذكر البابا فى رسالته أن كنيسة روما هى التى قضت على هرطقة تحطيم الأيقونات ، وأنها انتصرت لإجناشيوس ضد فوشيوس . واختتم ليو التاسع كلامه بمهاجمة الكنيسة البيزنطية بطريق غير مباشر : إذ ألمح

---

(٦) S. Runciman, The Eastern Schism, London, 1955, p. 42.

(٧) P.L., Vol. CXLIII, cols. 744 - 69.

(٨) Ibid.

(٩) Ibid.

بأنه لا يميل إلى تصديق الإشاعة القائلة بأن الكثيرين من رجال الدين البيزنطيين من الخصيان .

وقد كتب البابا أيضاً رسالة إلى بطرس بطريرك أنطاكية آملا فى كسب تأييده ضد كريولاريوس . ولهذا فإن ليو التاسع أخذ يتملق البطريرك الأنطاكى ، ممتدحاً حصافته وعلمه ، ومذكراً إياه بأن بطرس الرسول كان أول أسقف لمدينة أنطاكية ، وعلى هذا طالبه البابا بالولاء لخلفاء بطرس الرسول فى روما . وتوحى هذه الرسالة بأن البابا أراد أن يجند بطرس الأنطاكى ضد بطريرك بيزنطة فى هذا الصراع (١٠) .

وفى تلك المرحلة من الصراع وصل رسول من القسطنطينية يحمل رسالتين ، الأولى من توقيع الإمبراطور مونوماخوس وموجهة إلى البابا يطلب منه فيها تقوية أواصر الحلف السياسى بينهما فى الحرب ضد النورمان. أما الثانية فهى من كريولاريوس ، ويطلب فيها من البابا العمل من أجل وحدة الكنيسة ، واعداً بإدراج اسم البابا فى « أنحاء الإمبراطورية » بشرط أن يدرج اسمه أولا فى كنيسة روما . غير أن كريولاريوس خاطب البابا على أنه « الأخ ليو » بدلا من التسمية التقليدية « الأب الطوباوى » ، كما وقع الرسالة بصفته « البطريرك المسكونى »(١١) .

وقد قام الكرادلة القائمون بخدمة البابا بترجمة كلمة « أنحاء الإمبراطورية » الواردة فى رسالة البطريرك البيزنطى إلى « أنحاء العالم أجمع » . ولهذا فقد غضب البابا غضباً شديداً إذ فسر هذا على أنه زعم لكريولاريوس فى اتخاذ صفة « العالمية » ، كما أنه لم يقبل أن يخاطب « كأخ » بدلا من « أب طوباوى » . وقد ساهم الكاردينال همبرت من سلفا — كانديدا فى تهويل الأمر فى نظر البابا ، مما أدى إلى تدهور العلاقات بين الطرفين . والملاحظ أن كريولاريوس فى رسالته هذه قد كان يخطب مودة البابا ، ولم

(١٠) Ibid., cols. 769-73.

(١١) P.G., Vol. CXX, cols. 781 - 96.

يقصد للإساءة إليه، ولكن الكراهية الشديدة التي كان يضمرها أعضاء الكيوريا لكنيسة بيزنطة جعلت البابا يتشدد في موقفه ، وقد زاد الأمور تعقيداً أن ساءت صحة البابا إلى حد اضطره لأن يترك تدبير شئون الكنيسة إلى صديقه المقرب الكاردينال همبرت الذي كان ذا طبع ناري ولا يقبل الهوادة ، هذا إلى جانب احتقاره الشديد لكل ما هو بيزنطي وشرقي .

وعلى هذا فإن همبرت كتب رسالتين باسم البابا ، الأولى موجهة إلى الإمبراطور مونوماخوس والثانية موجهة إلى كريولاريوس .

وقد تناول الكاردينال الفرنجي في رسالته الأولى شخص البطريرك البيزنطي بأقذع الشتائم والاتهامات ، متهماً إياه بالتحرش باستقلال بطريركيتي أنطاكية والإسكندرية ، مهدداً باتخاذ البابا قرارات تأديبية ضده[١٢] . وجاءت الرسالة الثانية لتوبيخ كريولاريوس لاتخاذه لقب « مسكوني » ، كما ألقت شكاً على قانونية انتخابه بطريركاً . وفي نفس الوقت اتهم بانتهاك حقوق بطريركيتي الإسكندرية وأنطاكية[١٣] .

قرر همبرت السفر بنفسه إلى القسطنطينية — على رأس بعثة بابوية — ليسلم الرسالتين بيده . وكان في رفقته فردريك اللوريني ، المستشار البابوي ، وبطرس رئيس أساقفة آمالفي . عرج هؤلاء في طريقهم على القائد اللومباردي ارجيروس الذي — بسبب العداء الشخصي بينه وبين البطريرك — نصحهم بتجاهل الأخير والتشاور مباشرة مع الإمبراطور مونوماخوس .

قبل أن نتابع مجرى الأحداث التي أدت إلى الشقاق الفعلي بين الطرفين، يجب دراسة رد الكاردينال همبرت على رسالة ليو من أوخريدا دراسة تحليلية لأنها تكشف عن مشاعره ونواياه تجاه الكنيسة البيزنطية[١٤]. يتهم الكاردينال كنيسة بيزنطة بالهرطقة والإمعان في الضلال، « وإنه لمن العجرفة أن يطلق

(١٢) P.L., Vol. CXLIII, cols., 777 - 81.

(١٣) Ibid., cols. 773 - 77.

(١٤) P.L., Vol. CXLIII, cols. 929 - 74, under the title "Humbertus Silvae Candidae adversus Grecorum Calumniae".

الهراطقة ألسنتهم ضد الكنيسة الفرنجية الوقورة وضد البابا الطوباوى » .
إن هجوم اليونان ضد الخبز الخالى من الخميرة — قال الكاردينال — تجديد للهرطقة المانوية القائلة بأن الجماد له روح ، وأن كلمة (آرتوس) الواردة فى العهد الجديد تشير إلى الخبز الخالى من الخميرة والمختمر على حد سواء . وعندما يقدم الكاتب على تفنيد قول اليونان «إنما يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها فى ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع »[١٥]، يرد عليهم بالنص الإنجيلى «إذا نقوا منكم الخميرة العتيقة لكى تكونوا عجيناً جديداً كما أنتم فطير . إذاً لنعيد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث بل بفطير الإخلاص والحق »[١٦] .

وعلى هذا فعلى البيزنطيين أن يحتفظوا « بخبزهم العفن » لأنهم يحولون الحق افسنتينا ويلقون البر إلى الأرض » يقول السيد الرب[١٧] .

أما عن دفاعه عن صيام أيام السبت فهو يقول بأن هذا «اليوم يوم فرح عند اليهود ولكنه يوم حزن عند أتباع المسيح ، ولهذا وجب صيامه مشاركة لذكرى دفنه فى القبر . ورداً على عبارة رئيس أساقفة بلغاريا التى شبه فيها اللاتين بالفهد المخطط الجلد ، فإن الكاردينال الفرنجى ، الذى لم تكن تخفى عليه بذاءة القدامى ، فقد كتب يقول « تمخض الجبل فولد فأراً »[١٨] ويختتم همبرت كلامه بنص من نبوءة أشعيا ، وجهه إلى أهل بيزنطة : « ويل للقائلين للشر خيراً وللخير شراً الجاعلين الظلام نوراً والنور ظلاماً ، الجاعلين المر حلواً والحلو مراً »[١٩] .

وصل همبرت ورفاقه إلى القسطنطينية ، ودخلوا على البطريرك كريولاريوس الذى لم يحسن استقبالهم . وعلى هذا فقد ألقى الكاردينال بخطاب البابا إلى

(١٥) Matthew, XIII, 33.
(١٦) Corin. V.8
(١٧) Amos, V. 4 - 150.
(١٨) Horatius Flaccus, De Arte Poet., A.P. 139.
(١٩) Isaiah, V. 20.

البطريرك ؛ وتركه هو وصحبه دون تحية لكريولاريوس .

كان كريولاريوس محيطاً بواقع الأمور فى إيطاليا ، ولما كان البابا أسيراً فى يد النورمان ، فإن البطريرك رفض الاعتراف بهمبرت وزملاءه مندوبين بابويين . وعزز من موقفه هذا أن وردت أخبار بعد بضعة أيام عن وفاة البابا ليو التاسع (١٩ أبريل ١٠٥٤) . ولا شك فى أن هذا قد أضعف من موقف همبرت ، وبدا تبرير كريولاريوس لتشدده معه أمراً مقبولا فى نظر شعب القسطنطينية[٢٠] .

فى تلك الأثناء وقع صدام بين همبرت وأحد رهبان دير ستوديوم واسمه نيكيتاس ، الذى هاجم الشعائر اللاتينية خاصة صيام أيام السبت واستخدام الخبز الخالى من الخميرة، ومنع القسيسين من الزواج .. إلخ[٢١]

وبعد أن قرأ همبرت ترجمة لاتينية لما كتبه نيكيتاس راح يهاجم الكاتب فى عنف ووقاحة ، إذ أنه أعلن أن هذا الراهب « لا ينحدر من أحد الأديرة وإنما من بيت دعارة »[٢٢]، وبأنه «حشرة ثعبانية متسخة» وبأن هجومه ضد الكنيسة الرومانية يهبط به إلى مستوى « الكلاب المسعورة » ، فله ولأتباعه « جهنم وبئس المصير » . وهنا يعرج همبرت فى هجومه على البطريرك كريولاريوس وعلى صديقه رئيس أساقفة بلغاريا ليجرحهما . ثم يمضى ليهاجم الشعائر البيزنطية ؛ قائلا بأن إضافة الماء إلى خمر التناول المقدس — الذى اعتاده البيزنطيون — يجعل خمر التناول دنساً كريه الرائحة « يزكم الأنوف مثلما كانت الرائحة المتفجرة من بطن آريوس اللعين »[٢٣] .

---

(٢٠) See L. Bréhier, Le Schisme Oriental du XIe Siècle, Paris, 1899, p. 13; also R. Mayne, east and West in 1054', in The Cambridge Historical Journal, Vol. XI. (1953 - 55), p. 145.

(٢١) Nicetas of Staudium, "Libellus Contra Latinos', in P.L., Vol., CXLIII, cols. 973 - 84.

(٢٢) Humbertus Silvae Candidae. 'Contra Nicetam', in P.L., Vol. CXLIII, cols. 983 - 98..

(٢٣) Ibid., Col. 993.

ويختتم همبرت كلامه قائلا بأن كنيسة بيزنطة قد تعرضت منذ البداية للفساد والفسق والهرطقة والانحراف على يد آريوس وماسيدونيوس ونسطور ويوطاخيوس وغيرهم ، وأيضاً « على يدك يا نيكيتاس — أيها التعس الحقير — وعلى يد هؤلاء الذين يشاركونك الرأى فيما تقول والعقيدة فيما تنادى به»[٢٤] .

كان الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس يرى ضرورة تهدئة غضب الكاردينال همبرت ورفاقه ، إذ كان مهتماً فى الدرجة الأولى بتقوية أواصر حلفه السياسى مع البابوية ضد قوة النورمان .

ولهذا فقـــد أجبر الراهب نيكيتاس على الحضور والاعتذار لهمبرت وصحبه ، ثم أعلن تراجعه عما كتبه ضد الكنيسة اللاتينية . كان موقف مونوماخوس مشجعاً للكاردينال المتعجرف لأنه يمضى فى غيه وفى تحدى رجال الدين فى القسطنطينية فبدأ يتحدث عن موضوع انبثاق الروح القدس « من الابن أيضاً » مما أدى إلى هياج الرأى العام فى العاصمة ضد السفراء اللاتين وضد الإمبراطور ذاته . ورغم كل هذه الاستفزازات بقى البطريرك كريولاريوس محافظاً على هدوءه وترك المندوبين اللاتين يتخبطون .

غير أن همبرت ، بعد أن يئس من استفزاز كريولاريوس ، قرر الإقدام على أمر خطير . فقصد فى يوم السبت ١٦ يوليو ١٠٥٤ إلى كنيسة أياصوفيا ، ومعه رفيقاه . ودخل اللاتين إلى المذبح المقدس ووضعوا عليه قراراً بلعنة وحرمان البطريرك كريولاريوس ، ورئيس أساقفة بلغاريا ، ثم ميخائيل قسطنطين المستشار البطريركى . وخرج الثلاثة من الكنيسة وهم ينفضون الغبار من أقدامهم ، وذلك على مشهد من جمهور المصلين .

التقط أحد الشمامسة هذه الوثيقة وأسرع وراء السفراء البابويين يتوسل إليهم استردادها ، دون جدوى ، فرمى بها إلى عرض الطريق . وسرعان ما وقعت تلك الوثيقة فى أيدى كريولاريوس فأمر بعمل ترجمة يونانية لها ، وصعق بطريرك أياصوفيا لما ورد فيها :

---

(٢٤) Ibid.

تبدأ الوثيقة بذكر أسماء همبرت وبطرس من آمالنى وفردريك اللورينى على أنهم رسل البابا الشرعيون والأبناء المخلصون لكنيسة روما وبابويتها ، رأس الكنائس ورقيب قوامة الإيمان فى العالم أجمع .

وتمضى الوثيقة لتتهم كريولاريوس بعدم استحقاق منصب البطريركية « بسبب سلوكه الوقح وتعاليمه المغلوطة التى أدت إلى ظهور آراء مهرطقة من قبيل السيمونية والخصى وإعادة عماد اللاتين والسماح للقسيسيين بالزواج وتعميد النساء وهن فى وقت الحيض ، وتحريف القوانين الموسوية ، وحذف عبارة « الروح القدس منبثق من الابن أيضاً » من قانون الإيمان ، ثم استخدام الخبز المختمر فى التناول المقدس » . وتلى ذلك الشكوى من قيام كريولاريوس بإغلاق الكنائس اللاتينية فى القسطنطينية ومن عجرفته وتلقيب نفسه بلقب « مسكونى » . وبعد ذلك تصب الوثيقة اللعنة والحرمان على كريولاريوس وليو من أوخريدا والمستشار البطريركى ، مدمغة عقيدتهم بالهرطقة مثلهم فى هذا مثل الأريوسيين والمانويين وسائر البدع الأخرى(٢٥) .

لا زالت جماعة المؤرخين تعتقد إلى وقتنا هذا أن هذا القرار بالحرمان قد انصب فقط على كريولاريوس وحزبه . ولكن يجب ملاحظة أن الوثيقة فى أكثر من مكان تتعرض بالطعن واللعن للكنيسة البيزنطية ككل ، ذلك لأن الشعائر المتبعة فيها قد وصمت فى مجموعها بالمانوية . وأهم من هذا أن الإيمان « بانبثاق الروح القدس من الآب [فقط] » قد نعت بالتجديف . ولما كان هذا النص وتلك الشعائر ليست من ابتكار كريولاريوس ورفاقه ، وإنما هى أركان أساسية فى تاريخ الأرثوذكسية صاحبة المجالس المسكونية السبعة ، فإن وثيقة الحرمان لا شك قد طعنت الكنيسة الشرقية ككل ، لا مجرد شخص البطريرك وحزبه .

---

(٢٥) P.L., Vol., CXLIII.

أسرع البطريرك ومعه ترجمة يونانية للوثيقة ليعرض الأمر على الإمبراطور مونوماخوس ، غير أن الأخير لم يصدق عينيه وهو يقرأ النص ، فقد أكرم وفادة المندوبين البابويين حتى لحظة رحيلهم عن العاصمة . والواقع أن الإمبراطور كان يساوره شك فى هذه الترجمة ، ولهذا فقد أرسل مندوباً إمبراطورياً ليلحق بهمبرت وصحبه ويحصل منهم على نسخة أصلية للقرار . ولحق بهم الرسول عند سلمبريا وحصل على بغيته ، فعاد وسلمها إلى سيده ، ووجد الإمبراطور أن الترجمة التى قدمها كريولاريوس مطابقة تماماً لمـــا جاء فى النص اللاتينى . أرسل الإمبراطور رسولا ثانياً يطلب من المندوبين البابويين العودة إلى القسطنطينية وتوضيح موقفهم أمام المجلس ، ولكن همبرت لم يعر هذا الكلام التفاتاً ، واستمر ورفاقه فى طريقهم إلى الغرب .

فى أثناء ذلك دبر أتباع كريولاريوس مظاهرات صاخبة ضد اللاتين وضد سياسة اللين التى اتبعهـــا الإمبراطور معهم . وخاف مونوماخوس فأصدر أمراً بإحراق الوثيقة اللاتينية وأمر بالقبض على أقارب إرجيروس وعلى الذين ساعدوا اللاتين فى الترجمة من اللاتينية إلى اليونانية . وفى ٢٤ يوليو ١٠٥٤ اجتمع مجلس القسطنطينية واستمع المؤتمرون إلى كلمة كريولاريوس :

« إن عدو البشرية يقظ . فلم يكتف بأن أوقع بشراكه الإنسان فى سقطته الأولى وإنما دأب على تعريضه للهلاك والضلال آلاف المرات قبل مجىء الكلمة . وبعـــد هذا بذر الهرطقة تلو الأخرى لينال من صلب الإيمان . غير أن الله قد شاء لتلك الفتن أن تزهق ، واستراح الناس ظناً أن العدو لن يعود لإدخال خطاة آخرين فى التجربة . ولكن نفراً من أبناء الظلام — هم فى الواقع من الغرب — حلوا فى مدينتنا بقصد إفساد العقيدة الأرثوذكسية . ومضوا فى ضلالهم وبغيهم فوضعوا على مذبح الكنيسة الكبرى نصوص الحرمان ضد شخصنا وضد كافة الأرثوذكسيين ، لأننا لا نحلق لحانا ، ولأننا نتقبل شركة التناول من قسيسين متزوجين ،

ولأننا لا نقبل بانبثاق الروح القدس من الإبن .

إن الكتاب المقدس يطالب رجل الدين بإطلاق لحيته ، ولقد أقر مجلس آنسرا ومجلس ترولو زواج القساوسة ، أما انبثاق الروح القدس من الابن فهذا عصف صارخ بتعاليم وتراث المجالس المسكونية .

لقد تردى أهل الغرب فى هرطقة ماسيدونيوس بأن أعطوا الصفات الخاصة بالابن لكافة أقانيم الثالوث . على هذا المنوال من الفظاظة والتجديف بات هؤلاء المستهترون يشيعون الضلال فى العاصمة . لقد قدموا على الإمبراطور زاعمين بأنهم رسل البابا ، ولكنهم فى حقيقة الأمر عملاء لأرجيروس . . . .

ويقيناً منا أن ضلال هذه الطغمة وفسادها لا بد وأن يسحق ، فقد كتبنا إلى الإمبراطور ، الذى بادر فأرسل رسولا ليلحق بهم . ولكنهم مضوا فى طريقهم لا يبالون . وعليه فقد أوفد إلينا الإمبراطور الراهب ستيفن ، أمين خزائن الكنيسة الكبرى ؛ ويوحنا الماغيستروس ؛ وقسطنطين قنصل الفلاسفة ليسلموا إلينا رسالة تبين الخطوات التى يجب اتخاذها ضد الذين كتبوا تلك الوثيقة وضد الذين شاركوهم فى المؤامرة ، وكذا أوامر بأن نصدر ضدهم قرار اللعنة وبأن نشعل وثيقتهم بالنار . ولقد سجلت اللعنة عليهم فى الميغاسكريتون فى حضور رسل الإمبراطور وأعيد تسجيلها يوم الأحد الرابع والعشرين من الشهر عندما تليت نصوص قرارات المجلس المسكونى الخامس . واحتفظ بوثيقة اللعن هذه فى أرشيفات الشارتوفيلاكس لتبقى دليلا دامغاً على حرمانهم أبد الآبدين . ولقد شارك فى صب اللعنة عليهم سائر رؤساء الأساقفة والأساقفة الحاضرون فى الرابع والعشرين من يوليو السابق الذكر ، وهم : ليو من أثينا ، ميخائيل من سيليا ، نيقولا من إيوهاينا ، ديمتريوس من كاريا وآخرون »[٢٦].

(٢٦) V. Grumel, Le Patriarcat Byzantin. Les Regestrs des Actes de Patriarcat de Constantinople. Paris, 1947 Vol. I, p. 7.

هذا وهناك مصدر آخر يلقى ضوءاً على هذا الشقاق بين بيزنطة وروما نجده فى المكاتبات التى تمت بين كريولاريوس وبطرس بطريرك أنطاكية. ففى إحدى الرسائل التى بعث بها كريولاريوس إلى بطرس نطالع أنه كان قد كتب مبكراً إلى البابا ليو التاسع يلفت نظره إلى الأخطاء التى تفشت فى كنيسة الفرنجة والتى تهدد كيان قانون الإيمان . غير أن أرجيروس قبض على حامل الرسالة واستولى عليها وما كان معها من هدايا إمبراطورية مقدمة إلى البابا . ثم قام أرجيروس بتزييف رسالة باسم البابا وأرسلها رداً على خطاب كريولاريوس مع ثلاثة سفراء مزيفين . ولقد وصل إلى علم كريولاريوس أن البطريرك الأنطاكى يذكر اسم البابا فى صلوات القداس ، كما أن بطارقة الإسكندرية وأورشليم يفعلون نفس الشىء . غير أن كريولاريوس لم يصدق هذا القول لأنه لا يخفى على أحـــد أن اسم البابوات قد أسقط من كنائس الشرق تماماً منذ عصر فيجيليوس الذى رفض المشاركة فى المجلس المسكونى السادس(٢٧) . كما عبر كريولاريوس عن غضبه الشديد لأنه قد علم أن بطريركى أورشليم والإسكندرية قد سمحا بشركة التناول للاتين ، وبأنهما قد قاما فى بعض المناسبات باستخدام خبز غير مختمر فى شركة التناول ، وطلب من بطرس تقصى الأمر بدقة .

هذا وقد تلقى كريولاريوس نسخة من خطاب بطرس إلى رئيس أساقفة جرادو ، الذى هاجم فيه بطرس الخبز الغير مختمر . ولكن كريولاريوس لم يكن مقتنعاً بما ورد فى الخطاب ، لأن كاتبه لم يعدد بقية الانحرافات فى الكنيسة اللاتينية ، وعلى هذا فهو يذكر بها صديقه بطرس كالآتى : استخدام الخبز الغير مختمر فى التناول ، أكل المنخنقة ، حلق اللحى ، أكل اللحوم فى أيام الأربعاء ، والبيض واللبن فى أيام الجمعة ، صيام أيام السبت ،

(٢٧) In fact, probably since 1012, in the reign of the Patriarch Sergius II (1001 - 1019). See M. Jugie, Le Schisme Byzantin, Paris, 1941, p. 266; V. Grumel, op. cit., p. 241.

إضافة عبارة « الروح القدس منبثق من الابن » إلى قانون الإيمان ، تبتل رجال الدين من القسيسين ، زواج أخين من أختين ، مشاركة القساوسة فى أعمال الحرب ، العماد بغطسة واحدة فى المعمودية بدلا من ثلاث ، عدم الاعتراف بجريجورى اللاهوتى وبازل ويوحنا كرايزوستوم ضمن القديسين . . .

ويسأل الكاتب بعد ذلك : « هل يمكن إذن اعتبار هؤلاء الناس أرثوذكسيين ؟ » — إن من يفعل هذا — اختتم كريولاريوس رسالته — يصبح شريكاً لهم فى الإثم (٢٨) .

من الواضح أن هذه الرسالة قد كتبت قبل أن يقوم الكاردينال همبرت بفعلته فى كنيسة أياصوفيا ، إذ لا نجد إشارة فيها إلى هذا الحادث ، كما أن رد بطرس الأنطاكى أيضاً يخلو من مجرد الإشارة إليه . ولكن يجب أن نلاحظ أن القصة التى نسجها كريولاريوس عن القائد اللومباردى أرجيروس تجانب الصواب فى بعض تفصيلاتها ، وإن كان لا يمكن إنكار أن همبرت ورفاقه قد عرجوا عليه قبل سفرهم من الغرب إلى القسطنطينية ، وعلى الرغم من المودة ومشاعر الأخوة التى يبديها كريولاريوس فى رسالته إلى بطرس الأنطاكى إلا أنه لم يخف غضبه الشديد من بطرس لأنه يذكر اسم البابا فى صلاة القداس ، مثله فى ذلك مثل بطارقة الإسكندرية وأورشليم . ويلاحظ أيضاً أن كريولاريوس كان يرغب فى التأكد من تضامن كراسى أنطاكية وأورشليم والإسكندرية معه فى شقاقه الأكبر ضد روما والبابوية .

هنالك رسالة أخرى مرجهة من كريولاريوس إلى بطرس الأنطاكى فى نهاية يوليو ١٠٥٤ ، جاء فيها وصف كامل لمسلك الكاردينال همبرت ورفاقه فى كنيسة أياصوفيا . ثم يحذر الكاتب مخاطبه من حيـــل روما ويهيب به أن يشد العزم لحماية الأرثوذكسية من زيغ الهراطقة اللاتين . (٢٩)

(٢٨) P.G., Vol. CXX, cols. 781 - 96.

(٢٩) P.G., Vol. CXX, col. 793; V. Grumel, op. cit., p. 9.

وقد أرسل كريلاريوس برسائل مماثلة إلى كل من بطريركي الإسكندرية وأورشليم.

ورد فى بعض المصادر(٣٠) أن ميخائيل كريلاريوس قد عقد مجلساً أدان فيه البابا ليو التاسع ثم أسقط اسمه من الذكر فى صلاة القداس. ويؤرخ الكاتب المعاصر Phrantzes هذا المجلس بالسنة الخامسة والستين من البداية الثانية، بينما يضعه Anonymous of Allatius فى السنة ٦٥٥٢ من البداية الثانية. والبداية الثانية المشار إليها هنا هى أول سبتمبر عام ١٠٥٧، ويوافق هذا التاريخ وجود بطريرك أنطاكية الجديد — تيودوسيوس — فى القسطنطينية، كما أوضح المؤرخ المعاصر Job the Jesite. والواقع أن تيودوسيوس الأنطاكى كان بالفعل حاضراً فى القسطنطينية فى هذا العام حيث شهد الانقلاب الذى أطاح بالإمبراطور ميخائيل السادس عن العرش.

ويضيف نفس المصدر أن رئيس أساقفة بلغاريا وقبرص كانا أيضاً موجودين هناك وشاركا فى المجمع المسكونى المشار إليه.

وإن كانت هذه الروايات غير صحيحة فى قولها بأن كريولاريوس أسقط اسم البابا من الكنيسة البيزنطية؛ لأن هذا كان بالفعل متبعاً حتى قبل تولى كريولاريوس منصب البطريركية، إلا أنه من المحتمل أن كريولاريوس قد عقد مجلساً فى عام ١٠٥٧ وأشرك فيه بطريرك أنطاكية الجديد وآخرين من الزعماء الدينيين الذين تصادف وجودهم هناك فى ذلك الوقت، بقصد تجديد إدانة عمل الكاردينال همبرت ورفاقه من ناحية، ولكسب تأييد إخوانه الشرقيين له فى صراعه ضد البابوية من ناحية أخرى.

* * *

كان للشقاق الدينى بين بيزنطة وروما فى عام ١٠٥٤ دلالات ثم

---

(٣٠) Job the Jesite; George the Metochite; Phrantzes; Anonymous of Allatius: Respectively : Hist. Dogm., I, 13, III, 70; Annales, in C.S.H.B. (ed. Bekker), Bonn, 1879; De Concessione, 614.

آثار بالغة الخطورة بين الشرق والغرب . ذلك لأن قرار الحرمان الذى وضعه همبرت ورفاقه على مذبح أياصوفيا لم يكن موجهاً ضد شخص البطريرك كريولاريوس وإنما فى حقيقة الأمر ضد الكنيسة البيزنطية على إطلاقها . ولهذا فقد رأى آباء أياصوفيا فى هذا المسلك من جانب اللاتين تحدياً صارخاً للإمبراطورية البيزنطية [الرومانية] ولكنيستها المسكونية . وجاءت تفاصيل القرار « الهمبرتى » لتؤكد الهوة السحيقة بين الأرثوذكس واللاتين فى مجال العقيدة والشعائر الدينية .

أما فى غرب أوربا اللاتينى فإن عاملين هامين قد زادا من الكراهية لبيزنطة وكنيستها : أولا — جاءت حركة الإصلاح البابوى والكنسى لتبشر الرأى العام فى أوروبا بعالمية الكنيسة الرومانية وبالسلطان المطلق للبابا على سائر الكنائس: ثانياً — لاقت شخصية الكاردينال همبرت إعجاباً متزايداً فى الغرب ، وعلى هذا فإن العنف الذى أبداه فى هجومه على الكنيسة الشرقية قوبل بالرضى ، وفسر المعاصرون فعلته فى القسطنطينية — فى القول وبالفعل — على أنها انتصار ساحق للكنيسة الفرنجية على الهراطقة المشرقيين . ويتضح هذا من أن همبرت قد ظل حتى وفاته فى عام ١٠٦١ أبرز عضو فى مجلس الكيوريا ، كما أن فلسفته قد أثرت على عدة بابوات متعاقبين ، إذ أصبح أحد مرافقيه إلى القسطنطينية فى بعثة ١٠٥٤ — وهو فردريك اللوريني — بابا باسم ستيفن التاسع (١٠٥٧ — ١٠٥٨) . وأهم من هذا أن أقرب الأصدقاء إليه كان هلدبراند الذى أصبح فيما بعد البابا جريجورى السابع والذى نادى بأن كنيسة بيزنطة « المنشقة » تمثل خطراً جسيماً على كيان المسيحية أكثر من خطر الوثنية ذاتها .

هذا ولكى نتفهم طبيعة العلاقات بين روما وبيزنطة فيما تلى من تاريخ لا بد من أن نتعرض لدراسة الإصلاح الهلد براندى لكنيسة روما ثم علاقات بيزنطة بالنورمان . وهذه هى مهمة الفصل التالى .

الفصل الثالث

بيزنطة والبابوية وغرب أوروبا

من ١٠٥٤ إلى ١٠٩٥

أصبحت العلاقات بين بيزنطة وغرب أوربا بعد شقاق ١٠٥٤ عرضية ومليئة بالكراهية والحقد المتبادلين . ففى عام ١٠٥٥/١٠٥٦ كان ليبرت أسقف كامبريا فى طريقه إلى الحج فى بيت المقدس ، ولكن السلطات الإمبراطورية البيزنطية لم تسمح له بعبور حدود الإمبراطورية ، وأمرت بترحيله إلى قبرص[١] . ويروى أحد كتاب الحوليات الألمان أنه فى عام ١٠٥٦ قامت السلطات البيزنطية بطرد ٣٠٠ لاتينيا من بيت المقدس[٢] . وفى نفس العام كتب فكتور الثانى إلى الإمبراطورة تيودورة[٣] . يشكو إليها من تعنت موظفيها فى ابتزاز الأموال والضرائب من الحجاج الغربيين الوافدين إلى بيت المقدس[٤] . وفى عام ١٠٥٩ وقع البابا نيقولا الثانى معاهدة ملنى مع زعماء النورمان فى جنوبى إيطاليا ، معترفاً بهذا بتأييد البابوية الكامل لمشروعات النورمان ضد الممتلكات البيزنطية فى الجنوب الإيطالى . وفى عام ١٠٦٢ فتح الإمبراطور البيزنطى قسطنطين العاشر باب المفاوضات مع آجنس الوصية على العرش الألمانى فى محاولة ثانية لتأييد كادالوس أسقف بارما بابا منافساً للبابا الشرعى إسكندر الثانى (١٠٦١ — ١٠٧٣) ، غير أن

(١) 'Vita Lietberti;' XXXV, in D'Achéry, Spicilegium, IX, pp. 705-12.

(٢) 'Miracula Sancti Wolframni Senonensis'; in Acta Sanctorum Sancti Benedicti, ser. III, pt. I, pp. 381 - 82.

(٣) P. Riant, Inventaire Critique des Lettres Historiques des croisades, Archives de l'Orient Latin, Vol. I, Paris, 1881, ep. xvii.

(٤) P.L., Vol. CXLIX, cols. 961 - 62.

المحاولة لم تنجح وذلك بسبب قوة نفوذ إسكندر الثانى وحزبه . وفى عام ١٠٧٢ أرسل البابا إسكندر الثانى سفارة إلى القسطنطينية لتهنئة الإمبراطور البيزنطى الجديد ، ميخائيل السابع ، باعتلائه العرش ، ولمحاولة إحباط التحالف بين بيزنطة وألمانيا ضد البابوية . وكان بطرس أسقف أناجنى على رأس هذه السفارة ، ولما وصل إلى العاصمة البيزنطية طرق موضوع « وحدة الكنيسة » غير أن بطريرك بيزنطة ، يوحنا اكزفيلينوس ، وميخائيل بسللوس كاتم السر الإمبراطورى ، تدخلا فى المفاوضات وقررا غلق باب المناقشة فى هذا الموضوع لأجل غير مسمى (٥) .

فى عام ١٠٧٣ توفى البابا إسكندر الثانى ، وكان واضحاً للجميع أن خليفته على العرش البابوى هو هلدبراند ، الذى كان أقوى شخصية فى مجلس الكيوريا منذ خمسة وعشرين عاماً . ولقد تظاهرت جماهير الشعب فى روما بمجرد دفن جثمان البابا الراحل هاتفة باسم هلدبراند عالياً فى السماء ، وبالفعل اختير هلدبراند وأعطى لقب البابا جريجورى السابع (١٠٧٣—١٠٨٥).

والصورة التى يعطيها لنا معاصروه عن أحواله الفيزيقية تقول بأنه كان قصير القامة قبيح المنظر ، غير أن الشرر كان يتوقد فى عينيه بداهة وذكاءاً . كما يذكرون مقدرته الفائقة فى السيطرة على كافة سامعيه عند المحادثة .

ولما كانت تعاليم هلدبراند وفلسفته الإصلاحية ونظريته فى المنصب البابوى قد أوجدت تغييراً جذرياً فى تفسير السلطان البابوى ، ولما كانت هذه الفلسفة أيضاً قد فرضت موقفاً معيناً تجاه بيزنطة وكنيستها ، فإن المبادئ الهلدبراندية تستحق الدراسة التحليلية . كان هلدبراند يخطط للسيطرة على كافة كنائس العالم المسيحى ، شرقيه وغربيه ، وأيضاً على سائر الحكام

---

(٥) Bruno of Segni, 'Vita S. Petri Ananiensis,' in Acta Sanctorum Bollandiana, Antwerp - Paris - Rome - Brussels, 1643 - (in progress), 3 August, p. 230; S. Salaville, 'Jean Xiphilin,' in Vacant et Mangenot, Dictionnaire de Théologie Catholique, Vol. XV, 2, cols. 3618 - 20.

العلمانيين . وهذا الزعم كان فى الواقع تطويراً لما كتبه الكاردينال همبرت من سلفا – كانديدا تحت عنوان Analogia ، مبيناً فيه علاقة الروح بالجسد بقصد إبراز أولوية الروح وتفضيلها على الجسد(٦) . ولقد استخدم هلدبراند هذا المفهوم «الهمبرتى» كأساس لنظرية ثيوقراطية بحتة لم يكن هدفها إحراز توافق منسجم بين السلطتين الروحية والزمنية وإنما تركيز السلطان جميعه فى المجالين الروحى والزمنى فى يد البابا وحده . وتنطق مكاتبات هلدبراند لملوك غرب أوربا بإصراره على قصر هذه الحقوق على البابوية : فعندما طرد الملك الفرنسى فيليب الأول الأسقف جاى من أبروشية بوفيه ، كتب هلدبراند إلى رئيس أساقفة وأساقفة فرنسا يعلمهم بأن هذا الملك الذى لطخ حياته بسلوك شائن ، لايحق له البقاء على العرش . وعلى هذا فقد أمر رجال الدين الفرنسيين كافة بالتمرد ضد ملكهم « الطاغية » ، واعداً إياهم بأنه مقدم على خلع « الشيطان » من على كرسى الملك(٧) وكتب هلدبراند إلى سڤاين الثانى ملك الدنمرك يأمره بأن يحكم ملكه طبقاً لقانون الله ، مذكرا إياه بأن البابا – بوصفه ممثلا لله على الأرض – مسئول فى يوم القيامة عن فقراء الناس وأمرائهم ، لأنه فى يوم الدينونة لافرق بين فقير وأمير(٨) .

وعندما تمكن سليمان ملك المجر من استعادة عرشه بمعونة الملك الألمانى هنرى الرابع ، فى مقابل الاعتراف بالأخير سيداً إقطاعيًّا عليه ، أرسل إليه هلدبراند يذكره أن المجر تتبع السيادة البابوية لا الملكية الألمانية . ثم هدده بالعزل عن العرش إن كان عاجزاً عن القيام بمسئوليات الملك كما يجدر به(٩) .

غير أن هلدبراند لم يكن قانعاً بفرض نفوذه على ملوك غرب أوروبا وإنما هدف إلى بسط سلطانه أيضاً على أمراء الشرق المسيحى الأرثوذكسى .

(٦) M.G., Libelli de Lite, I, p. 225.

(٧) Registrum (ed Caspar), II, 5, p. 132.

(٨) Ibid., II, 51, p. 193.

(٩) Ibid., II, 13, pp. 144 - 46.

فقد كتب إلى ديمتريوس أمير كييف الروسية يطلب منه الخضوع للقديس بطرس وخليفته ، وينصحه بأن يحسن استقبال المندوبين البابويين الموفدين إلى بلاطه وأن يقبل مايقترحونه عليه دون جدال[١٠].

وإن كان هذا موقف هلدبراند تجاه الحكام العلمانيين ، فإن سياسته تجاه رجال الدين كانت أشد تزمتاً وعنتاً . ولم يكن هذا البابا العنيد يعرف الهوادة فى أحكامه ، فعندما عارضه بعض كبار الأساقفة ، عقد مجلساً فى عام ١٠٧٥ وفيه أوقف الأسقفين وليم من بافيا وكونيبرت من تورينو ؛ كما حرم وخلع كلا من دينس من بياتسنزا ولمبار من برما . كما هدد ملك فرنسا بلعنة الحرمان ؛ وصدرت الأوامر إلى مستشارى الملك الألمانى ، هنرى الرابع ، بالمثول بين يدى البابا فى الحال . كذلك أصدر البابا قراراً يحرم على رجال الدين من مختلف الرتب تقبل إقطاع دينى من أيدى العلمانيين ، كائناً مهما كانوا ، ذكوراً كانوا أو إناثاً[١١] . وفى نفس العام أصدر البابا المراسيم الشهيره باسم Dictatus Papae التى بلور فيها مزاعم كنيسة روما ، بل وأدخل عليها الشىء الكثير . وأهم ما ورد فيها الآتى :

(١) أن الله وحده هو مؤسس كنيسة روما

(٢) وأن بابا روما هو وحده الذى يلقب بلقب « عالمى »

(٣) وأن للبابا وحده حق تعيين وخلع الأساقفة

(٤) وأن مندوب البابا — حتى ولو كان برتبة كنسية صغيرة — له الحق فى إصدار الأمر إلى من هم أعلى منه مرتبة فى الكنيسة .

(٥) وأن من يحرمه البابا ، وجب على كافة الناس هجرانه والثورة ضده

(٦) وأن للبابا فقط حق سن القوانين الجديدة

---

(١٠) Ibid., II, 74, pp. 236 - 37.

(١١) Ibid., p. 190.

(٧) وأن للبابا فقط حق استعمال العلامات والنياشين الإمبراطورية

(٨) وأن الأمراء والملوك يجب أن يقبلوا قدم البابا

(٩) وأن للبابا أيضاً حق خلع الملوك والأباطرة

(١٠) وأن للبابا أن يحكم بين الناس ، ولا يحق لمخلوق فى الأرض أن يحاكم البابا لأن هذا حق الله وحده

(١١) وأنه لايجرؤ إنسان ما على أن يدين شخصاً يلجأ إلى حماية البابا

(١٢) وأن كنيسة روما لم تضل طريقها ، وبأنها لن تضله على مدى السنين

(١٣) وأن للبابا الحق فى إعفاء الرعايا من الخضوع لشخص شرير(١٢) .

كان طبيعياً أن يحتدم النزاع بين هلدبراند والملك الألمانى هنرى الرابع بسبب هذه المزاعم البابوية . وقد تدهورت العلاقات بين الطرفين إلى حد أن عقد هنرى مجمعاً فى مدينة Worms فى ٢٤ يناير ١٠٧٦ ، حيث وقع الأساقفة المؤتمرون قراراً بخلع جريجورى السابع من عرش البابوية « لأنه لايجدر بالكنيسة أن تبقى على ذئب ليحكمها(١٣) . ورداً على هذا فقد عقد البابا مجلساً (١٤ — ٢٢ فبراير ١٠٧٦) وفيه أعلن حرمان وخلع هنرى الرابع بالصورة التالية :

« سيدى الطوباوى بطرس أمير الرسل ، أمل إلينا — أتوسل إليك — آذانك المقدسة ، واصغ إلى أنا خادمك الذى أرضعته منذ

(١٢) Ibid., II, 55 A., pp. 202 - 7; Monumenta Gregoriana (ed. P. Jaffé), Berlin, 1865, pp. 174 - 6. See Appendix.

(١٣) Many churchmen and lay jurists refuted Hildebrand's teachings; such as : Sigebert of Gembloux, Apologia contra eos qui calumniantur missas conjugatorum sacerdotum, in Libelli de Lite, II, pp. 436 - 48; Petrus Creassus, Defensio Heinrici IV Regis, in Libelli de Lite, I, pp. 432 Seq., Lanfranc of Canterbury, in P.L., Vol. CL, cols. 548 - 49.

المهد ، والذى حفظت عليه حتى اليوم من كيد إبليس ، الذى مافتئ يمقتنى وسيظل بسبب ولائى لك . إنى أشهدك أنت وسيدتى والدة الإله وأخوك بولس الرسول من بين سائر القديسين على أننى دفعت إلى عرش كنيسة روما رغم إرادتى ، وعلى أننى ماكنت لحظة أسعى إليه بالعنف ، فإنه أبقى لضعف بشريتى أن أمضى طيلة العمر حاجًّا فى رحاب الأرض المقدسة على أن أسعى وراء زيف دنيوى . ويقينى أنك بفضلك ونعمتك على وبرضاك وكلت إلىّ حكم شعبك المسيحى ، أحكمه فيطيعنى ، ويخضع لى ، فإنى وكيلك فى السلطان الذى وهبه الله إياك لتربط وتحل فى السماء والأرض . على ثقل هذا الإيمان ، وحفاظاً على شرف وسلام كنيستك ، وبسم الله الكريم ، الأب والابن والروح القدس ، أخلع هنرى الملك ، ابن هنرى الإمبراطور ، الذى ثار ضد كنيستك عن حكم دولة الألمان وعن إيطاليا . وأعفى كافة المسيحيين من عهد الولاء له — وهأنذا ألقيه فى أغلال اللعنة ؛ وما دمت ظهيرى فلأقيدنه حتى يستبين البشر أنك أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أقام ابن الإله الحى كنيسته ، وأن أبواب الجحيم لن تقوى عليها »(١٤) .

وبهذه الصيحة الهلدبراندية وبإذلال هنرى الرابع عند قلعة كانوسا أصبح السلطان البابوى فى قمة مجده . وغدت تلك السابقة التاريخية سنداً لخلفاء هلدبراند يرتكزون على ثقلها فى تبرير مزاعمهم البابوية فى الحل والربط . ولم يقتصر الأمر على هذا الحد وإنما راح الحزب البابوى يؤكدون أن الكنيسة مثلها مثل الجسد البشرى ، ولذا فليس لها سوى رأس واحد ، وأنه من البشاعة تصور كيان برأسين . واستغل هؤلاء ماورد فى « هبة قسطنطين » المزيفة فى إعلان أن للبابا الملك على الغرب وأيضاً إمارة الشرق . كما ادعى البابا تمثيل الله على الأرض بصفته كاهنه الأعظم ، ولهذا صار شخصه فوق القانون .

(١٤) Registrum, III, 10a, pp. 270 - 71.

كانت هذه النظرية البابوية تمثل تهديداً مباشراً لبيزنطة فى ناحيتين : فقد جاءت تلك المزاعم الهلدبراندية لتبتلع ما كان للامبراطور البيزنطى من حقوق ومزايا بوصفه الخليفة الشرعى لقنسطنطين العظيم . ثانياً : كان مطلب البابوية فى السيطرة الكاملة على جسد الكنيسة العالمية يشكل تهديداً لبطريركية بيزنطة التى كانت فى نظر روما كنيسة منشقة ومنحرفة ، بل ورأى بعض البابوات فيها تهديداً لكيان المسيحية أخطر من الوثنية ذاتها .

وجدير بالملاحظة أن النظرية البابوية خصت أقلية كاثوليكية متمثلة فى البابا والكيوريا باحتكار صواب العقيدة. أما الشرق الأرثوذكسى بسجله الطائل من أئمة وعمد فى العقيدة والإيمان القويم ، فقد استثنوا من دائرة « العقيدة النقية » . وهناك رسالة من البابا هلدبراند إلى صديقه هيو ، مقدم دير كلونى ، تناول فيها الكنيسة البيزنطية باللوم والتقريع واتهمها باتباع مسلك الشيطان بانفصالها عن «عقيدة روما الكاثوليكية » وبتمزيقها جسد الكنيسة العالمية الواحدة[١٥] .

ولهذا ليس بمستغرب أن رسمت الأميرة المؤرخة آنا كومنينا صورة قاتمة للبابا جريجورى السابع ، لايختلف فيها عن أى « متبربر » آخر . فهو يدأب على تحقيق مكاسب دنيوية ويحنث بالعهد وأيضاً يسير إلى الحرب ، « وهو رجل سلام وخادم لسيد السلام » كما أنه قد أفسدته الرشوة مثله فى هذا مثل سائر الحكام العلمانيين . وتضيف الكاتبة أن أنوثتها وحياءها يمنعانها من أن تتعرض لفظاظة مسلك البابا وخشونته المتبربرة . ثم تمضى لتسخر من زعم اللاتين أن البابا رأس العالم أجمع ، مبينة بأنه عندما نقل قنسطنطين العظيم عاصمته من روما إلى القسطنطينية « ملكة المدائن » انتقل أيضاً مجلس السيناتو والجهاز الإدارى معهما وحق الأولوية والإمارة الدينية فى العالم أجمع . ولا يفوت الأميرة أن تذكرنا بقرارات مجمع خلقدونية التى رفعت أسقف بيزنطة إلى أعلى المراتب الكنسية[١٦] .

---

(١٥) P. Jaffé, Monumenta Gregoriana II, 49, p.p. 163 - 64.

(١٦) Anha Comnena, Alexiad, (ed. B. Leib), 3 Vols., Paris, 1937 - 45, I, xiii, I, p. 47, III, x, pp. 132 - 33.

فى نفس الوقت الذى كانت فيه مدرسة الإصلاح البابوى تتوعد بيزنطة بسوء المصير بسبب انشقاق كنيستها ، تعرضت آسيا الصغرى لخطر داهم على يد الأتراك السلاجقة . ففى عام ١٠٧١ هجمت جيوش السلطان الب أرسلان على جيوش الإمبراطور رومانوس الرابع دايوجينيس فى مانزكرت (ملاذكرد) وهزمتها هزيمة ساحقة ، كما وقع الإمبراطور أسيراً فى يد السلطان . طلب الب أرسلان من أسيره أن يدفع جزية سنوية كبيرة ، وأن يعترف له بحق امتلاك مانزكرت وأرغش وأن يعيد له الرها وأنطاكية . وبعد أن وافق الإمبراطور على هذه الشروط أطلق السلطان سراحه . غير أن الحرب التى نشبت بين رومانوس دايوجينيس وبين ميخائيل السابع دوكاس (١٠٧١ — ١٠٧٨) الذى اغتصب التاج أثناء أسر الأول ، شجعت السلاجقة ، على التوسع غرباً وجنوباً على حساب الإمبراطورية البيزنطية . وهكذا فإنه فى عام ١٠٧٢ استولى الأتراك السلاجقة على الأراضى البيزنطية الواقعة شرقى كبادوكيا (١٧) .

ومن الجانب الغربى استفحل خطر النورمان بعد أن استولوا على أراضى جنوب إيطاليا . ففى ١٦ أبريل ١٠٧١ استولى الزعيم النورماندى روبرت جويسكارد على مدينة بارى آخر معقل هام للبيزنطيين فى الجنوب الإيطالى (١٨) .

لما رأت البابوية أن النورمان قوة فتية متهورة لا تستطيع بيزنطة مقاومة تفوقهم المتزايد ، ولما كان النورمان أعضاءاً غيورين فى الكنيسة اللاتينية ، سارعت إلى عقد حلف وطيد معهم واعترفت بكيانهم الجديد مقابل اعترافهم بالبابا سيداً إقطاعياً لهم . وهذا ماتم بالفعل فى مجلس آمالفى (١٠٥٩) بين البابا نيقولا الثانى وبين روبرت جويسكارد .

بعد أن استولى جويسكارد على الممتلكات البيزنطية فى جنوبى إيطاليا

---

(١٧) See C. Cahen; La Première Pénétration Turque en Asie - Mineure; in Byzantion, XVIII (1948), pp. 5 - 67.

(١٨) O. Delarc, Les Normands en Italie, Paris, 1883, p. 455.

راح يخطط للهجوم على بيزنطة ذاتها ، وليس من المستبعد أنه كان يطمع فى الاستيلاء على عرش الإمبراطورية[١٩] . وفى عام ١٠٦٦ كانت قد راجت إشاعة فى القسطنطينية أن جويسكارد كان يعد العدة للهجوم على العاصمة ، وكان هذا مبعث قلق شديد لدى السلطات البيزنطية[٢٠] . ولهذا فإن الإمبراطور ميخائيل السابع عندما فتح باب المفاوضات مع البابا جريجورى السابع طلب منه المساعدة ضد الأتراك السلاجقه وكذلك رجاه أن يمنع جويسكارد من الهجوم على بيزنطة[٢١] .

وجد البابا جريجورى السابع فى طلب ميخائيل السابع هذا فرصة نادرة لمحاولة فرض سلطان روما من جديد على الكنيسة البيزنطية المنشقة ؛ لأن وحدة الكنيسة العالمية تحت إمرة البابا كانت الهدف الأساسى من حركة الإصلاح الهلدبراندى . وعلى هذا فقد كتب البابا إلى الإمبراطور فى ٩ يوليو ١٠٧٣ يدعوه إلى بذل قصارى الجهد لتوحيد الكنائس كما كانت الحال فى القديم[٢٢] . وبعد ذلك أرسل البابا كتاباً دورياً موجهاً إلى « سائر المسيحيين » فى غرب أوروبا يدعوهم للتطوع فى حملة لمساعدة أهالى القسطنطينية « ضد هجمات العدو المتبربر ومن سيوف الغزاة القساة »[٢٣] . وفى نفس العام أرسل البابا خطاباً ثانياً يحث فيه أهالى الغرب اللاتينى « للهجوم على الشرق وإنقاذ إخوانهم المسيحيين الذين يهددهم العدو » . غير أنه هذه المرة أعلن أنه سيقوم ذاته بقيادة الحملة « لينقذ المسيحيين » فى الشرق[٢٤] . وكان البابا يهدف من وراء قيادة الحملة بنفسه إلى أن

---

(١٩) A. Buchon, Nouvelles Recherches Historiques Sur la Principauté Française de Morée, 2 Vols., Paris, 1843 - 44, Vol. II, p. 360.

(٢٠) J. Zonaras, Annalium, XVIII, ix p. 254.

(٢١) L. Duchesne, Liber Pontificalis, Vol. I, cols. 74 - 75.

(٢٢) Ibid., P.L., Vol. CLXXXVIII, col. 519.

(٢٣) Ibid., col. 100.

(٢٤) Ibid., col 153.

يعقد مجلساً كنسياً فى مدينة القسطنطينية يقرر فيه إعادة « الكنيسة الضالة » إلى رحاب القديس بطرس الرسول .

غير أن انقلاباً سياسياً حدث فى بيزنطة فى عام ١٠٧٨ ، وخلع ميخائيل السابع وحل نقفور الثالث بوتانياتس مكانه على العرش . وأمام هذا أصدر البابا جريجورى السابع قراراً بالحرمان ضد بوتانياتس هذا فى نوفمبر ١٠٧٩ (٢٥) . وزيادة على ذلك طلب البابا من روبرت جويسكارد الزعيم النورماندى ، الذى كان يعد حملته للهجوم على بيزنطة ، أن يعمل على إعادة ميخائيل السابع إلى العرش . وجدير بالاهتمام هنا أن نلاحظ أنه فى ١٩ يونيو ١٠٨٠ عقد تحالف وثيق بين البابا وبين جويسكارد ، وأقسم الأخير يمين الولاء لكنيسة روما وللكرسى الرسولى « وأيضاً لك يا سيدى جريجورى البابا المسكونى » ، (٢٦) كما تعهد الأمير النورماندى أن يدفع قيمة مالية سنوية للكرسى البابوى عن الأراضى التى يملكها والتى سوف يملكها مستقبلا بصفته « رجل القديس بطرس » . ويعنى هذا أن جويسكارد أصبح فصلا للبابا وفق التقاليد الإقطاعية . وفى مقابل ذلك أقطع البابا فصله هذا بالأراضى التى قد آلت إليه فى عهد البابوين السابقين نيقولا الثانى وإسكندر الثانى ؛ كما بارك مهمة جويسكارد فى العمل من أجل شرف عرش القديس بطرس الرسول (٢٧) .

فى هذه الآونة ظهر بيزنطى يدعى ركتور فى مدينة سالرنو ، وقدم نفسه على أنه الإمبراطور المخلوع ميخائيل السابع ، زاعماً بأنه قد هرب من سجنه فى دير ستوديون (٢٨) . وقد توهم جويسكارد أن وجود هذا الرجل معه سوف يسهل له مهمة غزو بيزنطة ، ظناً منه أن أتباع ميخائيل السابع

---

(٢٥) Mansi, Vol. XX, p. 808.

(٢٦) P. Jaffé, Monumenta Gregoriana, p. 126.

(٢٧) Ibid., P. 427.

(٢٨) Anka Comnena, Alexiad, I, xii, 1 , p. 44.

سوف يهبون لمناصرته على المغتصب بوتانياتس . ولما علم البابا جريجورى السابع بوصول ميخائيل السابع «المزعوم» ، كتب فى ٢٥ يوليو ١٠٨٠ إلى أساقفة أبوليا وكلابريا يحثهم على تأييد حملة جويسكارد ضد القسطنطينية ، كما خولهم الحق فى منح الغفران لكافة الجند الذين يشاركون فى هذه الحملة . وأكد البابا للأساقفة أن انتصار جويسكارد على بيزنطة هو أيضاً انتصار لكنيسة روما . وعلى هذا يمكن القول بأن هذه الحملة اتخذت طابع الحرب المقدسة (٢٩) .

غير أن انقلاباً حدث فى القسطنطينية فى عام ١٠٨١ وتمكن الكسيوس كومنين ، بمعونة البطريرك كوزماس وبتأييد عائلة دوكاس، من أن يصل إلى عرش الإمبراطورية (٣٠) . فما كان من البابا جريجورى السابع إلا أنه سارع فأصدر قراراً بالحرمان ضد الكسيوس كومنين (٣١) .

لم يكن الإمبراطور الجديد قد اتخذ الاحتياطات الكافية لمجابهة العدوان النورماندى ، ولذا فقد لجأ إلى سلاح الدبلوماسية للمناورة ضد جويسكارد وسيده البابا جريجورى السابع . كان الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع فى ذلك الوقت قد فاق من هزائمه المتكررة ومن الإذلال الذى ألحقه به البابا جريجورى السابع عند قلعة كانوسا ، وفى ١٠٨١ قاد هنرى حملة وهجم على إيطاليا ؛ وفى مايو من نفس العام وصل إلى مدينة روما . لم يكن هنرى على وفاق مع روبرت جويسكارد ، كما أنه أراد أن يحطم التحالف الذى تم بينه وبين عدوه اللدود جريجورى السابع . غير أن هنرى كان يعانى من ضائقة مالية ؛ وكان الكسيوس كومنين يعلم بذلك . ولهذا فقد أرسل الإمبراطور البيزنطى سفارة لتقابل هنرى الرابع فى إيطاليا لفتح باب المفاوضات معه . واستجاب هنرى لموقف الكسيوس فأرسل بعثة يرأسها

(٢٩) P. Jaffé, op. cit., p. 435.

(٣٠) Alexiad, II, xii, 6, pp. 100 - 101.

(٣١) Mansi, Vol. XX, col. 508.

الكونت بيركهارد إلى القسطنطينية ، حيث اتفق الطرفان على عقد محالفة ثنائية ضد النورمان والبابا ، وأوفد الكسيوس من أجل هذا سفارة جديدة يرأسها قسطنطين كيوروسفاكتيس إلى هنرى الرابع (٣٢) .

ويبدو أن تلك السفارة قد وصلت إلى إيطاليا بينما كان هنرى يحاصر مدينة روما (يونيو ١٠٨١) . هذا وتطالعنا الأميرة المؤرخة آنا كومنينا بتفاصيل عن الهدايا التى حملها سفراء والدها إلى الإمبراطور الألمانى : ١٤٤,٠٠٠ قطعة ذهب ؛ ١٠٠ قطعة من الحرائر ؛ كما وعد الكسيوس أن يدفع لهنرى الرابع ٢١٦,٠٠٠ قطعة ذهب أخرى بعد قيامه بحملة ضد النورمان فى أبوليا . كذلك فوض الكسيوس سفراءه فى مناقشة عرض زواج بين العائلتين الإمبراطوريتين (٣٣) .

كان موقف الكسيوس كومنين هذا رد فعل طبيعى لمواجهة العدوان البابوى — النورماندى . وأهم من ذلك أن السلطات البيزنطية قد أمرت بغلق جميع الكنائس اللاتينية فى القسطنطينية .

وفى نفس الوقت أخذ الإمبراطور البيزنطى يتقرب إلى جمهورية البندقية التى رأت فى هجوم النورمان على شواطئ الليريا ودورازو تهديداً مباشراً لمصالحها فى الإدرياتيك . وعرض الكسيوس على دوج البندقية امتيازات تجارية هائلة فى الإمبراطورية مقابل تأييد أسطوله لبيزنطة فى صراعها ضد جويسكارد (٣٤) .

كان جويسكارد قد أرسل ابنه بوهمند على رأس بضع كتائب ليحتل آفلونا وكانينا وهايريكو . وفى مايو ١٠٨١ لحق جويسكارد بابنه فى آفلونا ، وتقدما منها للزحف على جزيرة كورفو . وتم استيلاء النورمان على كورفو ، وتقدموا منها صوب دورازو ، عاصمة إقليم الليريا . والتى

---

(٣٢) Alexiad, III, x, 2 - 6, pp. 133 - 35.

(٣٣) Ibid.

(٣٤) Ibid., IV, ii, 2, p. 146.

كانت بمثابة المفتاح الرئيسى صوب الغرب فى نظر البيزنطيين . بدأت الحرب بين الطرفين أمام دورازو فى ١٨ أكتوبر ١٠٨٢ ، وألحق النورمان هزيمة ساحقة بجيوش بيزنطة ، وسقط خيرة الضباط من حول الكسيوس كومنين (٣٥) .

هرب الكسيوس إلى مدينة سالونكا . وأرسل من هناك إلى شقيقه إسحق وإلى أمه وزوجته يطلب النجدة والمعونة المالية . فجمعت الأم والزوجة كل ما كانتا تملكان من ثروة فأرسلتاها إلى دار السك الإمبراطورية « آملتين بهذا أن تكونا مثلا يحتذى لدى خيرة القوم » (٣٦) . أما السيباستوكراتور إسحق فقد دعا مجلس القسطنطينية الكنسى للاجتماع ، وأوضح لأئمة الكنيسة هناك أن قانون الكنيسة يبيح تحويل كنوز الكنائس الذهبية والفضية وأيقوناتها إلى عملات بغية استخدامها لسلام وأمن الإمبراطورية ولفدية الأسرى من المحاربين ، ودارت فى المجلس مناقشات حادة ، وفى نهاية الأمر تمكن إسحق كومنين من استمالة البطريرك يوستراتوس (١٠٨١ — ١٠٨٤) ورفاقه ، فوافق المجلس على إرسال خزائن الكنائس إلى دار السك الإمبراطورى (٣٧) .

استطاع الكسيوس بهذا المال الوافد من العاصمة أن يستخدم عدداً وافراً من الجند من منطقة سالونكا ، غير أن حلول فصل الشتاء حال دون استمرار القتال بين الطرفين . وفى خلال ذلك أرسل الإمبراطور سفارة إلى هنرى الرابع لترجوه بأن يقود حملة ضد أبوليا ليجبر جويسكارد على سحب بعض من جنوده إلى الجبهة الجديدة فى الجنوب الإيطالى (٣٨) .

تجدد القتال بين الطرفين فى شتاء ١٠٨٢ . وفى ٢١ فبراير سقطت دورازو فى يد النورمان ، وصار الطريق إلى القسطنطينية مفتوحاً أمام القاهر النورماندى (٣٩) .

---

(٣٥) Ibid, IV, iv, 7, p. 161.

(٣٦) Ibid., IV, viii, 1, p. 10.

(٣٧) Ibid, V,ii,3, P. 11. V. Grumel, La Patriarcat Byzantin, II, p. 33.

(٣٨) Ibid., V, iii, 1, p.p. 13 - 14.

(٣٩) Geoffroi Malaterra, Historia Sicula, in Muratori, R.I. SS., vol. V, p. 241.,

(٤٠) Alexiad, V, i., 2, p. 7.

باتت الإمبراطورية البيزنطية عاجزة تماماً تحت وطأة الغزو النورمانى ، وأصيب الجند والعامة برعب شديد . وبانهيار الروح المعنوية على هذه الشاكلة بدأ الكثير من الضباط االبيزنطيين فى الهروب من معسكرهم والانضمام إلى جويسكارد (٤٠) .

وفى تلك اللحظة الحرجة أتت دبلوماسية الكسيوس كومنين أكلها ؛ فقد تواترت الأنباء من إيطاليا عن قيام تمرد فى مملكة جويسكارد ، كما أن هنرى الرابع كان قد بدأ فى حصار البابا جريجورى السابع داخل مدينة روما . تلقى جويسكارد رسالة عاجلة من البابا المحاصر يذكره فيها بأن ماحققه من انتصارات إنما كان من حصاد نعم القديس بطرس وكنيسة روما عليه ؛ ورجاه أن يسرع لينقذه من أيدى « الطاغية » هنرى الرابع (٤١) .

وتقول بعض المصادر المعاصرة بأن جريجورى السابع عرض التاج الإمبراطورى الرومانى على حليفه جويسكارد فى تلك اللحظة الحاسمة من الصراع بين البابوية والإمبراطور الجرمانى (٤٢) .

ترك جويسكارد ابنه بوهمند على رأس جيشه وأسرع عائداً إلى إيطاليا فى أبريل ١٠٨٢ ليخمد ثورة المتمردين ولينقذ البابا من أيدى هنرى الرابع . وبعد رحيل جويسكارد هاجم بوهمند جيوش الكسيوس وهزمها مرتين فى يوانينا وارتا (٤٣) . غير أن الكسيوس لجأ إلى حيلة بارعة إذ ألبس أحد قواده الزى الإمبراطورى وسيره على رأس جيش كبير قبالة معسكر بوهمند ، بينما تنكر الإمبراطور فى زى جندى عادى وتسلل مع فريق من أعوانه من الوجهة الخلفية لمعسكر النورمان . تقدم بوهمند ورجاله نحو الجيش الإمبراطورى ، الذى أخذ يتقهقر إلى الوراء عن عمد ، وعندما بعد بوهمند

---

(٤٠) Alexiad, V, i, 4, p. 9; V. iv, I, p. 17.

(٤١) P. Jaffé, op. cit., 5225.

(٤٢) William of Apulia, Gesta Roberti Wiscardi, in M.G.H.SS., Vol. IX, I, IV, 31 - 32, p. 280.

(٤٣) Alexiad, V. iv, 4, p. 19; Malaterra, III, 39.

ورجاله عن معسكرهم مسافة كافية ، انقض الكسيوس وأتباعه على معسكر النورمان فى لاريسا واستولوا على كل من مؤنهم وعتادهم الحربى ؛ وبهذا انقلب ميزان القوى واضطر بوهمند — لنقص عتاده — إلى أن يتقهقر إلى مدينة كاستوريا (٤٤). وجد بوهمند نفسه فى موقف حرج للغاية ، فإلى جانب نقص المؤن فى معسكره لم يجد مالا كافياً لدفع رواتب الجند ومؤخراتهم . ولما بدأ الجند فى التذمر اندس بينهم عملاء الكسيوس كومنين يشجعونهم على الثورة ويعرضون عليهم العطايا والمنح الوفيرة . وهنا اضطر بوهمند لأن يعود إلى إيطاليا ليحصل على المال ، تاركاً اثنين من رجاله لقيادة الحملة : برين من كستوريا ؛ وبطرس من بولوبس (٤٥) . هجم الكسيوس على كاستوريا واستولى عليها بمعونة بعض الخونة من جند النورمان ، وعليه فقد قرر برين العودة إلى إيطاليا بعد أن أقسم أمام الكسيوس ألا يحمل سلاحاً ضده فى المستقبل (٤٦). وفى صيف ١٠٨٣ هجم الأسطولان البيزنطى والبندقى على مدينة دورازو وتم الاستيلاء عليها من يد النورمان .

غير أن روبرت جويسكارد كان لايعرف معنى الهزيمة . وقد بلغت سطوته من المكانة إلى حد أن مجرد ظهوره فى جنوبى إيطاليا أخرس كل المتمردين . وبعدها زحف شمالا لينقذ البابا جريجورى السابع من أنياب الإمبراطور الجرمانى . هجم جويسكارد على روما وأعمل رجاله سيوفهم فى رقاب أهلها الذين انضموا إلى هنرى الرابع ، كما أشعل النار فى كثير من أحيائها فحولها إلى كومات من الرماد . ثم انقض على كتائب هنرى الرابع وأجبرها على التقهقر . ولما رأى هنرى أنه لن يقوى على محاربة جويسكارد آثر الانسحاب من روما وأسرع عائداً إلى ألمانيا (٤٧) .

جن جنون جويسكارد — الذى أذل إمبراطور الغرب — حين علم بفشل

(٤٤) Alexiad, V, v, 7, p. 26; V, vi, 1, p. 28.

(٤٥) Ibid., V, vii, 5, p. 32.

(٤٦) Ibid., VI, i, 4, p. 43.

(٤٧) Bernold, Chronicon, ad. an. 1084, in M.G. H. SS., Vol. V, p. 441.

ابنه بوهمند فى حربه ضد إمبراطور الشرق . وفى أكتوبر ١٠٨٤ أبحر الزعيم النورماندى ومعه أبناؤه الأربعة (بوهمند وروجر وروبرت وجاى) فى أسطول قوامه ١٥٠ سفينة حربية للقضاء على بيزنطة . وبينما كان الأسطول النورمانى راسياً فى ميناء كاسيوبى (فى جزيرة كورفو) ، هجمت عليه سفن البندقية وأغرقت عدداً كبيراً من قطعه(٤٨) . غير أن جويسكارد لم يستسلم للهزيمة: إذ نجده هو وأولاده الأربعة كل على رأس خمس سفن حربية — وهى مجموع ما تبقى لديهم من أسطولهم الكبير— يقومون بجهد خارق؛ إذ هجموا فى عناد على أسطول البندقية وألحقوا به هزيمة نكراء . وهكذا سقطت جزيرة كورفو من جديد فى يد الزعيم النورماندى(٤٩) . وبات مصير بيزنطة مهدداً مرة أخرى . غير أن القدر لعب دوره فى هذه اللحظة الحاسمة؛ إذ انتشر وباء الطاعون فى معسكر النورمان ، وهلك كثير من الجند والقادة . ومرض بوهمند مرضاً شديداً ، فنقل إلى إيطاليا للعلاج . أما جويسكارد فقد أصيب بالمرض عند مدينة آثر ومات فى ١٧ يوليو ١٠٨٥ بين يدى زوجته سجلجيتا والدة روجر(٥٠) .

يقص أحد كاتبى الحوليات فى القرن الثانى عشر أن جويسكارد كان يخطط لتتويج ابنه بوهمند إمبراطوراً على بيزنطة ، وبأنه هو نفسه كان يطمع فى تكوين إمبراطورية شاسعة فى الشرق الإسلامى(٥١) .

اختفى بموت جويسكارد شبح رهيب أقض مضاجع السلطات البيزنطية فيما بين ١٠٨١ ، ١٠٨٥ . وانشغل أبناء الزعيم الراحل فى تقسيم أملاكه

---

(٤٨) Alexiad, VI, v, 5, p. 52.

(٤٩) Lupus Protospatarius, 'Chronicon'in M.G.H.SS., Vol. V, p. 61; Alexiad, VI, v, 7, p. 53.

(٥٠) William of Apulia, pp. 296 - 97; Anonymi Barensis Chronicon, in Muratori, R. I. SS., Vol. v, p. 154; Alexiad, VI, vi, 3, p. 56; William of Malmesbury, De Gestis Regum Anglorum (ed. W. Stubbs), London, 1887 - 89 II, pp. 321 - 22.

(٥١) Richardus Pictavensis, Chronica, in M.G.H.SS., Vol. XXVI, p. 79.

وفى النزاع حول الحكم ؛ واندلعت بذلك حرب أهلية فى جنوبى إيطاليا . ولهذا تأجل ، إلى حين ، مشروع غزو القسطنطينية . غير أن جويسكارد هو الذى لفت أنظار أبناءه إلى الشرق الدافئ . الملىء بالكنوز والمغامرة والسلطان . وما من شك فى أن الغزو النورماندى للأراضى البيزنطية ، بتأييد من البابوية ، قد هدد بانهيار كيان بيزنطة ، مما ترك مرارة قاسية فى نفوس البيزنطيين وضاعف من كراهيتهم للاتين وللغرب اللاتينى . وكانت تلك الأحداث أيضاً برهاناً جديداً على عداوة كنسية روما للإمبراطورية البيزنطية ، كما أنها هى التى أوحت إلى آنا كومنينا لتمسك ببراعها وتخط صورة كريهة للبابا جريجورى السابع ولمزاعمه (٥٢) .

وما إن فاقت الإمبراطورية من كابوس جويسكارد حتى ابتليت بغزو عنصر متبربر آخر من قبائل البشنق (Petchenegs) فيما بين ١٠٨٦ ، ١٠٩١ . والبشنق من أصل تركى ، وقد تمكنوا من غزو المنطقة الواقعة بين البلقان والدانوب . وفى عام ١٠٩٠ عقدوا حلفاً مع السلاجقة الأتراك فى آسيا الصغرى ضد بيزنطة (٥٣) . وفى أثناء تلك الفترة الرهيبة من تاريخ بيزنطة التقى الكسيوس كومنين بالكونت روبرت الأول من فلاندرز ، الذى كان عائداً إلى غرب أوربا من الأرض المقدسة فى الشام عند مدينة بيرويا فى عام ١٠٨٧ . وتزعم آنا كومنينا أن الكونت أقسم يمين الولاء والطاعة لوالدها الإمبراطور . ولئن كان هذا القول مبالغاً فيه ، إلا أن هناك حقيقة ثابتة وهى أن روبرت الأول وعد بإرسال خمسمائة فارس لمساعدة الإمبراطور ضد أعداءه (٥٤) .

والواقع أن الكسيوس كومنين كان قد هزم عدة مرات على يد قبائل البشنق وهلك أثناء هذا الصراع المرير خيرة رجاله المحاربين . ولما تحققت

---

(٥٢) Alexiaid, I, x, 12, PP. 50 - 51.

(٥٣) Alexiad, VIII, iii, 5, p. 153. See V. Vasilievsky, Byzantium and the Petchenegs, in the Journal of the Russian Ministry of Public Instruction, Vol. CLXIV (1872), pp. 279 seq.

(٥٤) Alexiad, VIII, vi, 1, p. 105.

السلطات الإمبراطورية من أن هؤلاء البرابرة يخططون لمهاجمة العاصمة ذاتها ، فقد لجأت إلى الغرب اللاتيني بقصد الاستعانة بجند مرتزقة للخدمة فى جيوشها ، خاصة من مناطق إيطاليا . وكان الكسيوس يعلم تماماً أن السلطة الوحيدة التى يمكنها أن تعاونه فى هذا الأمر هى كنيسة روما . وهذا هو التفسير الوحيد للتغير الذى طرأ فى العلاقات بين بيزنطة والبابوية فى ذلك الحين . وكانت الظروف فى روما مواتية لهذا التقارب .

ففى عام ١٠٨٨ انتخب الأسقف أودو من لاجيرى بابا باسم أوربان الثانى . وكان هذا دبلوماسياً حصيفاً ، وكان من رأيه أن المسألة البيزنطية قد عولجت فى شىء من الخطأ[٥٥] . كان موقف البابا الجديد مشجعاً لألكسيوس لأن يفتح باب المفاوضات معه من أجل طلب جند مرتزقة . وفى مقابل ذلك أبدى استعداداً لمناقشة موضوع وحدة الكنائس ؛ ولهذا فقد ضغط على بطريرك القسطنطينية نيقولا جراماتيكوس (١٠٨٤ – ١١١١) وطلب منه الكتابة إلى البابا الجديد فى روح من المودة . وكان البطريرك مدركاً للمخاطر التى تتهدد الإمبراطورية على حدودها ، ولذا كتب إلى بازل الأسقف البيزنطى فى كلابريا يطلب منه التوجه إلى المقر البابوى وفتح باب المفاوضات فى موضوع وحدة الكنائس . كذلك أرسل البطريرك رسالة بنفس المعنى إلى رومانوس الأسقف البيزنطى فى روزيانا[٥٦].

استجاب أوربان الثانى لهذه المبادأة من جانب الكسيوس كومنين ، نعقد مجلساً فى مالى فى عام ١٠٨٩ ؛ وفيه رفع قرار الحرمان (الذى أصدره جريجورى السابع) عن الإمبراطور البيزنطى . ثم أرسل الكاردينال رينيه ونيقولا مقدم ديرجروتافراتا الإغريقو – إيطالى بخطاب العفو إلى القسطنطينية وليطلب من الكسيوس إعادة فتح الكنائس اللاتينية المغلقة فى العاصمة ، والسماح لها بممارسة شعائرها الغربية .

---

(٥٥) S. Runciman, The Eastern Schism, p. 61.

(٥٦) V. Grumel, op. cit., II, pp. 45 - 46.

لى الكسيوس مطلب البابا فأعاد فتح الكنائس اللاتينية وفى سبتمبر ١٠٨٩ جمع مجلساً فى القسطنطينية لمناقشة موضوع وحدة الكنائس مع البطريرك والمسئولين عن الكنيسة البيزنطية . وكان من بين الحاضرين بطريرك أنطاكية وثمانية عشرة من رؤساء الأساقفة وعدد آخر من كبار رجال الدين، وترأس الكسيوس جلسات المجلس . ثم طرح الموضوع للمناقشة .

كان البابا أوربان الثانى قد طلب إدراج اسمه فى كنيسة بيزنطة ، محتجاً بأن حذف اسم البابوات من الـ « أنافورا » قد تم دون موافقة المجالس الكنسية . ولذا فقد تساءل الكسيوس أمام المجلس المنعقد عما إذا كانت هناك وثائق فى كنيسة بيزنطة تشير إلى انفصال كنيسة روما عن كنيسة القسطنطينية ، وإذا كان هناك مايدل على ذلك ، فهل هذا سبب عدم إدراج أسماء البابوات . ورد رجال الدين الحاضرون بأن ليس هناك وثائق بهذا المعنى صراحة ، وإنما هنالك مسائل تتصل بقوانين الكنيسة ويجب الفصل فيها قبل كل شىء . وهنا اقترح الإمبراطور إدراج اسم أوربان الثانى على أن تؤجل مناقشة المسائل المختلف عليها بين الكنيستين بعض الحين . وفى تلك المرحلة من المناقشة حاول بعض رجال الدين طرح موضوع « الانحرافات » فى العقيدة اللاتينية للمناقشة ثم الإدانة . غير أن الكسيوس رفض ذلك، واقترح على المؤتمرين إتخاذ القرار التالى : يطلب من البابا أن يرسل إلى كنيسة بيزنطة « إعلان إيمانه » (سوستاتيكى) وإذا جاء هذا الإعلان متوافقاً مع العقيدة القويمة ، وإذ اما اعترف بالمجالس المسكونية ، وإذا ما أدان الانحرافات والهرطقات التى تصدى لها آباء الكنيسة الأولى ، فإن اسمه يجب أن يدرج فى الـ « أنافورا » تمشياً مع قانون « المحبة الأخوية » . أما المسائل المتنازع عليها فإنها تترك لحين مناقشتها فى حضور البابا أو مندوبيه فى مهلة لاتتجاوز ١٨ شهراً من تاريخ إدراج اسم البابا . كذلك وجب على بطريركى الإسكندرية وأورشليم قبول هذا القرار (٥٧) .

---

(٥٧) V. Grumel, op. cit., p. 48.

كذلك أصر الكسيوس على أن يكتب البطريرك جراماتيكرس إلى البابا أوربان الثانى . وعليه فقد كتب البطريرك إلى البابا فى سبتمبر ١٠٨٩ يعلمه بوصول رسالته وباغتباطه بحلولها . على أنه أشار إلى جهود بعض الأفراد الذين وشوا به فى المقام البابوى وصوروه لديه على أنه كاره للكنيسة اللاتينية وعقيدتها وطقوسها . وراح البطريرك يؤكد أنه طالما سمحت روما للكنائس البيزنطية فى إيطاليا بممارسة شعائرها الدينية فى حرية تامة ، فإنه لن يتعرض للكنائس اللاتينية فى بيزنطة ، لأنه من جانبه « يسعى نحو السلام من عمق القلب ، ولوكان الوئام بين الكنيستين يتطلب روحه لبذلها راضياً » . ثم أوضح جرماتيكوس للبابا أنه كان يحسن به أن يرسل خطاباً له عند توليه عرش البابوية ومعه إعلان إيمانه — كما جرت العادة — « حتى يتم الاتحاد بالروح بين الذين انفصلوا فى الجسد » . واختتم الكاتب رسالته بأنه موفد إلى المقام البابوى بازل من ترانى ورومانوس من روزانو : الأول للنظر فى إعادته إلى إبروشيته الشرعية : والثانى للتظلم من مسلك بعض اللاتين فى دائرة أسقفيته(٥٨) .

والواقع أن الفقرة الأخيرة فى هذه الرسالة لها أهمية بالغة ؛ لأن بازل ورومانوس كانا قد أبلغا جرماتيكوس بتعسف السياسة التى اتخذها أوربان الثانى نحو الكنائس البيزنطية فى إيطاليا ، وبإصراره على الاستيلاء على إقليم تسالونيكا وضمه لبطريركية روما . وكان هذان الأسقفان يتمنيان علانية أن يؤيد الكسيوس كومنين البابا المنافس لأوربان وهو جيبرت . ولكن الكسيوس كان قد أدرك بثاقب بصره أن جيبرت يمثل الجواد الخاسر ، فألقى بثقله على حزب أوربان الثانى . كما أن جيبرت كان قد أغضب رجال الدين البيزنطيين فى إيطاليا عندما أعلن فى مجلس عقده فى روما بأن زواج القسيسين خطيئة كبرى(٥٩) .

---

(٥٨) V. Grumel, op. cit., p. 49.

(٥٩) P. Jaffé, Regesta, I, p. 652.

ولكى نتفهم موقف رجال الدين فى بيزنطة تجاه أوربان الثانى يجب إلقاء الضوء على رسالة كتبها البطريرك جراماتيكوس إلى سمعان بطريرك أورشليم فى عام ١٠٨٩ ، وفيها حديث عن كنيسة روما . تناول الكاتب العبارة المضافة إلى قانون الإيمان فى الغرب (الروح القدس المنبثق من الإبن أيضاً) واستخدام خبز غير مختمر فى شركة التناول ، وادعاءات البابوية فى الإمارة على الكنسية بالهجوم الشديد . ثم راح يحث سمعان على محاربة هذه الإنحرافات وفقاً لما يصدره إليه بصفته البطريرك الإمبراطورى « المسكونى » (٦٠)

هذا وهناك وثيقة أخرى اكتشفها العالم بافلوف وهى رسالة موجهة من أحد بطارقة بيزنطة إلى بطريرك أورشليم ، ولكنها لاتحمل تاريخاً ولا توقيعاً . وكل ما قاله بافلوف عنها هى أنها وثيقة هامة صادرة من القسطنطينية وموجهة إلى أورشليم ، وفيها هجوم شديد على انحرافات عقيدة اللاتين ، وطقوسهم ، وعلى مزاعم البابوية فى الإمارة على كنائس العالم أجمع (٦١) .

على أن الأبحاث التى قام بها المؤرخ ف . جروميل قد أوضحت بأن هذه الرسالة صدرت عن البطريرك نيقولاس جراماتيكوس إلى سمعان بطريرك أورشليم . ولعل أهم ما ورد فى هذه الرسالة الفقرة التالية :

« حقيقة أنه فى قديم الزمن كان ينظر إلى البابا على أنه « أول » إخوته البطارقة الآخرين ، وذلك عندما كان يؤمن بنفس العقيدة القويمة . ولكنه الآن وقد احتضن عقيدة « غريبة » عن عقيدتنا ، فكيف السبيل للاعتراف به « أولا » علينا ؟ إن « الرأس » مطالب بتمثيل الإيمان القويم ؛ لا العنف والطغيان » (٦٢) .

---

(٦٠) V. Grnmel, op. cit., p. 50.

(٦١) A. Pavlov, Kiticheskie opty po istorii drevnejchej greko-russkoj protiv latinjam, Saint - Petersbourg, 1878, pp. 45, 158 - 169.

(٦٢) V. Grumel, Jerusalem entre Rome et Byzance, une lettre inconnue du Patriarche de Constantinople Nicholas III à son collègue de Jerusalem (vers 1089), in Echos d'Orinet, XXXVIII, (1939), pp. 104 - 117.

ثم يمضى الكاتب ليؤكد بأن الكنيسة الشرقية لاتقر استخدام الخبز الغير مختمر فى شركة التناول ، وبأنها لن تغض النظر عن بدعة « انبثاق الروح القدس من الابن » . وفى نهاية الرسالة نجد جراماتيكوس يهيب بسمعان لأن يقف موقف حزم للدفاع عن الأرثوذكسية حتى ولو كلفه هذا بذل النفس ، كى يتميز الأخيار عن «هؤلاء الذين أعماهم زخرف الدنيا ومتاع هذا العالم فألقوا بأرواحهم فى فلك الضلال ، مسلمين أنفسهم بهذا إلى إبليس »(٦٣) .

وهنالك أيضاً فى هذه الرسالة مايوحى بأن بطريرك أورشليم كان قد أبدى شيئاً من الحيرة تجاه بعض المسائل الخاصة بالطقوس اللاتينية ، فأرسل إلى بطريرك القسطنطينية يطلب النصح فى هذا الأمر . وواقع الأمر أن بطريركية أورشليم أبدت شيئاً من التسامح فيما يتصل بالخبز المستخدم فى شركة التناول ، وذلك لأن بيت المقدس كان يستقبل على الدوام أفواجاً من الحجاج اللاتين الذين يستخدمون الخبز الغير مختمر فى التناول . وهذا الموقف كان قد أغضب ميخائيل كريولاريوس من قبل فى عام ١٠٥٤ ، ثم جاء جراماتيكوس ليعبر أيضاً عن عدم رضاءه عن هذا التسامح مع اللاتين من جانب أورشليم .

أما النقطة التى أثارها جراماتيكوس فى الحديث عن « طغيان » أوربان الثانى ، فلها مايبررها من وجهة نظره . ذلك لأنه كان قد تلقى رسالة من بازل الأسقف البيزنطى فى ريجيو بإيطاليا يشكو فيها من أنه رغم تعيينه أسقفاً على أبروشيته منذ إحدى عشر عاماً على يد بطريرك بيزنطة ، إلا أن أوربان الثانى قد أمره بالخضوع للبابوية إن أراد الاحتفاظ بمنصبه ، وعندما رفض هذا المطلب خلعه البابا وعين مكانه أسقفاً من الفرنجة . كذلك فرض أوربان الثانى نفس الشروط على أسقفيتى سنت سيفيران وروزيانو اللتين كانتا تحت حكم بطريركية القسطنطينية .

---

(٦٣) Ibid.

وهكذا فإن الاعتقاد السائد بين المؤرخين بأن أوربان الثانى كان متسامحاً مع كنيسة بيزنطة ، اعتقاد خاطئ ويجب تصحيحه . ذلك لأن أوربان كان أول البابوات الذين تعسفوا – كما سبق أن بينا – مع رجال الدين البيزنطيين فى جنوب إيطاليا ، كما أنه كان من أنصار إجبار اليونانيين على اتباع الطقوس اللاتينية فى كنائسهم . ومن هنا جاءت غضبة البطريرك نيقولاس الثالث جراماتيكوس . فكتب إلى سمعان من بطريرك أورشليم يطلب منه المساندة والمؤازرة دفاعاً عن الأرثوذكسية . ولم يكن غريباً بعد هذا أن أمسك سمعان بقلمه وكتب مقالة هاجم فيها اللاتين لاستخدامهم الخبز الغير مختمر فى شركة التناول .

تشير الوثائق السابقة الذكر إلى عدة حقائق بالغة الأهمية نوجزها فيما يلى : أولا : كان الدافع الأساسى وراء التقارب الذى تم بين الكسيوس كومنين والبابا أوربان الثانى دافعاً سياسيا بحتاً ، أملته حاجة الإمبراطورية إلى جند مرتزقة من إيطاليا . ثانياً : لم تكن كنيسة بيزنطة تساند الإمبراطور فى مناقشاته الودية مع البابوية : ثالثاً : كان هناك تيار معاد لأوربان الثانى فى المجلس الذى عقده الكسيوس كومنين لبحث موضوع وحدة الكنائس وتجلى بوجه خاص فى إصرار بعض رجال الدين على مناقشة وإدانة الانحرافات العقائدية والطقوسية لدى اللاتين . رابعاً : أن مراسلات جراماتيكوس إلى أوربان الثانى ، وإن بدت ودية فى ظاهرها ، إلا أنها تحمل عتاباً وتقريعاً لسياسة البابا تجاه الكنائس البيزنطية فى إيطاليا . خامساً : إن ما ورد فى خطاب جراماتيكوس إلى سمعان الأورشليمى تعبير صادق عن مشاعر كنيسته أيا صوفيا تجاه كنيسة روما .

غير أن الكسيوس كومنين كان فى حاجة ملحة إلى جند مرتزقة من غرب أوربا . ولاشك فى أنه قد أيقن وجود هوة سحيقة تفصل بين الكنيستين ، ولهذا فإنه قد أوصى إلى بعض المخلصين من أتباعه بأن يكتبوا فى موضوع وحدة الكنيسة وأن يقللوا من شأن الخلافات العقائدية والطقوسية القائمة بين

الطرفين . وخير من يمثل هذه الفئة ثيوفيلاكت رئيس أساقفة بلغاريا الذى كان مقرباً إلى بلاط آل كومنين .

كتب ثيوفيلاكت مقالا بعنوان « حديث عن أخطاء اللاتين » ووجهه إلى نيقولا أحد شمامسة كنيسة أيا صوفيا الذى أصبح فيما بعد أسقفاً فى مليسوثا . تناول الكاتب معاصريه بسخرية شديدة لأنهم إذا ما اختلفوا فى الجدل راحوا يستمطرون بعضهم البعض بالأنائيا وبوصمات الهرطقة . ويتباكى رئيس الأساقفة هنا على ضياع التسامح والمحبة اللتين هما ميزة الأرثوذكسية الحقيقية . ثم يعدد — فى سخرية بالغة — أخطاء اللاتين : من حلق الذقون إلى ارتداء الخواتم الذهبية والأردية الحريرية ؛ واستخدام الخبز الغير مختمر فى التناول ؛ وصيام أيام السبت ؛ وتبتل القسيسين ؛ وأكل المنخنقة . ويمضى الكاتب فيقول إن جل هذه الأمور اختلاف تافه ولايستحق حتى مجرد عناء البحث ، لأن الكنيسة لن تفيد كثيراً من محاولة تصحيحها . غير أن ثيوفيلاكت أوضح بأن الخلاف الوحيد الذى أخطأ فيه اللاتين هو إضافة لفظة « ومن الابن » عند الكلام عن انبثاق الروح القدس فى قانون الإيمان .

ويعلل الكاتب هذا الخطأ عند اللاتين بفقر وخشونة لغتهم اللاتينية . كما تصدى الكاتب للنظرية البطرسية فى هجوم شديد : « إن مثل هذا الكلام الذى نسمعه من البابوات على أنهم خلفاء بطرس الرسول وهم يشيحون فى وجوهنا بمفتاح الفردوس إهانة بالغة للرسول ذاته(٦٤) » .

من هذا يتضح أنه حتى بين القلة الراغبة فى التفاهم مع كنيسة روما ، لم يكن هنالك فرد واحد يقبل إضافة « ومن الابن » إلى قانون الإيمان أو يرتضى بالمزاعم البابوية والنظرية البطرسية . وأغلب الظن أن أوربان الثانى لم يجرؤ على إرسال « إعلان إيمانه » إلى بيزنطة لأن هذا كان سيتضمن بالطبع مسألة « ومن الابن » .

(٦٤) Theophylact of Ochrida, in P.G., Vol. CXXVI, cols. 224 - 41.

ومما يلفت النظر هنا أن أحد المقربين إلى أوربان الثانى وهو القديس أنسلم رئيس أساقفة كنتربرى كتب مقالا يعدد فيه أخطاء البيزنطيين فى العقيدة فهاجم استخدام كنيسة بيزنطة خبزاً مختمراً فى شركة التناول مستشهداً بنصوص من الإنجيل . ثم راح يتهم البيزنطيين بالانحراف العقيدى لأن إصرارهم على عدم انبثاق الروح القدس من الابن يجعل الابن فى مرتبة أقل من الأب مما يهدد ركناً أساسياً من أركان الإيمان فى الثالوث المقدس الواحد (٦٥) .

وعلى هذا فإن الشرق والغرب كانا على خلاف شديد فى أمور بالغة الخطورة .

وما من شك فى أن الكسيوس كومنين كان يدرك استحالة المصالحة بين الطرفين ، ولكن حاجته الملحة إلى جند مرتزقة من الغرب جعلته يتملق البابا أوربان الثانى ومن ثم أخذ ينشد له أغنية الوحدة الكنسية .

غير أن الموقف تغير تماماً فى عام ١٠٩١ ، ففى ٢٩ إبريل من هذا العام هجمت جيوش الكسيوس ومن ورائها حلفاء بيزنطة من قبائل بولوفتزيس على جماعات البشنق على ضفتى نهر ليبرنيون وعملت سيوف الحلفاء فى رقاب البشنق . ويقال إنه فى تلك المعركة الرهيبة ذبحت أمة عن بكرة أبيها ، إذ من بعدها لم تقم لجماعة البشنق قائمة بين سائر شعوب الأرض وبهذه القسوة الوحشية تخلص الكسيوس كومنين من البشنق بصفة قاطعة (٦٦) .

وفى عام ١٠٩٢ توفى السلطان السلجوقى ملك شاه . وبموته بدأت الحرب الأهلية فى إمبراطوريته ، وشهدت آسيا الصغرى طرفاً هاماً من هذا الصراع . وكانت هذه فرصة الكسيوس كومنين ليسترد الأراضى التى استولى عليها السلاجقة من قبل . وبالفعل تم له استرداد أبولونياد وسينريق . كما أن بعض الجند السلجوقيين عرضوا أنفسهم للخدمة فى جيش بيزنطة ، هروباً من الأمراء الذين دخلوا فى سلسلة من النزاعات

(٦٥) St. Anselm of Canterbury, 'De Sacramentorum Diversitate, ead Walcrannum Episcopum', in P.L., Vol. CLVIII, cols. 517 seq., Idem, 'Dogmatica, De Processione S. Spiritus'; ibid., cols. 291. seq.

(٦٦) Alexiad, VIII, v, 8, p. 143.

الشخصية العنيفة [٦٧] .

وبهذا يمكن القول أنه فى عام ١٠٩٢ لم يكن هنالك خطر ألبتة يهدد حدود بيزنطة من الشرق ولا من الغرب . حقيقة أن الأمير السلجوقى زاخاس صاحب سميرنا كان يغير بين الحين والآخر على أراضى بيزنطة ، ولكنه لم يكن يمثل خطراً حقيقياً على حدود الإمبراطورية الشرقية . وفى عام ١٠٩٤ كان الكسيوس كومنين يعد حملة للهجوم على الأمير زاخاس .

وهنا جاءته أنباء مزعجة من غرب أوربا : إن جحافلا من أهل الغرب اللاتينى كانوا فى طريقهم زاحفين نحو الشرق . لقد بدأت الحركة الصليبية .

(٦٧) Ibid., VI, xiii, 4, p. 81.

الفصل الرابع

بيزنطة والحركة الصليبية

بدأت الدراسة العلمية للحركة الصليبية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكان الألمان أول الرواد ممثلين فى فون سيبل[١] ، وكوجلر[٢] ، وهاجنمير[٣] ، وروهركت[٤] ، واردمان[٥] . وفى فرنسا ظهر الكونت ريان[٦] وزملاؤه فى الـ (Revue de l'Orient Latin) فى مجموعة الـ (Académie des Inscriptions et Belles Lettres)[٧] ؛ وشالاندون[٨] ، وبرييه[٩] ، وجروسيه[١٠] . وفى المدرستين الإنجليزية والأمريكية ظهرت كتابات ستيفنسون[١١] ، ومونرو[١٢] ، ورانسيمان[١٣] ؛ ثم مطبوعات ستون وبولدوين[١٤] التى ساهم فيها كتاب أجانب .

---

(١) H. Von Sybel, Geschichte des ersten Kreuzzuges, Leipzig, 1881.

(٢) B. Kügler, Geschichte der Kreuzzuge, Berlin, 1891.

(٣) H. Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren (1088 - 1100), Innsbruck, 1902.

(٤) R. Rohricht, Geschichte des ersten Kreuzzuges, Innsbruck, 1901.

(٥) C. Erdmann, Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens, Stuttgart, 1935.

(٦) P. Riant, Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades, Archives de l'Orient Latin, Vol. I, Paris, 1881.

(٧) Recueil des Historiens des Croisades, Paris, 1841 - 1905.

(٨) F. Chalandon, Histoire de la Première Croisade, Paris, 1925.

(٩) L. Bréhier, L'Eglise et l'Orient au Moyen Age : Les Croisades, Paris, 1928.

(١٠) R. Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, 3, Vols., Paris, 1934 - 36.

(١١) W. Stevenson, The crusaders in the East, Cambridge, 1907.

(١٢) D. Munro The Kingdom of the Crusaders, New York, 1936.

(١٣) S .Runciman, A. History of the Crusades, 3 Vols., Cambridge, 1951-54.

(١٤) K. Setton and Baldwin, A History of the Crusades, Philadelphia, 1955-62.

وقد اهتم اردمان بالصليبية على أنها حرب مقدسة وشاركه فى هذا الرأى بربيه . أما الكاتب كالمت فقد رأى فى حملات الحجاج المسلحة فى القرن الحادى عشر نوعا من الصليبيات (١٥) . ويعتقد الكاتب هاتم أن الصليبية من عمل وإعداد ديركلونى « العقل المدبر للحركة الصليبية (١٦) » ؛ فقد كان أوربان الثانى وباسكال الثانى ويوجين الثالث من أبناء ديركلونى . أما فليش ، وفيللى ، وجروسيه ، وشالاندون ، فقد نادوا بأن الصليبية من تدبير البابوية (١٧) .

ولقد اعتقد الكثيرون أن جهود الأسرة المقدونية (البيزنطية) فى استرداد آسيا الصغرى وسوريا ضرب من الصليبيات ؛ فظن رينيه جروسيه أن صيحة نقفور فوكاس وهو يخطب للجماهير فى الهپدروم « إن انتصارنا انتصار لله على أبناء هاجر » لاتختلف عن صيحة أوربان الثانى (Deus Vult) فى مؤتمر كليرمونت (١٠٩٥ (١٨)).

كذلك فسر البعض حرب الاسترداد فى إسبانيا على أنها حركة صليبية ، ورأوا فى شخص فردناند الأول ملك قشتالة (١٠٣٥ — ١٠٦٥) فارساً صليبياً .

وطبق هؤلاء نفس النظرية على الغزو النورماندى لجزيرة صقلية من أيدى العرب .

ويرى السير ستيفن رانسيمان فى الصليبية « أعنف المغامرات المسيحية وآخر غزوات المتبربرين ... حقيقة محورية فى تاريخ العصور الوسطى ... قصة الجدل للعالم أجمع (١٩) »

---

(١٥) J. Calmette, Le Monde Féodal; Vol. IV of the Collection Clio, Introduction aux Etudes Historiques, p. 382.

(١٦) A. Hatem, Les Poèmes Epiques des Croisades, Paris, 1932, p. 72.

(١٧) See Bibliography.

(١٨) R. Grousset, op. cit., pp. 10 - 11.

(١٩) S. Runciman, op. cit, Preface, p. XI.

وهكذا فإن الآراء والنظريات جد وفيرة عند الحديث عن الحركة الصليبية . غير أنه يتحتم علينا أن نحاول تحديد مفهوم الصليبية دون أن نتأثر بنظرية معينة وذلك حتى نخلص بأيديولوجية موضوعية لها :

الصليبية فى ظاهرها حملات حربية لها ميزتان تعارفت جماعة المؤرخين عليهما : غفران كنسى ، ثم شارة صليب قماشى أحمر يتزين بها المحاربون . ولا يمكن أن ننكر أن هذه الحركة قد ورثت بعض السمات عن الحروب المقدسة ، غير أنها كانت شيئاً جديداً تماما : فهى أول حركة جماعية لغرب أوربا اللاتينى تتسلح وتزحف نحو الشرق تحت إشراف وقيادة كنيسة روما . هذه الحركة لم تكن موجهة ضد الإسلام فحسب وإنما ضد مجتمعات مسيحية غير مرغوب فيها من وجهة النظر البابوية . وما إن قامت هذه الحركة إلى حيز الوجود الفعلى حتى حمل لواءها البارونات الإقطاعيون ، والفرسان المفلسون واليائسون من الدهماء — كل يبغى من وراءها قصداً ذاتياً . كما كانت البابوية تعقد آمالا عراضاً من وراء الصليبيات فى إرجاع الكنائس الشرقية إلى السلطان الرومانى ؛ فعندما أعلن أوربان الثانى بداية الحركة فى كليرمونت (١٠٩٥) ، بات مفهوماً لدى الجميع أن البابا قد اضطلع بمهمة حامى الكنيسة العالمية فى الغرب وفى الشرق ، وغدا خليفة القديس بطرس القائد الأعلى ، فتضاءل بذلك شأن الإمبراطور الجرمانى وكيان الإمبراطور البيزنطى .

هذا ولا يمكن أن توفى أيديولوجية الصليبية حقها دون أن تدرس عقلية الذين شاركوا فيها ومواقفهم واتجاهاتهم وثقافتهم والظروف التى دفعت بهم إلى الإنخراط فيها سواء كانوا من العلمانيين العوام أو الكهنوت أو الأمراء .

لماذا انضم الفرد العادى إلى الصليبية ، وماذا كانت فكرته عنها ، وهل

كان يعلم قبالتها ، وكيف سلك عندما جابه شعوباً لم يسمع عن وجودها من قبل ، وكيف كان رد فعله حينذاك ؟

إن كلمة « صليبية » ليس لها مرادف فى اللغة اللاتينية ، فنادراً ما نصادف فى الأصول لفظة Crucesignati ، إذ يشير إليها المعاصرون على أنها peregrinatio[٢٠] أو iter Hierosolimitanum[٢١] أو Via Sepulcri Domini[٢٢]. ومرد ذلك أن جل كتاب هذه الحوليات كانوا من رجال الكهنوت ، كما أنهم يستخدمون ما ألف من ألفاظ لدى جماعة حجاج القرن الحادى عشر فى الإشارة إلى الصليبيات . وإذا فحصنا العقود التى أمضاها هؤلاء الذين حملوا الصليب عشية قيام الحملات وجدنا ما ورد بها غاصاً بعبارات التوبة والتكفير عن الذنب . فالذى يقوم ببيع عقاره أو يعهد به إلى وصى لحظة رحيله إلى « أورشليم » يتصرف وينطق وكأنه واحد من الحجاج[٢٣] .

غير أن كتاب الحوليات يخلطون هذه العبارات الروحية بأخرى علمانية والعكس صحيح ، إذ نجدهم يقولون :

Via Dei, expeditio Dei; Sancta via; and iter sanctum.

ولكن هؤلاء « الحجاج » ما إن ارتطموا فى مسيرتهم بالعقبات الطبيعية أو البشرية

---

(٢٠) Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum (ed. L. Bréhier as Histoire Anonyme de la Première croisade), Paris, 1924, pp.20, 52.

(٢١) Baudri of Dol, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., Vol. IV, p. 730.

(٢٢) Guibert of Nogent : 'Gesta Dei per Francos,' in R.H.C.Occ; Vol. IV, p. 243.

(٢٣) Cartulaire de l'Abbaye de Saint-Père de Chartres, (ed. R. Guéard), Paris, 1840, p. 268; Cartulaire de l'Abbaye de Saint - Victor de Marseilles, (ed. B. Guéard, Marion et Delisle), Paris, 1857, p. 167. Respectively : peregrinandi desiderio correptus", "peregrinacionis gratia".

حتى صاروا يتلقبون بـ « المحاربين » أو بـ « جيش الله » . وهنا تمتزج السمات الدينية بالمفاهيم العسكرية ويصبح الصليبيون « حجاجاً مدججين بالسلاح » ؛ فهم على ذلك :

milites Christi; athletae Christi; Fideles Christi; coadjutores Dei; gens sancta.

وللصليبية ميزة أخرى هامة، فهي « إرادة الله » التي أعلنها أوربان الثاني في مؤتمر كليرمونت فصارت « صيحة المعركة » للمحاربين . وعلى هذا فقد فهم هؤلاء « الحجاج » المسلحون أن الله ذاته هو الذي استنفرهم للقتال حتى أورشليم (٢٤) . ويؤكد فوشيه دي شارترز أن المسيح ذاته قد أمر أروبان الثاني بأن يبشر بالصليبية في كليرمونت (٢٥) . وكان الفرسان يؤمنون ، وفي ثقل ، بهذه الرسالة .

كان لشارة الصليب مدلولها الخاص في أذهان الذين حملوه ، إذ آمنوا بأنه يجلب لهم الحماية من مغبة الشرور وأهوال الطريق . وأصدق الأدلة على هذا الاعتقاد المثل الذي ضربه بوهمند الزعيم النورماندي : فعندما علم بوصول جحافل من الصليبيين إلى جنوبي إيطاليا وهم في طريقهم إلى أورشليم ، سأل عن الشارة التي يرتدونها ، فلما أعلم بمدلولها قرر الانضمام للحركة فوراً ، بل ومزق معطفه إلى شرائط على شاكلة الصلبان ووزعها على رجاله المقربين (٢٦) . ويذكرنا إكهارد من أورا بقصة « رؤية » قسطنطين العظيم (بعلامة الصليب التي تراها ساطعة أمامك في السماء تنتصر) ليدلل على القيمة التي كان يكنها « الحجاج » لهذه العلامة (٢٧) . ولم تكن الشارة في حد ذاتها بكافية لتحقيق

---

(٢٤) Robert the Monk, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., Vol. III, p. 723 : "Hoc enim non fuit humanum opus, sed divinum;" Baudri of Dol, op. cit., p. 9.; Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, (ed. Le Prevost & L. Delisle), 5 Vols., Paris, 1838 - 55, I, 9, iii, p. 469.

(٢٥) Foucher de chartres; Gesta Francorum Hierusalem Peregrinantium; in R.H.C.OCC., Vol. III, p. 324 : "Christus autem imperat".

(٢٦) Anonymi, p. 18.

(٢٧) Ekkehard of Aura; Chronicon Universale,in M.G.H.SS., Vol. VI, p. 213.

الغرض المنشود منها ، ويحدثنا جيبرت من نوجنت كيف أن رجال الكهنوت أمروا برفع صليب خشبي وقت معركة إنطاكية الحاسمة (٢٨) .

وهناك رسالة من قسس Lucca يصورون فيها المندوب البابوى أدهيمار — حاملا الصليب والحربة « المقدسة » على رأس رجال الدين المشاركين فى الحملة (٢٩) .

وتتفق جميع الحوليات المعاصرة على أن هدف الصليبية أورشليم ، أم الكنائس (٣٠) .

غير أن الذين حملوا الصليب ما كانوا يحاربون من أجل أورشليم الأرضية فحسب وإنما أيضاً من أجل أورشليم السمائية (٣٢) . وكان « القبر المقدس » للمسيح هو غاية كل صليبي (٣٣) ، فبعد أن قام الصليبيون بمذابح وحشية عقب الاستيلاء على بيت المقدس ، يمموا وأيديهم مخضبة بالدماء شطر القبر « وعيونهم تسيل دمعا » .

والصليبي — مهما كان سلوكه — كان يؤمن أن الله فى صفه ، بل إنه يحارب معه فى الميدان ، ونجد أدهيمار يستفز المقاتلين قبل المعركة بقوله : Jam enim hodie pro vobis pugnabit Deus (٣٤) . ويحدثنا جيبرت من نوجنت بأن الملوك لم يشتركوا فى الصليبية الأولى لأن الله ذاته كان قائدها (٣٥) .

(٢٨) Guibert, p. 205.

(٢٩) Hagenmeyer, p. 167.

(٣٠) Guibert, p.23 : "Has o beata captione civitas,
Hinc promerens ut imperare debeas
Ad teque regna christiana contrahas."

(٣٢) Gilon, De Via Hierosolymitana', in R.H.COCC., Vol, v, p. 798.

(٣٣) Anonymi, p. 18.

(٣٤) Albert of Aix, Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae, in R.H.C. Occ., Vol. IV, p. 350.

(٣٥) Guibert, pp. 123, 250.

وللصليبية — كما فسرها المعاصرون — مظهر فوق طبيعى ؛ فقد أبرقت بمولدها عدة ظواهر غريبة : ففى حولية القديس اندرو نجد أن حركات سمائية أشارت إلى هذا الحدث الخطير (٣٦) ، ونجد نفس الشىء فى حولية بوهيميا (٣٧) . وهكذا فإن تحركات النجوم وسقوط الشهب والنيازك كانت كلها تشير إلى الاتجاه نحو الأرض المقدسة . وفى عام ١٠٩٤ تنبأ المنجم جزلبرت ، أسقف ديبزييه ، بأن جموعاً من غرب أوربا سوف تهاجر عنها (٣٨) .

هذه الظواهر الطبيعية قد لقيت من يفسرها فى قالب دينى بحت فى مجتمع القرن الحادى عشر الذى كان يألف الرؤى والتجلى وحدوث أمور خارقة للعقل ؛ والحوليات الصليبية غاصة بهذه المعانى ؛ فلقد ظهر القديس بطرس لبطرس بارتيلميو ، وتجلى الله للصليبين يرشدهم فى الاستيلاء على عدة معاقل (٣٩) . كما ظهر القديس مرقص لأحد « الحجاج » ينبؤه بأن المسيح وحوارييه فى انتظار الفرنجة عند أنطاكية (٤٠) .

ومع أن كل الحوليات دون استثناء قد بالغت فى وصف العنصر الغيبى إلا أن أكثرها وضوحاً فى هذا الصعيد حولية رايموند من اجوى ، الذى أطنب فى وصف أحداث اكتشاف « الحربة المقدسة » فى أنطاكية والدور الذى لعبته فى انتصار الصليبيين حينذاك . ولم يقتصر الأمر على هذا ، ففى وقت المجاعة يرسل الله القوت للصليبين ؛ كما أنه يسخر الطبيعة من أجل خدمتهم (٤١) . من قبيل ذلك أن الله يرسل مطراً غزيراً لينعش الفرنجة وليعكر على معسكر العدو (٤٢) .

(٣٦) Chronicle of St. Andrew', in M.G.H. SS, Vol. VII, p. 545.

(٣٧) Cosma Pragensis, Chronicae Bohemorum', in M.G.H.SS., Vol. IX, p. 103.

(٣٨) Orderic Vitatlis, p. 462.

(٣٩) Raymond of Aguilers, Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem, in R.H.C. Occ., Vol. III, pp. 257, 269 - 70.

(٤٠) Narratio Floriacensis, in R.H.C. Occ., Vol. V, p. 357.

(٤١) Raymond of Aguilers, p. 261.

(٤٢) Ibid.

كذلك نص على أن « القديسين المحاربين » هبطوا من السماء ليعاونوا الفرنجة فى القتال ، وعلى رأس هؤلاء القديسون ديمتريوس وميركيريوس وجرجس(٤٣) .

وللصليبية مظهر آخر : فقد بشر بها أوربان الثانى على أنها « الخروج » الجديد إلى كنعان . ومن ثم فقد اعتبر الصليبيون أنفسهم « شعباً مختاراً » ، قادهم الله نحو القبر المقدس بأورشليم مثلما فعل مع العبرانيين فى « العهد القديم »(٤٤) . وعندما هزم الصليبيون عللوا ذلك بأنهم لا بد وقد « أغضبوا الله » مثلما كان يتعلل العبرانيون من قبل(٤٥) . كما شبه الصليب الذى حملوه « بقوس العهد » العبرانى(٤٦) .

والصليبيون ورثة العبرانيين ، وعلى هذا ما وعده الله لبنى إسرائيل جدده للاتين(٤٧) .

ومثلما دار العبرانيون حول جيريكو سبع مرات ، قام الصليبيون بتنظيم موكبهم حول أورشليم سبع مرات أيضاً(٤٨) . كما شبه الصليبيون أدهيار ، مندوب البابا ، بموسى ؛ فهو يدبر أمور الحملة ويشرع لهم مثلما فعل النبى موسى مع بنى إسرائيل(٤٩) . وحتى جيوفرى من كالارد ، كاتب سيرة البابا أوربان الثانى — شبه سيده بقائد بنى إسرائيل(٥٠) .

(٤٣) Anonymi, p. 145; Chanson d'Antioche Provençale et la Grande Conquista de Ultramar, (ed. G. Paris), II, p. 165.

(٤٤) Robert the Monk, p. 747.

(٤٥) Orderic Vitalis, p. 574

(٤٦) Foucher, p. 446.

(٤٧) Foucher, p. 554.

(٤٨) Guibert, p. 226.

(٤٩) Robert the Monk, p. 731, Baudri, p. 16; Orderic, p. 469.

(٥٠) Vita B. Gaufridi, (in the Mémoire de la Société des Sciences de la Creuse, 1862), p. 93.

وحتى داود النبي صاحب المزامير — قد تغنى فى أشعاره بالصليبين (٥١) .

والصليبية — عند أصحابها — أداة الله يستخدمها فى تحقيق نبوءة أشعياء :

« إن الجزائر تنتظرنى وسفن ترشيش فى الأول لتأتى ببنيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم لاسم الرب إلهك وقدوس إسرائيل لأنه قد مجدك » (٥٢) .

وعندما تم للفرنجة الاستيلاء على أورشليم راحوا ينشدون : هذا هو اليوم الذى صنعه الرب ، فلنفرح ونتهلل فيه » (٥٣) . ولما اختير جودفرى دى بويون « ملكاً » على أورشليم ، كان هذا على طراز ملك داود (٥٤) .

وصلوات الصليبين تجديد لتضرعات العبرانيين :

« استمع يا رب ... لا تحجب وجهك عنى . لا تخيب بسخط عبدك . قد كنت عونى . فلا ترفضنى ولا تتركنى يا إله خلاصى » (٥٥) .

غير أن للصليبية أيضاً اشتقاقها الإنجيلى : فقد طلب أوربان الثانى من جمهوره فى كليرمونت الاقتداء بسيرة المسيح عندما قال :

« من أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى . ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى » (٥٦) .

إن حمل الصليب اقتداء لسيرة المسيح الذى حمل صليبه راضياً من أجل الفداء (٥٧) . وقد نادى أدهيمار بأن الصليبية « رسالة » سداها التضحية ولحمتها الاستشهاد (٥٨) .

---

(٥١) Foucher, p. 320.
(٥٢) Robert, p. 882. (Isaiah, 60 : 9 - 10)
(٥٣) Raymond, p. 300. (Psalm 117, 24).
(٥٤) Orderic, p. 612.
(٥٥) Raymond, p. 248, (Psalm 43 : 26); Robert, p. 828, (Psalm 27 : 9).
(٥٦) Robert, p. 730, (Luke, 14 : 27; Matthew, 10 : 38).
(٥٧) Foucher p. 328; Ekkehard, Hierosolymita', in R. H.C. Occ., Vol. V, p. 159; Robert, p. 728.
(٥٨) Chanson d'Antioche, I, p. 113.

ولما كانت الصليبية من خلق البابوية ، فإن أى انتصار تحرزه انتصار لكنيسة روما[٥٩] ، كما أن رسالة الصليبيين نشر لواء الكاثوليكية أينما حلوا[٦٠] .

والصليبيون على هذا يجددون الأعمال البطولية لشارلمان وأبناءه ، الذين حطموا الوثنية بحد السيف ونشروا الكاثوليكية وراء الراين .

والوثائق المعاصرة تؤيد هذه النظرية ، فقد طلب أوربان الثانى من الصليبين « أن يحطموا الوثنية ويرفعوا من مجد كنيستهم الأم — كنيسة روما »[٦١] . وفى رأى البابا أن العقيدة المسيحية الصحيحة فى هذا العالم هى عقيدة « كنيسة الفرنجة » . ولهذا لم يكن غريبا أن جاءت رسالة قادة الصليبية الأولى من أنطاكية إلى أوربان الثانى تؤكد هذا المعنى :

« لقد هزمنا الترك والكفار ، ولكنا لم نستطع تحطيم إثم الهراطقة من يونانيين وأرمن وسوريين ويعقوبيين . ولهذا فنحن نطلب من قداستكم — يا أبانا — حيث إنكم الأب والرأس ، أن تحضروا إلى إمارة وليكم بطرس لأنكم خليفته ؛ وستجدنا لك أبناء مطيعين . . .

وبإذنك وبأمرك سوف ننقض على هؤلاء الهراطقة جميعاً فندمرهم ونستأصل شأفتهم[٦٢] .

وإذا ما فحصنا المسميات التى أشار بها الصليبيون إلى « العدو » من أتراك وغيرهم نجدها كالآتى : Infideles, Gentiles, Agarini, Persae, Barbari,

ويلى هذه الألفاظ نعوت من قبيل : « الجنس الوثنى الشرير » ؛ « الترك المدنسون للمقدسات » ؛ « الجنس الممقوت لدى الله » « أعداء الله وأعداؤنا » ؛ والترك فوق هذا أتباع للشيطان ، عنصر دنئ ، خدم لإبليس ، وأتباع للمسيخ الدجال[٦٣] .

---

(٥٩) Ibid.

(٦٠) Robert, p. 758; Letter of the Crusade leaders addressed to the Pope, at Lattakiah , in 1099, in Hagenmeyer, op. cit., p. 171.

(٦١) Robert, loc. cit.

(٦٢) H. Hagenmeyer, op. cit., p. 164.

(٦٣) Robert, p. 776; Foucher, p. 324; Orderic, p. 495.

على أنه يجب أن نلاحظ أن هذه العبارات والنعوت بعينها قد استخدمها الصليبيون ضد اليونان واليهود والهراطقة والمسلمين (٦٤) .

ومن سمات الصليبية أيضاً وضوح فكرة الانتقام : فلقد طلب أوربان الثانى من الصليبيين أن « يذبحوا » أعداء المسيحية . كما ظهر الله لبطرس الراهب — قائد الحملة الشعبية الأولى — وطلب منه استنفار المسيحيين لأن « alassent vengier » (٦٥) .

وكان أدهيمار — المندوب البابوى — يخاطب الفرسان فى الحملة بنفس الروح (٦٦) .

ولقد لبى الصليبيون النداء البابوى عندمـــا استولو على أورشليم فى عام ١٠٩٩ . فالصورة التى تعطيها لنا المصادر الفرنجية والعربية عن المذابح التى تمت هناك بشعة للغاية وتنطق بحب الانتقام . ويحدثنا رايموند من آجوى أنه عندما اتجه صباح اليوم التالى للغزو اللاتينى لأورشليم لزيارة منطقة معبد سليمان كان عليه أن يبحث لقدميه عن ممر وسط جثث ودماء وصلت حتى ركبتيه (٦٧) . ويروى فوشيه دى شارترز بأنه حتى الأطفال لم ينجوا من هذه المذبحة . ويمضى ليقول بأن النساء ، وإن كن قد نجون من الأذى الخلقى ، إلا أنهن قد تعرضن للطعن فى بطونهن بحراب الصليبيين . (٦٨) ويقدم لنا ألبرت من إكس صورة بشعة أخرى : إذ نزع الصليبيون الغلمان الصغار من صدور أمهاتهم وعلقوهم على أسوار البيوت بحرابهم (٦٩) . كما حرق

(٦٤) Orderic p. 495.

(٦٥) Chanson d'Antioche, I, p. 6.

(٦٦) Ibid.

(٦٧) Raymond, p. 300, cf., Anonymi, pp. 204 - 206; Letter of Diambert of Pisa, in in Hagenmeyer, p. 171; Abu'l Feda, Moslem Annals' in R.H.C. Or., Vol. I, p.p. 198 - 99. Sir Steven Runciman, op. cit., I, p. 287, comments saying that "this was a bloodthirsty proof of christian fanaticism".

(٦٨) Foucher, pp. 349 - 50.

(٦٩) Albert, p. 479.

اللاتين جثث الموتى بحثاً عن الذهب والجواهر المدفونة مع أصحابها المتوفين[٧٠]. ويصف روبرت الراهب كيف أن رفاقه قطعوا رؤوس الضحايا من أهالى أورشليم وجروها من خلفهم إلى معسكرهم ليحصوا عددها .[٧١] كما أرسل تانكرد — القائد النورماندى — سبعين رأساً إلى آدهيمار للتدليل على بطولته الصليبية[٧٢] . وأمر أدهيمار بأن تكدس هذه الرؤوس المجتزة بجوار أسوار أنطاكية ليدخل الرعب على قلوب أهلها[٧٣] . وأغلب الظن أن الصليبيين قد أقدموا وقتها على أكل لحوم البشر[٧٤] .

هنالك مصدر آخر يعيننا على تفهم مسلك الصليبيين ، كما يلقى أضواءاً على ثقافاتهم وعاداتهم وآراءهم الدينية ، مما يعطينا صورة صادقة عن أحوال المجتمع الغربى فى القرن الحادى عشر . وهذا المصدر يتمثل فى الأناشيد والأغانى التى كانت جماعة الصليبيين ترددها أثناء مسيرها نحو الشرق . ولقد كتب ج . بارس بأن الصليبية ما كانت لتقوم لولا ظهور « أنشودة رولاند »[٧٥] . ومع أن هذا القول مبالغ فيه ، إلا أنه له دلالته . والواقع أن الفترة مابين ١٠٥٠ ، ١١٥٠ قد شهدت ظهور عدد وافر من الملاحم التى هيأت الجو الملائم للحرب المقدسة والصليبية . ويرجح أن جل كتاب الـ Chansons des Gestes كانوا صليبيين[٧٦] . ولقد أشعل أوربان الثانى بمشروعه الصليبى خيال كتاب الملاحم والأغانى الحربية قبل و بعد كليرمونت[٧٧].

وأنشودة رولاند هى المثل الصادق لروح الحرب الصليبية ، وكانت بمثابة

---

(٧٠) Foucher, p. 359.

(٧١) Robert, p. 788; Anonymi, p. 96; Guibert, p. 181.

(٧٢) Radulph of Caen; Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana", in R.H.C. Occ., Vol. III, p. 644.

(٧٣) Guibert, p. 242.

(٧٤) Albert, p. 450; cf. Orderic, p. 582; Radulph, p. 675.

(٧٥) G. Paris, in Romania, Vol. XXXI, (1902), p. 410.

(٧٦) A. Hatem, Les Poèmes Epiques des Croisades, Genése, Historicité, Localisation, Paris, 1932, 32.

(٧٧) Ibid.

« الاستنفار » للحرب التى بشر بها البابا ودير كلونى [٧٨] . ويمكن تقسيم الأشعار التى عالجت موضوع « الحروب المقدسة » إلى فئتين أساسيتين : الأعمال البطولية لشارلمان ؛ ثم الأعمـــال البطولية لجارن . وتضم الأولى ما يلى :

Chanson de Roland, Fierbras, Gui de Bourgogne, Aspremont;

أما الثانية فتشمل : Chanson de Guillaume, Couronnement de Louis, Covenant Vivien, Aliscans, La Mort Aymeri de Narbonne. Charroi de Nimes

وهذه الأشعار جميعاً تصور شارلمان وفرسانه أبطالا وشهداء فى حرب صليبية لا نهاية لها ضد السراكنة . ولعل أهم المعانى التى وردت فى هذه الملاحم : وجود الله فى صف رجاله المحاربين ؛ مشاركة القديسين الفرسان فى هذه الحرب ؛ مع إبراز قيمة الأيقونات المقدسة فى الحفاظ على المحاربين من الهلاك . كل هذا بغية رفع شأن المسيحية الكاثوليكية فى العالم ، وتمجيد إكليل الشهادة .

وهناك إصرار فى هذه الملاحم على ضرورة مساندة الله وقديسيه لهؤلاء « الصليبيين » : فنجد البابا يخاطب القديس بطرس قائلا بأنه إن لم يساند رجال الكنيسة الرومانية فى الحرب ، فإن البابـــا سوف يحجم عن إقامة صلاة القداس فى كنيسة القديس بطرس [٧٩] .

ويمثل رولاند روح الفروسية الفرنسية للقرن الحادى عشر ؛ فهو ليس برجل عادى وإنما هو أشبه ما يكون برمز لفكرة سائدة فى عصره . أما شارلمان فهو إمبراطور الله الذى وكلت إليه مهمة إعلاء شأن كنيسة وعقيدة الفرنجة . ويقوم وليم البارون بدور رجل الإمبراطور وفصله الأمين المتفانى فى خدمة سيده الإقطاعى .

---

(٧٨) H. Grégoire; La Chanson de Roland et Byzance, in Byzantion, XIV (1939), p. 301. See P. Boissonade, Du Nouveau sur la chanson de Roland, Paris, 1923, pp. 276 seq.

(٧٩) Couronnement de Louis, (ed. E. Langlois), Les Classiques Français du Moyen Age, 22, Paris, 1920, p. 34.

وواقع الأمر أن هذه الملاحم جميعاً كانت بمثابة الصحافة ودور الإذاعة لمجتمع القرنين الحادى والثانى عشر .

كانت الإمبراطورية البيزنطية تعانى الأمرين من ضربات جيرانها السلاجقة الأتراك والبشانقة فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر . ولقد بلغت المحنة ذروتها فيما بين ١٠٩٠ و ١٠٩١ ، ولهذا فإن الإمبراطور الكسيوس كومنينوس (١٠٨١ – ١١١٨) فتح باب المفاوضات مع البابا أوربان الثانى يطلب منه المساندة بإرسال جند مرتزقة من إيطاليا لمساعدة بيزنطة ضد أعداءها على الحدود الشرقية والغربية . والثابت أن بيزنطة كانت تستخدم منذ فترة مبكرة الجند المرتزقة الوافدين من غرب أوربا اللاتينى : من نورمان وفرنجة وإنجليز ، وهؤلاء كانوا يخدمون الإمبراطورية جنباً إلى جنب مع المرتزقة من ترك وبشانقة وروس .

غير أنه فى عام ١٠٩٠ تمكن القائد البيزنطى قسطنطين دالاسينوس من أن يهزم الأمير السلجوقى زاخاس ويضطره إلى الفرار إلى سميرنا (٨٠) . ولما تمرد الأميران الصربيان بودن وبولكان ضد بيزنطة ، وجه إليهما الإمبراطور القائد يوحنا دوكاس ، الذى أوقع بهما هزيمة نكراء فى عام ١٠٩١ (٨١) . وفى ٢٩ أبريل لعام ١٠٩١ ، وعلى ضفاف نهر Leburnion انقضت الجيوش الإمبراطورية ، تساندها قبائل البولوفيتزى المتبربرة ، على جماعات البشنق وأبيدت هذه الجماعات عن آخرها فى مذبحة رهيبة . ولقد روع البولوفيتزى من هول هذه المجزرة البشرية إلى حد أنهم لاذوا بالفرار بعد النصر ، دون أن يطالبوا بيزنطة بنصيبهم من الأغنام ، خشية أن يحل بهم المصير الأنكد الذى وقع بالبشانقة أمام عيونهم (٨٢) .

هذه الحقائق تقطع فى يقين أن محنة بيزنطة قد انتهت فى أبريل ١٠٩١ ؛ وعلى هذا فإنه لم تكن هنالك حاجة على الإطلاق بعد ذلك

(٨٠) Alexiad, VII, viii, 10, p. 116.

(٨١) Ibid., VII, viii, 9, p. 116.

(٨٢) Ibid., VIII, v, 8, p. 143.

بأربعة أعوام (١٠٩٥) لأن تلجأ السلطات الإمبراطورية البيزنطية إلى البابوية لطلب العون .

ورغم هذا فقد دأبت جماعة المؤرخين على المبالغة فى تصوير حالة اليأس والفزع السائدتين فى بيزنطة فى عام **١٠٩٥** . وهذا خطأ يستوجب التصحيح . فالمعــروف أن سفراء الكسيوس فى غرب أوربا الذين كانوا يستأجرون جنداً مرتزقة ، كما جرت العادة من قديم، قد قصدوا إلى مؤتمر Piacenza الذى عقده البابا أوربان الثانى من أول مارس **١٠٩٥** حتى سابعه . ولعل الأمر الذى دعا الكثيرين إلى المغالاة فى أهمية هذا الحدث ما كتبه الكاردينال Bernold فى « حوليته » بأن البابا أوربان الثانى « قد عقد هذا المؤتمر ليحث المؤمنين المشاركين فيه على المسارعة لتقديم العون لألكسيوس كومنين ضد الكفار [٨٣] » . على أنه يجب ملاحظة أن هذا الكاتب ذاته قد أكد فى « حوليته » بأن هذا المجلس قد تم انعقاده « من أجل اتخاذ إجراءات ضد الانفصاليين وضد أعوانهم » ؛ وهو يقصد بالطبع « ضد البابا المنافس جيبرت وحليفه الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع [٨٤] » . وهنالك شاهد آخر على أن المجلس كان مهتما فى الدرجة الأولى بموضوع الشقاق البابوى والانفصاليين ؛ وهو أوردوريك ڤيتالس [٨٥] . وعليه فإن مجلس بياتسنزا هذا كان مهتما بالأمور المتصلة بتنظيم الكنيسة ووحدتها تحت رعاية البابا الشرعى وبإدانة السيمونية (شراء الرتب الكنسية بالمال) وكذا النظر فى قضية طلاق براكسيدز ، زوجة الإمبراطور هنرى الرابع الروسية الأصل ، بعد أن قصت على البابا فضائح زوجها [٨٦] . أما طلب العون لبيزنطة من المؤتمرين ، فإن واقع الأمور يؤكد أنه لم تكن هناك حاجة قائمة من أجل ذلك بعد هزيمة زاخاس الأمير السلجوقى وبعد مذبحة

---

(٨٣) Bernold, Chronicon, in M.G.H.SS., Vol., V, p. 42.

(٨٤) Ibid.

(٨٥) Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, I, 9, iii, p. 461.

(٨٦) Mansi, op. cit., loc. cit.

البشانقة ، ثم بعد أن توفى السلطان ملك شاه (١٠٩٢) وقامت حرب أهلية بين الأمراء السلاجقة خاصة فى آسيا الصغرى . على أنه يمكن تفسير ما تم فى بياتسنزا على الوجه الآتى : حدث أن نما إلى سمع سفراء الكسيوس الذين كانوا يتجولون فى إيطاليا بحثاً عن جند مرتزقة نبأ انعقاد مجلس هام يحضره مندوبون من دول الغرب فى مدينة بياتسنزا ، فأسرع هؤلاء السفراء لاستغلال هذه الفرصة ليطرحوا رغبتهم أمام المؤتمرين تسهيلا لمهمتهم فى جمع عدد وافر من الجند المرتزقة للخدمة فى الجيوش البيزنطية . ويبدو أنهم قد بالغوا فى عرض طلباتهم وفى تصوير أحوال الحدود الشرقية والغربية للإمبراطورية ، كسباً لعطف الأمراء والأساقفة الوافدين من عبر الألب . على أن هذا لم يكن متمشياً مع مطلب الكسيوس كومنين ، ولم يخطر بباله . فإنا لا نجد من بين شاهدى العيان الذين كتبوا عن الصليبية الأولى واحداً يذكر شيئاً عن مطلب الكسيوس فى الصيغة التى نادى بها الكثيرون من المحدثين . أمـــا الذين كتبوا عن تلك الفترة فى وقت متأخر ، من شاكلة روبرت الراهب وجيبرت من نوجنت ، فإن هؤلاء فقط هم الذين بالغوا فى تصوير أهمية لجوء الكسيوس إلى البابا من أجل العون . ويجب معالجة ما كتبه هؤلاء المتأخرون فى كثير من الحذر .

* * *

وفى صيف ١٠٩٥ رحل البابا أوربان الثانى عن إيطاليا قاصداً فرنسا ، موطنه الأصلى ، وهناك توقف عند بيوتات الديرانيين إخوانه من أتباع كلونى حيث ناقش خططه الكنسية مع أساتذته ورفاقه القدامى . وقد توقف بوجه خاص عند مدينة Lepuy وعند St. Gilles حيث قابل كلا من أدهيار من سانت مارتيال ، أسقف الأولى ثم رايموند الرابع من سان جيل ، كونت تولوز ، وكسب صداقتهما وعطفهما على مشروعاته (٨٧) .

وفى ١٨ نوفمبر ١٠٩٥ انعقد المجلس فى كليرمونت بإقليم Auvergne ،

(٨٧) Alfred Richard, Histoire des Comtes de Poitou, Archives Departmentals de Poitiers), Vol. I (778 - 1204), pp. 407 - 16.

حيث حضر النبلاء والأعيان ووجهاء القوم من علمانيين وكهنوت . كذلك حضر إلى المؤتمر بعض رجال الدين الإسبان ، وكان من بينهم دالماس أسقف كومبوستلا . استعرض البابا وأعوانه بعض المشاكل الكنسية أمام المجلس وأقر إدخال بعض النظم والإصلاحات فيها، ثم أعلنت بداية « هدنة الله » Turga Dei ؛ و « سلام الله » Pax Dei فى غرب أوربا اللاتينى . ومن بين الثلاثة وثلاثين قانوناً التى أصدرها مجلس كليرمونت يهمنا القانون الثانى منها الذى عالج موضوع الصليبية (٨٨) . وهذا يمنح « غفراناً تامًّا من الخطايا والذنوب لكل من يتعهد المسير إلى أورشليم بغية تخليص كنيسة القبر المقدس من أيدى الكفار (٨٩) » .

هذا وقد ألقى البابا أوربان الثانى — أثناء انعقاد مؤتمر كليرمونت — خطاباً فى جمهور الكهنة والعلمانيين خارج قاعة المؤتمر (٢٧ نوفمبر ١٠٩٥) ، غير أننا لا نملك النص الأصلى لما بشر به البابــا فى ذلك الحين . ولا يمكن قبول مــا ورد فى كتابات بودرى دى دول ؛ وروبرت الراهب ؛ وفوشيه دى شارتر ؛ وجيبرت دى نوجنت على حذافيره . وقد اعتقدت الكاتبة الأمريكية D. C. Munro بأن المسائل التى اتفق عليها الكتاب الأربعة يجب أن تقبل على أنها صحيحة فى خطاب أوربان هذا (٩٠) . على أنه ينبغى ملاحظة أن كلا من هؤلاء الكتاب يعكس وجهة نظره الشخصية فى كلام أوربان ؛ وهذا يشكل صعوبة فى محاولة الاستدلال على ما بشر به أوربان بالضبط . ويرى المؤرخ الفرنسى F. Chalandon أن هؤلاء الكتاب المعاصرين إنما يعكسون فى كتاباتهم الرأى السائد لدى معاصريهم عن الصليبية ؛ وهذا لا يمثل ما قاله البابا بالفعل ، أو ما كان يضمره لمشروعه الصليبى (٩١) .

(٨٨) Lambert of Arras; Canons of the Council of clermont', in Mansi, Vol. XX.

(٨٩) Ibid., p. 816.

(٩٠) D. Munro; The Speech of Pope Urban II at Clermont', in American Historical Review, Vol. XI (New York, 1906).

(٩١) F. Chalandon, Histoire de la Première Croisade jusqu'à l'Election de Godefroi de Bouillon, Paris, 1935, p. 38.

على أية حال ، لعل الدراسة التحليلية والمقارنة لما ورد فى كتابات هؤلاء الأربعة تسهم فى إعطاء فكرة عامة عن خطاب البابا ومشروعه . فلا يمكن تصور أنهم قد اخترعوا كل ماأوردوه نسبة إلى البابا ، إذا لابد من وجود بعض الحقائق بين سطور هذه الحوليات .

يتفق هؤلاء الكتاب على أن أوربان بدأ خطابه بحث مستمعيه من الإكليروس على السلوك الحسن وفق قانون الله حتى يكونوا باستحقاق رعاة للشعب ، « فأنتم ملح الأرض فإن فسد الملح فبماذا يملح؟ ». ولما كانت جرائم الشر قد استشرت فى المجتمع اللاتينى فإن البابا طلب من الجماهير الالتزام بقانون الكنيسة وبهدنة وسلام الله ، كما نصحهم باكتناز طاقاتهم الحربية للحملة الصليبية التى بشر بها البابا «ad quoddam aliud Dei negotium et vestrum» (٩٢).

ولقد برر البابا قيام هذه الحركة بما أسماه الأحوال التعسة التى تردت فيها الكنائس الشرقية تحت نير الفرس [الأتراك] (٩٣) . ووجه التعاسة هنا هو أن الترك قد حولوا الكنائس الشرقية إلى اسطبلات لخيولهم (٩٤) . أما كرسى الكرازة البطرسية فى أنطاكية فقد بات يئن من شعائر الشعوذة التركية التى حلت محل الطقوس الكنسية (٩٥) . وإن الترك بفعلهم هذا يعرضون مملكة السماوات للرجس والخطر (٩٦). وأن الدم المهراق فى المشرق ليستصرخ مسيحيى غرب أوربا ليهبوا لنجدة إخوانهم التعساء من سيوف العدو (٩٧) ؛ والويل لمن يستطيع العطاء والنجدة ثم ينكص عن الإغاثة (٩٨) .

ولم يكن أوربان الثانى هو الذى يبشر بالصليبية ، وإنما كانت الإرادة العلوية هى التى تستنفر المسيحيين لحمل شارة الصليب ، والزحف نحو الشرق (٩٩).

(٩٢) Foucher, p. 323.
(٩٣) Robert the Monk, p. 727.
(٩٤) Baudri, p. 13.
(٩٥) Ibid.
(٩٦) Foucher, p. 324.
(٩٧) Baudri, pp. 12 - 13.
(٩٨) Foucher, loc. cit.
(٩٩) Ibid.

على أن البابا هنا عرج على مسألة أخرى هامة مستهدفاً إيجاد حل معقول لجرائم الإقطاع من قتل وسرقة ونهب، وذلك بأن طلب من فرسان غرب أوربا استنفاد طاقاتهم العدوانية فى مقاتلة الترك (١٠٠) . ونجد البابا يعدد لجمهوره آفات المجتمع الغربى الإقطاعى فيوضح لهم أن رقعة الأرض لم تعد بكافية لاستيعابهم ؛ فاتحاً أمام المفلسين من البارونات والفرسان جنات خضر فى الشرق الدافئ لا يعدو ثمنها مغامرة صليبية (١٠١) . ونجد أصحاب الحوليات المعاصرين يؤكدون لنا أن « مجرمى الأمس أضحوا اليوم جنداً للمسيح » (١٠٢) .

وعنصر الإلهام الذى ارتكزت عليه خطبة أوربان هو الضريح المقدس للمسيح فى بيت المقدس، مدينة الله . إذ راح البابا يقص على الناس ملحمة أورشليم ، محور العالم ، أم الكنائس ، والجنة الأرضية ، التى شهدت الميلاد العجيب والرسالة الكبرى ثم طريق الآلام الفادى ؛ فالقيامة . إن هذه المدينة قد أمست فى أغلال الأسر ، وعلى الرجال تخليصها من العبودية والهوان (١٠٣) . وعلى هذا فمن يحمل صليبه يصبح جندياً للمسيح مع بقية جيشه من « خاصة الله » ومن « الشعب المختار » (١٠٤) .

وهنالك ميزات أخرى يجتنيها الصليبى : فإن آثامه تغفر لحظة مسيرته نحو المشرق ، وإذا قتل فهو شهيد تحتضنه ملكوت السماوات (١٠٥) . وأما الذين يستولون على القدس فإن أمامهم أنهار من « جنات كنعان حيث يفيض العسل واللبن » (١٠٦) .

ومثلما فعل موسى عندما انطلق العبرانيون لقتال العمالقة ، رفع أوربان

(١٠٠) Baudris p. 14.
(١٠١) Robert, p. 728; Foucher, p. 324.
(١٠٢) Foucher, loc. cit.
(١٠٣) Robert, p. 729.
(١٠٤) Ibid., p. 727.
(١٠٥) Baudri, p. 15; Robert, p. 729.
(١٠٦) Robert, p. 728.

الثانى يديه نحو السماء ابتهالا لله بأن ينصر «جنس الفرنجة» على الترك (١٠٧).

* * *

ولقد التقط الكرسى البابوى الفرصة التى طلب فيها الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين العون من الغرب فى عام ١٠٩١، وعمدت بعض الدوائر الكنسية المجهولة إلى تزييف خطاب ادعوا فيه بأنه موجه من إمبراطور بيزنطة للغرب المسيحى، بقصد إثارة حماس الفرسان اللاتين للحرب المقدسة فى الشرق. وفى هذه الرسالة المزيفة نجد الكسيوس يتضرع إلى الكونت روبرت الأول من فلاندرز ورجاله وسائر المؤمنين فى الغرب بأن يهبوا لنجدة إخوانهم المسيحيين فى الشرق من العدو (١٠٨).

وجدير بالملاحظة أن لهجة الرسالة التى نحن بصددها لا يمكن أن تكون قد صدرت على لسان الكسيوس أو سفراءه، لأنه ليس بمعقول أن تنحط الكرامة البيزنطية، خاصة عند مخاطبة الفرنجة، إلى هذا الدرك من التوسل والاستجداء. وأهم من هذا أن الصورة الواردة فى الخطاب عن مسلك الترك تجاه مسيحيى الشرق تنم عن خيال لاتينى خصيب لا يمت لواقع التاريخ بظل

(١٠٧) Baudri, p. 15.

(١٠٨) The date of this letteri is controversial. P. Riant maintained that the Epistula had been fabricated at some time between June 1098, and July 1099. G. Paris placed it in 1090. H. Hagenmeyer contented that the document was prepared in 1088, at the instance of Alexius' envoys and the Count of Flanders. In the opinion of C. Kohler it was an *excitatorium* to the First crusade. E. Jornanson argued that it had been prepared at the request of Bohemond, in Italy in 1105.

It should be pointed out that there is much in the *Epistula* which could not have been derived from an authentic letter. Moreover, the *Epistula* in the form that is known suggests that it was composed at the time the First crusade was being preached, and that it was intended to prepare the Westerners to conquer for themselves former Byzantine provinces and to lay hands on at least two of the Eastern patriarchates, let alone the relics and the treasures of gold at constantinople.

من الواقع(١٠٩) ؛ ذلك لأن الوثائق المعاصرة التى سجلها المؤرخون الشرقيون من المسيحيين تتحدث فى تفصيل عن التسامح العظيم الذى أبداه السلطان ملك شاه تجاه الرعايا المسيحيين فى إمبراطوريته . ويكفى أن نشير هنا إلى شهادة متى من الرها الذى أوضح أن المسيحيين عند وفاة ملك شاه بكوا بكاء مريراً (١١٠) .

هذا وتأتى الفقرة الخاصة بالأساقفة الشرقيين وما حل بهم على أيدى الترك لتؤكد بدورها زيف الوثيقة . وينسحب نفس الشيء على الماثتى سفينة بيزنطية التى راحت الوثيقة تصف سقوطها فى أيدى « العدو » (١١١) .

على أن أهم ما ورد فى الوثيقة المزيفة ما يلى : « حيث أن الحال على هذا القدر من البؤس والسوء، ولما كانت القسطنطينية قد باتت مهددة بالغزو التركى ، فإنه خوفاً على آثار المدينة المقدسة وكنوزها من الوقوع فى أيدى الكفار ، فليقبل أبناء الفرنجة لإنقاذ المدينة من السقوط ؛ ولتكن من نصيبهم هذه الكنوز الطائلة » .

ونجد فى هذه الرسالة قائمة شاملة بالآثار المسيحية المقدسة من قبيل صليب الصلبوت ، السوط الذى ألهب به ظهر المسيح ، إكليل الشوك ، الحربة المقدسة ، المسامير التى سمر بها الجسد إلى الخشبة ، رداء الكتان الذى قمط به الجسد بعد الصلب ، السلال التى وضع بها ما تبقى من السمكتين والخمسة خبزات بعد إطعام الجموع الغفيرة ، خصلات من لحية المسيح ، لحية يوحنا المعمدان . . إلخ . هذه المقدسات باتت مهددة بخطر التدنيس ، وعلى الفرنجة أن يهبوا لإنقاذها . أما الكنوز من ذهب وفضة فى الخزائن الإمبراطورية ، فهى أيضاً تنتظر اللاتين الشجعان ليأتوا لنقلها إلى الغرب قبل أن تصيبها يد الترك .

ولقد كان هذا المعنى الأخير الوارد الرسالة المزيفة عاملا هاماً من

---

(١٠٩) H. Hagenmeyer, Epistulae et chartae, p. 130 "

(١١٠) Matthew of Edessa, Chronique, (ed. Dalaurier), p. 203.

(١١١) H. Hagenmeyer, loc. cit.

عوامل إشعال حماس غرب أوربا اللاتيني للحركة الصليبية ، فالذين كانوا حقيقة من أهل التقى وجدوا أمامهم هذه المقدسات التى كان لها سحر خاص على عقلية حجاج القرن الحادى عشر . أما أولئك الفرسان والنبلاء والعامة الذين كانوا فى ضائقة اقتصادية فقد باتت قصة الذهب والفضة تراود خيالهم وتسيل لعابهم . وفى ذلك العصر الذى كانت الكنيسة فيه هى كل شيء ، كان ما تنشره من معلومات يقبل على علاته على أنه فعلى وأصيل . والتفاصيل الواردة فى هذه الوثيقة المزيفة لا شك فى أنها قد ألهبت خيال أهل غرب أوربا فازداد الحماس من أجل حمل الصليب(١١٢) .

بقيام الحركة الصليبية غدت الحرب أمراً مقدساً ومشروعاً عند كنيسة روما ، وحتى رجال الدين قد سمح لهم أيضاً بحمل السيوف والمقاتلة .

غير أن هذا كان بدعة لا تقرها كنيسة بيزنطة : فلقد أكد القديس بازل من قيسارية فى كتاباته بأن الحرب – أية حرب – لا يمكن أن تكون أمراً مقدساً ، حتى ولو كان نشوبها يمثل ضرورة وحتمية (١١٣). والحق أن المسيحيين فى الشرق قد فزعوا عندما شاهدوا بين أفواج الصليبيين أساقفة ورهبان وقسيسين مدججين بالسلاح . ولقد عبرت الأميرة آنا كومنينا عن مشاعر معاصريها عندما انتقدت فى مرارة بالغة مسلك رجل الدين اللاتينى الذى ما إن ينهى صلاة القداس حتى يمسك بسلاحه ليشارك فى أعمال القتل وسفك الدماء (١١٤) . ونجد نفس المعانى فيما كتبه ثيو فيلاكت رئيس أساقفة بلغاريا عن مشاهداته لأفواج الصليبين وعن الأهوال التى ألحقوها – كهنة كانوا أم علمانيين – بالأراضى التى كانوا يعبرونها أثناء رحلتهم (١١٥) .

(١١٢) Ibid.

(١١٣) St. Basil of Caesarea, Letter no. 188, in P.G., Vol. XXXII, col. 681.

(١١٤) Alexiad, X, viii, 2, p. 218.

(١١٥) Theophylact of Ochrida, Letter no. XI, in, P.G., Vol. CXXVI, cols. 324-25.

كان أول من وصل إلى أسوار القسطنطينية من الصليبيين جمهور من إيطاليا، انضم إليهم والتر المفلس وجماعته .

وقد كانت هذه الحملة غير منظمة ولذا فقد أقدمت على الكثير من أعمال العنف والشغب . ولهذا فقد اضطر الصرب والبلغار إلى مهاجمتهم، فقتل عدد كبير منهم . وعند مدينة نيش وجدوا حاكم المدينة فى استقبالهم ، وقد رافقهم إلى أدريانوبل، ومنها واصلوا سيرهم حتى وصلوا العاصمة البيزنطية فى ٢٠ يوليو ١٠٩٦م .

أصدر الإمبراطور الكسيوس كومنينوس أوامره بالسماح لهؤلاء الصليبيين بالبقاء عند القسطنطينية حتى تصل حملة بطرس الراهب ، كما أمر بتقديم الزاد لهم جميعاً[1] . وبعـــد عشرة أيام لحقت بهم حملة بطرس الراهب .

والمصدر الذى أفاض فى وصف حملة بطرس هو ألبرت من إكس . تحرك الراهب ورجاله من مدينة كولون فى أبريل ١٠٩٦ ، وعند نهاية يونيو من نفس العام وصلوا حدود الدولة البيزنطية . وفى مدينة مالا ڤلا (سملين)، علم الراهب بأن Gnuzh ، فصل كولومان ملك هنغاريا ، وكذا نيكيتاس حاكم بلغاريا قد قاما بمهاجمة والتر ورجاله .

ولذلك فقد عقد بطرس النية على الانتقام لوالتر ، فقام هو ورجاله بحصار مدينة سملين ثم استولوا عليها .

فر نيكيتاس حاكم المدينة ولجأ إلى مدينة نيش ، ومنها فتح باب المفاوضات مع الراهب . اتفق الطرفان على أن يقدم الراهب بعض الرهائن فى مقابل فتح الأسواق للصليبيين . غير أن بطرس ورجاله بعد أن أنهوا مدة إقامتهم بالمدينة قاموا بإشعال النيران فى طواحينها وبيوتها دون مبرر مقبول . وعليه فقد أمر نيكيتاس كتائب البشنق — الذين كانوا فى خدمة بيزنطية

(1) Albert of Aix, I, xv-xvii, pp. 280. seq.

بمهاجمة مؤخرة الحملة الصليبية ، ووقع الكثيرون منهم فى الأسر .

أرسل نيكيتاس رسلا إلى العاصمة ليبلغ الإمبراطور بسوء مسلك بطرس ورجاله ، فأرسل الكسيوس سفراءه لمقابلة الراهب : تقابل السفراء مع الراهب على مقربة من مدينة صوفيا ، وهناك طلبوا منه باسم الإمبراطور ألا يطيل مقامه ورجاله فى بقعة واحدة على ثلاثة أيام . كما أعلموه بأن الأوامر قد صدرت لإعداد الأسواق اللازمة للحملة . وزيادة على هذا أبلغه السفراء أن الإمبراطور ، وإن كان قد علم بالضرر البالغ الذى ألحقه الصليبيون بنيكيتاس ومدينته ، إلا أنه قد قرر العفو عنهم . وعند مدينة أدريانوبل ظهر سفراء جدد من قبل الإمبراطور وطلبوا من الراهب أن يسرع فى سيره لأن الإمبراطور كان شديد الرغبة فى مقابلته(١١٧) .

وفى ٣٠ يوليو ١٠٩٦م ظهر الراهب ورجاله أمام مدينة القسطنطينية ، وسمحت لهم السلطات بإقامة معسكراتهم خارج أسوار العاصمة . ولقد استقبل الإمبراطور زعيم الحملة بالحفاوة والترحاب ، غير أنه لم يخف دهشته بأن يجد راهباً على رأس هذه الحملة .

أيقن الكسيوس أن جماعة الراهب لم تكن لتستطيع مجابهة الأتراك بمفردها ، ولهذا نصحهم بالانتظار حتى تصل الجماعات الصليبية الأخرى لينضموا إليها . غير أن هذا العطف من جانب الإمبراطور قوبل بالإساءة ؛ إذ سرعان ما انقض جيش الراهب على القرى المجاورة لمعسكرهم فنهبوها وحرقوا دورها وكنائسها .

وبسبب هذا المسلك الفظ اضطر الكسيوس إلى أن يأمرهم بعبور البوسفور إلى آسيا الصغرى(١١٨) .

ويصف كل من رايموندى اجوى والكاتب المجهول الاسم «لأعمال الفرنجة» هذه المرحلة بقولهما : إن الكسيوس قد دبر نقل حملة بطرس الراهب

---

(١١٧) Ibid., p. 282.
(١١٨) Anonymous, p. 6.

إلى آسيا الصغرى حتى يتمكن الأتراك من الفتك بكافة أفرادها(١١٩). غير أن هذا الزعم مردود ؛ لأن الإمبراطور كان قد نصح بطرس وجماعته بالبقاء حول العاصمة حتى وصول الجيوش الصليبية الأخرى . ومع أنه قد اضطر لنقلهم إلى آسيا الصغرى أمام فظاظة مسلكهم ، إلا أنه رغم هذا قد نصحهم بألا يبرحوا قلعة كيفيتوت التى سمح لهم بالإقامة فيها فى منجاة من ضربات السلاجقة . غير أن أحداً لم يكن على استعداد لقبول النصح ، إذ اختلف القواد فى الرأى ، وراحت عصاباتهم فى نهب القرى والمدن المجاورة ، ودارت رؤوسهم كبراً فتحركوا شرقاً بطريقة عشوائية حيث وقعوا فى فخ الأتراك فقضوا عليهم قضاء مبرما(١٢٠) .

ويؤكد هذا القول شهادة البرت من اكس إذ يوضح أن الإمبراطور أرسل سفارة إلى زعماء الصليبية الشعبية لتحذرهم من الزحف شرقاً ضد الأتراك، غير أنهم لم يعملوا بالنصح ،وساروا حتى نيقيا واكسيريجوردون(١٢١). وعند بلدة دراكون هجم عليهم الأتراك وقضوا عليهم تماما . وبعد هذه الهزيمة الساحقة تقدم الأتراك حتى قلعة كفيتوت التى لجأ إليها الذين فروا من المذبحة . ولم ينقذهم من سيوف الترك سوى الأسطول البيزنطى الذى كان قد أسرع بقيادة قسطنطين يوفوربينوس لحماية كفيتوت ومن لاذوا بداخلها .

ورغم كل هذا نجد كاتب « أعمال الفرنجة » يضع اللوم كله على « الإمبراطور اليونانى الخائن »(١٢٢) . ويكذب هذا القول شهادة البرت من اكس الذى يؤكد أن الكارثة التى حلت ببنى جلدته كان مردها سوء سلوكهم واختلاف قادتهم فى الرأى(١٢٣) .

(١١٩) Raymond, III, p. 240; Anonymous, p. 12.
(١٢٠) Albert of Aix, I, xv, p. 284.
(١٢١) Albert of Aix, loc. cit.
(١٢٢) Anonymous, pp. 10 - 12.
(١٢٣) Albert, I, x, p. 36.

كان الأسقف أدهيمار – المندوب البابوى – قد حدد نقطة تجمع الجيوش الصليبية المتعددة عند مدينة القسطنطينية . ولقد علمت حملة بطرس الراهب الشعبية الإمبراطور البيزنطى وحكومته درساً هاما فى ضرورة اتخاذ احتياطات كافية وعاجلة لحماية القرى والمدن البيزنطية من الأفواج الصليبية الزاحفة من الغرب صوب العاصمة البيزنطية . ولهذا فقد أرسل الكسيوس سفراءه لمقابلة قادة الحملات الصليبية ولتسهيل مهمتهم فى الحصول على ما يلزمهم من طعام من الأسواق البيزنطية . على أنه فى نفس الوقت صدرت الأوامر إلى الكتائب الإمبراطورية بتعقب الصليبيين عن بعد لحماية الأهالى فى حالة نهب أو اعتداء صليبى .

كان أول من وصل إلى بيزنطة من قادة الحملات الصليبية المنظمة هيولى مين (Hugh le Maine) كونت ڤرماندوا وهو شقيق فيليب الأول ملك فرنسا . وكان هيو قد أبحر من إيطاليا بعد أن أرسل رسالة إلى الإمبراطور البيزنطى يعلمه فيها بوصوله(١٢٤) .

كان القائد البيزنطى نيقولا مافروكاتاكالون على رأس أسطوله يراقب شواطئ بيزنطة ليمنع الصليبيين الوافدين بحراً من التسلل خفية إلى الأراضى البيزنطية . ولما كان هيو شخصاً متعجرفاً ومحباً للتظاهر فقد أرسل سفارة قوامها أربعة وعشرون فارساً إلى حاكم مدينة دورازو لإعلان وصول السيد الكونت ! غير أن عاصفة عبثت بسفن هيو مما اضطره للرسو فى بقعة ما بين Cape Palli ومدينة دورازو ، حيث استقبله أحد خفر السواحل ، الذى اقتاده إلى مدينة دورازو .

ولقد قابله حاكم المدينة – يوحنا كومنينوس – مقابلة حسنة ، ولكنه احتجزه فى المدينة ثلاثة أيام إلى أن أرسل الإمبراطور سفيره بوترميتس لاصطحابه إلى العاصمة(١٢٥). ويرجح أن الكسيوس احتجز هذا الضيف الصليبى الهام

(١٢٤) Alexiad, X, vii, 1, p. 213.

(١٢٥) Ibid., X, vii, 3, p. 214.

كرهينة في يديه ليساوم بها بقية القادة اللاتين الوافدين من الغرب (١٢٦) . ولكن الكسيوس أكرم وفادة الكونت الفرنسى وقدم له هبة ضخمة من المال ، وبعدها أقسم هيو يمين الولاء والطاعة (حسب التقاليد الإقطاعية الغربية) للإمبراطور البيزنطى ؛ وكان ذلك فى أكتوبر ١٠٩٦م (١٢٧) .

وفى نهاية عام ١٠٩٦م وصل جودفرى دى بويون على رأس جيش كبير إلى مدينة القسطنطينية . وكان جودفرى قد قابل سفراء الإمبراطور بمجرد دخول جيشه الأراضى البيزنطية ، وقد عاونوه معاونة صادقة فى فتح الأسواق اللازمة للجند وخيولهم . وفى نفس الوقت طلب السفراء من القائد الصليبى أن ينبه على جنوده بعدم نهب المواطنين الآمنين فى القرى التى يعبرونها فى مسيرتهم . ولم تحدث اضطرابات فى المسافة ما بين نيش وفيليبوبولس ، غير أن أنباءاً وصلت إلى جودفرى عند المدينة الأخيرة تفيد بأن الإمبراطور قد احتجز هيو كونت ڤرماندوا رهينة فى يده . وعلى الفور أرسل جودفرى سفارة إلى العاصمة تطلب من الكسيوس الإفراج عن سجينه النبيل . وعند مدينة سيلمبريا جاءت الأنباء تفيد بأن الكسيوس قد رفض الإفراج عن الكونت الفرنسى . وكان هذا مدعاة لأن يهجم جودفرى وفرسانه على المدينة فنهبوها (١٢٨) .

أرسل الكسيوس سفراءه إلى جودفرى يطلبون منه الكف عن أعمال السلب ضد المواطنين الآمنين . واستجاب جودفرى لهذا المطلب وواصل مسيرته حتى وصل العاصمة فى ٢٣ ديسمبر ١٠٩٦م (١٢٩) . وهناك قابل الكونت هيو ثم استقبل مندوبى الكسيوس ، الذين وجهوا له الدعوة لمقابلة الإمبراطور فى قصره؛ ولكن جودفرى رفض الدعوة (١٣٠) .

ومن الجدير بالملاحظة أن المؤرخ المعاصر البرت من إكس يرسم لنا

---

(١٢٦) Ibid., Foucher, p. 327.
(١٢٧) Alexiad, X, vii, 3, p. 215.
(١٢٨) Albert of Aix, pp. 304 - 5.
(١٢٩) Anonymous, p. 123.
(١٣٠) Albert, p. 305.

صورة براقة لسيده جودفرى فى تلك المرحلة المبكرة من الصليبية الأولى ، فهو يؤكد فى حديثه أنه الرجل الأول والمسئول عن سلامة قادة الحملات المتعددة ، كما أنه يبرر سلب مدينة فيليبوبولس على أنه عمل انتقامى كان الغرض منه إجبار الإمبراطور اليونانى على إطلاق سراح الكونت هيو . وتنم نغمة البرت عن أنه كان يمهد لإعطاء سيده دور الزعيم الأول للحركة الصليبية الأولى .

أقام جودفرى ورجاله خيامهم خارج أسوار القسطنطينية ، وزودهم الإمبراطور بمستلزماتهم من مؤن وخلافه . ولما كان الكسيوس راغباً فى تجنب تجمع الحملات جميعاً حول أسوار القسطنطينية خوفاً من الجشع الصليبى ، فإنه أرسل الكونت هيو إلى خيمة جودفرى ليحاول إقناعه بقبول دعوة الإمبراطور إلى القصر ، ولكن الدوق العنيد رفض الدعوة مرة أخرى فى تحد وكبرياء بالغين . وكانت النتيجة أن قلل الإمبراطور من كميات المؤمن المتدفقة من داخل العاصمة إلى معسكرات جودفرى ؛ مما حدى ببلدوين ، شقيق جودفرى ، إلى أن يهجم على المناطق المجاورة للمعسكر الصليبى حيث استولى عنوة على كل ماوجده فيها (١٣١) . وهنا اضطر الكسيوس إلى إرسال المؤن كسابق العهد ، وقبل جودفرى أن ينقل معسكره إلى بيرا (١٣٢) .

وأغلب الظن أن جودفرى كان مصراً على البقاء عند العاصمة حتى وصول بوهمند قائد الحملة النورماندية — العدو التقليدى لبيزنطة — ليتمكنا سوياً من إدخال الرعب فى قلب الإمبراطور والحصول منه على مطالبهم تحت التهديد . ولكن الكسيوس كان داهية عصره : فإنه أرسل كتائبه لتراقب الطريق الممتد من إرتيرا حتى فيليا ؛ بغية قطع سبل الاتصال بين جودفرى وبوهمند القادم هو وفرسانه من جنوب إيطاليا . وفى نفس الوقت أحاطت فرق بيزنطية أخرى بمعسكرات جودفرى من بعد كاف (١٣٣) .

---

(١٣١) Ibid., p. 306.
(١٣٢) Ibid.
(١٣٣) Ibid.

ظل جودفرى على عناده طيلة فصل الشتاء رافضاً كل دعوة يوجهها إليه الإمبراطور لمقابلته. وفى مارس ١٠٩٧ علم الكسيوس بأن بوهمند فى طريقه إلى العاصمة ، ولهذا فتح باب المفاوضات من جديد مع جودفرى ، غير أن الأخير أعلن أنه لن يتفاوض مع بيزنطة إلى أن يصل زميله بوهمند(١٣٤). ولهذا قرر الكسيوس أن يتخذ موقفاً حاسما تجاه هذا الدوق العنيد ؛ فأرسل بعثة منتقاة من خيرة رجاله للترحيب ببوهمند وإظهار دلائل المودة والعطف نحوه وضباطه ، وفى نفس الوقت قطع المؤن عن معسكر جودفرى (١٣٥).

يقول المؤرخ اللاتينى البرت من اكس أن البيزنطيين تحرشوا ببنى جلدته أثناء عودتهم من السوق ؛ بينما تؤكد آنا كومنينا أن جودفرى كان قد توهم أن الإمبراطور قد احتجز سفراءه داخل القصر ولهذا هاجم العاصمة . والواقع أن صداما حدث بين الفريقين ، وهجم الصليبيون على أسوار المدينة وأشعلوا النيران فى بوابات قصر بلاشرناى واضطر البيزنطيون إلى التقهقر . ومع أن البرت يتحدث عن نصر لاتينى مظفر ، يؤيده فى هذا كاتب « أعمال الفرنجة » المجهول ، ورغم إفاضة آنا كومنينا فى وصف انتصار قوات والدها على الصليبيين ، إلا أن واقع الأمور يؤكد أن الصدام بين الطرفين لم يكن بالعنف الذى صوره هؤلاء الكتاب الثلاثة (١٣٦)

بعد وقوع تلك المناوشات ، أرسل الكسيوس كونت فرماندوا لمحاولة استمالة جودفرى لقبول المفاوضات ، ولكن الأخير رفض الدعوة فى عناد ووجه التوبيخ إلى الكونت الفرنسى على موقفه . وهنا أدرك الكسيوس أن دوق اللورين كان يضمر شراً للعاصمة، فقرر إخضاعه بقوة السيف . وبالفعل نشبت معركة بين الطرفين ، وهزم فيها جودفرى هزيمة كاملة .

وكان من نتيجة هذا الانتصار أن اضطر دوق اللورين إلى أداء يمين

---

(١٣٤) Ibid.

(١٣٥) Alexiad, X, ix, 1-11 pp. 220-26.

(١٣٦) Respectively : Albert, p. 308; Anonymous, pp. 14 - 18; cf. Alexiad, x, ix, 10 - 11, p.p. 225 - 6.

الولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطى ؛ ثم نصحه الكسيوس بأن يعبر هو وجنوده البسفور إلى آسيا الصغرى (١٣٧) .

غير أن الكسيوس كان دبلوماسياً عاقلا ، فلكى يزيل المرارة من نفس الدوق اللوريني أقام له مأدبة فاخرة وأجلسه إلى جواره على المائدة وقدم له هدايا ثمينة القيمة . وفى مقابل هذه الحفاوة الإمبراطورية تعهد جودفرى بأن يعيد للإمبراطورية البيزنطية كافة الأراضى التى كانت فى حوزتها قبل الغزو التركى لها . وبعد ذلك استقر جودفرى وجنده فى معسكراتهم الجديدة فى آسيا الصغرى عند بلكانم (١٣٨)

هذا ويظهر جودفرى دى بويون فى أساطير غرب أوربا اللاتينية المتأخرة على أنه « الفارس المسيحى الأمثل » ، البطل الذى لا ند له فى « ملحمة » الصليبيات. غير أن الدراسة الواعية للتاريخ تكشف عن خطل هذا الحكم : فجودفرى لم يكن حاكما صالحا فى بويون ، كما أن إدارته لمنطقة اللورين كانت تتصف بالتعنت . ولقد جمع جودفرى الأموال اللازمة لإعداد حملته الصليبية الضخمة عن طريق الابتزاز والتهديد والتشهير ببعض التجار ، وأيضاً بأن أطلق غوغاء الصليبيين على بعض الموسرين ثم عرض وساطته لإنقاذهم من أيديهم إن هم دفعوا مبلغا معينا من المال إليه. وكان بلدوين شقيقه رجلا مفلسا ، فانضم إلى حملة أخيه بعد أن قرر المقامرة بطالعه فى الشرق الدافئ بحثاً عن إقطاع دسم ، لأنه لم يكن فى نيته العودة إلى غرب أوربا (١٣٩) .

بعد رحيل جودفرى دى بويون إلى آسيا الصغرى بحين ، وصل بوهمند قائد الحملة الصليبية النورماندية إلى مدينة القسطنطينية . بعد وفاة والده روبرت جويسكارد (١٠٨٥) ، وبعد أن اعترف أفصال النورمان بروجر خلفاً لأبيه على الحكم ، لم يعد هناك مجال يتسع لطموح بوهمند فى جنوبى إيطاليا . ولما بدأ التبشير بالصليبية الأولى فى غرب أوربا ، تلقى بوهمند أنباءها ببالغ السرور

---

(١٣٧) Alexiad, loc. cit.
(١٣٨) Ibid.
(١٣٩) See S. Runciman, op. cit., p. 147.

بالحماس . ولقد كان بوهمند وثيق العلاقة بالبابا أوربان الثانى شخصيًّا ؛ ففى صيف عام ١٠٨٩ قام البابا بزيارته فى جنوبى إيطاليا وفى أول أغسطس من نفس العام كان أوربان فى مدينة كابوا ووجه إليه بوهمند الدعوة لزيارة عاصمته بارى . ثم عقد البابا مجلساً فى مدينة ملفى فى سبتمبر ١٠٨٩ حيث وفد روجر وبوهمند وأدواق أبوليا وكلابريا(١٤٠). وهناك وجه بوهمند الدعوة مرة أخرى للبابا لزيارة مدينة بارى وللإشراف على نقل رفات القديس نقولا إلى ضريح لائق بمقامه ، وكذا لسنم رئيس أساقفتها الياس . ولقد قبل البابا الدعوة وأقام فى بارى حتى السابع من أكتوبر ١٠٨٩(١٤١). ويرجح أن بوهمند كان فى رفقة البابا فى زيارته لكل من ترانى وبرنديزى(١٤٢) .

وفى أغسطس ١٠٩٠ سافر بوهمند إلى تارانتو حيث أنفذ وصية والده بمنح بعض المخصصات لدير مونت كاسينو . وفى ٢٠ نوفمبر ١٠٩٢ كان بوهمند وتابعه وليم كونت أبوليا فى خدمة البابا عند زيارته لمدينة آنجلونا ؛ وفى ٢٤ نوفمبر كان البابا فى مدينة تارانتو ، تلبية لدعوة بوهمند(١٤٣) . وفى أغسطس ١٠٩٣ كان بوهمند فى رفقة البابا أروبان فى مونت كاسينو حيث طلب منه أن يكرس دير القديس بانزى(١٤٤) .

كان التبشير بالحملة الصليبية الأولى الفرصة الذهبية لبوهمند ، التى عقد عليها آمالا عراضاً فى المغامرة والغنم . ولقد كتب فى هذا المجال وليم من مالمزبرى أن الصليبية الأولى كانت من فعل بوهمند ، وبأنه كان يقصد من وراءها تحقيق أطماعه فى الإمبراطورية البيزنطية(١٤٥) . وتقص علينا آنا كومنينا أن بوهمند قد شارك فى الحملة الصليبية من أجل مواصلة عدوان

---

(١٤٠) Mansi, Vol. XX, cols. 721 - 28

(١٤١) P. Jaffé, Regesta, 5413

(١٤٢) Ibid.

(١٤٣) Mansi, Vol. XX, col. 684.

(١٤٤) Ibid., cols. 643 - 44.

(١٤٥) William of Malmesbury, op. cit., p. 390 — This statement was taken for granted by Sir Francis Palgrave (The History of Normandy and England, London, 1851-64, IV, pp. 509-14, 521-22) who claimed that the Greek envoys at Piacenza were disguised agents of Bohemond, that Bohemond was the Forger of the so-called "Epistula Spuria" of Alexius, and that Peter the Hermit was his tool.

والده ضد الإمبراطورية البيزنطية (١٤٦).

وطبقاً لرواية الكاتب المجهول « لأعمال الفرنجة » ، فإن بوهمند علم بالصليبية فقط أثناء حصاره لمدينة ملفى (يوليو – أغسطس ١٠٩٦) ، حيث شاهد جموعا من الناس يحملون شارة الصليب ميممين شطر بيت المقدس ، فقرر على الفور قيادة حملة إلى الشرق (١٤٧). وقد تبع بوهمند فى حملته خيرة ضباطه وأفصاله ؛ ومن بينهم تانكرد ابن أخيه ؛ الأخوان ريتشارد وراينولف ابنا عم بوهمند ؛ روبرت كونستبل بوهمند ؛ بطرس أسقف آناجنى وغيرهم كثيرون من علمانيين وكنسيين (١٤٨). ويؤكد المؤرخ المعاصر مالاترا أن الذين حملوا شارة الصليب مع بوهمند كانوا من خيرة الشباب « الذين كانوا يتطلعون إلى مغامرات عنيفة وجديدة ، كما هو طبيعى لمن هم مثلهم فى مقتبل العمر » (١٤٩).

ويقدر البرت من إكس عدد جيش بوهمند بعشرة آلاف من الفرسان ، إلى جانب أعداد وافرة من المشاة (١٥٠). أما آنا كومنينا فقد أعطت رقمين مختلفين عن حجم جيش بوهمند ، مما يقلل من قيمة دليلها فى هذه المسألة الحسابية (١٥١). على أن المركز المرموق الذى تمتع به بوهمند بين أقرانه قواد الحملات الصليبية الأخرى ، مع أن هذا يرجع إلى قوة شخصيته وشجاعته التى فاقت كل وصف ، إلا أن هذا قد يدلل أيضاً على أنه كان على رأس قوة عددية يخشى بأسها .

عبر بوهمند ورجاله بحر الأدرياتيك فى صيف ١٠٩٦ (١٥٢). ورسى الأسطول النورماندى فى آڤلونا حيث وجد الجند مؤنا وفيرة فى انتظارهم . وقد كان بوهمند داهية من الطراز الأول ؛ فلكى يكسب حسن ظن الإمبراطور الكسيوس وبغية تبديد مخاوف السلطات البيزنطة من شخصه ونواياه أمر رجاله

(١٤٦) Alexiad, X, xi, 7, pp. 233 - 34.

(١٤٧) Anonymous, pp. 18 - 20.

(١٤٨) Rodulp of Caen, p. 606.

(١٤٩) Malaterra, op. cit., p. 599.

(١٥٠) Albert, p. 312

(١٥١) Alexiad, X, viii, 1, p. 215; cf., x, xi, 1, p. 230.

(١٥٢) Ibid., X, viii, 2, p. 216.

ألا يوقعوا ضيراً بالأراضى الإمبراطورية « إذ أنها ملك لإخوان مسيحيين »[١٥٣]. وزحف جند بوهمند من آڤلونا إلى كاستوريا ، حيث أمضوا عيد الميلاد ؛ ومنها يمموا شطر بيلاجونيا . غير أنهم فى طريقهم هجموا على قرية تسكنها غالبية من المانويين ونهبوها [١٥٤] . وهنا تدخلت كتائب البشنق والترك الذين كانوا فى خدمة الكسيوس وهاجموا النورمان على ضفاف نهر الڤاردار . غير أن تانكرد تصدى لهم وهزمهم وأسر منهم عدداً كبيراً ؛ ولكن بوهمند أمره بأن يطلق سراحهم[١٥٥] .

وكان سكان المناطق البيزنطية التى عبرها النورمان فى هلع زائد منهم ولم يصدقوا ما قيل لهم بأنهم « حجاج » (صليبيون) ، وإنما ظنوا أنهم قد قدموا لتحطيم كيانهم وكيان إمبراطوريتهم مثلما فعل من قبل روبرت جويسكارد فى عام ١٠٨١[١٥٦] .

جاء سفراء الكسيوس للترحيب بمقدم بوهمند ولتسهيل مهمة تزويد رجاله وخيولهم بما يلزمهم من مؤن . غير أن تانكرد لم يكن مرتاحاً لسياسة المودة المدعاة التى تظاهر بها عمه بوهمند أمام سفراء الإمبراطور . وكان بوهمند فى واقع الأمر غاية فى الدهاء والدبلوماسية ، فقد أضمر لنفسه مخططاً لم يطلع عليه أحداً ، وأخذ يتودد لألكسيوس كومنينوس وسفراءه . ولكن ابن أخيه تانكرد — يؤيده جمهور الفرسان النورمان — كان يفكر جاداً منذ البداية فى سلب ونهب كافة المدن البيزنطية التى تصادفه فى طريقه ولكن بوهمند تدخل ومنعه من إنفاذ خطته[١٥٧] .

وعند مدينة روزا ترك بوهمند قيادة الحملة لتانكرد وأسرع إلى القسطنطينية ليقابل الإمبراطور الكسيوس . وما أن برح بوهمند المدينة حتى هجم تانكرد

---

(١٥٣) Anonymous, pp. 20 - 22.

(١٥٤) Ibid., p. 22.

(١٥٥) Ibid.

(١٥٦) Ibid., p. 28.

(١٥٧) Ibid., pp. 24 - 26.

ورجاله على البقاع المجاورة لها ينهبونها ويخربونها (١٥٨) .

رحب الإمبراطور الكسيوس كومنينوس بضيفه المرموق فى حرارة وحفاوة . ورغم هذا فإن المطالع لروايات آنا كومنينا — وهى شاهدة عيان — يخلص بأن القائد النورماندى كان شديد الريبة فى نوايا الإمبراطور تجاه شخصه : فعندما أرسل الكسيوس كمية من اللحوم إلى الجناح الذى نزل به بوهمند ، طلب الأخير من خدمه أن يأكلوها ، وفى صباح اليوم التالى راح يستفسر فى قلق واضح عن أحوالهم الصحية (١٥٩) . وبصفة عامة فإن بوهمند قد نجح فى طمأنة بال الإمبراطور البيزنطى وطلب منه أن يحسن الظن به وأن ينسى ذكريات الماضى المريرة عن والده جويسكارد . وكان هذا كافياً لأن ينال بوهمند من الكسيوس هبة ضخمة من المال فى مقابل أداء يمين الولاء والطاعة للإمبراطور (١٦٠) . وقد طلب بوهمند من الكسيوس أن يسبغ عليه منصب « كبير خدام الإمبراطورية » فى أقاليمها الشرقية ؛ غير أن الإمبراطور ، الذى دهش لهذا المطلب ، رد عليه رداً غامضاً .

أما النص الوارد فى كتاب الـ Gesta Francorum عن وعد الكسيوس بمنح أنطاكية لبوهمند ، فأغلب الظن أنه مدسوس بيد بوهمند على هذا الكتاب فى عام ١١٠٤ عندما ساءت علاقاته مع بيزنطة ، وهو فى طريق عودته إلى غرب أوربا ليبشر بصليبية ضد الكسيوس وبيزنطة . ولأهمية هذه الفقرة نورد النص الكامل لهذا الجزء من الكتاب :

Forsitan adhuc a nostris majoribus sepe delusi erimus; ad ultimum quid facturi erunt ? Dicent quoniam, necessitate compulsi, volentes nolentes humiliaverunt se ad nequissimi imperatoris voluntatem. *Fortissimo autem viro Boamundo, quem valde timebat, quia eum sepe cum suo exercitu ejecerat de campo, dixit quoniam, si libenter ei juraet, XV dies eudni*

---

(١٥٨) Ibid., p. 28.

(١٥٩) Alexiad, X, xi, 4, p. 232.

(١٦٠) Ibid., X, xi, 5, pp. 232 - 33.

terre in extensione ab Antiochia retro daret et viii in latitudine; eique tali modo juravit ut, si ille fideliter teneret illud sacramentum, iste suum nunquam preteriret. Tam fortes et tem duri milites, cur hoc fecerunt. Propterea igitur quia multi coacti erant necessitate (١٦١)

إن الفقرة التى تحتها خط هى الجزء المدسوس على النص للأسباب الآتية :

● إن بقية النص تتحدث عن قادة الصليبية جميعاً فى صيغة الجمع ؛ بينما تختص الفقرة التى تحتها خط بشخص مفرد هو بوهمند .

● فى حين أن النص الذى فى صيغة الجموع يعدد الأضرار التى ألحقها بهم الكسيوس ؛ تنفرد فقرة بوهمند بامتيازات طائلة لشخص بوهمند .

● إنه من المعروف جيداً أن نقاشاً حاداًّ قد دار بين قادة الصليبية الأولى أثناء حصار مدينة أنطاكية وكذلك بعد الاستيلاء عليها . والغريب فى الأمر أن كاتب الـ Gesta لم يشر إطلاقاً إلى تلك المنحة « المزعومة » (أنطاكية) من الكسيوس إلى بوهمند .

● ولعل الحقيقة الأشد غرابة أن الـ Gesta هى المصدر الوحيد الذى نعلم منه تفصيلا عن السفارة التى أوفد فيها هيو العظيم وبلدوين من هينولت إلى الكسيوس كومنينوس « للحضور لتسلم مدينة أنطاكية » من القادة الصليبيين (١٦٢) . وكان بوهمند ذاته من بين أعضاء المجلس ، ومن الواضح أنه قد وافق على إرسال هذه السفارة إلى الكسيوس . فإن كان صحيحاً ماتزعمه تلك الفقرة عن منحة الكسيوس له لم يكن من الممكن أن يوافق على إرسال هذه السفارة بتلك الرسالة للإمبراطور البيزنطى .

هذا وهناك صمت تام ، فى صدد حديث الـ Gesta عن هذه السفارة ، عن هبة الكسيوس لبوهمند - أنطاكية — مما يجعل هذه الفقرة غير

(١٦١) Anonymous, pp. 28 - 30.

(١٦٢) Anonymous, p. 160.

متوافقة مع واقع الأمر ، لأنه هنا كانت المناسبة الحتمية لذكر أمر هذه المنحة إن كان صحيحاً أنه كانت هناك منحة على الإطلاق .

● إن بوهمند لم يجرؤ فى أى من المناسبات ، حتى وقت أن وبخه أقرانه لهجومه على البيزنطيين فى اللاذقية ، أن يذكر صراحة أن الإمبراطور كان قد وعده بمدينة أنطاكية .

● إن الأمر قد يزداد وضوحاً إذا ما أشرنا إلى الـ Hierosolymita التى كتبها اكيهارد من أورا . وطبقاً لبرهان المؤرخ هاجينماير — الذى أصبح مقبولا لدى الجميع — فإن الـ Libellus الذى أطلع عليه اكيهارد فى مدينة أورشليم فى عام ١١٠٢ والذى اتخذه مرجعاً للمعلومات التى أوردها فى مؤلفه عن الصليبية الأولى هو الـ Gesta Francorum [١٦٣]. وقد كتب اكيهارد عن نتائج المفاوضات التى دارت بين القادة اللاتين وبين الكسيوس ، ولكنه لم يذكر شيئاً عن تلك المنحة « السرية » من الإمبراطور لبوهمند . وترد عبارته فى هذا الصدد واضحة بمؤدى أن قادة الصليبية تعهدوا بإعادة الأراضى التى كانت ملكاً للإمبراطورية إلى الكسيوس [١٦٤] .

كان الجيش التالى القادم من أوربا بقيادة الكونت رايموند من سان جيل والقاصد البابوى الأسقف ادهيار . عبر هذا الجيش البروفنسالى دلماشيا فى مشقة زائدة بسبب وعورة المنطقة الطبيعية . وفى مدينة دورازو تلقى الكونت رسائل من الكسيوس ترحب بمقدمه وتفيض فى الحديث عن المودة [١٦٥] . غير أن جيش رايموند هاجم مدينة روزا وقام بنهبها دون مبرر واضح .

---

(١٦٣) H. Hagenmeyer; Das Vferhâltniss der Gesta Francorum zu dem Hierosolymita Ekkehards von Aura, in Forschungen zur deutschen Geschichte, XV, 19 - 42.

(١٦٤) Ekkehard of Aura, Chronicon Universale, in M.G.M.SS., Vol. VI, p. 216.

(١٦٥) Raymond of Aguilers, p. 236.

وعند مدينة رودستو تلقى الكونت رسالة من الإمبراطور يحثه فيها بالإسراع إلى القسطنطينية حيث كان بقية أقرانه من القادة الصليبيين فى انتظار وصوله لإبرام معاهدة مع بيزنطة ؛ ولهذا فقد ترك الكونت جيشه وأسرع إلى العاصمة حيث وصل فى ٢١ أبريل ١٠٩٧ .

وأثناء وجود رايموند فى القسطنطينية جاءته أنباء بأن الكتائب البيزنطية قد هاجمت جيشه عند مدينة رودستو وهزمته هزيمة ساحقة (١٦٦) . ولعل هذا يفسر المرارة التى أبداها رايموند أول الأمر فى علاقاته مع الكسيوس كومنينوس ؛ إذ أنه رفض فى إصرار شديد أداء يمين الولاء والطاعة له مثلما فعل بقية أقرانه . ولما احتدم النقاش بين الكسيوس ورايموند ، استغل بوهمند الموقف وتدخل فى النزاع وأعلن جهاراً أنه إن اصطدم رايموند بالإمبراطور ، فإنه شخصياً سوف يدافع عن « شرف وحياة الإمبراطور » (١٦٧) وفى النهاية وافق رايموند أن يتعهد بالقسم على المحافظة على حياة وشرف الكسيوس(١٦٨) .

أما عن تانكرد ، ابن أخ بوهمند ، فقد رفض أداء اليمين وانسل سراً هو وبعض فرسانه إلى آسيا الصغرى (١٦٩) .

وفى أوائل مايو ١٠٩٧ وصلت إلى القسطنطينية جيوش ستيفن من بلوا ، وروبرت من نورماندى ، وروبرت الثانى من فلاندرز ، ووافق هؤلاء القادة دون نزاع ، على أداء يمين الولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطى . ومن أجل هذا فقد بالغ الكسيوس فى إكرامهم وإسباغ شتى النعم والهدايا عليهم جميعاً .

وبعد مفاوضات طويلة أبرمت معاهدة بين قادة الحملة الصليبية الأولى وبين الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس : وعد الإمبراطور أن يحمل

---

(١٦٦) Ibid., pp. 237 - 38.

(١٦٧) Anonymous, pp. 30 - 32.

(١٦٨) Ibid.

(١٦٩) Ibid., pp. 32 - 34.

الصليب ويقود اللاتين عبر آسيا الصغرى ، وأن يؤمن لهم مسالك عبورهم فى الأراضى الإمبراطورية ، وأن يزودهم بفرقة من فرسانه لمساعدتهم ضد الأتراك . وفى مقابل هذا وعد الصليبيون أن يردوا للإمبراطور ، أو من يمثله ، الأراضى التى يستولون عليها والتى كانت ضمن ممتلكات بيزنطة قبل الغزو التركى . وقد أبرمت هذه المعاهدة الهامة فى مايو ١٠٩٧ ؛ وتعرف بمعاهدة القسطنطينية (١٧٠) .

هذا وتفيض ألكسياد (ملحمة آنا كومنينا فى سيرة والدها العظيم الكسيوس كومنينوس) بأغرب القصص الحقيقى عن غلظة وسوء مسلك الصليبيين أثناء إقامتهم ضيوفاً فى العاصمة البيزنطية . فلم يكف اللاتين عن الإلحاح — فى جشع — طلباً للذهب والفضة من الإمبراطور . ولقد تزاحموا على القصور الإمبراطورية فى غير كياسة وكانوا يروحون ويجيئون فى ردهات القصور وأجنحتها وقاعاتها الفاخرة فى غير لياقة . ورغم هذا فقد قابل الكسيوس هذا السلوك « المتبربر » بابتسامته المعهودة ، ولم يشتط غضباً حتى حينما جلس أحد الفرسان الحمقى على العرش الإمبراطورى ذاته متخذاً منه أريكة (١٧١) .

ولقد عبر عن فظاظة الصليبيين فى أحسن أسلوب السير ستيفن رانسيمان فقال :

« إن القسنطينية ، تلك المدينة الرحبة الأنيقة ، بكل ما فيها من ثروة ونشاط للأهلين من تجار وحرفيين ، ومن نبلاء البلاط فى أرديتهم الوسيمة ، ومن سيدات يرتدين فاخر الثياب ويتحلين بما يظهر مفاتنهن ؛ ومن ورائهن حاشية من الخصيان والعبيد ، قد أثارت فى اللاتين شعوراً بالضيق وإحساساً عميقاً بالدونية . فإنهم ما كانوا بفاهمين لغة البلاد

---

(١٧٠) Ekkehard of Aura, op. cit., loc. cit.

(١٧١) Alexiad, X, ix, 5, p. 226; X,x, 6 - 7, pp. 229 - 30.

ولا تقاليدها . وحتى الشعائر الكنسية بدت لهم بعيدة البعد كله عما عهدوه فى كنائسهم » [١٧٢] .

ورغم العداء الشديد الذى يبدو فى كتابات أصحاب الحوليات الصليبية ضد الإمبراطور الكسيوس كومنينوس وضد اليونانيين جميعاً ، إلا أن قلة ضئيلة كان لديها شىء من الإنصاف والعرفان بالمعروف . ومن بين هؤلاء القلائل ستيفن كونت بلوا ، الذى تأثر بالغ التأثر بحاتمية الإمبراطور وشفقته على فقراء الحملة الصليبية ، وقد أتت هذه المعانى فى الرسائل التى كان يرسلها ستيفن من معسكر القتال إلى زوجته أديلا . فقد كتب إليها من مدينة نيقيا يقول بأنه « لا يوجد على البسيطة كلها رجل على خلق وحاتمية الكسيوس كومنينوس ، الذى بذل فى سخاء لنا جميعاً من أمير إلى فقير » [١٧٣] .

* * *

فى ليلة ١٩ يونيو ١٠٩٧ بات واضحاً أن الحامية التركية لمدينة نيقيا لم تعد قادرة على الصمود أمام الحصار الذى ضربه الصليبيون وحليفهم الإمبراطور البيزنطى على المدينة ؛ ولهذا قرروا — بعد مفاوضات سرية — تسليم المدينة للإمبراطور مقابل تأمين الأهلين على أرواحهم . ولقد وافق الكسيوس على طلب الأتراك واحترام الاتفاق الذى أبرمه معهم . غير أن الصليبيين رأوا أن فى مسلك الكسيوس خيانة لهم . وواقع الأمر أن الإمبراطور كان رجلا ذكيًّا ودبلوماسياً ، وكان يعلم أثر أدب معاملة عدو قوى قد انهزم . ولهذا فقد عامل الأسرى الأتراك فى رفق بالغ . ولكن الصليبيين جنوا غضباً من موقف الكسيوس الذى فوت عليهم فرصة النهب والسلب وسفك دماء الأهلين ؛ ولهذا نجد الكاتب المجهول « لأعمال الفرنجة » يزعم

(١٧٢) S. Runciman, op. cit., I, p. 170.

(١٧٣) H. Hagenmeyer, Epistulae et chartae, p.p. 138 - 40 : "Epistula i Stephani comitis caronotensis ad Adelam uxorem suam (scripta e castris prope Nicaeam, an. 1097. ca. 24 diem mensis Junii) .

بأن الكسيوس قد أحسن معاملة الأتراك ونجاهم من سيوف الفرنجة ليدخرهم للهجوم على الصليبيين فيما بعد (١٧٤) .

واقد وزع الكسيوس كل الغنائم التى جمعت من نيقيا على الصليبيين : فترك للجند ما غنم من مؤن ، وكان للفرسان أنصبتهم من ذهب وفضة ، وتلقى القادة مبالغ ضخمة من الذهب والهدايا الثمينة . وبعدها دعا الإمبراطور قادة الحملة للاجتماع به فى معسكره فى مدينة بلكانم . كان بوهمند أول من لبى الدعوة « بهدف الحصول على المزيد من الذهب » ، كما تعرف ذلك جيداً الأميرة آنا كومنينا (١٧٥) كذلك عاد بوهمند يتوسل للإمبراطور أن يعهد إليه بمنصب « رئيس خدام المشرق البيزنطى » ؛ ولكن طلبه قوبل بالرفض . أما عن تانكرد فقد رفض أداء يمين الولاء والطاعة للإمبراطور إلا إذا وهب إليه الإمبراطور خيمته مليئة إلى رأسها بالذهب . وعندما انبرى القائد البيزنطى جورج بالايولوغوس يوبخ تانكرد على « وقاحته » ، دار تانكرد على عقبيه لينقض عليه لمصارعته . وهنا وقف الإمبراطور ليفض هذا الصدام ، واضطر بوهمند إلى أن يوبخ ابن أخيه على مسمع من الجميع لسوء مسلكه . وفى نهاية الأمر وافق تانكرد على أداء اليمين المطلوب (١٧٦) .

أما عن ستيفن من بلوا وريموند من تولوز ، اللذان كانا قد ظلا فى مدينة نيقيا لحراستها ، فقد قصدا بدورهما إلى بلكانم حيث قابلا الإمبراطور . ولم يصدق ستيفن عينيه عندما وجد أن نصيبه من الغنائم كان يقرب من من جبل من الذهب (١٧٧) .

---

(١٧٤) Anonymous, p.p. 40 - 42.

(١٧٥) Alexiad, XI, iiii, 1, p. 16.

(١٧٦) Ibid. XI, iii, 2, p. 17. Radulph of Caen (pp. 619 - 20) gives the opposite version of the story. F. Chalandon (p. 194) rejects Anna's story; Runciman(p. 182) believes that Tancred paid homage. I follow, here, the evidence of Runciman.

(١٧٧) H. Hagenmeyer, p. 139; Alexiad, XI, iii, 1, p. 16.

بعد الاستيلاء على نيقيا زحف الصليبيون على دوريلايوم حيث أوقعوا بالأتراك الهزيمة . وفى الطريق إلى أنطاكية بدأت المطامع الشخصية لدى القادة تبدو سافرة . فلقد عبر كل من تانكرد وبلدوين إلى كيليكيا حيث اشتبكا فى مدينة طرسوس ، فى حين أن الجيش الأساسى للحملة شق طريقه عبر الجبال الأرمينية الوعرة ماراً بقيصرية وماراش . ونجد تفصيلا للصدام الذى وقع بين تانكرد وبلدوين بعد انفصالهما عن أقرانهما فى كتاب « أعمال الفرنجة » : عندما احتدم النزاع بين القائدين عرض بلدوين على غريمه أن ينقضا سوياً على طرسوس لاقتسام غنائمها فيا بينهما ولكنهما لم يتفقا (١٧٨) . وبعد هذا النزاع أدرك بلدوين أن كيليكيا لن تكفى لتحقيق أطماعه الخاصة فى الشرق ؛ ولهذا اتجهت أنظاره نحو أرمينيا والأرمن . والواقع أن بلدوين كان قد وثق صداقته بأمير أرمينى اسمه باجرات الذى كان فى خدمة الكسيوس كومنينوس وقت حصار الصليبيين لمدينة نيقيا . وكان باجرات هذا شقيقاً لكوج ڤازل أمير رابان وقيسون (١٧٩) وعندما التحق باجرات بخدمة بولدوين ، ازداد اهتمام الأخير بالمسألة الأرمينية .

وكان الأرمن قد طلبوا المعونة من غرب أوربا اللاتينى لحمايتهم من الغزو التركى ؛ كما أن أسقفا أرمينيا كان قد أوفد إلى روما عندما علم الأرمن بمشروع البابا جريجورى السابع لقيادة حملة لحماية الشرق المسيحى (١٨٠) .

وعلى هذا فإن بلدوين عند انفصاله عن الحملة الصليبية عند مدينة ماراش ، يمم شطر الفرات . ولقد رحبت الأرمن بمقدمه ترحيباً بالغاً ، وتشجع الأهلون فانقضوا على الحاميات التركية فى مدنهم وقتلوا أفرادها .

---

(١٧٨) Anonymous, p. 58.

(١٧٩) Matthew of Edessa, Chronique (ed. E. Dulaurier), Paris, 1858, pp. 201 - 2.

(١٨٠) P. Jaffé, Monumenta Gregoriana, II, pp. 423 - 24.

وفى تلك المرحلة انضم فير ونيكوزوس الزعيمان الأرمينيان إلى بلدوين . وفى شتاء ١٠٩٧ استولى بلدوين ورجاله على قلعتين هامتين فى رافندل وتربسل ، فأقطع صديقه باجرات بالأولى وعين فير حاكماً للثانية (١٨١) وأثناء إقامته فى تربسل تلقى بلدوين رسالة من ثوروس أمير أذلسا الأرمينى يطلب منه المساعدة ضد تهديدات كربوغة أمير الموصل . وكان ثوروس هذا موظفاً فى خدمة الإمبراطورية البيزنطية ، كما أنه كان عضوا فى الكنيسة البيزنطية . وعلى هذا فإن أذاسا كانت جزءاً من الممتلكات الإمبراطورية فى إقليم الفرات . ولقد عرض ثوروس ، الذى كان كهلا غير منجب ، أن يتبنى بلدوين وأن يجعله وريثاً له فى إمارة أذاسا (١٨٢) .

غير أن خطة ثوروس أزعجت الأخوين باجرات وفازل . وجاء فر ليشى بهما لدى سيده بلدوين زاعماً بأنهما على اتصال مريب بالأتراك . ولهذا قبض بلدوين على باجرات وأمر بتعذيبه حتى يعترف بذنبه وبمؤامراته . وواقع الأمر أن باجرات لم يكن لديه ما يعترف به لأنه لم يكن على اتصال بالأتراك (١٨٣) . ولذا فقد آثر الهروب من طغيان بلدوين واختبأ فى قلب الجبال .

فى العشرين من فبراير ١٠٩٨ دخل بلدوين مدينة أذاسا ، حيث قابله ثوروس بالترحاب (١٨٤) . وبعدها أقيمت المراسيم الخاصة التى بمؤداها أصبح بلدوين ابناً « متبنى » لثوروس (١٨٥) ويروى متى الأذاسى ، وهو مصدر موثوق بقوله فى هذا الصدد ، كيف أن بلدوين أخذ يتآمر سراً مع أهالى المدينة ضد ثوروس . وترجع كراهية الأهلين لحاكمهم إلى أنه كان فى خدمة

(١٨١) Albert of Aix, pp. 350 - 51.

(١٨٢) Matthew of Edessa, pp. 218-20; Albert of Aix, p. 352; Foucher, p. 210.

(١٨٣) Matthew of Edessa, p. 221.

(١٨٤) H. Hagenmeyer, Chronologie, p. 129.

(١٨٥) Albert of Aix, pp. 352 - 54.

الإمبراطورية البيزنطية الكريهة لدى الأرمن وإلى أنه كان عضواً فى كنيسة القسطنطينية التى كانت على عداء دفين مع كنيسة أرمينيا .

هجم غوغاء أذاسا على سيدهم ، الذى سارع يطلب النجدة من « ابنه » بلدوين . غير أن القائد الصليبى نصح « أباه » بأن يسلم نفسه للشعب . وعندما طلب ثوروس بأن يسمح له وزوجه بأن ينصرفا فى سلام إلى ممتلكات حميه فى ميلتين ، رفض طلبه . ولما خطط الرجل الكهل للهروب من سجنه سراً قبض عليه ومزق إرباً . وعلى التو نودى بابنه المتبنى — بلدوين — لأن يضطلع بحكم أذاسا (١٠ مارس ١٠٩٨) (١٨٦) .

لما علم الصليبيون بنجاح بلدوين فى الرها ، سارع الكثيرون منهم إلى بلاطه بحثاً عن المغامرة والثروة . وكان من بين الفرسان الذين توافدوا عليه فى الإمارة الجديدة دروجو من نيزل ؛ راينولد من تول ؛ وجاستون من بيارن . وقد أكرم بلدوين وفادتهم وعينهم فى أعلى مناصب الإمارة . على أن أهالى أرمينيا جزعوا من خطة الأمير الصليبى الذى استبعدهم من الوظائف الهامة ووضع مكانهم أفصاله من اللاتين . ولعل مما زاد فى حنقهم ذلك الازدراء الذى كان يحمله ويبديه فرسان الفرنجة للأرمن عامة . ولما استشعر هؤلاء ذلك التعسف الصليبى ثاروا ضد بلدوين ؛ غير أنه قمع ثورتهم فى وحشية بالغة (١٨٧) .

كانت سياسة بلدوين الصليبى إذن تحدياً صارخاً وخرقاً للمعاهدة التى كان زعماء الحملة جميعاً قد أبرموها مع الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين ؛ ذلك لأن الرها كانت ضمن ممتلكات بيزنطة قبل الغزو التركى ، فكانت بهذا من حق الإمبراطورية . هذا إلى جانب أن الغدر الذى عامل به بلدوين الأمير ثوروس كان لطمة للعاهل البيزنطى ، فثوروس كان

(١٨٦) Matthew of Edessa, p. 221.

(١٨٧) Ibid., Albert of Aix, pp. 442 - 43.

موظفاً في خدمة الإمبراطور ، كما أنه كان عضواً في الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية .

على أن بلدوين لم يكن بالزعيم الصليبي الوحيد الذي رمى بمعاهدة ١٠٩٧ عرض الحائط ؛ إذ كان مخطط بوهمند تجاه أنطاكية حلقة ثانية في سلسلة الغدر الصليبي بحقوق بيزنطة . ظهر القادة الصليبيون أمام أسوار أنطاكية في ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧ . وكان في رفقتهم البريميكيريوس تاتيكيوس ، مندوب الإمبراطور البيزنطي ، على رأس الكتائب الإمبراطورية [١٨٨] .

كانت أنطاكية ، العاصمة السورية ، الكرسي الأسقفي القديم لأمير الرسل بطرس ؛ كما أنها كانت من أمنع القلاع التي وقعت في يد الأتراك . وكان حاكمها ياغي زيان يتوقع هجـوماً مباشراً على أسوار مدينته من جانب الصليبيين ؛ غير أن المشاحنة التي وقعت بين بوهمند وريموند من من سان جيل حالت دون هذا ، ولذلك فقد ضرب الصليبيون معسكراتهم خارج أسوار المدينة . وقرابة عيد الميلاد من نفس العام (١٠٩٧) كانت مؤن الصليبيين قد نفذت ، وكانت القرى المجاورة خالية من الطعام، وسرعان ما حلت المجاعة في المعسكر الصليبي . ويقال إن واحداً من كل سبعة منهم قد هلك جوعاً آنئذ . أما ياغي زيان فكان آمناً برجاله وراء أسوار أنطاكية ؛ كما أنه كان قد زود رجاله بمؤن تكفيهم مدة طويلة أثناء الحصار [١٨٩] . ولما اشتدت وطأة الجوع في المعسكر الصليبي دب اليأس في قلوب الجند والقادة ، فبدأ البعض في التسلل سراً والهروب ؛ وكان من بين الفارين وليم النجار وبطرس الراهب (يناير ١٠٩٨) . غير أن تانكرد تعقبهما وقبض عليهما ثم أعادهما ذليلين إلى المعسكر [١٩٠] . ولكن الفزع

---

(١٨٨) Alexiad, XI, iii, 4, p. 18.

(١٨٩) Kemal ad - Din, Chronicle of Aleppo, in R.H.C.OR., Vol. III, p.p. 578 - 79.

(١٩٠) Anonymous, pp. 76 - 78.

عاود يساور أفراد الحملة جميعاً عندما تواترت الأنباء عن قرب وصول جيش كبير إلى أنطاكية بقيادة كربوغة أمير الموصل .

بينما وقع قادة الصليبية فريسة للجزع والقلق ، راح واحد منهم يضع مخططاً لاستخدام هذه المحنة لتحقيق مطامعه الشخصية ؛ وكان هذا الانتهازى الكبير بوهمند ذاته .بعد واقعة **٣١** ديسمبر **١٠٩٧** التى هزم فيها الصليبيون هزيمة ساحقة ، أعلن بوهمند أنه عازم على العودة إلى غرب أوربا بحجة أن الحرب كلفته كل ثروته . على أنه أوضح لزملائه أنه قد يقبل البقاء معهم إذا وعدوه بتسليم أنطاكية إليه فى حالة فتحها من يد الترك (١٩١) . وكانت غالبية الزعماء ، باستثناء الكونت رايموند من سان جيل ، على استعداد لإعطاء بوهمند هذا الوعد ؛ على شريطة أن تكون كتائب بوهمند أول الكتائب فى دخول المدينة وقت الفتح .

بعد هذا راح بوهمند يعمل فى دهاء لتحقيق هذا الحلم الذى راوده منذ دخل آسيا الصغرى . وكان يدرك أن رايموند من سان جيل سوف يقف فى طريقه ، ولكن هذا الكونت لم يكن يمثل العقبة الكبرى أمام القائد النورماندى . وإنما رأى بوهمند بثاقب نظره أن الخطورة الكبرى التى تهدد أطماعه كانت تتمثل فى الفرقة البيزنطية المرافقة للحملة وفى زعيمها تاتيكيوس . ومن هنا راح بوهمند يعمل ما فى جهده لطرد تاتيكيوس من المسرح ليخلو له الجو تماماً لإنفاذ سياسته . وليس من قبيل الصدفة أن نجد الـ Gesta Francorum ، لسان حال الحملة النورماندية ، تشير إلى تاتيكيوس فى هذه المرحلة من الأحداث على أنه Inimicus ثم Mendax (١٩٢). وتروى آنا كومنينا أن بوهمند استدعى تاتيكيوس إلى خيمته وأعلمه أن أفراد الحملة جميعاً يرتابون فى نوايا الإمبراطور البيزنطى، وأن الأصابع تشير إليه بالخيانة الكبرى لأنه هو الذى حرض كربوغا التركى

(١٩١) Raymond of Aguilers, pp. 245 - 46.

(١٩٢) Anonymous, pp. 78 - 80.

على الزحف على أنطاكية لإبادة أفراد الحملة جميعاً ، وراح بوهمند – كما تقول آنا – يوضح للقائد البيزنطي أن الصليبيين قد عقدوا العزم على الانتقام من خيانة الإمبراطور في شخص ممثله ؛ أي تاتيكيوس ذاته . وهنا أدرك تاتيكيوس خطورة الموقف فسارع في انتحال الأعذار واختفى من المعسكر ، بعد أن وعد بالعودة محملا بالمؤن اللازمة (فبراير ١٠٩٨) (١٩٣) .

هذه القصة التي ترويها آنا كومنينا تبدو متساوقة مع سير الأحداث ، ولهذا فهي مقبولة تاريخياً ، وليس هناك من أسباب تدعوا إلى رفضها . وهنالك ما يؤيد هذه الرواية فيما كتبه رايموند آجوى في حوليته ؛ فهو يروى كيف أن تاتيكيوس اقترح على قادة الصليبية تشديد قبضة الحصار على مدينة أنطاكية غير أن اقتراحه قد رفض . كما يضيف قائلا بأن تاتيكيوس كان قبل أن يهرب من المعسكر الصليبي قد تخلى عن مدائن ماميسترا وطرسوس وأدنة إلى بوهمند (١٩٤) .

ومع أن ما يقوله رايموند عن تخلى القائد البيزنطي لبوهمند عن هذه المدائن أمر مستبعد ، إلا أن الحقيقة الثابتة هي أن بوهمند كان قد استدعى تاتيكيوس إلى اجتماع في خيمته ، وبعدها قرر تاتيكيوس الفرار (١٩٥) .

وصلت الأنباء قرابة نهاية عام ١٠٩٨ بأن كربوغا قد رفع حصاره عن مدينة الرها ، وبأنه في طريقه إلى أنطاكية . وكانت هذه الأنباء كافية لأن تثير الذعر في قلوب الصليبيين ، وفي الثاني من يونيو هرب القائد الشهير ستيفن من بلوا من المعسكر (١٩٦) وفي تلك الأثناء كان بوهمند قد وثق علاقات

(١٩٣) Alexiad, XI, iv, 3, pp. 20 - 21.

(١٩٤) Raymond of Aguilers, pp. 254 - 56.

(١٩٥) The "Gesta Francorum" (pp.78 - 80) pretends that Taticius had fled from cowardice, pretending to arrange for better provisioning of the army. But this story is not convincing, as Taticius left most of his staff behind with the army.

(١٩٦) Anonymous, p. 140.

الصداقة مع ضابط أرمينى اسمه فيروز ، الذى كان فى خدمة ياغى زيان حاكم أنطاكية . وكان فيروز هذا حاقداً على سيده التركى ، ويقال إنه قد استشاط غضباً عندما اكتشف أن أحد الضباط الترك قد اعتدى على عفة زوجته . وعليه فقد عرض فيروز على بوهمند أن يفتح له البرج المعروف ببرج الأختين الذى كان تحت حراسته وذلك الجزء من سور المدينة الذى كان تانكرد يعسكر أمامه .

كان بوهمند بهذا واثقاً من فتح المدينة ، ولكنه راح يعلن لزملائه اللاتين أن الأمور قد ازدادت سوءاً . وكان هدفه من وراء هذه السياسة الماكرة أن يجعل فتح المدينة على يديه –كما اتفق سراً مع فيروز– نصراً مؤزراً يقرن باسمه هو فحسب . ولذلك عندما أومأ بأنه قد يتمكن من غزو المدينة ، سارع أقرانه يعدونه بمنحه حكمها ، وذلك إذا فشل الكسيوس كومنين فى تحقيق وعده بالمجىء بجيشه لمساعدة الصليبية ضد الأتراك(١٩٧) .

على أنه بعد رحيل تاتيكيوس ، نتيجة للحيل التى اتبعها بوهمند تجاهه ، لم يعد ممكناً أن يثق الإمبراطور الكسيوس كومنين بالقادة الصليبيين أبعد من هذا . ذلك لأن الإمبراطور كان قد فقد الأمل فى نوايا الصليبيين ، وكانت شكوكه فيهم وفى مقاصدهم على حق . ولم تكن مأساة الرها بكافية لتقديم البرهان على غدر الصليبيين بوعودهم لبيزنطة ، وإنما جاءت أحداث أنطاكية لتؤكد سوء النية والجشع لدى الصليبيين ، وعلى رأسهم فريق النورمان بزعامة بوهمند وتانكرد .

كانت خيانة الضابط الأرمينى فيروز خير سهم فى يد بوهمند . فلقد سقطت أنطاكية بفعل هذه الخيانة فى يد الصليبيين فى ٣ يونيو ١٠٩٨(١٩٨) . ولم يفقد بوهمند لحظة من الوقت ، فسارع يرفع رايته على أعلى أبراج أنطاكية(١٩٩) .

---

(١٩٧) Ibid., pp. 100 - 102.
(١٩٨) H. Hagenmeyer, Chronologie, pp. 149 - 50.
(١٩٩) Anonymous, p. 108.

بعد سقوط أنطاكية فى أيدى الصليبيين بثلاثة أيام وصل كربوغا على رأس جيشه وبدأ فى حصار المدينة . وشن أمير الموصل هجوماً على المدينة ولكنه رد متكبداً خسائر فادحة . وعلى هذا فقد تقرر تشديد قبضة الحصار على أسوار المدينة مدة طويلة إلى أن تحل المجاعة بالصليبيين ، وعندها يقوم بمهاجمتهم . ولقد كانت هذه الخطة آية فى العبقرية والدهاء . فسرعان ما نفدت المؤن عند الصليبيين داخل المدينة وحلت مجاعة قاسية بهم ، هلك بسببها الكثيرون . وهنا هرب الكثيرون سراً من المعسكر ؛ وكان من بينهم وليم ؛ وأوبرى من جرانت مانسل ؛ ولامبرت كونت كليرمونت (١١ يونيو) (٢٠٠) . وفى لحظة اليأس هذه بدا للصليبيين أن الخلاص الأوحد من الكارثة المحتمة لن يتأتى إلا إذا زحف الإمبراطور الكسيوس كومنين بجيوشه ليهاجم أمير الموصل الذى كان قد أثقل عليهم فى محنتهم بهذ الحصار العنيد الطويل .

على أن الكسيوس فى تلك الأثناء لم يكن خاملا ؛ فمنذ أن سقطت نيقيا فى يده ، بمعاونة الصليبيين ، راح يعد العدة لتأديب خصمه الأكبر زاخاس أمير سميرنا السلجوقى . ولهذا سير حملة بقيادة يوحنا دوكاس ، يعضدها أسطول تحت إمرة كاسباس ، لمهاجمة هذا الأمير . ولقد أرسل الإمبراطور فى رفقة القائد دوكاس زوجة الأمير قلج أرسلان والتى كانت ابنة لزاخاس ، التى وقعت أسيرة يوم سقوط نيقيا ، لردها إلى والدها ولتسهيل مهمة الحملة البيزنطية (٢٠١) .

وعند وصول الكتائب الإمبراطورية إلى سميرنا ، سارع زاخاس يطلب الأمان له ولذويه مقابل تسليم المدينة لدوكاس . وقبلت هذه الشروط ، وعين كاسباس حاكماً على سميرنا ؛ غير أن أحد مواطنى سوريا هجم على الحاكم البيزنطى واغتاله (٢٠٢) . ترك دوكاس أسطوله ليحمى سميرنا ، ثم تقدم

(٢٠٠) Ibid., p. 126.

(٢٠١) Alexiad, XI, v, 2, p. 24.

(٢٠٢) Ibid., XI, v, 4, p. 25.

لمهاجمة افيسوس ، التى استولى عليها من حاكمها تنجر يبرن . وفى هذه الواقعة قبض دوكاس على عديد من الأسرى ، ثم قام بترحيلهم ، وفق أوامر الإمبراطور ، إلى منطقة الجزر[٢٠٣] . ولقد شجعت هذه الانتصارات المتلاحقة دوكاس على أن يتقدم إلى وادى نهر الماياندر ، حيث شن هجوماً على كل من فيلادلفيا ولامبيا وبوليبوتوس[٢٠٤] .

وقد تمت هذه العمليات العسكرية فى ربيع ١٠٩٨ ، وكان القصد منها تمهيد الطريق لحملة ضخمة يقودها الإمبراطور ذاته بغية مساعدة الصليبيين فى سوريا . وبالفعل فى بداية يونيو ١٠٩٨ قاد الكسيوس حملته ميمماً شطر أنطاكية لمؤازرة الصليبيين ضد الأتراك . وعند مدينة فيلوميلوم التقى الإمبراطور بكل من ستيفن من بلوا (فر من المعسكر الصليبى فى ٢ يونيو) ووليم من جرانت مانسل (هرب فى ١١ يونيو)[٢٠٥] . ولكى يبرر هذان الفاران فعلتهما ، وتغطية لعار الجبن ، أعطيا الإمبراطور صورة قاتمة تماماً عن الموقف فى أنطاكية ، فراحا يؤكدان أن الصليبيين لا بد وأنهم قد هلكوا جميعاً بسيوف كربوغا أمير الموصل ورجاله [٢٠٦] . ثم انبرى وليم يحدث الإمبراطور بأن بوهمند كان قد أقسم علانية بأنه سوف يدق عنق الإمبراطور إن اجترأ على الاقتراب من أنطاكية[٢٠٧] .

هنا توقف الكسيوس ليتدبر الأمر ملياً . لم يكن هنالك من الأسباب ما يجعله يكذب روايات ستيفن ووليم . وبناء على ذلك فإن أنطاكية لا بد وأنها قد وقعت فى قبضة كربوغا ، وهذا كان كفيلا بأن يشحذ همم سلاجقة قونية ليهبوا من جديد للانتقام من إذلال نيقيا فى شخص الإمبراطور وتخومه فى آسيا الصغرى . ولما كانت الأولويات فى نظر العاهل البيزنطى تتطلب

(٢٠٣) Ibid., XI, v, p. 26.

(٢٠٤) Ibid., XI, v, 6, pp. 26 - 27.

(٢٠٥) Anonymous, p. 140; Alexiad, XI, vi, 1, p. 27.

(٢٠٦) Anonymous, pp. 140 - 46.

(٢٠٧) Bibliothèque de l'Escurial, DIII, II; L. Brehier, op. cit., n. 9, p. 149.

منه المحافظة على سلامة وأمن دولته ، فإنه رأى فى مواصلة الزحف شطر أنطاكية ضرباً من الحمق بل الجنون السياسى . ولهذا فقد آثر التقهقر بقواته إلى عاصمته . وأثناء تقهقره أمر بتخريب المسالك لكى يعطل على الأتراك استخدامها فى هجومهم المرتقب ضد الأراضى البيزنطية .

كل هذا ورجال الصليبية الأولى كانوا من وراء أسوار أنطاكية يمنون أنفسهم بأمل وصول الامبراطور بقواته الجرارة لفك حصار كربوغا الذى كان قد أماتهم جوعا وإعياء . ولهذا عندما نما إلى سمعهم خبر تقهقر الإمبراطور واحجامه عن التقدم لإنقاذهم من محنتهم الكبرى ، نظروا إليه على أنه الخائن الأكبر لقضيتهم المصيرية . كما رأوا فى هذه السياسة خرقاً لاتفاق القسطنطينية المبرم فى عام ١٠٩٧ بينه وبينهم . وبطبيعة الحال لم يدر بخلد زعماء الصليبية أن الحرص الأول والأخير لدى الإمبراطور هو الحفاظ على رعاياه وعاصمته قبل كل شىء . وكانت هذه الفرصة الذهبية لبوهمند والعناصر المعادية للبيزنطيين فى الحملة ؛ فراحوا يندددون بالكسيوس وخيانته وجبنه ، كما نعتوا ببيزنطة بكل ما هو قمىء ورذيل .

على أن الأمور فى أنطاكية سارت على خلاف ما توهم ستيفن ورفيقه وليم . فقد دافع بوهمند دفاع الأبطال عن المدينة ؛ وسرعان ما دب الخلاف بين كربوغا وضباطه مما فت فى عضد حملته . ولعل أهم من هذا وذاك أن أحد الرهبان من پروڤنسال زعم أنه قد بشر فى رؤية بموضع الحربة المقدسة (التى طعن بها المسيح فى جنبه وقت الصلب) . وبالفعل تم اكتشاف الحربة على مشهد من جميع قادة الحملة والمندوب البابوى . وبعدها أعلن رجال الدين فى الحملة تباشير النصر ، مما شحذ الهمم من جديد ودارت رحى الحرب بينهم وبين كربوغا ، وكان أن دحرت قوات **أمير الموصل** بفعل الدعاية الدينية لهذه الحربة[٢٠٨] .

---

(٢٠٨) Raymond of Aguilers, pp. 253 - 55.

باءت حملة كربوغا بالفشل ؛ فى حين أن نجم بوهمند أخذ فى الصعود إلى القمة . على أن بوهمند وجد فى شخص الكونت رايموند من سان جيل منافساً عنيداً وخطيراً يبغى تعويق وإحباط مخططاته للانفراد بحكم مدينة أنطاكية . والغريب فى الأمر أن رايموند كان الأوحد من قادة الصليبية الذى رفض أداء يمين الولاء والطاعة لألكسيوس كومنين ، كما سبق أن بينا ، غير أنه الآن راح يتبنى قضية الإمبراطور ويدافع عن حقه فى مدينة أنطاكية . ويمكن تفسير هذا الموقف من جانب الكونت بغيرته الشديدة من النجاح الساحق الذى حققه بوهمند فى المعارك السابقة ، مما قلل من شأن رايموند كقائد عام للحملة الأولى . ولما احتدم النزاع بين القائدين ، تقرر عقد اجتماع لزعماء الحملة جميعاً لمطارحة موضوع أنطاكية . وهناك وقف رايموند يذكر زملاءه بأن بوهمند هو الذى كان قد ألح عليه فى عام ١٠٩٧ بأن يقسم على احترام شرف وحياة الإمبراطور البيزنطى أمامهم ، ثم أخذ يوبخ بوهمند فى حنوثه بعهده بمحاولته الاستيلاء على أنطاكية ، التى هى من حق الإمبراطور البيزنطى . وبعد نقاش طويل اتفق الجميع على إيفاد كل من هيو لى مينيه وبولدوين من مونز إلى القسطنطينية ليطلبا من الإمبراطور الحضور إلى أنطاكية ليتسلمها من القادة الصليبيين ؛ تنفيذاً لما اتفق عليه فى معاهدة ١٠٩٧ بينه وبينهم (٢٠٩) . على أن الأتراك هاجموا هذين الرسولين وهم بعد فى آسيا الصغرى ؛ واختفى بلدوين فى حين أن هيو لاذ بالفرار إلى القسطنطينية ، ومنها سارع للعودة إلى فرنسا .

* * *

وهنا يجب أن نقف قليلا للبحث فى موقف المندوب البابوى — أدهمار — تجاه الكنائس الشرقية . كان أدهمار دبلوماسياً رائعاً : فما أن فتح الصليبيون خطوط المواصلات بين سوريا وجزيرة قبرص ، حتى سارع إلى الاتصال بسمعان الثانى ، بطريرك أورشليم الأسبق ، والذى كان قد اعتزل منصبه ولجأ إلى جزيرة قبرص . والمعروف أن سمعان هذا كان قد كتب مقالا يهاجم فيه

(٢٠٩) Anonymous, p. 160.

الطقوس اللاتينية للكنيسة الرومانية ؛ غير أن حصافة أدهيار كانت كفيلة بأن تكسب ود سمعان وعطفه على الصليبية الأولى . ولذا نجد أنه فى أكتوبر ١٠٩٧ اشترك سمعان مع أدهيار فى كتابة رسالة إلى مواطنى شمال أوروبا يعلنان فيها انتصار الصليبية فى نيقيا ، ويحثان « المؤمنين » على حمل علامة الصليب والمسارعة لمساعدة إخوانهم فى الحملة الأولى ضد الأتراك (٢١٠). ولما نفدت المؤن من المعسكر الصليبى ، أرسل سمعان كميات ضخمة من الطعام والأنبذة من خيرات قبرص إليهم (٢١١) .

وفى يناير ١٠٩٨ أرسل سمعان باسمه وباسم رجال الدين البيزنطيين والأساقفة اللاتين المرافقين للصليبية الأولى إلى البابوية ، يعلنون فيها انتصار الحملة على الأتراك فى موقعتين صغيرتين ، ويحثون الكنيسة الغربية على بذل قصارى الجهد لإنجاح الحملة . والمدهش فى هذه الرسالة أن سمعان يخاطب « مؤمنى غرب أوربا » بصفته « زعيم الإكليروس الشرقيين والغربيين أيضاً » ؛ كما أنه يلقب نفسه « بالأسقف الرسولى » ؛ وأهم من هذا وذاك أنه يهدد بإنزال لعنة الحرمان على أى غربى يحنث فى وعده بحمل شارة الصليب (٢١٢).

وعندما استولى الصليبيون على مدينة انطاكية ، اتخذ الأسقف أدهيار الخطوات اللازمة لإعادة فتح الكنائس التى كان الأتراك قد عبثوا بها . ثم حرر البطريرك يوحنا من سجنه الذى وضعه فيه ياغى زيان . والحق أن يوحنا هذا كان قد قاسى الأهوال وقت حصار الصليبيين لأنطاكية ، إذ أمر ياغى زيان بوضعه فى قفص وتعليقه على أسوار المدينة على مرأى من الصليبيين .

على أن يوحنا الأنطاكى كان كارها للكنيسة الرومانية ، وكان يعيب عليها طقوسها وتحريفها لقانون الإيمان النيقى . ورغم هذا فإنه كان لا يزال معترفاً بأسقف روما . وما من شك فى أن أدهيار قد صادف صعوبات عند إعادة

---

(٢١٠) H. Hagenmeyer, Chronologie, p. 106.

(٢١١) Albert of Aix, p. 489.

(٢١٢) H. Hagenmeyer, op. cit., pp. 120 - 21.

يوحنا إلى منصبه فى أنطاكية . ولكن بوهمند والحزب المعادى لبيزنطة امتعضوا من سياسة أدهيمار هذه ؛ إذ رأوا فى وجود يوحنا بأنطاكية عقبة كؤوداً أمام مخططهم للاستيلاء على المدينة كلية من يد البيزنطيين(٢١٣) .

ترفى أدهيمار فى أول أغسطس ١٠٩٨ ، ودفن فى أنطاكية٢١٤ . ولقد بكاه الصليبيون بكاء مرًّا . غير أن واحداً بعينه شعر بارتياح شديد لوفاة القاصد الرسولى ، وكان هذا بطرس بارتيليميو ؛ الذى اكتشف « الحربة المقدسة » . والواقع أن بطرس هذا لم يغفر لأدهيمار ما قاله بأن هذه الحربة مزيفة وليست بالحربة الحقيقية . ومن المرجح أن المندوب البابوى كان قد شاهد بعينيه الحربة الحقيقية أثناء مروره بمدينة القسطنطينية ؛ ومن هنا راح يكذب روايات بارتيليميو .

ومهما كانت الأحوال ، فإن بارتيليميو الآن غدا يبشر بأن القديس أندراوس يتردد عليه فى منامه . وفى هذه المرة بالذات كان أدهيمار برفقة القديس أندراوس . أعلن أدهيمار لبارتيليميو أنه قد أسقط فى الجحيم لبضع ساعات بسبب ما سبق أن أبداه من شك فى موضوع الحربة المقدسة ؛ ولكن صلوات وتضرعات بوهمند المخلصة قد شفعت له فرفع من جهنم إلى النعيم . وراح أدهيمار يوجه رسالة خاصة إلى الكونت رايموند من تولوز بأن « حذار من مضايقة بوهمند ؛ ولتسلم إليه مدينة أنطاكية » . كما أصر القاصد البابوى على ضرورة تنصيب بطريرك لاتينى لكرسى مدينة أنطاكية بدلا من يوحنا البيزنطى (٢١٥) .

كان هذا بمثابة إعلان هام عن إرادة الله . وعلى هذا أصبح لبوهمند حق امتلاك أنطاكية بوحى من السماء ؛ وباتت نغمة الصليبيين تنعت بيزنطة وكنيستها ،وكذا سائر الطوائف المسيحية الشرقية بالهرطقة والانحراف .

---

(٢١٣) Aibert of Aix, p. 433.

(٢١٤) Raymond of Aguilers, p. 262; Anonymous, p. 160.

(٢١٥) Raymond of Aguilers, pp. 262 - 64.

وإنصافاً للواقع التاريخى ينبغى إلقاء الضوء على ثلاث وثائق معاصرة توضح فى جلاء مواقف كل من الكسيوس كومنين تجاه الصليبيين ، والعكس . كتبت اثنتان من هذه الوثائق قبيل استيلاء الحملة على أنطاكية ؛ فى حين خرجت الثالثة بعد سقوط المدينة .

فى رسالته الثانية إلى **أوديريزيوس** ، مقدم دير مونت كاسينو ، عدد ألكسيوى الخدمات التى قدمها إلى جموع الصليبيين من مال ومؤن وعتاد ونصح ؛ آملا فى نقاوة نيتهم وحسن ظنهم واحترامهم للعهد والميثاق(٢١٦).

الوثيقة الثانية هى رسالة موجهة من قادة الصليبية الأولى من معسكرهم خارج أسوار أنطاكية إلى « سائر المؤمنين » فى الغرب اللاتينى . وفيها يفصل أمراء الحملة نصوص المعاهد المبرمة بينهم وبين الكسيوس كومنين : « لقد ضمن لنا الإمبراطور سلامة عبور أراضيه وتعهد بإمدادنا بالمرشدين وبعض الكتائب والرهائن ؛ وتعهدنا من جانبنا بأن نعيد للإمبراطورية الأراضى التى نغزوها من الترك » .(٢١٧)

وجدير بالملاحظة أن نغمة المودة الواردة فى هذه الرسالة عند الحديث عن بيزنطة وإمبراطورها ، كانت دون شك من إملاء القاصد الرسولى أدهيمار الذى اتصف بالحصافة والدبلوماسية فى معاملاته مع الإمبراطورية الشرقية وكنائسها .

وعندما سقطت أنطاكية فى يد الصليبيين (أوائل يونيو ١٠٩٨) تغيرت الأحوال . كشف بوهمند صراحة عن عزمه فى الاستيلاء على أنطاكية لنفسه ؛ بعد أن تخلص من تاتيكيوس ممثل الإمبراطور البيزنطى . وجاءت رؤى بارتيليميو لتنفث كراهية « سماوية » ضد البيزنطيين وكنيستهم ؛ أغلب الظن بتدبير من بوهمند وعميله الراهب الحالم . وبموت أدهيمار فى أول أغسطس ١٠٩٨

---

(٢١٦) H. Hagenmeyer, Epistulae et Chartae, p. 152. The letter is dated June 1098.

(٢١٧) Ibid., p. 153.

خلى الجو تماماً لبوهمند والحزب المعادى لبيزنطة كى يسيروا الأمور حسبما يبغون . وكانت غالبية جماهير الحملة تشارك بوهمند سياسته العدائية تجاه القسطنطينية . وأصدق برهان على هذا تلك الرسالة التى كتبها قادة الحملة فى سبتمبر ١٠٩٨ إلى البابا أوربان الثانى ، والتى أمليت – أغلب الظن – بواسطة بوهمند ؛ منتهزاً فرصة موت أدهيمار ليقوم بدور المتحدث الرسمى للصليبية جميعها . والأسباب التى تدعونا إلى افتراض أن بوهمند هو الذى أملى صيغة هذه الرسالة هى الآتى :

١ – يطل اسم بوهمند فى عرض تلك الرسالة فى تأكيد غير عادى أكثر من مرة ؛ كما يصور فيها على أنه البطل الأوحد فى واقعة أنطاكية(٢١٨) .

٢ – يلاحظ أن قصة « الحربة المقدسة » التى اكتشفها بارتيلميو قد أعطيت تفصيلا فى هذه الرسالة ؛ مع أن أدهيمار – المندوب البابوى الراحل – كان قد كذب هذه الرواية .

٣ – يرد اسم بوهمند مرة أخرى فى الرسالة فى صورة « رجل الله » ، محطم الترك ، ومعيد كرسى القديس بطرس الرسول إلى خلفائه البابوات حفاظ الإيمان الواحد الوحيد . ولا يخفى هنا مقصد الزعيم النورماندى ؛ فهو يداعب أحلام البابوية فى إظهاره العزم على إعطاء كرسى أنطاكية لبطريرك لاتينى – لا يونانى – وفى تأكيده بأن عقيدة كنيسة روما هى وحدها العقيدة القويمة . كان بوهمند – بحق – يعرف من أين تؤكل الكتف(٢١٩) .

٤ – وهناك فى سطور هذه الرسالة عبارات تفيض كراهية وبغضاً للبيزنطيين بصفة خاصة وللطوائف المسيحية الشرقية بوجه عام : فالصليبيون يدعون البابا إلى القدوم إلى الشرق ليقود « رجال القديس بطرس » ، وعندها ينقضون على أهل الضلال والهرطقة لإبادتهم . وبعدها يتربع البابا على عرش وليه بطرس فى مدينته أنطاكية . ولا تخفى هنا رغبة كاتب الرسالة فى إزاحة

(٢١٨) Ibid., pp. 161-62.

(٢١٩) Ibid.

البطريرك البيزنطى الشرعى عن كرسيه ، وفى تحويل كنيسة أنطاكية إلى بطريركية لاتينية تخضع لروما مباشرة . وقد جاءت العبارة الأولى فى هذا النص لتؤكد أن الصليبية لم تكن لتهدف فقط إلى تحطيم قوة الترك ؛ وإنما أيضاً إلى إبادة الطوائف المسيحية الشرقية ؛ التى كانت فى نظر الغرب اللاتينى « مهرطقة » وضالة (٢٢٠) .

٥ — وفى نهاية الرسالة تشير أصابع الاتهام فى صراحة إلى الكسيوس كومنين على أنه قد خان قضية الصليبية وعرض جندها إلى التهلكة والأهوال (٢٢١) .

ولعله جدير بالملاحظة أن البابا أوربان الثانى قد عقد مؤتمراً فى مدينة بارى فى أكتوبر ١٠٩٨ ، حيث حضر بعض رجال الدين البيزنطيين ودخلوا فى جدل دينى مع اللاتين فى أمر انبثاق الروح القدس . وقد كان القديس انسلم رئيس أساقفة كانتربرى حاضراً فى هذا المجلس ، فطلب منه البابا أن يقف ليدافع عن كنيسة روما « سيدة الكنائس » ضد أغلاط البيزنطيين . ويقول مانسى إن البيزنطيين قد أذلو وهزموا فى هذا الجدل الذى دار حول الروح القدس (٢٢٢) .

* * *

لما علم الكسيوس بما تم فى أمر أنطاكية شعر بأن الصليبيين قد غدروا به ، وبأن المنح والأموال الطائلة التى قدمها لهم قد قوبلت من جانب أمراء الصليبية بالجحود والتحدى الصارخ . ولهذا رأى ضرورة اتخاذ خطوات حاسمة لاسترداد حقوق إمبراطوريته المغتصبة .

كانت بيزنطة على علاقات مودة مع الخلافة الفاطمية . وكان الكسيوس قد نصح الصليبيين بفتح المفاوضات مع القاهرة عند وصولهم سوريا . وبالفعل

(٢٢٠) Ibid.

(٢٢١) Ibid.

(٢٢٢) Mansi, Vol. XX, cols. 448-49.

وصلت سفارة من البلاط الفاطمى إلى معسكر الصليبيين أثناء حصارهم لأنطاكية . وعاد مبعوثوا الخليفة وبرفقتهم سفارة لاتينية (٢٢٣) .

ويبدو أن الأفضل ، الوزير الفاطمى ، قد رأى فى الصليبيين مجرد جند مرتزقة فى خدمة الإمبراطورية البيزنطية . ولكن فى أغسطس ١٠٩٨ فتح الفاطميون فلسطين ، والواقع أن الكسيوس كومنين قد ارتاح لسيطرة الفاطميين على فلسطين ؛ ذلك لأنه كان يوقن أن الرعايا المسيحيين هناك، سوف يكونون فى حال أفضل مما لو وقعوا تحت نير الصليبيين . وحدث أن وقعت بضع رسائل وافدة من الكسيوس إلى الخليفة الفاطمى فى يد الصليبيين ، وفسرها هؤلاء على أنها دليل دامغ على غدر وخيانة الإمبراطور البيزنطى لقضية الصليبية (٢٢٤) . وراحوا يدعون أن الكسيوس قد حرض الخليفة الفاطمى على أسر أعضاء السفارة اللاتينية فى القاهرة .

وفى أبريل ١٠٩٩ وصلت رسالة من الكسيوس إلى قادة الصليبية رداً على الرسالة التى حملها إليه هيومن ڤرماندوا . ولا يرد ذكر هذه الرسالة إلا فى حولية رايموند من آجوى ، التى نقلها عنه فيما بعد وليم الصورى . (٢٢٥) أعلن الإمبراطور فى هذه الرسالة أنه قادم إلى أنطاكية فى يوم عيد القديس يوحنا ، متعهداً بمعاونة الصليبيين إن هم أعادوا إليه مدينة أنطاكية .

كان الكونت رايموند من سان جيل الشخص الأوحد الذى رأى قبول عرض الإمبراطور ، غير أن رأيه قد أغفل ، وقررت الغالبية العظمى إهمال بيزنطة وإمبراطورها ؛ والعمل على فتح بيت المقدس دون تدخل من جانب البيزنطيين .

تم الغزو الصليبى المتبربر لمدينة القدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩ . وعملت

---

(٢٢٣) Historia Belli Sacri, in R.H.C. Occ., Vol. III, p. 181; Raymond of Aguikrs, p. 247.

(٢٢٤) Ibid., p. 277; Historia Belli Sacri, p. 189.

(٢٢٥) Raymond, P.278; William of Tyre, Historia Rerum in Partibus Transmariniae Gestarum, in R.H.C.Occ., I, p. 307.

سيوف الفرنجة فى رقاب الأهلين ، دون مراعاة لسن أو جنس ؛ وحتى الأطفال الرضع لم ينجوا من وحشيتهم ! ثم اختار الغزاة جودفرى دى بويون ملكاً على بيت المقدس بلقب "Advocatus Sancti Sepulchri" .

بعد واقعة عسقلان بين الصليبيين والجيش الفاطمى ، قرر عدد كبير من الصليبيين العودة إلى غرب أوربا ، وصحبهم رايموند من سان جيل ، الذى كان قد أقسم أن يقضى بقية عمره فى الأرض المقدسة ، حتى ميناء اللاذقية . وعند مدينة جبلة علم رايموند بأن بوهمند قد ضرب حصاراً حول مدينة اللاذقية ، التى كانت تحت سيطرة البيزنطيين . ولما كان رايموند كارهاً لبوهمند وأطماعه فقد عمل على معارضته وعرقلة مشروعه . وجدير بالملاحظة أن الذى شجع بوهمند على هجومه على أملاك بيزنطة وصول مندوب بابوى جديد هو دامبرت رئيس أساقفة بيزا ؛ الذى كان عدواً لدوداً لبيزنطة ، والذى كان قد عقد العزم على السيطرة الروحية والزمنية على الحركة الصليبية . وبوصول هذا القاصد البابوى الجديد ، بدأت صفحة جديدة من العدوان الصليبى على ممتلكات وحقوق بيزنطة فى الشرق .

الفصل الخامس

البابوية تبشر بحملة صليبية ضد بيزنطة

(١١٠٧)

وضحت نية كثلكة كنيسة سوريا مذ لحظة وفاة أدهمار القاصد الرسولى، فعندما استولى رايموند من تولوز على مدينة البارا، جنوبى شرق أنطاكية، رسم لها كاهناً لاتينياً هو بطرس من ناربون لمنصب الأسقفية. ومع أن بطرس هذا قد تمت سيامته على يد يوحنا بطريرك أنطاكية البيزنطى؛ إلا أن تنصيبه أسقفاً يدلل على بداية إرساء كنيسة لاتينية دائمة فى سوريا. كما أن هذا قد شجع الكثيرين من رجال الصليبية، الذين كانوا يشاطرون بطرس بارتيلميو آراءه، على المناداة جهـاراً بطرد الأكليروس الشرقيين من أبروشياتهم وأسقفياتهم وإحلال لاتين بدلاً منهم.

وعندما اختير أرنولف من روز بطريركاً لأورشليم، افتتح عهده بطرد القساوسة الشرقيين، الذين كانوا يمارسون شعائرهم كل مع طائفته على مذبح خاص بهم، من كنيسة القبر المقدس. وكان هؤلاء يمثلون فئات عدة من أغارقة أرثوذكس، وجورجيين وأرمن، إلى يعاقبة ونساطرة وقبط.

وكان حاكم بيت المقدس الفاطمى افتخار الدولة قد طرد المسيحيين كافة من مدينة أورشليم قبيل الغزو الصليبى لها. وبعد الغزو عاد هؤلاء المسيحيون آملين فى حرية ممارسة شعائرهم؛ غير أن ظنهم قد خاب عندما صادفوا تعصباً وقسوة من جانب اللاتين وعلى رأسهم البطريرك آرنولف. وهنا بات مواطنو القدس من النصارى يترحمون على عهد الفاطميين وحكمهم لهم فى تسامح زائد. وكان بعض هؤلاء النصارى قد حملوا معهم وقت طردهم على يد افتخار الدولة أعز أثر مسيحى

تملكه كنيسة أورشليم : خشبة صليب الصلبوت . وكان طبيعيًا أن يرفض هؤلاء تسليم هذا الأثر المقدس إلى البطريرك اللاتينى المغتصب الذى ابتلع كافة حقوقهم الشرعية فى موطنهم الأصلى . على أن آرنولف عمد إلى تعذيب زعمائهم حتى اضطرهم لأن يكشفوا عن مخبأ صليب الصلبوت(١) .

شعرت بيزنطة أن كرامتها وحقوق رعاياها قد أهينت وأهدرت فى كل من الرها وأنطاكية وبيت المقدس . وجاء القاصد البابوى الجديد دامبرت البيزى ليدبر لبيزنطة مكائد أخرى . فلقد هاجم أسطول بيزا ، بقيادة دامبرت بذاته ، جزائر سنت ماورا ، والهبتانيز ، وكيفالونيا ، وكورفو ، وليوكاس ، وزانتى ، كما أمر القائد بنهبها جميعاً .

أرسل الكسيوس كومنين كلا من تاتيكوس ولاندلب لمواجهة هذا العدوان الصليبى الجديد . ولحق الأسطول البيزنطى بأسطول بيزا ما بين رودس وباتراس ؛ غير أن عاصفة فجائية حالت دون التحام الأسطولين فى معركة فاصلة . وبعدها أبحر الأسطول البيزى إلى جزيرة قبرص ، حيث هرع حاكمها يوماثيوس فيلوكالس يصد هذا الهجوم (٢) . كان تاتيكيوس مسرعاً بأسطوله ليطارد هؤلاء القراصنة ، ولكن الأسطول البيزى شق طريقه حتى وصل الساحل السورى .

فى أثناء ذلك أرسل الكسيوس سفيره بوتوميتس إلى بوهمند فى أنطاكية لمفاوضته . غير أن الأمير النورماندى طرد السفير البيزنطى فى وقاحة زائدة ، متهماً إياه بالتجسس على الإمارات اللاتينية . ولما وصل المندوب البابوى الجديد إلى الشاطئ السورى ، طلب منه بوهمند معاونته بالأسطول البيزى فى حصار ميناء اللاذقية البيزنطى لقطع خطوط اتصال المدينة بجزيرة قبرص . وما أن بدأ الأسطول البيزى فى تنفيذ الخطة ، حتى وصل رايموند من تولوز إلى اللاذقية فى رفقة جماعة الصليبيين الذين قرروا العودة إلى غرب أوربا بعد إتمام فتح

(١) Foucher of Chartres, op.cit., pp. 309-10; William of Tyre, op. cit., p. 369.

(٢) Alexiad, XI, x,4, p. 43. Anna wrongfully dates the incident with the year 1103 instead of 1099.

بيت المقدس . ولما كان رايموند لا يقر بوهمند على سياسته العدائية تجاه حقوق بيزنطة ، فإنه استدعى دامبرت إلى اجتماع فى مدينة جبلة حيث عنفه لتعاونه مع النورمان ضد اللاذقية . غير أن المندوب البابوى راح يعتذر لنفسه معلناً أن أمير أنطاكية — بوهمند — قد أفهمه بأن البيزنطيين هم الأعداء الحقيقيون للصليبيين (٣) . وعندها اضطر المندوب البابوى إلى أن يرفع الحصار عن اللاذقية وإلى أن يتخلى عن معاونة بوهمند فى مخططه ضد المدينة .

وفى عيد ميلاد ١٠٩٩ قصد كل من بوهمند ودامبرت إلى بيت المقدس .

وكان بوهمند يوقن أن حجه إلى بيت المقدس أمر حتمى من أجل إعلاء شأنه وهيبته بين أقرانه فى الشرق اللاتينى ، وأيضاً فى الدوائر الدينية فى غرب أوربا اللاتينى . وفى مطلع ١١٠٠ عاد الأمير النورماندى إلى إمارته أنطاكية ، ماراً باللاذقية ، حيث كان رايموند من تولوز قد نصب معسكره بموافقة السلطات البيزنطية وتأييدها . ولما طاب بوهمند من رايموند تزويده ببعض المؤن اللازمة لرجاله وحاشيته رفض الأخير تلبية طلبه معتذراً بنقص المؤون المطلوبة فى المدينة (٤) وبعد ذلك شرع رايموند فى حصار مدينة طرابلس بمعونة القوات البيزنطية .

* * *

لا شك فى أن قلب الكسيوس كومنين بات يفيض مرارة بسبب الخذلان الذى أوقعه به جماعة الصليبيين ، بعد أن جاد بكل ما فى استطاعته من مال ومؤن للحملة فقوبل بنكران الجميل . والواقع أن الرسالة التى كان البابا أوربان الثانى قد بعث بها إلى الإمبراطور البيزنطى يوصيه فيها خيراً بأمراء الحملة الصليبية كانت قد بددت بعضاً من مخاوفه فى عام ١٠٩٥ ؛ ولكن بدت عبارات البابا عن « تقوى وورع وشهامة » بوهمند الآن مدعاة للغيظ والكراهية فى بلاط القسطنطينية (٥) فإن ذلك الرجل الذى امتدح البابا غيرته الدينية وخلقه الحسن الأحسن أضحى ينقض الآن على ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية علانية . ولم يكن

(٣) Albert of Aix, op. cit., p. 520.

(٤) Foucher, pp. 309 - 10.

(٥) The Pop's letter is in Mansi, Vol. XX, col. 660.

قانعاً بالاستيلاء — دون وجه شرع — على إمارة أنطاكية ؛ وإنما راح يهجم على المدائن البيزنطية والتركية على حد سواء .

فأطلق كتائبه لتخرب آباميا ، وحلب ، ومراش [٦] وكانت ماراش قد سلمت للسلطات البيزنطية فى أكتوبر ١٠٩٧ ، فعين الكسيوس كومنين أميراً أرمينيًا يدعى ثاتول لحكمها كتابع للإمبراطورية البيزنطية [٧]. وبينما كان بوهمند يضرب حصاره حول مدينة ماراش ، علم بأن ملك غازى محمد ، الذى تسميه الحوليات اللاتينية جوموشتيكين ، كان يزحف فى طريقه صوب مليتين ؛ التى كانت تحت إمرة جبرائيل الأمير الأرمينى . طلب جبرائيل النجدة من بوهمند ، واعداً بتسليم مدينته له مقابل العون ضد جوموشتيكين .

وقبيل رحيل بوهمند عن أنطاكية لمعاونة جبرائيل هذا ، خلع البطريرك البيزنطى يوحنا الرابع عن عرشه المشروع ، وعين بدلاً منه كنسيا لاتينيًا يدعى برنارد من فالنس ، الذى كان فى خدمة القاصد الرسول الراحل أدهيار ، والذى كان بوهمند قد اصطحبه معه فى رحلته إلى أورشليم حيث كرس أسقفاً على يد البطريرك اللاتينى الجديد للمدينة المقدسة . لجأ البطريرك البيزنطى الطريد إلى مدينة القسطنطينية حيث اعتزل منصبه ليترك الفرصة لغيره من الكنسيين البيزنطيين لمحاولة استعادة الحق المسلوب من الغاصبين اللاتين . ولاجدال فى أن طرد يوحنا الأنطاكى من كرسيه الشرعى يقف علامة مميزة لبداية قطيعة فعلية بين كنيسة أنطاكية الأرثوذكسية وبين كنيسة روما الغازية [٨] .

هزم بوهمند فى معركة مع الأمير غازى محمد ووقع أسيراً فى يوليو ١١٠٠ [٩] وقد استتبع هذا أن حدث تقارب بين الكونت رايموند من تولوز والإمبراطور

(٦) Mathew Matthew of Edessa, op. cit., pp. 229-30; Ibn al-Athir, op. cit., p.204

(٧) Matthew loc. cit.

(٨) Radulph af Caen, p. 704; v Grumel, "Les Patriarches d' Antioche an nom de Jean", in Echos d'Orient, XXXII, p. 298.

(٩) Ibn Khaldoun, p. 54; Ibn al-Athir, p. 203; Matthew of Edessa, p. 231; Ekkehard of Aura, Chronicon Universale, p. 330.

البيزنطى ، كلٌ يسعى إلى تحقيق أغراضه الخاصة أثناء غياب الزعيم النورماندى فى الأسر التركى . ولما جاءت الأنباء بوفاة ملك بيت المقدس اللاتينى جودفرى دى بويون ، فى ٨ يوليو ١١٠٠ ، أبدى رايموند رغبته الملحة فى أن يخلفه فى الحكم بلقب Advocatus Sancti Sepulchri (١٠) .

غير أن الأمور سارت على غير ما قصد إليه الكسيوس وحليفه رايموند : فلقد سارع بلدوين أمير الرها ، شقيق جود فرى الراحل ، إلى أورشليم حيث تمكن عن طريق الرشوة من أن يضع تاج مملكة بيت المقدس فوق رأسه وذلك فى ٢٥ ديسمبر ١١٠٠ (١١) . وفى نفس الوقت عمد القاصد البابوى الجديد ، الكاردينال موريس ، إلى استدعاء تانكرد ، ابن أخ بوهمند ، ليحكم إمارة أنطاكية بدلا من عمه الأسير (١٢) . وكان تانكرد أشد عداوة من عمه فى سياسته مع الإمبراطورية البيزنطية ؛ إذ افتتح عهده بالهجوم على مدائن طرسوسة وأدنه ومامسترا ؛ وبعد أن استولى عليها جميعها من السلطات البيزنطية تقدم ليحاصر ميناء اللاذقية .

أمام هذا العداء السافر قرر الكسيوس كومنين ضرورة قيادة حملة عسكرية لمواجهة الأطماع الصليبية فى سوريا . غير أن أخباراً وردت إلى العاصمة عن قرب وصول زحوف صليبية جديدة قادمة من غرب أوربا .

كانت الأنباء التى وصلت الغرب عن النجاح الذى أحرزته الصليبية الأولى فى الشرق ، بالإضافة إلى رسائل قادة الحملة المتتابعة للدوائر الكنسية اللاتينية طلباً فى المزيد من التعزيزات العسكرية ، إلى جانب الروايات الأسطورية التى راح الحجاج العائدون من الصليبية الأولى يقصونها على العامة والخاصة عن الأرض المقدسة والشرق الدافئ ... كانت كل هذه العوامل متضافرة مهمازاً جديداً فى العمل على جذب الكثيرين من أبناء غرب أوربا لحمل علامة الصليب والزحف نحو الشرق.

---

(١٠) Alexiad, XI, viii, 1, p. 36.

(١١) Matthew of Edessa, p. 231.

(١٢) H. Hagenmeyer, Chronologie, pp. 319 - 20.

وكانت أساطيل جنوة وبيزة قد وصلت بالفعل إلى ميناء بيريه ، فتصدى لها حاكم المدينة عندما سمع ربانها يتناولون بيزنطة وإمبراطورها بأقذع الشتائم والاتهامات . وعمد حاكم بيريه إلى تعطيل إبحارهم صوب الشاطئ السورى ، ولكن الإمبراطور أرسل إليه أمراً بعدم عرقلة خط مسيرهم . وإلى جانب هذه الحملات البحرية التى اتجهت نحو سوريا ، كان جيش صليبى كبير يزحف براً قبالة القسطنطينية فى طريقه إلى آسيا الصغرى . ففى الشهور الأخيرة من عام ١١٠٠ بدأ اللومبارديون زحفهم صوب الشرق . ثم أمضوا شتاء العام فى بلغاريا . وأرسل قادتهم إلى القسطنطينية يطلبون الإذن بعبور الأراضى البيزنطية ، فوافق الكسيوس على مطلبهم ، راجياً منهم عدم إيذاء الأهالى فى المدن التى يعبرونها . ورغم هذا أنقض اللومبارديون — دون مبرر واضح — على كل من رودوستو وديموتيكا وساليبريا وأدريانوبل وفيليبوبولس ونهبوها عن آخرها ؛ تماماً مثلما فعل من قبلهم فرسان صليبية ١٠٩٦ .

وصل هؤلاء المقاتلون الصليبيون إلى مدينة القسطنطينية فى مارس ١١٠١ . وكان الكونت رايموند من تولوز موجوداً بالعاصمة آنذاك ؛ مما سهل مهمة التفاوض بين زعماء الحملة الجديدة والإمبراطور البيزنطى (١٣). غير أن رجال الحملة سرعان ما انقضوا على تخوم العاصمة فنهبوها ؛ مما اضطر السلطات الإمبراطورية إلى أن تمنع تزويدهم بالمؤن اللازمة ؛ خاصة وأنهم رفضوا نصيحة الإمبراطور بعبور البسفور إلى آسيا الصغرى . هجم الصليبيون على مدينة القسطنطينية ، ولولا تدخل ووساطة كونت بلاندرات وأسقف ميلان لتمادى الصليبيون فى تحقيق غرضهم (١٤) وفى نهاية الأمر اقتنع القادة بضرورة العبور إلى آسيا الصغرى .

تبع هذا وصول حملة جديدة بقيادة ستيفن من بلوا . وستيفن هذا هو الذى كان قد فر من معسكر أنطاكية وعاد سراً إلى غرب أوربا . غير أن زوجه أديلا احتقرته لهذا المسلك الدنئ ونصحته بضرورة العودة إلى الشرق لإنقاذ سمعة العائلة النبيلة التى ينتمى إليها (١٥). وكان فى رفقة ستيفن هذه المرة كل من

(١٣) Albert of Aix, p. 562.
(١٤) Ibid.
(١٥) Orderic vitalis, p. 118.

هيو من جراندبرا ، وهيو من بروى ، وهيو من بيرفوند ، وأسقف سواسون ، وأخوان لكونت بلاندرات [١٦]. كذلك قدم مهم كونراد ، كونستابل الملك الألمانى هنرى الرابع [١٧] .

اقترح الكسيوس على زعماء الصليبية الجديدة أن يتركوا أمر قيادتهم وتوجيههم إلى الكونت رايموند من سان جـ ل الذى كان قد اكتسب خبرة واسعة عن جغرافية وأحوال آسيا الصغرى . كما وعد بإمدادهم بفرقة من الجنود التركوبول تحت قيادة تزيتاس . ويروى أوردريك فيتالس كيف أن الكونت رايموند رفض فى بداية الأمر الاضطلاع بمهمة القيادة فهاج الصليبيون وانقضوا على أسوار مدينة القسطنطينية ، مما اضطر الكسيوس لأن يواجه هذا التحدى مستعيناً على حد قول نفس المصدر ببعض الأسود والنمور فى الدفاع عن مدينته [١٨] . وعرض ستيفن من بلوا أن يتبع الصليبيون نفس الطريق الذى اتبعته حملة ١٠٩٧ ، ووافق الكسيوس على هذا الرأى غير أن الصليبيين رفضوا هذا الرأى وقرروا الزحف شرقاً نحو خرسان [١٩] بغية تحرير بوهمند من الأسر التركى . وفى نهاية الأمر وافق رايموند على أن يقود الحملة .

تحرك الصليبيون من نيقوميديا فى مطلع يونية ١١٠١ متبعين الطريق الحربى المؤدى إلى آنسيرا [٢٠]. وكان عليهم عبور منقطة بافلاجونيا الجبلية . ولقد وصلوا إلى آنسيرا فى الثالث والعشرين ، ومنها تقدموا إلى جانجر ثم إلى كاستامونى شمالا . وكان عليهم أيضاً عبور نهر قزل إرمق للوصول إلى آمازيا .

لما وصلت أنباء قدوم حملة صليبية جديدة إلى الشرق نفض الأمراء الأتراك خلافاتهم الشخصية جانباً وتضافروا جميعاً لمقاتلة هذا العدوان الغربى الجديد .

---

(١٦) Ekkehard, p. 225.

(١٧) Albert of Aix, pp. 562 - 63.

(١٨) Orderic Vitalis, p. 120; Albert of Aix, loc. cit.

(١٩) For Khorasan was believed by the Westerners to be the home of the Seldjuk Turks. When Pope Urban II preached the Crusade at Clermont he spoke of the Turks as Persians.

(٢٠) Alexiad, XI, viii, 2, p. 37; Orderic Vitalis, p. 126.

ولهذا فإن قوات كل من ملك غازى محمد ، وقلج أرسلان ، والأمير رضوان حاكم حلب تجمعت تحت راية واحدة فيما بين آمازيا وسيوة . ومن هناك انقضوا على العدو الصليبى وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة . فزع الصليبيون من هذا الهجوم المفاجىء ففرت غالبيتهم صوب سينوب التى كانت فى يد السلطات البيزنطية . أما عن قائدهم رايموند من سانجيل فقد هرب إلى بافيارا على البحر الأسود[٢١]. ولم يتمكن الهاربون من سيوف الترك الوصول إلى بيزنطة حتى نهاية عام ١١٠١ [٢٢]. ويتهم أوردريك فيتالس الكونت رايموند بالخيانة العظمى طبقاً لمخطط مدبر بينه وبين الكسيوس [٢٣].

بعد ذلك وصل جيشان صليبيان آخران من الغرب : الأول بقيادة وليم كونت نيڤيرز ، والثانى بقيادة كل من وليم التاسع الأقطانى ، وولف الرابع دوق باڤاريا . وكان الجيش الأول منظماً إذ لم يقدم جنده على أعمال الفوضى والنهب للأراضى البيزنطية ، ولهذا فقد أكرم الكسيوس وفادة القائد وليم ، وأمده ببعض الجند البزنطيين[٢٤] . ترك وليم مدينة القسطنطينية فى ٢٣ يونيو آملا فى اللحاق بالجيوش التى سبقته إلى آسيا الصغرى . وعند آنسيرا اكتشف أنه ليس بمقدوره اللحاق بهم فيمم هو ورجاله شطر قونية . غير أن الأتراك هجموا عليه بقيادة قلج أرسلان وملك غازى عند هرقلية . وكانت الهزيمة تامة ؛ ففر الكونت إلى جرمانكوبولس [٢٥]. وتعقبه الأتراك وألحقوا به هزيمة أخرى عند حصن القديس أندراوس ، وبعدها انسل الكونت إلى أنطاكية [٢٦] .

أما الجيش الثانى الذى كان بقيادة وليم الأقطانى وولف الرابع ، فمعلوماتنا عنه أكثر وضوحاً بفضل ما كتبه عن الحملة أحد الذين شاركوا فيها ، وهو إيكهارد من أورا . وكما حدث من قبل اتخذت السلطات الإمبراطورية كافة

---

(٢١) Albert of Aix, p. 568.
(٢٢) Alexiad, XI, viii, 5, p. 38.
(٢٣) Orderic Vitalis, loc. cit.
(٢٤) Albert of Aix, pp. 574 - 78.
(٢٥) Ibid.
(٢٦) Ibid., p. 579.

احتياطاتها بأن أوفدت السفراء لملاقاة القادة الصليبيين ولإقناعهم بضرورة مراعاة النظام أثناء عبورهم لأراضى الإمبراطورية . وفى نفس الوقت صدرت الأوامر إلى كتائب البشنق لمراقبة سلوك الجيش الصليبى . ورغم هذا فقد هجم الصليبيون على مدينة أدريانوبل للاستيلاء عليها ونهبها(٢٧) .

على أن إيكهارد يناقض نفسه فى حوليته عند الكلام عن بيزنطة وإمبراطورها : فهو إذ يطلق لسانه ضد البيزنطيين وسيدهم ، يشير فى أكثر من مكان إلى غلظة وعجرفة أهالى أقطانيا ؛ التى كانت — دون نزاع — سبباً فى التوتر الذى ساد بين الطرفين . يضاف إلى هذا أن الكاتب بذاته يعترف بأن الكسيوس عامل قادة الحملة وكأنهم أبناء له ؛ ويمضى نفس المصدر ليؤكد أن الكسيوس أجبر رجال الحملة على العبور إلى آسيا الصغرى كارهين ؛ وأن المفاوضات بين الطرفين كانت تتسم بالغموض والتمويه بسبب الالتواء المعهود فى الخلق البيزنطى(٢٨) .

ويروى إيكهارد أيضاً أنه فى تلك المرحلة بالذات راجت اشاعات مؤداها أن الكسيوس — الذى كان يفضل عنصر الترك على بنى الفرنجه — قد اتفق سراً مع الأتراك على إبادة الصليبيين فى آسيا الصغرى . ويضيف بأن العقلية البيزنطية كانت ترى فى الصليبيين والترك « مجرد كلاب مسعورة » ينهش الواحد منهم فى لحم الآخر . ومن مزاعم نفس المصدر أيضاً أن الإمبراطور البيزنطى كان قد عقد النية على حمل « الحجاج » (الصليبيين) على ظهر بعض سفنه ثم الإلقاء بهم فى قاع اليم(٢٩) .

ورواية إيكهارد هذه حلقة من حلقات العداء اللاتينى والدعاية الفرنجية ضد بيزنطة وإمبراطورها ؛ وتعتبر ترديداً لما ورد فى رسالة بوهمند إلى البابا أوربان التى تحدثنا عنها سالفاً . ولم يكن إيكهارد بهذا بعيداً عن تصوير مشاعر الدوائر الكنسية والعلمانية فى غرب أوربا تجاه الدولة البيزنطية ؛ فبنفس العقلية والاتجاه افتتح الرسول البابوى دامبرت عهده فى سوريا . والحقيقة أن بيزنطة قد

(٢٧) Ekkehard, op. cit., pp. 219-20.
(٢٨) Ibid.
(٢٩) Ekkehard, loc. cit.

فجعت لما شاهدته ولمسته من إجرام صليبي ضد أهالى الإمبراطورية وأيضاً ضد جيرانها المسلمين .كما أن أحداث الرها وأنطاكية وبيت المقدس واللاذقية أعادت للبيزنطيين الذكريات القديمة لهجمات الجرمان المتبربرين على الإمبراطورية . ولم تنطل شعارات الصليبية على رجل من طراز الكسيوس كومنين ولا على الرأى العام فى الإمبراطورية الشرقية ؛ وأيقن الجيع فى الشرق أن هؤلاء المقاتلين الذين يحملون شارة الصليب أبعد ما يكون عن الخلق المسيحى الصحيح وعن الرسالة المسيحية الحقة . ومن هنا اتسمت العلاقات بالتوتر بين الطرفين ، إذ لم تسمح السلطات البيزنطية لنفسها أن تتعاون مع هؤلاء « البرابرة » فى مشروعاتهم التوسعية وفى اضطهادهم المتعنت للسلمين وأيضاً للطوائف المسيحية الشرقية التى نعتها الصليبيون بالهرطقة والانحراف .

على أية حال حل بدوق أقطانيا ورجاله ما سبق أن حل بمن سبقوهم فى آسيا الصغرى ؛ إذ انقض عليهم ملك غازى محد وأمير حوران عند إرجلى وفرقوا شملهم . وبعدها نجح الدوق ولیم فى الفرار إلى لونجنادا ، ومنها إلى مدينة أنطاكية(٣٠) .

على أن أمواج الصليبيين الوافدة من الغرب لم تقف عند حد . ففى عام ١١٠٢ قدم جيش اسكندنافى بقيادة الملك إرك الطيب . والمعلومات التى لدينا عن هذه الحملة أقرب ما تكون إلى الأساطير . ومن الصفحات القلائل التى كتبها المؤرخ Riant عن هذه الصليبية نعلم أن أزمة ما قد نشبت بين الزعيم الإسكندنافى والإمبراطور البيزنطى ، أغلب الظن بسبب الشكوك التى ساورت الكسيوس بأن ضيفه المرموق كان يحاول سراً أن يحرض أفراد الحرس الإمبراطورى من المرتزقة الغربيين ضد بيزنطة(٣١) .

* * *

(٣٠) Albert of Aix, pp. 581 - 82.

(٣١) P. Riant, Expeditions et Pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte au Temps des Croisades, Paris, 1865, pp. 159 - 61.

لما علم تانكرد – حاكم أنطاكية – بعلاقات المودة بين الكسيوس ورايموند من سان جيل ، قرر الانتقام من الأخير وتقليم أظافره . وعند عودة رايموند من القسطنطينية بحراً ، رسى فى ميناء سانت سيميون ؛ وهناك وقع فى يد شخص يدعى برنارد الغريب الذى أسلمه إلى تانكرد . وزج به تانكرد فى السجن على زعم أنه قد قام باتصالات مريبة مع العدو البيزنطى (٣٢) . غير أن رجال الدين اللاتين توسطوا فى الأمر ، وأطلق تانكرد سراح أسيره بعد أن تعهد له بعدم المساس بأمور إمارة أنطاكية مستقبلا (٣٣) .

غير أن هذه الحادثة المهينة قد ضاعفت من كراهية رايموند لتانكرد ولعمه بوهمند ، الذى كان لا يزال فى الأسر التركى . ولهذا ما أن تمكن رايموند من إعادة تنظيم رجاله حتى زحف إلى تارتوز ليستولى عليها . وبمعونة أسطول جنوة تمكن رايموند بالفعل من الاستيلاء على المدينة ، التى كانت النواة الأولى لإمارة طرابلس اللاتينية (٣٤) . بعد ذلك استولى الكونت على أنتارتاس وحصن الأكراد ، وذلك فى سبتمبر ١١٠٢ . ثم بدأ فى حصار طرابلس ، كما نجح فى احتلال حمص عند موت أميرها شفاء الدولة . والواقع أن ذلك النجاح الذى أحرزه رايموند فى سوريا يرجع فى الدرجة الأولى إلى المعونة الصادقة التى أمده بها الكسيوس كومنين ، خاصة ما قام به الأسطول البيزنطى لجزيرة قبرص من تزويده بالإمدادات اللازمة عن طريق البحر (٣٥) .

وعندما تقدم تانكرد لحصار اللاذقية هرع رايموند من معسكره حول طرابلس لمساندة السلطات البيزنطية فى المدينة ضد الحصار النورماندى ؛ غير أن المدينة سقطت فى يد تانكرد فى النصف الثانى من عام ١١٠٢ . والحق أن نفوذ تانكرد كان آخذاً فى الازدياد بصورة مذهلة فى سوريا ، فإلى جانب الثراء الذى تميزت به إمارته الإنطاكية نجح فى توسيع سلطانه حتى امتد إلى

---

(٣٢) Albert of Aix, p. 582.
(٣٣) Ibid.
(٣٤) Ibn-Khaldoun. op. cit., p. 60.
(٣٥) Alexiad, XI, 6, p. 35; Ekkehard, p. 238.

حلب ، ذلك لأن أميرها رضوان قد اضطر إلى دفع ٧٠٠٠ قطعة ذهبية للأمير النورماندى بغية تجنب هجوم على مدينته (٣٦) . وبسقوط اللاذقية فى يد تانكرد ضمن لإمارته سهولة الاتصال بحراً بغرب أوربا .

بات النفوذ النورمانى الصليبى فى إمارة إنطاكية يهدد حقوق ومصالح الإمبراطورية البيزنطية بشكل مباشر . ولم تجد المفاوضات الودية التى أجراها الكسيوس مع الأمراء النورمان ، بل تبين له من خلالها أن سياسة كل من بوهمند وتانكرد قبالة بيزنطة كانت مضيا صريحاً فى سياسة روبرت جويسكارد العدوانية ضد المصالح البيزنطية بل والكيان الإمبراطورى ذاته . ولهذا فقد فتح الكسيوس كومنين باب المفاوضات مع الأمير ملك غازى محمد مستهدفا الحصول على شخص بوهمند من الأسر ليصبح لديه رهينة هامة تعينه على تسوية المسألة الأنطاكية . غير أن الأمير الأرمينى كوج فازل قام بافتداء بوهمند من الأسر وأطلق سراحه فى صيف عام ١١٠٣ . وجدير بالملاحظة أن تانكرد لم يكن قد فكر فى افتداء عمه من الأسر ؛ بل المرجح أنه كان يشعر بالامتعاض وهو يسلم مقاليد أنطاكية والفتوحات الجديدة إلى بوهمند . ولقد تصادف إطلاق سراح بوهمند مع ضحى الفتح النورماندى لمدينة اللاذقية البيزنطية (٣٧) .

أرسل الكسيوس رسالة إلى بوهمند يذكره فيها باليمين الذى كان قد أقسمه له ويطالبه برد الأراضى البيزنطية التى استولى عليها هو وتانكرد (٣٨) . غير أن بوهمند رد عليه بالرفض الرسمى متهماً بيزنطة وإمبراطورها بخرق إتفاقية ١٠٩٧ ، وأيضا بالخيانة والجبن (٣٩) . من أجل هذا أرسل الإمبراطور حملة بقيادة بوتوميتس وموناستراس لمهاجمة كيليكيا . وقد نجح القائدان البيزنطيان فى تأسيس عدة مواقع دفاعية وهجومية فى إقليم ماراش ، وبعدها عادا إلى العاصمة

(٣٦) Kémal ed-Din Extraits de l'Histoire d'Alep - in Defremery's Mélanges d'Histoire Orientale, Paris, 1849, p. 50.

(٣٧) Alexiad, XI, ix, 1, p. 39.

(٣٨) Ibid.

(٣٩) Ibid.

(١١٠٣)[٤٠] . غير أن مطلع عام ١١٠٤ شهد سقوط ماراش فى يد جوسلين حاكم تل بشير[٤١] . وقد حدث فى نفس الوقت أن هزمت القوات التركية الجيوش الصليبية المتحالفة فى واقعة حران[٤٢]. وتبع هذا أن حض الترك شعوب سوريا وكيليكيا على الثورة ضد الحكم الصليبى . وما أن اندلعت الثورة فى كيليكيا حتى سارعت الجيوش البيزنطية فاحتلت طرسوسة وأدنة ومامسترا . وفى نفس الوقت تقدمت الجيوش التركية حتى مشارف آرتوس ، مما بات يهدد أنطاكية ذاتها . كذلك ألحق الترك هزيمة ساحقة بحاكم الرها بلدوين ووقع أسيراً فى يدهم . ولما تولى تانكرد حكم الرها ، هجم عليه الترك مرة أخرى فاضطر إلى طلب المعونة من عمه بوهمند . ولما تقدم بوهمند لمساعدة ابن أخيه فى الدفاع عن الرها ، زحف البيزنطيون للاستيلاء على اللاذقية ، يساعدهم فى ذلك الكونت رايموند من سان جيل . على أن الزعيم النورماندى انقض برجاله على البيزنطية ورايموند واستعاد اللاذقية بقوة السيف[٤٣] .

ورغم هذا فقد أدرك بوهمند أنه ليس ندا لخصمين قويين : الأتراك من جانب والبيزنطيين من جانب آخر . ولذا فقد قرر العودة إلى غرب أوربا ، تاركاً تانكرد وصياً على إمارة أنطاكية ، بقصد التبشير بصليبية جديدة . على أن هذه الصليبية التى كان يخطط لها بوهمند كان الهدف الأول والأخير لها تدمير القسطنطينية وخلع إمبراطورها « الخائن » ؛ وذلك حسماً للأوضاع المعقدة فى الشرق اللاتينى . وبهذا المشروع الضخم فى فكره أبحر بوهمند فى الشهور الأخيرة من عام ١١٠٤ فوصل أبوليا فى يناير عام ١١٠٥ .

هبت أوربا اللاتينية عن بكرة أبيها لاستقبال البطل الأول للصليبية الأولى . وكانت سيرة بوهمند وأعماله البطولية وشبه الأسطورية قد سبقته إلى

(٤٠) Ibid, XI, ix, 4, p. 41.

(٤١) Matthew of Edessa, p. 257.

(٤٢) Abu' l Feda, p. 343; Ibn al-Athir, p p. 221 - 23.

(٤٣) Alexiad, XI, xi, 6, p. 48.

عواصم الغرب اللاتيني وراح الناس يرددونها فى كل مكان . وكان الزعيم النورماندى غاية فى الدهاء ، فكان قد أهدى إلى كنيسة القديس نيقولا فى مدينة بارى خيمة الأمير التركى كربوغا التى وقعت فى يده(٤٤) .

والآن عاد بوهمند محملا بالوفير من آثار الأرض المقدسة وأيقوناتها ليهديها إلى الدوائر الكنسية والعلمانية المرموقة صاحبة الكلمة فى غرب أوربا . ويقال إنه قدم إلى كنيسة القديس سابينوس فى كانوسا شوكتين من إكليل الشوك الذى توج به اليهود المسيح وقت صلبه ، تحملان آثار دم الفادى العظيم(٤٥) ويقول صاحب كتاب Historia Belli Sacri بأن الجماهير قد توافدت لتحملق فى وجه بوهمند « ولكأنهم يرنون بأبصارهم قبالة المسيح ذاته »(٤٦).

أمضى بوهمند بعضاً من عام ١١٠٥ فى الإشراف على بناء أسطول قوى . ثم أوفد سفراءه إلى بلاط إنجلترا للتمهيد لزيارة كان يزمع القيام بها إليها . على أن الملك هنرى الأول لم يشجع إتمام هذه الزيارة خوفاً من مسارعة العديد من الفرسان الإنجليز للانضمام إلى صليبية بوهمند ، ولذا فقد اقترح مقابلته فى فرنسا (٤٧) . وفى سبتمبر ١١٠٥ قام بوهمند وصديقه دامبرت — المندوب البابوى — بمقابلة البابا الجديد باسكال الثانى .(٤٨) وكان باسكال من المتحمسين للغاية للحركة الصليبية ، فنجده فى رسالة مؤرخة بديسمبر ١٠٩٩ يحض رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمى الأديرة فى فرنسا على استنفار الجماهير لحمل شارة الصليب والزحف نحو الشرق لمساعدة مملكة بيت المقدس الصليبية . أما هؤلاء النفر الذين قد هربوا من معسكر أنطاكية فإن البابا هددهم بلعنة الحرمان الكنسى ما لم يبادروا بالعودة إلى سوريا لإنقاذ

(٤٤) Historia Belli Sacri, p. 206.

(٤٥) Angelus Andrea Tortora, Relatio status S. Primatialis Ecclesiae Canusinae seu Historia, Rome, 1768, p. 180.

(٤٦) Historia Belli Sacri, p. 228.

(٤٧) Orderic Vitalis, p. 210.

(٤٨) Historia Belli Sacri, p. 228.

سمعتهم[٤٩] . وتلبية لرغبة البابا أرسل ماناسيس رئيس أساقفة ريمز رسالة إلى لامبرت أسقف آراس يأمره بفرض الصيام على رعاياه وجمع التبرعات من أسقفيته لخدمة قضية الكنيسة ضد العدو وضد زيغ وأباطيل الطوائف المسيحية المهرطقة فى الأرض المقدسة[٥٠] .

وفى أبريل ١١٠١ كتب البابا باسكال الثانى إلى الصليبيين فى الشرق يخاطبهم على أنهم « أبطال آسيا » . ونجده فى هذه المكاتبة يعين موريس كاردينال بورتو قاصداً بابويا جديداً ، له سلطان على أمراء الحملة وأساقفتها وسائر المؤمنين المشاركين فيها . وكانت من مهام القاصد البابوى الجديد تنظيم شئون الكنيسة التى حررها « الأبطال الفرنجة » من أغلال العدو[٥١] .

كان موقف باسكال الثانى تجاه بيزنطة يتسم بالكراهية والمعاداة ، ففضلا عن نظرته إلى بطريركية القسطنطينية على أنها منشقة ومنحرفة ، فإنه رحب بالأنباء والإشاعات المروجة عن خيانة بيزنطة وإمبراطورها لقضية الحركة الصليبية . ولقد زاد من هذا الشعور لدى البابا وكرادلته ما ورد من ضغائن واتهامات ضد بيزنطة فى كتاب Gesta Francorum الذى حمله بوهمند معه فى رحلته إلى غرب أوربا . كذلك راحت الدوائر الكنسية والعلمانية فى الغرب تؤكد أن المذبحة التى حلت بصليبية ١١٠١ فى آسيا الصغرى كانت من تدبير الخيانة البيزنطية . ولم يكن هذا الشعور قاصراً على عواصم غرب أوربا ، بل إننا نجد أن بلدوين ملك بيت المقدس يرسل سفارة إلى القسطنطينية يحذر بها الكسيوس من العمل على تدمير الفرنجة ومن خلق العقبات أمامهم خاصة فى استرداد ما فقدوا من أراضٍ للأتراك[٥٢] . وحدث أن زار ماناسيس أسقف بارزينونا[٥٣] الكسيوس كومنين فى عاصمة ، وطلب الإمبراطور من

---

(٤٩) H. Hagenmeyer, Epistulae et Chartae, pp. 174 - 75

(٥٠) Ibid., p. 175.

(٥١) Ibid, pp. 178 - 79.

(٥٢) Albert of Aix, pp. 582 - 85.

(٥٣) Ibid.

الأسقف اللاتينى مقابلة البابا لإقناعه ببراءة بيزنطة من الاتهامات المنسوبة إليها فيما يتصل بفشل صليبية ١١٠١ ، غير أن الأسقف نكص بوعده وراح يقص على مجمع عقده البابا فى بينيفنتو (١١٠٢) روايات خيالية عما أسماه « خيانة البيزنطيين » وجرمهم (٥٤) .

باتت سمعة الكسيوس كومنين وإمبراطوريته تنتهك فى غرب أوربا ، لا على ألسنة حزب بوهمند فحسب ، وإنما بفعل الدعاية العدائية للدوائر الكنسية اللاتينية فى الشرق والغرب . والواقع أن الفرنجة بصفة عامة كانوا ينظرون فى ازدراء شديد إلى البيزنطيين من قبل قيام الحركة الصليبية ، فكان الرأى السائد عند اللاتيين أن هذا الجنس جبان ومخاتل وأيضاً مخنث . وظلت هذه الفكرة سائدة حتى إننا نجد أسقفاً من طراز وليم الصورى ، الذى قضى وقتا طويلا فى الشرق والذى تلقى كرماً وهدايا بالغة من البلاط البيزنطى ، راح هو أيضا ينعت البيزنطيين بالمداورة والمخاتلة والتضليل فى معاملاتهم الدبلوماسية مع الغرب (٥٥) .

على أنه إنصافاً للواقع التاريخى ينبغى أن نقرر أن المصادر الغربية على مختلف مشاربها قد جانبت الحق ، فألكسيوس كومنين هو الذى أرسل سفارة إلى الخليفة الفاطمى تعرض عليه افتداء الأسرى اللاتين فى القاهرة (٥٦) . كما أن الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع طلب منه افتداء كونستابله كونراد . ولقد رفض الخليفة الفاطمى قبول المال من العاهل البيزنطى وأرسل إليه جل الأسرى الصليبيين ليتصرف فيهم كيفما شاء . واستقبل الكسيوس هؤلاء الأسرى بالترحاب والإكرام ووزع عليهم الصدقات والكسوة وأرسلهم إلى مواطنهم فى الغرب لعلهم يقدمون الدليل على نواياه الطيبة . ولكن الذى

---

(٥٤) Annales Beneventani, in M.G.H.SS., Vol. III, p. 183.

(٥٥) William of Tyre, op. cit., p. 587.

(٥٦) Alexiad, XII, 3, p. 54.

حدث أن قوبل هذا العطف بنكران الجميل وبحملة من التشهير والافتراء على الإمبراطورية الشرقية .

كان بوهمند عازماً على تحطيم بيزنطة بصليبيته الجديدة . وجاء التأييد البابوى لهذه الحملة ليسبغ عليها صفة الحرب المقدسة اللاتينية ضد الإمبراطورية البيزنطية . ولهذا فقد قدم باسكال الثانى راية القديس بطرس إلى بوهمند عشية تبشيره بالحملة الجديدة ، كما أرسل برفقته الكاردينال برونو أسقف سيجنى ، الذى كان من حزب أوربان الثانى ، مندوبا بابوياً. وصدرت الأوامر البابوية بالتبشير بالصليبية الجديدة فى سائر أرجاء غرب أوربا(٥٧) . وكان بوهمند قد قابل فى روما بطرس الثانى أسقف بواتييه الذى وضع كافة إمكانيات مدينته رهن إشارة أمير أنطاكية الصليبى(٥٨). وعلى هذا فإن حملة بوهمند هذه تعد صليبية مكملة لما سبقها من صليبيات.

قرر بوهمند زيارة فرنسا لتجنيد فرسانها لحملته ، وأيضا بقصد إتمام زواجه من كونستانز ابنة فيليب ملك فرنسا ، وكذلك للبحث عن أميرة فرنسية أخرى زوجا لابن أخيه تانكرد . ويحدثنا أوردوريك فيتالز بأن بوهمند كان قد أوفد أحد رجاله ويدعى ريتشاود ، وذلك عقب إطلاق سراحه من الأسر ، ليمهد لهذا الزواج فى البلاط الفرنسى(٥٩) .

دخل بوهمند فرنسا فى أواخر فبراير ١١٠٦ . وقصد أول الأمر إلى ضريح القديس ليونارد فى مدينة نوبلات فى الليموزين ، حيث قدم نذراً كان قد وعد بتوفيته وقت الإسار التركى : وهو ما يعادل من الفضة الخالصة وزن الأغلال التى قيد بها على يد الأمير ملك غازى محمد(٦٠) . بعد هذا قام بزيارة للملك الفرنسى فى بلاطه وأتم مفاوضاته بشأن مشروع الزواج(٦١) .

(٥٧) Chronica Monasterii Casinensis, in M.G.H. SS.,Vol. VII,p. 77; A. Richard, Histoire des Comtes de Poitou, Vol. I, p. 448.

(٥٨) A. Richard, loc. cit.

(٥٩) Orderic Vitalis, op. cit., p. 156.

(٦٠) Ibid., p. 212.

(٦١) Ibid., p. 213.

ترك بوهمند بعضاً من متاعه وحاشيته فى مدينة شارترز وقام برحلة شاملة لكافة الأقاليم الفرنسية . وقوبل الفارس الصليبى بالترحاب والإكرام أينما حل؛ ففتحت له الأديرة أبوابها ، وهرع النبلاء يلقونه على أعتاب قلاعهم ، وراح يقص عليهم مغامراته البطولية فى الشرق ويعرض أمامهم المخلفات المقدسة التى كان قد حملها معه من الشام(٦٢) . وبلغ إعجاب نبلاء فرنسا ببوهمند حداً بالغاً فاستقدموا أطفالهم الصغار ليطلبوا منه أن يكون لهم أباً اشبينياً . « وهكذا » ، يحدثنا أوردوريك ، « بعد أن كان اسم بوهمند غير مألوف فى الغرب صار شائعاً فى غالة »(٦٣) . واستغل بوهمند فرصة إقامته فى فرنسا استغلالاً حسناً ، فراح يبشر بحملته للجماهير التى توافدت للقياه ، وأكد لهم أن إمبراطور بيزنطة « زنديق مارق » ، وبأنه العدو الحقيقى للصليبيين(٦٤) . كما أوضح لسامعيه أن فشل صليبيتى ١١٠١ و١١٠٢ كان من فعل الخيانة البيزنطية . وكان بصحبته فى هذه الجولة نفر من النبلاء البيزنطيين المأجورين، من بينهم واحد راح يدعى بأنه الابن الشرعى للإمبراطور رومانوس دايوجينيز صاحب الحق فى التاج البيزنطى(٦٥) . ومن المرجح أن بوهمند وصل فى رحلته هذه إلى فلاندرز ، إذ نعلم من المصادر المعاصرة أنه كان قد حل فى سانت أومير فى ٣٠ مارس(٦٦) . ويبدو أيضاً أنه قد رافق المندوب البابوى برونو فى رحلته إلى مونز(٦٧) . وفى أبريل تمت المقابلة بين بوهمند والقاصد البابوى من جانب وبين أنسلم رئيس أساقفة كانتربرى ووليم رئيس أساقفة روين من جانب آخر وذلك فى ضيافة وليم ؛ حيث نوقش المشروع الصليبى الجديد . وفى أثناء هذا المؤتمر أهدى أحد أتباع بوهمند ويدعى الجيروس بعضا من خصلة شعر للسيدة العذراء إلى أنسلم ، وكان هذا النورماندى قد حصل على

(٦٢) Ibid.

(٦٣) Ibid., p. 213.

(٦٤) Ibid; p. 212; Alexiad, XII, i, 5, p. 56.

(٦٥) Orderic, p. 213.

(٦٦) Lambertus Andomariensis, Chronica, in M.G.H.SS., Vol. V, p. 66.

(٦٧) Iohannes Longus de Ipra, Chronica Monasterii Sancti, Bertini, in M.G.H. SS., Vol. XXV, p. 787.

هذا الأثر المقدس من بطريرك أنطاكية (٦٨) .

تم زواج بوهمند من كونستانز ابنة ملك فرنسا فى مدينة شارترز ؛ حيث كانت أديلا ، أرملة الصليبى ستيفن من بلوا ، قد أعدت حفلاً رائعاً للمناسبة (٦٩) . وقد حضر إلى هذا الحفل ملك فرنسا وولده لويس السمين ، وعديد من وجهاء القوم والسادة (٧٠) . وبعد إتمام مراسيم الزواج اعتلى بوهمند منصة الكنيسة وخاطب الجماهير والخاصة : فراح يقص عليهم عن حروبه وأسره فى الشرق ، وحثهم على السير معه ضد بيزنطة ، واعداً إياهم حصونا وأراضى تفيض عسلا ولبناً جزاء حملهم الصليب والسير وراءه (٧١) .

وفى السادس والعشرين من يونيو ١١٠٦ دعا برونو المندوب البابوى إلى مجمع عقد فى مدينة بواتييه . وكان شوجر راهب سانت دينيس حاضرا هذا المجمع ، وكان وقتها قد أتم دراساته . ولقد ترك لنا شوجر تفاصيل هامة عن المجمع . ناقش المؤتمرون هناك بعض المسائل المحلية ، ولكن الغاية الأساسية أمامهم كانت الصليبية الجديدة . ثم وقف المندوب البابوى ومن بعده بوهمند يبشران بالحملة ضد الكسيوس كومنين ، وصادفت كلماتهما استجابة طيبة وحماساً بالغاً لدى فرسان أقطانيا (٧٢) .

ولقد أوضح مانسى (Mansi) أن بواتييه قد اختيرت لعقد هذا المجمع بالذات حيث إنها كانت قلب المقاطعة التى أرسلت بفرسانها فى الصليبية « المشئومة » لعام ١١٠١ ، ومن ثم فإن العداء ضد بيزنطة كان موجوداً بوجه خاص فى هذه المنطقة (٧٣) . ونطالع فى الحولية المعروفة بإسم Chronicon Sancti Maxentii ما يفيـــد بأن البابا باسكال الثانى

(٦٨) Breve Chronicon Gemmeticense, inM. Bouquet, R.H.G., Paris, 1838-76, Vol. XII p. 775; Eadmerus, Historia Novorum in Anglia, (ed. M. Rule), London, 1884 (Rolls Series), pp. 79-80.

(٦٩) Orderic, p. 213.

(٧٠) Suger of. St. Denis, Vita Ludovici Grossi, in P.L., Vol. CLII, col.1266.

(٧١) Orderic, loc. cit.

(٧٢) Suger of St. Denis, op. cit., col. 1267; Chronicon Sancti Maxentii Pictavensis in P. Marchegay and Mabille, Chronique des Eglises d'Anjou, Paris 1869, p. 432

(٧٣) Mansi, Vol., XX, cols. 1205. - 7.

عقد مجمعاً فى إيطاليا فى تلك الفترة لاستنفار الشعب للمشاركة فى صليبية بوهمند هذه[٧٤] . وبعد الانتهاء من مجمع بواتييه قصد بوهمند إلى آنجو بحثاً عن أنصار آخرين من هذه المقاطعة ، ويرجح أنه قد اتصل بالدوق جودفرى مارتل الذى كان نفوذه ضالعاً فى تلك المنطقة من غالة[٧٥] . كذلك رافق بوهمند المندوب البابوى برونو إلى الأجزاء الجنوبية القريبة من فرنسا . وطبقاً لرواية إيكهارد فإن بوهمند قد واصل رحلته حتى أسبانيا[٧٦] . كذلك قام بزيارة جنوة ، وبعدها عاد إلى أبوليا ، حيث أشرف على إتمام بناء الأسطول اللازم لنقل الحملة .

كانت حملة بوهمند ضد بيزنطة صليبية حقيقية ، إذ بشر بها البابا ومندوبه برونو تماما مثلما فعل أوربان الثانى من قبل . وبقيام هذه الحملة إلى حيز الوجود يصبح للصليبية مفهوم آخر : إذ لم تعد الصليبية قاصرة على مهاجمة الجماعات الغير مسيحية ، وإنما بات فى الإمكان التبشير بالحركة ذاتها ضد مجتمعات مسيحية غير مرغوب فيها .

تقدر قوات بوهمند بحوالى ٣٤,٠٠٠ رجل[٧٧] . وفى سبتمبر ١١٠٧ حضر الأمير النورماندى صلاة القداس فى كنيسة القديس نيقولا فى مدينة بارى ، وبعدها يمم هو ورجاله نحو برنديزى التى أبحروا منها قبالة الشواطئ الألبانية فى ٩ أكتوبر من نفس العام . وكان جيش بوهمند يتألف أساساً من فرسان غالة وإيطاليا ، هذا إلى جانب ما تذكره آنا كومنينا عن المحاربين الإنجليز والجرمان والأسبان فى الحملة[٧٨] . ويبدو أن رواية آنا كومنينا صادقة على ضوء الأسفار التى قام بها بوهمند فى غرب أوربا للدعاية لمشروعه الصليبى .

رسى بوهمند ورجاله عند مدينة آفلونا فى ٩ أكتوبر ١١٠٧ ، ومنها

(٧٤) Chronicon Sancti Maxentii Pictavensis, loc. cit.
(٧٥) A. Richard, op. cit., loc. cit.
(٧٦) Ekkehard of Aura, Chronicon Universale, p. 233.
(٧٧) Annales Barenses, in M.G.H.SS., Vol. V, p. 155.
(٧٨) Alexiad, XII, ix, 2, p. 82.

زحفوا على بترولا وميلوس واحتلوهما(٧٩) . وفى نفس الوقت هجم جاى ، أخ بوهمند ، على جيوش يوسطاسيوس كامتيزس القائد البيزنطى وهزمها هزيمة ساحقة عند آربانوم(٨٠) . غير أن القائد كانتاكيوزينوس ، الذى كان قد استدعى من اللاذقية لمواجهة العدوان الصليبى الجديد ، هجم على معسكر جاى وأوقع به الهزيمة على مقربة من ميلوم(٨١) . وكانت هزيمة الصليبيين فى هذه الواقعة تامة ، إذ قتل فيها عدد كبير كما وقع عدد آخر منهم فى الأسر ، ومن بين هؤلاء الأخيرين هيو وشقيقه ريتشارد والكونت باجان(٨٢) .

كان الأسطول البيزنطى ، أثناء الحرب تحت قيادة ماريانوس مافروكاتا كالون ، الذى نجح فى قطع سبل الاتصال بين بوهمند وإيطاليا ، وذلك بسبب سيطرته اليقظة على بحر الأدرياتيك(٨٣) . لما وجد بوهمند نفسه محاصراً من البر والبحر ، ولما كانت مؤن جيشه قد أوشكت على النفاذ ، أرسل قوة قوامها ٦٠٠٠ محارب لنهب المناطق المجاورة لمدن آفلونا ، وهايريكو وكانينا ، غير أن القائد كانتاكيوزينوس أوقع بهم الهزيمة على ضفة نهر بوز(٨٤) . وهنا فضل بعض الجند الصليبيين الهروب إلى المعسكر البيزنطى بعد أن تبينوا أن فشل الحملة محقق(٨٥) . وفى تلك المرحلة من الصراع حاول بعض النبلاء المشاركين فى الحملة ، لما تبينوا فشلها ، إقناع بوهمند بضرورة فتح باب المفاوضات مع الكسيوس كومنين ، الذى كان قد أقام مركز قيادة جيوشه فى مدينة ديابولس . ولما علم الكسيوس بهذا أرسل إلى بوهمند يطلب منه القدوم لمقابلته فى معسكره(٨٦) .

---

(٧٩) Ibid., XIII, ii, 1, p. 93.

(٨٠) Ibid., XIII, V, 2, p. 105; Albert of Aix, p. 651.

(٨١) Alexiad, XIII, vi, 2, pp. 108-9.

(٨٢) Ibid.

(٨٣) Ibid., XIII, vii, 5, p. 113.

(٨٤) Ibid., XIII, vi, 6, p. 110.

(٨٥) Ibid., XIII, viii, 6, p. 116.

(٨٦) Ibid., XIII, viii, 7, p. 117.

بعد مناقشات ومفاوضات مشحونة بغليان المشاعر تم الاتفاق بين الطرفين على توقيع معاهدة تعرف بمعاهدة ديابولس ١١٠٨ . [٨٧] وضمنت تفاصيل هذه الاتفاقية فى وثيقتين ، إحداهما من توقيع بوهمند والثانية صادرة من الكسيوس ليتبادلاهما . ولقد احتفظت لنا آنا كومنينا فى مؤلفها الكسياد بوثيقة بوهمند فى حين أن وثيقة والدها المعطاة لبوهمند قد فقدت ، غير أنه فى الإمكان تلمس ما ورد فيها على ضوء ما جاء فى رواية آنا وأيضا فى كتابات المصادر الغربية المعاصرة .

أعلن بوهمند بطلان مفعول معاهدة القسطنطينية التى أبرمت بين الصليبيين وبيزنطة فى عام ١٠٩٧ . وتعهد بأن يقيم من ذاته « رجلا مخلصا » لألكسيوس ولولده ؛ وألا يحمل سلاحاً ضدهما بل يقدم لنصرتهما على رأس كافة كتائبه إذا طلب منه ذلك ؛ ألا يحتفظ بأراض تخص الإمبراطورية إلا ما يمنحه الإمبراطور منها . كما وافق بوهمند على الاحتفاظ بالأراضى التى قام بالاستيلاء عليها ، ولم تكن ملكا لبيزنطة ، كإقطاع إمبراطورى له . تعهد القائد النورماندى كذلك بضمان تأدية سائر أفصاله فى الحملة يمين الولاء والتبعية للإمبراطور الكسيوس قبل السماح لهم بالعودة إلى الغرب . وطلب منه أيضا تطبيق نفس القاعدة على أفصاله فى الشرق اللاتينى . صار لزاما على بوهمند أن يعامل ابن أخيه تانكرد كعدو له حتى يرد لبيزنطة كل ما يخصها من أملاك فى سوريا وكيليكيا . وتعهد بوهمند أيضا ألا يتعرض للمسلمين الذين يقطنون الأراضى الإمبراطورية بأى تهديد أو مضايقة . أما عن كرسى البطريركية فى أنطاكية فهو من حق كنيسة بيزنطة ، ولذا وجب تنحية اللاتين عنه كلية ليعين الإمبراطور له واحداً من إكليروس أياصوفيا .

وفى مقابل هذا منح الإمبراطور « لرجله » بوهمند المدائن والأراضى الآتية : أنطاكية وما حولها ؛ ميناء سانت سيميرن ؛ دوكس وأعمالها ، لولوس ؛ فيريزيا وأعمالها ، سانت إيلياس وما جاورها ؛ المناطق المتاخمة

(٨٧) Ibid. XIII, xii, 1 - 28, pp. 125 - 28.

لشيزار ، آرته ، جرمانيكايا ومدائنها ، جبل ماوروس وقلاعه والسهل المجاور عدا الأراضى التابعة للأميرين الأرمينيين ليو وتيودور . وكان على بوهمند أن يملك هذه الأراضى طيلة حياته للاستفادة بدخولها ، ولكن عند وفاته تؤول هذه الأراضى إلى الإمبراطورية البيزنطية . كذلك نص على استبعاد بعض المدائن والمناطق من إمارة أنطاكية وهى : بوندانادم ، طرسوسة ، أدنة ، مامسترا ، وعينزربا ، اللاذقية ، جبلة ، فالانيا ، وماراقليا .

على أن الملاحق التى أضيفت إلى هذه الوثيقة نتيجة لتوسلات بوهمند وبعض النبلاء من أتباعه نصت على تعويض بوهمند بإقليم كازلوتس الذى يشمل حلب وأراضيها ، إقليم لابارا ومدائنه ؛ قرنيوس ، رومانيا ، أراميزوس ، عاميره ، ساربانوس وعدة مناطق أخرى . وبالإضافة إلى هذه الإقطاعات وعد الكسيوس بدفع ٢٠٠ رطل من عملة Michaels له . كذلك عدل النص الخاص بإقطاع هذه الأراضى لبوهمند لمدى الحياة فأعطى حق تعيين خليفته عليها .

وتختتم الوثيقة بقسم بوهمند على خشبة الصليب وإكليل الشوك والمسامير المقدسة والحربة الإلهية على أنه سوف يوفى كافة التزاماته للإمبراطورية . وكان ذلك فى حضور وشهادة موروس أسقف آمالفى ، الذى أرسله البابا نيابة عنه لحضور هذه المناقشات ، وربنارد أسقف تارانتو وبعض كبار رجال الدين المرافقين للحملة . كذلك كان شاهداً على هذه المعاهدة الخان بطرس والخان سمعان اللذان كانا قد قدما نيابة عن ملك المجر الذى كانت ابنته قد زفت من قبل إلى يوحنا ابن الكسيوس كرمنين . (٨٨)

أما عن الوثيقة التى سلمها الكسيوس إلى بوهمند فتعدد الإقطاعات من الأراضى التى منحها الإمبراطور إلى الزعيم النورماندى . وفيها أيضاً ضمان وعهد من جانب الكسيوس لضمان أمن وحرية « الصليبيين والحجاج » الذين يعبرون

---

(٨٨) Alexiad XIII, xii, 28, p. 138.

الأراضى البيزنطية . (٨٩) ولا شك فى أن بوهمند كان قد تشدد فى النص على هذه الفقرة فى الاتفاقية لكى يبرر الأسباب التى من أجلها كان قد قدم لمهاجمة بيزنطة . كذلك أنعم الإمبراطور على هذا الأمير المنهزم بلقب سباستوس (٩٠) .

ترك بوهمند جيشه فى أيدى الوسطاء البيزنطيين وأبحر عائداً إلى أوترانتو (سبتمبر ١١٠٨) . وطبقاً لرواية البرت من إكس ، "فإن الصليبيين قد شعروا بشىء من الخذلان عندما انسل قائدهم عائداً وتركهم دون جزاء كاف على خدماتهم العسكرية . (٩١) تفرقت الحملة بعد ذلك فقرر فريق منهم العودة كل إلى موطنه ، بينما أصرت الغالبية على مواصلة السير حتى أورشليم (٩٢) .

توفى بوهمند بعد فترة قصيرة من نهاية حملته الفاشلة ، وأغلب الظن أنه مرض فمات فى ٧ مارس ١١١١ وهو يعد لحملة جديدة للشرق ، لا يستبعد أنه كان من بين أهدافها الانتقام من بيزنطة (٩٣) .

كانت معاهدة ديابولس انتصاراً حاسما لألكسيوس كومنين على بوهمند وحملته الصليبية . ولكن بوهمند لم يعش ليقوم بتنفيذ ما نص فيها من التزامات نحو بيزنطة ، وآلت الأمور فى أنطاكية إلى تانكرد ، ولذا بقيت الاتفاقية حبراً على ورق . والواقع أن هيبة تانكرد ونفوذه كانا قد وضحا بشكل مرموق فى الشرق اللاتينى : فلقد انتصر على رضوان أمير حلب ، وضم آرتا واحتل آباميا ما بين عامى ١١٠٤ ، ١١٠٦ (٩٤) . وفى عام ١١٠٨ ، وبتأييد من أسطول بيزا ، استولى على مدينة اللاذقية . وفى نفس الوقت

---

(٨٩) Narratio Floriacensis p. 362; Albert of Aix p. 652.

(٩٠) Alexiad, XIV, i, p. 141.

(٩١) Albert of Aix loc. cit. Orderic Vitalis, p. 242.

(٩٢) Alexiad, loc. cit., Orderic, p. 242.

(٩٣) Bohemond was buried in the chapel adjoining the Cathedral of St. Sabinus at Canossa.

(٩٤) Kemal ed - Din op. cit., p. 53.

انقض على مامسترا وعدة مدائن أخرى فى إقليم كيليكيا(٩٥) .

كان الكسيوس كومين عازماً على قيادة حملة لاجبار تانكرد على احترام الاتفاق الذى أبرم بينه وبين بوهمند . ولكن الرأى العام فى القسطنطينية كان معارضا لفكرة الحرب آنذاك ؛ ذلك لأن الشعب والجند كانوا قد أنهكوا بسبب الحروب التى قام بها الإمبراطور منذ توليه العرش منذ عام ١٠٨١ . ولذا أشار عليه أعضاء السناتو والقادة بأن يلجأ إلى سلاح الدبلوماسية فى مواجهة تانكرد بدلا من اللجوء إلى القتال . وعليه قرر الإمبراطور فتح باب المفاوضات مع بلدوين الأول ملك بيت المقدس ؛ فأرسل تعليمات إلى يوماثيوس فيلوكالس – دوق قبرص – يطلب منه إعداد السفن والمال اللازم لبعثة السفير بوتوميتس إلى أورشليم ؛ « ذلك لأنه بدون مال وفير لا يمكن الحصول على شيء من جماعة اللاتين » ، حسبما تروى الأميرة آنا كومنينا(٩٦) .

تسلم السفير البيزنطى الأموال اللازمة من حاكم قبرص وأبحر على رأس اثنتى عشرة سفينة فوصل إلى طرابلس . كان برتراند حاكم إمارة طرابلس على خلاف مع تانكرد ؛ وهذا الخلاف بين خليفة رايموند سان جيل وبين الأمراء النورمان فى أنطاكية كان أمراً طبيعياً . ومن المعروف ، زيادة على ذلك ، أن برتراند كان قد قام بأداء يمين الولاء والطاعة للإمبراطور الكسيوس عن الأراضى التى كانت تحت يده(٩٧) . ولذا كان برتراند على استعداد لمعاونة بوتوميتس فى مهمته ضد تانكرد . سلم السفير البيزنطى مبلغاً ضخما من المال إلى أسقف طرابلس لحين عودته من زيارته لبلدوين ملك بيت المقدس . ولقد أمضى القائد البيزنطى جزءاً من عام ١١١٢ فى صحبة الملك اللاتينى ، ساعده خلالها فى معاركه ضد أعدائه(٩٨) . غير أن السفير البيزنطى أخبر

(٩٥) Alexiad, XII, ii, 2, p. 57.

(٩٦) Ibid. XIV, ii, 12 - 13, pp. 152 - 53.

(٩٧) Ibid. XIV, ii, 6, p. 149.

(٩٨) Ibid.

بلدوين بأن الإمبراطور كان فى طريقه إلى أنطاكية ، على رأس حملة وصلت بالفعل إلى ساوقية . ولسوء حظ السفير وصلت فجأة سفينة بيزية كشف ربانها لبلدوين أن رواية السفير لا أساس لها من الصحة . ونتج عن هذا أن غضب الملك الصليبى من السفير البيزنطى وأعلن أنه لم يعد يثق فى وعود بيزنطة .

أسرع بوتوميتس عائداً إلى طرابلس حيث وجد أن برتراند قد مات وأن خلفه بونس رفض رد المال المودع لدى أسقف المدينة إليه . ومع أنه هدد بقطع المؤن من قبرص إلى طرابلس ، إلا أن الأسقف وسيده الجديد لم يكترثا بهذا التهديد ، وضاعت الأموال على الخزانة البيزنطية .

توفى تانكرد فى ١٢ ديسمبر ١١١٢ ، وبموته زالت عقبة كؤود من طريق بيزنطة ، غير أن الكسيوس كومنين لم يكن فى موقف يساعده على القيام بحملة عسكرية على سوريا . ولذا فقد لجأ إلى أسلوب الدبلوماسية ؛ هذه المرة مع البابوية . وهذا الاتجاه الجديد فى السياسة البيزنطية الخارجية كان يهدف إلى نفى ما تواتر من إشاعات ضد بيزنطة فى غرب أوربا ، وفى نفس الوقت إلى عقد معاهدات ودية مع جمهورية بيزا صاحبة الأسطول الضخم فى البحر الأبيض المتوسط .

والواقع أن جمهورية بيزا لعبت دوراً كبيراً فى الحركة الصليبية، وأيضاً فى النشاط العدائى ضد الإمبراطورية البيزنطية . ولعل أشهر ما حدث فى هذا الصدد ما أقدم عليه دامبرت — رئيس أساقفة بيزا — عندما أوفد مندوباً بابويًّا للشرق ؛ إذ قدم معونة أسطوله لبوهمند فى حصاره لمدينة اللاذقية التى كانت تحت حكم بيزنطة . وفى أواخر عام ١١١١ أغـار الأسطولان البيزى والجنوى ضد شواطئ الأراضى البيزنطية (٩٩) .

فى أكتوبر ١١١١ وقع اتفاق بين جمهورية بيزا وبيزنطة ، تعهدت بمقتضاها الجمهورية أن تؤيد بيزنطة ضد أعدائها . وفى مقابل ذلك وعد

(٩٩) Alexiad, XIV, iii, 1, p. 154.

الإمبراطور بتسهيل مهمة بيزا فى نشاطها البحرى تجاه سوريا ، كما تعهد بحماية البيزيين فى إمبراطوريته من أى ظلم قد يحل بهم . وبرهاناً على حسن نيته وعد بتقديم هبة من الفضة والحرائر إلى رئيس أساقفة وكاتدرائية الجمهورية . كما خصص مرسى خاصًّا فى ميناء القسطنطينية لنشاط السفن البيزية . كذلك وعد بتخصيص حى بأكمله لإقامة الجالية البيزية فى العاصمة البيزنطية . كما سمح لهم بركن خاص فى كنيسة أيا صوفيا لأداء شعائرهم الدينية فى حرية تامة . كذلك خصص لهم مقاعد خاصة فى الهبدروم . كما تعهد الإمبراطور بإنصاف كل مواطن بيزى يحل به إجحاف ما فى إمبراطوريته(١٠٠) .

ويجب تفسير سياسة المودة التى نهجتها الإمبراطورية البيزنطية تجاه جمهورية بيزا على أنها حلقة فى سلسلة اتجاه ودى جديد فى العلاقات مع البابوية . ولقد ساعدت الظروف فى غرب أوربا ألكسيوس فى محاولته التقرب من روما . ذلك أن البابا باسكال الثانى كان قد سجن على يد الإمبراطور الألمانى هنرى الخامس فى ١٢ فبراير ١١١١ ، وفى ١٣ أبريل من نفس العام أجبر البابا على تتويجه إمبراطوراً . (١٠١)تابع الكسيوس تلك الأحداث باهتمام زائد ، وشجعه على المضى فى التقارب من باسكال الثانى وفاة بوهمند وروجر بورسا فى عام ١١١١ ، مما ترك جنوب إيطاليا دون سيد مرموق . وكان الإمبراطور ، مثله مثل أسلافه من أباطرة بيزنطة ، ينظر بحسرة إلى الأقاليم الجنوبية الإيطالية الضائعة التى انتزعها النورمان من الإمبراطورية ؛ ويتمنى أن تتاح له الفرصة لاسترجاعها . وفى يناير ١١١٢ كتب ألكسيوس إلى جيرارد من مارزيس ، مقدم دير مونت كاسينو ، وألمح فى رسالته إلى سجن البابا ، معبراً عن أسفه ومواساته لهذا الحادث المروع(١٠٢) . وكان سفراء الإمبراطور الذين سلموا هذه الرسالة لمقدم

(١٠٠) W. Heyd, Histoire du Commerce dans le Levant (French trans. by Furcy Rayroud), 2 Vols., Leipzig 1885 (2nd reimp. 1936) I pp. 193 - 4.

(١٠١) Gotifredi Viterbiensis "Pantheon" in M.G.H.SS. Vol. XXII p. 220.

(١٠٢) Riant, Inventaire Critique p. 246.

الدير يحملون رسالة أخرى موجهة إلى شعب روما [١٠٣]. عبر ألكسيوس فى رسالته إلى شعب روما عن أسفه الشديد لما أنزله الإمبراطور الألمانى من هوان وإذلال بالبابا باسكال الثانى . كما امتدح الشعب الرومانى لصلابة مقاومتهم لحملة هنرى الخامس . وقد أعرب ألكسيوس فى ختام رسالته عن رغبته واستعداده لقبول التاج الغربى لنفسه أو لابنه ؛ وذلك إذا أيد الرومان هذا المطلب . وقد أرسل ألكسيوس أيضاً رسالة إلى البابا باسكال الثانى تحمل نفس المعنى . ويرجح أن هذه الرسالة هى التى حدت بالبابا إلى أن يعلن ندمه على استكانته وخضوعه لهنرى الخامس كما استنكر على نفسه أن أقدم على تتويجه إمبراطوراً [١٠٤] .

وفى مايو ١١١٢ أرسل أهل روما سفارة إلى ألكسيوس لمناقشة مقترحاته بصدد التاج . ويبدو أن الإمبراطور وعد بالقدوم إلى روما فى صيف ١١١٢ بهدف الوصول إلى اتفاق نهائى مع الشعب الرومانى ؛ غير أن مرضاً مفاجئاً ألم به حال دون رحيله إلى روما . ولهذا فقد أرسل معبراً عن اعتذاره فى خطاب إلى البابا باسكال الثانى [١٠٥] .

واصل باسكال الثانى المفاوضات مع بيزنطة لا من أجل توحيد الإمبراطوية أو الإنعام بالتاج الرومانى على ألكسيوس ، وإنما تلبية للرغبة التى كان الإمبراطور قد أبداها فى السعى نحو توحيد الكنائس . وإنصافاً للحق يجب التأكيد هنا بأن الكسيوس حاول استغلال مسألة وحدة الكنائس من أجل تحقيق الأحلام التى كانت تداعب خياله فى أمر التاج الرومانى . والدليل على ذلك أن هابرياركية أيا صوفيا ما كانوا يعطفون على مشروع الكسيوس الكنسى لأن الكنيستين البيزنطية والرومانية كانتا قد قطعتا شوطاً كبيراً فى تعميق الفجوة التى كانت تفصل بينهما منذ شقاق ١٠٥٤ . ويجب أن

(١٠٣) Peter the Deacon, Chronica Monasterii Casinensis p. 785.
(١٠٤) Gotifredi Pantheon p. 275; see also P. Jaffé, Regesta Ponificum Romanorum, 6310.
(١٠٥) Riant, op. cit., p. 136.

نلاحظ أيضاً أن مجلس الكرادلة الرومانى كان ينظر إلى أحلام الكسيوس فى شيء من السخرية ، ذلك لأنه كان يطالب بالمستحيل . ولهذا عندما كتب البابا باسكال الثانى إلى الكسيوس فى عام ١١١٥ جاءت رسالته خالية من أية إشارة إلى مشروع الكسيوس السياسى وإنما انصب الكلام كله على وحدة الكنيستين . أوضح البابا فى خطابه أنه يدرك الصعوبة التى تحول دون الوحدة الكنائسية وذلك بسبب الخلاف بين اليونانيين واللاتين ، والتى يعزو البابا السبب فى نشوبها إلى عناد وتمرد بطارقة بيزنطة . ولذا فقد أكد أن السبيل الأوحد لتحقيق تلك الغاية الغالية على البابا لن يتأتى إلا إذا اعترف بطريرك القسطنطينية بإمارة البابا — خليفة بطرس الرسول — على سائر الكنائس الأخرى . وواضح من كلام البابا أنه يصر — تماماً مثلما فعل أسلافه من قبل — على خضوع كنيسة بيزنطة للسلطان البابوى (١٠٦) .

إن حجة باسكال الثانى ومزاعمه القائمة على النظرية البطرسية وعلى هبة قسطنطين العظيم المزيفة توضح أن السبيل إلى الوحدة بات أمراً مستحيلا ؛ ذلك لأن بطريركية بيزنطة لم تكن لتقر هذه المزاعم الرومانية . كما أن كلاًّ من الطرفين كان ينظر إلى الآخر على أنه قد انحرف عن العقيدة القويمة . وقد حدث فى عام ١١١٦ أن عرج بطرس كريزولان ، رئيس أساقفة ميلان ، أثناء سفره من بيت المقدس إلى غرب أوربا ، على مدينة القسطنطينية . وهناك أذاع مقالة كتبها عما أسماه « أخطاء اليونان فى العقيدة »(١٠٧) . فانبرى لـــه يوستراتيوس أسقف نيقيا ففند مزاعمـــه وهاجم عقيدة روما وطقوسها(١٠٨) .

فى هذه المرحلة توقفت المفاوضات بين بيزنطة وروما ، وأدرك الكسيوس

---

(١٠٦) P.L. Vol. CLXIII cols. 388 - 9.

(١٠٧) P.G. Vol. CXXVII col. 911.

(١٠٨) Bibliotheca Graeca, XI, pp. 622 seq.

كومنين عبث محاولته وجهوده لمصالحة اللاتين سواء على المستوى السياسى أو على الصعيد الكنسى . والواقع أن غرب أوربا اللاتينى – مدفوعاً بدوافع الكراهية الدفينة لكل ما هو بيزنطى – كان قد قام بمحاولات منذ بداية الصليبية الأولى للتهجم والهجوم على الإمبراطورية الشرقيـــة . ولولا تلك الدبلوماسية والمهارة العسكرية التى تفرد بها الكسيوس كومنين لكان ممكناً أن تدمر القسطنطينية فى عام ١١٠٧ ، إن لم يكن قبل ذلك بعشرة أعوام .

الفصل السادس

علاقات بيزنطة باللاتين فى عهد يوحنا كومنين

(١١١٨ – ١١٤٣)

أولا : الموقف تجاه الإمارات الصليبية

ثانيا : العلاقات مع دويلات إيطاليا

ثالثا : البلاط البيزنطى والبلاط الألمانى

رابعا : يوحنا كومنين والبابوية

توفى الكسيوس كومنين فى عام **١١١٨** فخلفه على العرش ولده يوحنا الذى كان يبلغ الثلاثين من العمر . ولقد أطلق المعاصرون على يوحنا كنية « المراكشى » بسبب سواد عينيه وسمرة بشرته وشعره . وكان الباز يليوس الجديد على خلق جميل ، كما وأنه أجبر رجال بلاطه على التخلى عن حياة الرغد والفساد التى اعتادوها .(١) ولقد كان يوحنا جنديًا ممتازاً فقاد جيوشه من نصر إلى نصر ودخل العاصمة فى مواكب الظافرين .

تزوج يوحنا من الأميرة پيريسكا ابنة لادزلاس ملك المجر عندما كان فى العشرين من عمره ؛ غير أنها توفيت فى عام **١١٣٤** تاركة له ثمانية أطفال : أربعة أولاد وأربع بنات : الكسيوس ، وأندرونيكوس ، وإسحق ، وعمانويل ثم ماريا ، وآنا ، وثيودورة ، ويودكيا . وفى عام **١١٢٢** أشرك يوحنا ابنه الأكبر الكسيوس معه فى الحكم ، ولكن هذا توفى قبل والده بعام (١١٤٢) .

كان يوحنا محاطاً بجماعة من المخلصين لشخصه ، وعلى رأس هؤلاء كان أوكزوش ، وإسحق كومنين ، وجريجورى تارونيتس ، واللوغوثيت

---

(١) Nicetas Choniates, Historia "Of John Comnenus" (Bonn ed. 1835), II, pp. 8 - 9.

جريجورى كاماتيروس . وكان أوكزوش أهم هؤلاء الأعوان ، وهو تركى الأصل ، وكان قد وقع أسيراً فى يد الصليبيين عند سقوط نيقيا فأسلموه هدية لألكسيوس كومنين ؛ الذى تعهده بالرعاية ورباه مع والده يوحنا . ومن هنا نشأت الصداقة المتينة بين الاثنين ، وعندما اعتلى يوحنا الحكم عين صديقه المخلص هذا « كبيرا للأعوان » وهو من أعلى المناصب الحكومية فى الإمبراطورية البيزنطية .

تميز عهد يوحنا كومنين بالطابع العسكرى ، إذا كان الجيش شاغله الأكبر . وكان يقضى جل وقته بين أفراد قواته المسلحة يدربهم ويلقنهم فنون الحرب والنظام . وقد أوضح المؤرخ البيزنطى نيكيتاس كونياتس أن الجيش فى عهد يوحنا قد قسم إلى فرق متعددة ، تضم كل منها أبناء جنس معين دون غيرهم ، فهناك الفرقة المقدونية ؛ والكلتية ، والبشنق ؛ والترك .

أولا : موقف بيزنطة تجاه الإمارات الصليبية :

كان يوحنا كومنين مصراً منذ بداية حكمه على استرجاع الأراضى التى اغتصبها الأمراء الصليبيون من الإمبراطورية البيزنطية ؛ ولذا فإن قصارى جهوده قد انصبت على إمارة أنطاكية . ذلك لأنه وفق معاهدة ديابولس (١١٠٨) التى أبرمت بين بوهمند والكسيوس كومنين قد اتفق على تبعية أنطاكية لبيزنطة على أن يقطعها الإمبراطور البيزنطى للأمير النورماندى . غير أن بوهمند مات فى عام ١١١١ ، ورفض ابن أخيه تانكرد احترام المواثيق التى وقعها عمه مع الإمبراطور البيزنطى . وفى عام ١١١٢ توفى تانكرد فخلفه الأمير روجر حاكما على الإمارة . وفى عام ١١١٩ أرسل يوحنا كومنين سفيره راقنديتوس إلى بلاط روجر لطلب يد ابنته للزواج من أحد الأمراء من الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية . وقد رافق السفير البيزنطى الأمير النورماندى فى حربه ضد الأمير الغازى صاحب ماردين ، ولكن روجر قتل فى المعركة ، بينما وقع

السفير أسيراً (٢) . وبعد أن افتدى راڤنديينوس من الأسر قصد إلى أنطاكية من جديد لمواصلة مباحثاته التى أوفد من أجلها من قبل الإمبراطور . غير أنه وجد الأمور قد تبدلت تماما فى الإمارة : فبعد وفاة روجر آلت الولاية إلى وصاية بولدوين الثانى ملك بيت المقدس الذى كان يسعى إلى تزويج ابنته من الأمير النورماندى القاصر بوهمند الثانى .

لذلك سارع راڤنديينوس إلى أورشليم ليطلب يد ابنة الملك الصليبى للزواج من أحد الأمراء من آل كومنين . رحب الملك بهذا العرض ، وعاد السفير إلى القسطنطينية ليفضى بنتائج بعثته ، ولكن هذا الزواج لم يتم . ولا نكاد نعرف السبب الحقيقى وراء ذلك ؛ اللهم إلا ما ورد عبراً فى حولية الكاتب السورى أبوالفرج الذى يروى أنه فى عام ١١٢١ عرض يوحنا كومنين على الأمير الغازى تزويده بقوة من ٣٠،٠٠٠ رجل لمقاتلة الفرنجة فى سوريا(٣). ولئن صح هذا فلا بد وأن هذا التقارب بين الإمبراطور البيزنطى والأمير المسلم قد صدم الدوائر الصليبية فى بلاط بيت المقدس ، مما أدى ببلدوين الثانى إلى أن يغض النظر عن مشروع الزواج هذا .

على أية حال تزوج الأمير الأنطاكى بوهمند الثانى من أليس ابنة الملك الصليبى بلدوين الثانى ، ولكن حدث فى عام ١١٣٠ أن قتل الأمير الشاب فى حربه ضد الأمير الغازى . راحت الأرملة الشابة أليس تسعى بعد مقتل زوجها إلى السيطرة الكاملة على شئون الحكم غاضة النظر عن الحقوق الشرعية لطفلتهما كونستانز . غير أن والدها — بلدوين الثانى — وقف فى وجهها ، ولكن بعد وفاته (٣١ أغسطس ١١٣١) واصلت أليس السعى لتحقيق آمالها . ولكن الملك الجديد لبيت المقدس — فولك — تدخل فى الأمر وأجبرها على الهروب إلى اللاذقية . ثم خطب كونستانز إلى رايموند من پواتييه الذى

(٢) Kemal ed - Din op. cit., p. 622.

(٣) Abu'l Faradj, Syrian Chronicle, (ed. Bruns and Kirsch), II, p. 307.

كان وقتها فى بلاط هنرى الأول ملك إنجلترا(٤) . ومع هذا لم تيأس أليس فعادت إلى أنطاكية وفتحت باب المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطى ، ثم عرضت يد ابنتها — كونستانز — للزواج من عمانويل ابن يوحنا كومنين . ولكن وصول رايموند إلى أنطاكية والتأييد الذى لقيه من جانب بطريركها راؤول من دومفرونت ، سهل عليه مهمة الزواج من الأميرة الصغيرة كونستانز ؛ وهنا اضطرت الأرملة المنهزمة إلى أن تهرب ثانية إلى اللاذقية(٥) .

قوبل زواج رايموند من كونستانز الأنطاكية بشعور من الغضب شديد فى البلاط البيزنطى . واعتبر البازيليوس هذا الفعل تحدياً صارخاً من بارونات أنطاكية لشخصه ؛ إذ أنه وفق معاهدة ديابولس (١١٠٨) ، كان لزاما على البارونات مشاورة سيدهم الإقطاعى — الإمبراطور البيزنطى — فى أمر على هذه الدرجة من الخطورة فى مستقبل الإمارة ذاتها . ومن هنا راح يوحنا كومنين يتحين الفرصة المواتية لتقليم أظافر هؤلاء الخارجين على طاعته وحقوقه المشروعة .

• • •

فى هذه المرحلة كان نجم الأمير عماد الدين زنكى حاكم الموصل آخذاً فى الصعود . ولقد وهب هذا القائد نفسه لمقاتلة الصليبيين فى سوريا ، يؤيده فى هذا السلطان السلجوقى محمود والخليفة العباسى المسترشد بالله فى بغداد . والتف الأمراء المسلمون حول هذا الزعيم فى الحرب المقدسة ضد الفرنجة : فانضم إليه فى الكفاح شرف الدين سوار صاحب حلب والأمراء شمس الملوك إسماعيل وشهاب الدين محمود . كانت العصبة الإسلامية جادة العزم فى هذه الجولة على إحراز النصر على الإمارات اللاتينية فى الشام : ففى عام ١١٣٦ دمرت اللاذقية ؛ وفى ١١٣٧ اشتد الهجوم على طرابلس . وهكذا باتت الإمارات الصليبية مهددة بالانهيار .

كان هذا الموقف مشجعاً للإمبراطور يوحنا كومنين لأن يتدخل لاسترجاع

(٤) William of Tyre, XIII, xxvii, p. 599.

(٥) p.Ibi

إمارة أنطاكية إلى حوزة إمبراطوريته . وبينما كان يعد العدة لحملته على سوريا جاءت الأنباء بأن فولك الملك الصليبي لبيت المقدس قد لقى هزيمة بالغة على يد الأمير زنكى . ولقد فر ملك بيت المقدس وفلول قواته بعد الهزيمة ، ولما طارده الأمير أرسل يستنجد بريموند حاكم أنطاكية . على أن أخبار تحركات يوحنا كومنين صوب انطاكية وضعت رايموند فى موقف حرج للغاية. فمن ناحية لم يكن يود أن يبرح إمارته فى تلك اللحظة فيتمكن عدوه البيزنطى من الاستيلاء عليها ، ومن جانب آخر كان عليه أن يلبى نداء ملك بيت المقدس واستنجاده به . ولذا فقد وكل إلى بلدوين حاكم ماراش وإلى جوسلين الثانى حاكم الرها مهمة حماية إمارته ، وأسرع ليقدم العون لملك بيت المقدس . على أن عماد الدين زنكى أمام هذه التعزيزات القادمة من أنطاكية آثر التفاوض مع فولك ؛ ومن ثم تمكن رايموند من العودة إلى إمارته .

لما رجع رايموند علم أن يوحنا كومنين قد قدم على رأس حملة ضخمة وأقام معسكره على مقربة من أنطاكية ، ولذا فقد أيقن خطورة موقفه فآثر التفاوض معه . قصد رايموند إلى مقر قيادة الحملة البيزنطية وهناك أقسم يمين الولاء والطاعة للإمبراطور ، كما وافق على تنصيب بطريرك بيزنطى فى أنطاكية بدلا من اللاتينى الذى كان يجلس وقتها على كرسى البطريركية . وبعد ذلك رفع العلم البيزنطى على قلعة مدينة أنطاكية . وفى مقابل هذا وعد يوحنا كومنين معاونة رايموند ضد أعدائه .

على أن المؤرخ العربى كمال الدين يروى أن الإمبراطور البيزنطى ، أثناء عودته من أنطاكية ، فتح باب المفاوضات مع عماد الدين زنكى ، وبأنهما تبادلا الهدايا ، وبأن يوحنا أحاطه علما بمشروعه فى إعداد حملة ضد الأمير ليو الأرمينى [٦] .

وفى أواخر عام ١١٣٧ هاجم كومنين عدوه الأرمينى وأخضعه لسلطانه .

---

(٦) Kemal ed-Din, op. cit., p. 424. An. 1137.

وبعدها انضم بجيوشه إلى فرق الفرنجة فى سوريا تحقيقاً لوعده لرايموند حاكم أنطاكية . وتمكنت الجيوش البيزنطية اللاتينية من الاستيلاء على مدينتى بيزاو والأثارب ، ثم هاجمت معرة النعمان وكفر تاب . وبعد هذه الانتصارات المتتالية زحفت الجيوش المتحالفة قبالة وادى الأورونتيز لحصار مدينة شيزار ، ولكن المدينة قاومت واضطرت العدو إلى فك هذا الحصار . عاود الصليبيون وحلفاؤهم حصار المدينة مرة ثانية ، ولكن الإمبراطور قرر فجأة رفع الحصار والتقهقر برجاله ؛ الأمر الذى أثار غضب القادة اللاتين .

اختلفت تفسيرات المؤرخين المعاصرين فى تعليل موقف يوحنا هذا : فابن الأثير يتحدث عن قدوم عماد الدين زنكى على رأس حملة لإنقاذ شيزار ، إلى جانب جهوده فى بث الفرقة بين الإمبراطور البيزنطى والأمراء الصليبيين [٧]. ويشير كمال الدين إلى الأنباء التى وردت عن قدوم حملة ضخمة تحت إمرة قره أرسلان بن داود بن سقمان بن أرطق ، أمير حصن كيفا ، ويقدر نفس المصدر عدد رجال الحملة التى عبرت الفرات بخمسين ألفا [٨] . أما ميخائيل السورى فيعلمنا أن رسالة وصلت إلى الإمبراطور البيزنطى تحذره من مخطط مسعود سلطان قونية الذى هاجم أدنة فى إقليم كيليكيا [٩] . أما المؤرخ وليم الصورى فيروى أنه إبان الحرب كان الإمبراطور البيزنطى يقاتل ببسالة فى حين أن حليفيه رايموند وجوسلين كانا متقاعسين بل وراحا يمضيان الليل والنهار فى لعب الميسر . ويمضى المؤرخ فيقول بأنه رغم تحذيرات يوحنا المتكررة لهما فإنهما لم يقلعا عن هذا السلوك المشين [١٠] . ويتضح من رواية وليم الصورى أن الإمبراطور البيزنطى رأى بثاقب نظره أن حليفيه الصليبيين ، كانا يدبران إلقاء عبء الحرب عليه وعلى رجاله البيزنطيين ، ومن ثم فقد

---

(٧) Ibn al-Athir op. cit., pp. 427 - 28.
(٨) Kemal ed-Din, p. 678.
(٩) Michael the Syrian, III, p. 245.
(١٠) William of Tyre, XV, ii, p. 657.

طرأ تغيير كبير فى سياسته تجاههما . والواقع أن مباحثات سرية كانت تدور بين الجانبين البيزنطى والإسلامى ، ووافق أمير شيزار على دفع مبلغ كبير من المال ليوحنا كومنين كما أهداه ببضع خيول عربية وأقمشة حريرية ومائدة مطعمة بالصدف ، وأهم من هذا رد إليه الصليب المطعم بالياقوت الذى كان الأتراك قد استولوا عليه من أسيرهم الإمبراطور رومانوس دايوجينيس فى واقعة ملاذكرد عام ١٠٧١[(١١)] .

بعد هذا يمم يوحنا كومنين صوب مدينة أنطاكية فى زيارة رسمية لها ، فقوبل على أبوابها بجماعة اكليروس المدينة وعلى رأسهم بطريركها البيزنطى . ولقد وزع الإمبراطور الهدايا والصدقات على فقراء المدينة . وبعد أن استقر وحاشيته فى القصر المخصص لمقامه أرسل يستدعى رايموند وجوسلين ووجهاء اللاتين فى الإمارة لمقابلته . ثم طلب من رايموند تسليمه قلعة المدينة والسماح للكتائب البيزنطية بدخول المدينة والخروج منها دون عقبات . كذلك طلب منه يوحنا أن يوفيه حقه كتابع إقطاعى يدين له بالولاء[(١٢)] . على أن لهجة كومنين وموقفه المتشدد أزعجت السلطات الصليبية فى أنطاكية ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رد طلب له فى تلك الآونة . ولكن جوسلين تدخل وطلب من البازيليوس إمهال رايموند للتشاور مع أفصاله فى الأمر . ووافق يوحنا على هذا المطلب على ألا يبرح رايموند القصر الإمبراطورى[(١٣)] . وبينما وقع رايموند فى المصيدة كان صديقه جوسلين يدبر مؤامرة لخداع العاهل البيزنطى .

أسرع جوسلين ينشر فى ربوع المدينة « تلك الشروط المهينة والمتعسفة » التى أملاها كومنين على رايموند . وراح أعوانه يدقون طبول الحرب ؛ وتسلح غوغاء الصليبيين وزحفت جماهير غفيرة منهم صوب قصر الإمبراطور تطالب

---

(١١) Kinnamos, op. cit., I, viii, pp. 19 - 20.

(١٢) William of Tyre, pp. 659 - 660.

(١٣) Ibid., p. 661 : "Principe in palatio remanente et sui ipsius ut diceba-tur non habente potestatem".

بالانتقام لشرف اللاتين المهيض . وهنا اندفع جوسلين إلى حضرة الإمبراطور فى غرفته الخاصة دون مراعاة لقواعد البروتوكول المتبعة وألقى بنفسه عند قدميه يقص عليه كيف أن الجماهير باتت تشير إليه بأصابع الاتهام دامغين إياه بالخيانة لأنه مزمع على بيع إمارة أنطاكية للإمبراطور البيزنطى . وراح هذا الممثل البارع يقص على الامبراطور أن الغوغاء فى هتافاتهم طالبوا بقتل جوسلين ذاته . ولقد بلغ الدهاء بهذا الأمير الصليبى إلى حد أنه كان قد دبر أيضا مسيرة غاضبة من أتباعه الذين انقضوا على عسكر البيزنطيين المقيمين داخل المدينة وقتلوا عدداً منهم ، كما تعقب هؤلاء ذلك النفر منهم الذين لاذوا بالفرار حتى بوابات القصر الإمبراطورى فى المدينة (١٤) .

أدرك يوحنا كومنين أنه أمام عدو ماكر وأنه ورجاله محاطون بغوغاء لاترحم . ولذا فقد استدعى رايموند إلى مقامه وأعرب له عن قراره فى التخلى عن كافة طلباته السابقة منه وحثه على أن يهدئ الجماهير المتظاهرة فى شوارع المدينة وأمام القصر . كما أعلن له عن عزمه على مغادرة انطاكية فى اليوم التالى مباشرة . وسمح يوحنا للعاصفة بأن تمر فى هدوء ولكنه كان موقنا أن الزمرة الصليبية الأنطاكية قد تآمرت ضده هذه المرة ، ومن ثم فقد ترك هذا فى قلبه مرارة لم ينسها . حقيقة أن رايموند وجوسلين و بعض البارونات الفرنجة قاموا بزيارة معسكر الامبراطور خارج أسوار المدينة بعد ذلك ، وأن الإمبراطور صرح لهم بوعود غامضة لمساعدتهم فى حملة ضد حلب ، ولكنه فى حقيقة الأمر كان يترقب اللحظة المناسبة لعقاب هذين الأميرين بسبب مؤامرتهما الدنيئة ضده ورجاله .

• • •

كانت حملة يوحنا كومنين سنة ١١٣٧ على سوريا فاشلة تماما ، ولذا فقد قرر عدم التدخل فى الصراع الذى احتدم بين الفرنجة وعماد الدين زنكى ، وترك الأمير المسلم ليقلم أظافرهم . ففى ٢٦ سبتمبر ١١٣٨ فتح زنكى مدينة

(١٤) Ibid.

بيزاو وفى العاشر من أكتوبر استولى على الأتارب ؛ وفى أبريل ١١٤٢ قام أمير حلب بهجوم شامل على الجيوش الصليبية على ضفاف الأورونتس وألحق بها هزيمة ساحقة . وفى نفس الوقت انقض أهالى عسقلون على كتائب الملك فولك وهزموها هزيمة نكراء . وبذا بات كيان الإمارات الصليبية فى الشام مهددا بخطر داهم . وهنا توجه جوسلين وريموند بتوسلاتهما إلى يوحنا كومنين يطلبان منه النجدة . وفى صدد الحديث عن أحداث تلك الفترة يطالعنا المؤرخ البيزنطى يوحنا كناموس أن الإمبراطور كان ينوى إنفاذ مشروع جديد مؤداه بناء دولة جديدة تضم أناضوليا وأنطاكية وجزيرة قبرص يوكل أمر حكمها لابنه الأصغر عمانويل كومنين (١٥) . وكان هذا يعنى سلخ إمارة أنطاكية من حوزة اللاتين لتكون اللبنة الكبرى لدويلة عمانويل المزمع إنشاؤها . كذلك يتحدث نفس المصدر عن نية الامبراطور فى مد نفوذه حتى الفرات بغية عزل سلاجقة آسيا الصغرى عن حلفائهم فى ميزوبوتاميا (١٦) .

وفى عام ١١٤٢ كان يوحنا كومنين على أهبة الاستعداد لقيادة حملته إلى الشام ؛ وبينما يزعم المؤرخ البيزنطى نيكيتاس كونياتس أن البازيليوس كان قد أعلم أمير أنطاكية الصليبى بنبأ قدومه (١٧) ؛ نجد وليم الصورى يؤكد أن الإمبراطور البيزنطى تكتم أخبار حملته بقصد مفاجأة الأمير الأنطاكى . ورواية الأسقف الصورى تبدو أكثر معقولية وقبولا عن قصة كونياتس ، لأنها تتوافق ومخطط كومنين (١٨) .

ضرب كومنين معسكره عند مدينة طربيسل ، ومنها أرسل إلى جوسلين كونت الرها يطلب منه إرسال رهائن للدلالة على تبعيته وإخلاصه . واضطر

---

(١٥) Kinnamos, I, X, p. 23.

(١٦) Ibid. pp. 25, 56.

(١٧) Ibid., p. 52.

(١٨) William of Tyre, XV, XiX, p. 689.

أمير الرها — كارهاً — إلى أن يرسل ابنته إيزابيل رهينة لدى الإمبراطور البيزنطي[١٩]. وبعد ذلك هجم يوحنا على قلعة الرهبان المحاربين من طائفة الداوية عند جاستن واستولى عليها منهم (٢٥سبتمبر ١١٤٢)[٢٠]. ومن هذه القلعة وجه الإمبراطور أوامره إلى رايموند أمير أنطاكية بأن يسلم إليه قلعة أنطاكية والمدينة ذاتها.

استدعى رايموند باروناته ورجال الدين يطلب منهم المشورة. وفى المجلس أعلن المؤتمرون أن التسليم بشروط كومنين يعنى ضياع كرامة اللاتين وخراب كنيستهم. وصرح البارونات بأنه حتى وإن أجاز رايموند ذاته مطلب الإمبراطور فإنهم سيعارضونه لأنه قد تلقى الإمارة لاعن وراثة وأما عن طريق زواجه بالأميرة كونستانز ابنة بوهمند الثانى. كذلك أعلن هؤلاء أن الأميرة ذاتها لاتملك حق تسليم إمارتها لكائن ما دون موافقتهم لأن هذا يتضمن تبعيتهم — دون مشاورتهم — لسيد إقطاعى جديد؛ كما هددوا رايموند وزوجته بأنهم نافضون عن كواهلهم حقوقهما إن أقدما على خرق التقليد الإقطاعى فى أية صورة[٢١]. ولقد وكل المؤتمرون مهمة إبلاغ قرارات مجلسهم الصعبة للإمبراطور إلى أسقف جبلة وبضعة بارونات مرموقين. ولما وصل هؤلاء السفراء إلى مقام يوحنا كومنين تقدم منه الأسقف اللاتينى وخاطبه «باسم القديس بطرس وباسم الإمبراطور الألمانى» معلنا إصرار مجلسهم على بقاء أنطاكية إمارة لاتينية مع التنبيه عليه باستنكارهم الشديد للمطالب البيزنطية والمطامع فى إمارتهم[٢٢].

أمام هذا الإصرار العنيد من جانب الاكليروس والبارونات اللاتين، وأمام فاجعة وفاة ولده الأكبر ألكسيوس المفاجئة، آثر يوحنا كومنين عدم

(١٩) Ibid.

(٢٠) Ibid.

(٢١) William of Tyre, loc. cit.

(٢٢) Ibid., Otto of Freising, Chronica' in M.G.H.SS. Vol. XX, p. 263.

التشدد مرة أخرى حتى تسنح له فرصة أفضل ؛ ومن ثم فقد قرر قضاء موسم الشتاء فى كيليكيا . على أنه قبل أن يبرح الأراضى السورية أطلق كتائبه لتدمر المدن والقرى المجاورة لأنطاكية ، ويقال إن الرهبان اللاتين القاطنين فى تلك المنطقة صادفوا عذاباً شديداً على يد رجال يوحنا كومنين[٢٣] .

أمضى الإمبراطور البيزنطى فصل شتاء سنة ١١٤٢/١١٤٣ فى السهل الواقع ما بين عنزرب وموپسويستا . ومن هناك وجه رسالة إلى فولك ملك أورشليم يعبر فيها عن رغبته فى القدوم بجيشه إلى أورشليم لمعاونته ضد أعدائه . غير أن فولك رفض مساعدة يوحنا كومنين وأرسل أنسلم أسقف بيت لحم إليه فى رفقة روارد حارس قلعة أورشليم ، وجودفرى رئيس دير السيد المسيح ، الذى كان يجيد اللسان اليونانى ، ليبلغوا العاهل البيزنطى بأن سلطات بيت المقدس الصليبية لن تسمح له بالاقتراب من المملكة على رأس جيشه ؛ على أنه إن رغب ذاته فى الحج إلى بيت المقدس فإنه سينزل أهلا ويلقى سهلاً . وكان فى هذا إعلان صريح من جانب فولك أنه لن يسمح لبيزنطة بالتدخل فى شئون مملكته الصليبية[٢٤] .

وهكذا فإن علاقات يوحنا كومنين بالإمارات الصليبية اتسمت بالمرارة والشك المتبادل ، ولم ينجح يوحنا فى إملاء شروطه على إمارة أنطاكية ، أى أن ما اتفق عليه بين بوهمند والكسيوس فى عام ١١٠٨ قد ظل حبراً على ورق .

ثانياً : علاقات يوحنا كومنين بدويلات إيطاليا :

كان الكسيوس كومنين قد منح جمهورية البندقية امتيازات تجارية طائلة فى الإمبراطورية البيزنطية مقابل معاونتها له فى صراعه المرير ضد روبرت جويسكارد وولده بوهمند . ومن ثم فقد ازدهرت أحوال مستعمرة البنادقة فى القسطنطينية

(٢٣) Otto of Freising, loc. cit.

(٢٤) William of Tyre, XV, xxi, pp. 591 - 92.

إلى حد بات يوغر صدور الأهلين حقداً ضد هؤلاء « الأجانب » الموسرين . ومما زاد الأمور سوءا سلوك البنادقة المتعجرف فى معاملاتهم مع الشعب وبذاءة لسانهم ضد فقراء القوم وأعيانهم فى العاصمة . كان هذا الشعور بالسخط مدعاة لأن يرفض يوحنا كومنين تجديد الامتيازات التى منحها والده الراحل للبنادقة ولذا فشلت مهمة سفراء الدوق دومنيكو ميخائيل الذين قدموا إلى العاصمة للتفاوض مع البازيليوس الجديد .

كان الدوق قد أعد حملة صليبية إلى بيت المقدس ، ولما علم بموقف يوحنا كومنين من سفرائه ، قاد صليبيته المؤلفة من ٣٠٠ سفينة و ١٥٠٠٠ رجل لحصار جزيرة كورفو البيزنطية فى عام ١١٢٢ . على أن رسالة وصلته من السلطات الصليبية فى أورشليم تحثه على المسارعة برجاله وسفنه لشدة الحاجة إليهم . ومن ثم فقد رفع دومينيكو حصاره عن كورفو وأبحر قبالة الأرض المقدسة . ولقد انقضت الحملة فى مسيرتها على جزائر مودون ورودس وقبرص بقصد النهب والسلب انتقاما من الإمبراطور البيزنطى .

بعد قضاء بعض الوقت فى الأرض المقدسة تلبية لرغبة أمرائها اللاتين ، أبحر أسطول البندقية من هناك بغية استئناف أعمال القرصنة ضد أملاك بيزنطة . وبالفعل انقض البنادقة على جزيرة رودس مرة أخرى ونهبوها[٢٥] . وتعرضت جزر خيوس وساموس ولزبوس وأندروس لنفس المصير الذى تعرضت له رودس (١١٢٤ — ١١٢٥) . كذلك قاست مودون وشواطئ دلماشيا من قرصنة الدوق ورجاله . وفى ١١٢٦ قامت حملة أخرى بهجوم على جزيرة سيفالون .

لم يكن أسطول بيزنطة نداً للقوة البحرية لجمهورية سان مارك . ولذا فقد آثر يوحنا كومنين فتح باب المفاوضات مع البندقية . وفى خريف سنة ١١٢٦ عقدت معاهدة بين الطرفين تقر للبنادقة كافة الحقوق والامتيازات التى سبق

(٢٥) 'Historia Ducum Veneticorum' in M.G.H.SS. Vol. XIV, pp. 74 seq.

أن منحها الكسيوس كومنين لهم من قبل[٢٦] .

* * *

كذلك رأى يوحنا كومنين ضرورة عقد معاهدة ودية مع جمهورية پيزا . وتطالعنا « حوليات مدينة پيزا » أنه فى عام ١١٣٧ أوفد البازيليوس يوحنا سفارة إلى پيزا تحمل الهدايا المؤلفة من ٢٠٠ پالى ومبخرتين ذهبيتين[٢٧] . والواقع أن الإمبراطور قصد بهذه المعاهدة ضمان تحالف پيزا معه فى صراعه ضد روجر الثانى ملك صقلية وأپوليا . والذى شجع يوحنا على التقرب من سلطات پيزا أنها عضدت الأمير روبرت صاحب كاپوا فى تمرده ضد سيده روجر الثانى .

عادت سفارة يوحنا كومنين يصحبها السفير البيزى يوجونى دودى الذى وكل إليه مهمة توقيع المعاهدة مع البازيليوس وكذا الإشراف على مصالح الجالية البيزية فى العاصمة البيزنطية .

* * *

أما عن علاقات يوحنا كومنين مع جنوة ، فلم يحدث تقارب بين الطرفين حتى قرب نهاية عهد الإمبراطور ، وذلك أثناء قيامه بحملته على سوريا عام ١١٤٢ . فلقد قدم إلى معسكر الإمبراطور فى سوريا السفيران أوبرتو ديللا تورى ، وجيجليلمو ديللا بارتشا[٢٨] . ويبدو أن سلطات جنوة توقعت أن يحرز يوحنا كومنين نجاحاً مرموقاً ضد الفرنجه فى الشام ، ولذا فقد سارعوا للتفاوض معه بغية تأمين مصالحهم التجارية فى سوريا والأرض المقدسة وكان هذا هو الدافع الكامن وراء بعثة السفيرين سالفى الذكر .

ثالثا : البلاط البيزنطى والبلاط الألمانى فى عهد يوحنا كومنين :

لانكاد نعلم شيئاً عن علاقات يوحنا كومنين بأباطرة الغرب قبل عام ١١٣٥ .

(٢٦) Ibid.

(٢٧) "Annales Pisani", in M.G.H.SS. Vol. XX, p. 240.

(٢٨) "Cafari Annales' in M.G.H.SS. Vol. XVIII, p. 20.

فى ذلك العام بعث البازيليوس بأحد أساقفته وأحد أدواقه سفيرين إلى الإمبراطور لوثير فى مدينة مرزبورج . وقد صادف وصولهما إلى مقام الإمبراطور الألمانى قدوم رسل من قبل دوق البندقية إلى هناك(٢٩) .

تم هذا التقارب بين الإمبراطورين الشرقى والغربى نتيجة للتحديات التى أقدم عليها روجر الثانى ملك صقليه :

فى ٢٥ ديسمير عام ١١٣٠ تمكن هذا الزعيم النورماندى من الحصول على لقب « ملك » من البابا المعارض آناكليتوس الثانى . وبازدياد نفوذ روجر الثانى فى إيطاليا تناقص سلطان الإمبراطورين البيزنطى والألمانى فيها تباعاً . ولقد فجع الرأى العام فى بيزنطة عندما وردت الأنباء بسقوط مدينة نابلى — آخر المدن الإيطالية التى كانت تؤرخ حولياتها وفق مدة حكم الأباطرة البيزنطيين — فى يد العاهل الصقلى . وهكذا بات نجاح روجر يوماً بعد يوم مبعث حزن وضيق فى القسطنطينية على مجدتالد فى الجنوب الإيطالى .

ولما كان يوحنا كومنين فى تلك الفترة منصرفاً كلية لمقاتلة الترك والهنغار والصرب ، لم يكن بمقدوره الاضطلاع بخطوات إيجابية للحد من أطماع ملك صقلية . على أنه استقبل بترحاب بالغ البارونات النورمان الذين شقوا عصا الطاعة ضد سيدهم فى عاصمته .

أرسل روجر الثانى أسطوله لنهب شواطئ الأراضى البيزنطية وجمهورية البندقية أيضاً . والواقع أن روجر كان يخطط للسيطرة على شرقى وغربى حوض البحر الأبيض المتوسط لنشاط مملكته التجارى . كما أنه لم يخف أطماعه فى الشرق اللاتينى : فلقد قيل إن زواج أدليد أرملة روجر الأول من بلدوين الأول ملك أورشليم (فى عام ١١٣٣) كان زواجاً دبلوماسياً قصد روجر الثانى من ورائه وضع تاج مملكة بيت المقدس على رأسه إن لم ينجم عن هذا

---

(٢٩) "Annales Erphesfurdenses" in M.G.H.SS. Vol. VI, p. 540.

الزواج وريث للعرش . كذلك بعد أن توفى بوهمند الثانى أمير أنطاكية (فى عام ١١٣٠) راح روجر الثانى يطالب بهذه الإمارة لنفسه[٣٠] . ولذا فقد اتخذ إجراءات يمنع رايموند من پواتييه من الإبحار إلى سوريا والزواج من كونستانس ، وريثة بوهمند الثانى . ولم يفلت رايموند من هذا الحصار إلا بعد أن تنكر وأخفى شخصيته عن عيون الملك الصقلى .

رأى يوحنا كومنين فى أطماع روجر الثانى تهديداً مباشراً لمصالح بيزنطة فى الشرق والغرب . وهذا يفسر ذاك التقارب الودى الذى تم بين البلاطين البيزنطى والألمانى بهدف إبرام حلف ثنائى ضد ملك صقلية . وفى عام ١١٣٧ وصلت سفارة بيزنطية جديدة إلى لاجوبيزول لتقدم إلى لوثير مبلغاً من المال[٣١] .

رحب الإمبراطور الألمانى لوثير بعروض يوحنا كومنين لأنه من جانبه كان يرى ضرورة معاقبة الزعيم النورماندى الذى كانت مكاسبه فى جنوب إيطاليا على حساب هيبة الإمبراطور الألمانى، وهو الذى كان يرى فى نفسه الخليفة الشرعى للأباطرة الرومان . ولذا فقد قاد لوثير حملة إلى إيطاليا وهاجم مدينة بارى واستولى عليها ؛ غير أن روجر الثانى سرعان ماانقض ورجاله على المدينة واستعادها لسلطانه . وبعدها قلم روجر أظافر المتمردين ضده وقضى على ثورتهم تماما .

وفى عام ١١٤٠ عندما كان يوحنا كومنين يعد لحملته على سوريا ، أوفد سفراءه للإمبراطور الألمانى الجديد كونراد الثالث ، يطلب منه تجديد المعاهدة التى سبق أن أبرمها مع سلفه لوثير الراحل . كذلك كانت لدى السفراء البيزنطيين تعليمات من سيدهم بطلب يد أميرة من البيت الحاكم الألمانى للزواج من عمانويل أصغر أبناء يوحنا كومنين[٣٢] .

(٣٠) William of Tyre, XV, xii, p. 677.

(٣١) "Chronica Monasterii Casinensis", in M.G.H.SS. Vol. VII, p. 833.

(٣٢) Otto of Freising, "Gesta Friderici I Imperatoris" in M.G.H.SS. Vol. XX p. 363.

رحب كونراد الثالث بمطلب يوحنا كومنين وأرسل كاهنه الخاص ألبرت والكونت إسكندر صاحب جرافينا ، الذى كان قد تمرد على روجر الثانى ، لمواصلة المفاوضات مع العاهل البيزنطى فى عاصمته . كذلك كان من مهام هذه السفارة عرض يد برتا ــ شقيقة زوج كونراد ــ للزواج من عمانويل كومنين .

وفى عام ١١٤٢ جاءت سفارة بيزنطية أخرى لحث كونراد الثالث على مهاجمة إيطاليا والانتقام من روجر الثانى ، الذى راح يجدد عدوانه ضد الأراضى البيزنطية . وردًّا على هذا المطلب أوفد كونراد الثالث ألبرت السالف الذكر برفقة روبرت صاحب كاپوا ، الذى كان روجر قد طرده من إمارته ، للتفاوض مع الإمبراطور البيزنطى فى تفصيلات الحلف المزمع عقده بين الطرفين . كذلك أرسل كونراد رسالة إلى يوحنا كومنين ، من راتسبون ، يرحب فيها بالتعاون سويًّا ضد العدو المشترك ، روجر الصقلى ، فيما اسماه «حلفا دفاعيًّا هجوميًّا» . كما أوضح فيه أن الأحوال الداخلية فى ألمانيا آنئذ كانت مواتية لقيادة حملة ضد النورمان . كذلك أوصى كونراد ــ فى رسالته هذه ــ خيراً بالألمان القاطنين فى الإمبراطورية البيزنطية وبخاصة بهؤلاء الذين كانوا يخدمون فى جيوشها . كما طلب الإمبراطور الألمانى من حليفه البيزنطى رقعة من الأرض فى العاصمة تبنى عليها كنيسة . وفى نهاية الرسالة طلب الكاتب أيضاً أن يلقى التجار الألمان الذين هوجموا على يد جماعة من الروثينيين إنصافاً وعدالة من جانب السلطات البيزنطية (٣٣) . وفى نفس العام سافرت سفارة بيزنطية إلى البلاط الألمانى لتكون فى رفقة الأميرة الألمانية ــ برثا من سالزباخ ــ فى رحلتها إلى القسطنطينية .

أمام هذا الحلف الوثيق بين الإمبراطورين الشرقى والغربى وجد روجر الثانى نفسه مهدداً بقوتين كبيرتين ، لم يكن هو ندًّا لهما مجتمعين . ولذ فقد

(٣٣) Ibid., p. 364.

طرق باب التفاوض مع البلاط البيزنطى . وبالفعل قدمت سفارة نورماندية إلى العاصمة البيزنطية ، ولكنها أتت متأخرة لأن يوحنا كومنين كان وقتها على فراش الموت (١١٤٣) .

رابعاً : علاقات بيزنطة بالبابوية أثناء حكم يوحنا كومنين :

شهد القرن الثانى عشر قيام نظام ديرانى جـــديد عرف بجماعة الـCistercians ؛ الذين طارت شهرتهم فى أرجاء غرب أوربا بفضل زعيمهم الشهير القديس برنارد ده كليرفوه الذى يطل فى القرن الثانى عشر كأهم شخصية دينية وأبرز رجل سياسة فى الغرب اللاتينى على الإطلا ق . وفى نفس الوقت ترأس دير كلونى العريق زعيم آخر لايقل شأناً وشأواً عن برنارد ؛ وهو بطرس الوقور . ويمثل الرجلان ثقافه الصفوة الغربية آنئذ ، كما أن كتاباتهما كانت البوق الحقيقى للكرسى البابوى . كما أن لكل منهما وجهة نظره قبالة الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها ؛ مما يعطى أهمية خاصة لمحاولة تفسير كتاباتهما فى هذا الصدد .

فى رسالة إلى يوحنا كومنين يخاطبه بطرس الوقور على أنه إمبراطور كافة المسيحيين وأميرهم ؛ وكذا حامى حمى كنيسة الأرض كلها سواء فى الشرق أو الغرب[٣٤]. وعلى هذا فيوحنا وأسلافه هم « الأباطرة الرومان » كما أن القسطنطينية قد شيدت على يد إمبراطور رومانى مسيحى قديس ، هو قسطنطين العظيم ؛ فى حين أن روما قد أقيمت على يد روميلوس الوثنى . وامتدح الزعيم الكلونى جهود أباطرة بيزنطة لخدمة قضية المسيحية ضد الترك ؛ وخص بالمديح والد يوحنا — الكسيوس طيب الذكر — الذى قدم العون للصليبيين والذى منح الرهبان الكلونيين ديراً فى مدينة كيفيتوت [٣٥] . وفى نهاية الرسالة يشيد بطرس وجماعة ديره بخلق يوحنا وتدينه وسماحته .

---

(٣٤) Peter the Venerable, ep. XXXIX, in P.L. Vol. CLXXXIX, cols. 260 - 62.

(٣٥) Ibid.

وفى رسالة موجهة إلى بطريرك القسطنطينية تحدث مقدم دير كلونى — بطرس الوقور — عن الإله الواحد والإيمان الواحد والمحبة الوحيدة التى تربطه بأخيه فى الرب ، رغم تباين اللسان وبعد المسافة بينهما . كما أشاد الكاتب بالمدينة الخالدة المقدسة — القسطنطينية — منبع الإيمان وبكرسيها الرسولى مزار القديسين والإنجيليين والشهداء(٣٦) .

الجماعة الثانية من الديريين ذوى النفوذ العميق على غرب أوربا فى تلك الفترة كانت منظمة السستيرشيان بزعامة القديس برنارد ده كليرفوه . كان برنارد من المتحمسين للحركة الصليبية ؛ على أن اهتمامه الخاص كان بجماعة فرسان المعبد (الداوية) التى أسسها هيومن پاين (١٠٧٠ — ١١٣٦) تحت اسم « الفرسان الفقراء للسيد المسيح ولمعبد سليمان » . وفى عام ١١٢٨ قصد هيو وخمسة من رفاقه من أورشليم إلى فرنسا للبحث عن متطوعين لجماعتهم ، وقد حضروا المجلس الذى عقد فى هذا العام فى مدينة تروى . وكان القديس برنارد مشاركاً فى هذا المجلس ، ولا شك فى أنه قد عاونهم فى الحصول على التأييد لمنظمتهم من السلطات الكنسية فى الغرب . هذا وقد أتى مقاله De Laude Novae Militiae موجهاً إلى هيو ورجاله من الداوية . وفيه يبشر القديس بحرب مقدسة من صنف جديد يتسلح فيها الصليبى لا بالسيف فحسب وإنما أيضاً بدرع الله . والمعمدان — فى رأى برنارد — لم يمنع الجند الرومان من أداء خدماتهم العسكرية ، بل وافق عليها ضمنا عندما حثهم على القناعة بأجورهم . والرجال — ابتغاء مرضاة النداء السماوى — وجب عليهم القتال : ألم يقاتل السيد المسيح ذاته — بسوطه لا بسيفه — لينظف المعبد من خربى الضمائر والمنافقين وتجار السوء من اليهود ؟ !!

على أن برنارد عاب على الجماعات الصليبية سوء المسلك والفوضى والجشع والنهم والسلب والقرصنة وركوب الجياد المطهمة المزدانة بالحرائر ونفيس الجواهر

(٣٦) Peter the Venerable, ep. XL in P.L. Vol. CLXXXIX, col. 262.

والافتتان بزخرف العالم وسفك الدماء بغير حق ؛ مما أدى به إلى المجاهرة بأن جند المسيح أمسوا مكراً للشيطان (٣٧) .

وإلى جانب هذا فللقديس برنارد وجهة نظره فى البابوية وحقوقها . ولقد رأى فى البابا جريجورى السابع الأنموذج الأفضل للبابوات ، كما تأثر كثيراً بكتاباته ونظريته الأوتوقراطية وكذا بكتابات القديس أغسطينوس والبابا جريجورى العظيم . فهو يرى فى الجالس على عرش القديس بطرس الكاهن الأعظم ؛ أمير الأساقفة ؛ ووريث الرسل ؛ صنو هابيل فى حق البكورية ، ونوح فى الفلك ، وإبراهيم فى البطريركية ، وملكيصادق فى الجلالة ، وهارون فى الوقار ، وموسى فى السلطان ، وصموئيل فى التشريع ، وبطرس فى حق الربط والحل . هو حامل مفاتيح الجنة والراعى الصالح ورأس المؤمنين قاطبة وراعى رعاتهم وقسيس الله المفضل الممسوح بزيته الربانى (٣٨) .

فالبابا على هذا رأس كافة الرعاة (البطارقة) لأنه خليفة بطرس أمير الرسل صاحب حق الحل والربط على الأرض وفى السماء . ومن يقاوم سلطانه يغضب الله ذاته ، ولذا وجب عقابه مهما كان مركزه ؛ علمانياً كان أم روحياً ، فهو القاضى الأوحد للمسكونة . والواقع أن هذا الكلام تأكيد جديد للنظرية الهلدبراندية ؛ ذلك لأن القديس برنارد كان معجباً الإعجاب كله بالبابا جريجورى السابع .

ونجد الرئيس الديرانى نفسه يتحدث عن الكنيسة البيزنطية فيشير إليها بأصابع الاتهام معيباً عليها القطيعة والانشقاق عن الكرسى الرسولى ، منبهاً إلى ما شابها من هرطقات قديمة . وهو على هذا يستنفر البابا لتقويم هذا الاعوجاج البيزنطى بكل قوة لينقذ العقيدة المسيحية من خطر الانحراف

(٣٧) St. Bernard de Clairvaux, De Laude Novae Militiae', V, 9, col. 1256 in J. Mabillon's Opera Omnia, 2 Vols. Paris, 1839.

(٣٨) St. Bernard', De Consideratione' lib. II, cap. viii, 15, col. 1032, in Opera Omnia.

والهلاك . والجدير بالملاحظة أن برنارد يضع البيزنطيين جنباً إلى جنب فى صدد التقريع مع الكفار والوثنيين واليهود ، مشبهاً إياهم « بكلاب الضلال وذئاب التدليس »[٣٩] .

ولذا نجد القديس برنارد يحث تلميذه يوجينيوس الثالث — الذى كان آنئذ جالساً على عرش البابوية — على أن يستخدم « سيفى » القديس بطرس الرسول لهدم الضلال وتقليم أظافر الانفصاليين : وهو بهذا يعنى الكنيسة البيزنطية وبطريركيتها[٤٠] .

* * *

فتح يوحنا كومنين باب المفاوضات مع الكرسى الرسولى ؛ مبدياً استعداده لمناقشة موضوع وحدة الكنيستين البيزنطية والرومانية . ويجب التنبيه هنا إلى أن هذه المبادأة من جانب يوحنا كومنين كانت تستهدف فى المقام الأول مصالحه السياسية فى الغرب ، وكذا متابعة لحلم غال على آل كومنين ؛ وهو محاولة استرجاع التاج الرومانى من الأباطرة الألمان . وفى يونيو ١١٢٤ كتب الإمبراطور البيزنطى إلى البابا كالكستوس الثانى رسالة ودية ملؤها الغيرة على وحدة الكنيستين والمرارة التى يكابدها إذ يعاينهما على حال من الشقاق والقطيعة[٤١] .

توفى البابا كالكستوس فى عام ١١٢٤ ، وخلفه على العرش البابوى هونوريوس الثانى (١١٢٤ — ١١٣٠) . فأرسل يوحنا كومنين إلى البابا الجديد رسالة (فى أبريل ١١٢٦) عبر فيها مرة أخرى عن رغبته فى وحدة الكنيستين . على أنه أكد فى هذا المضمار مبدأ السيفين اللذين سلمهما الله للسلطتين الدنيوية والروحية ؛ فهو بهذا يطالب لنفسه بما أقره السيد المسيح لقيصر : (اعط

---

(٣٩) De Consideratione III, i, 2 - 4, cols. 1040 - 42.

(٤٠) St. Bernard of Clairvaux, ep. CCLVI, cols. 538-40, in Opera Omnia.

(٤١) A. Theiner and F. Miklosich, Monumenta Spectantia ad Unionem Ecclesiarum Graecae et Romanae Maiorem Partem e sanctoribus Vaticani Tabularis, Vindobonae, 1872, pp. 2 - 3.

ما لقيصر لقيصر وما لله لله »(٤٢). على أن الجهود بغية تحقيق الوحدة لم تتعد تلك الرسائل الودية بين الطرفين ، بمعنى أنه لم يتخذ جانب منهما خطوات إيجابية لتحقيق ماورد فى تلك الرسائل .

والواقع أن يوحنا كومنين كان يبغى من وراء تلك النغمة الودية التى خاطب بها البابوية مساندتها له فى مشروعاته فى غرب أوربا . ولكن حقيقة الموقف والمشاعر بين الكنيستين لاينبغى تقصيها فى سياسة آل كومنين وإنما فى اتجاهات وكتابات رجال الأكليروس بيزنطيين ولاتين معا . فى عام ١١٣٦ عرج أنسلم من هافلبرج على القسطنطينية ، وهناك دخل فى جدال دينى مع نيكيتاس رئيس أساقفة نيقوميديا . وفى هذا الجدل تبادل الطرفان الاتهامات فى المسائل العقائدية والطقوسية ، كما حمل نيكيتاس حملة شديدة على مزاعم البابوية فى إمرة الكنيسة(٤٣) . وفى يوليو ١١٣٧ وصل سفراء يوحنا كومنين إلى بلاط الإمبراطور الألمانى لوثير لتهنئته على انتصاره ضد روجر الصقلى ولتقديم الهدايا الإمبراطورية إليه . وكان من بين أعضاء هذه السفارة البيزنطية أحد الفلاسفة من اللاهوتيين الذى أعلن على مسمع من الجميع أن « البابا الرومانى ليس برجل دين وإنما إمبراطور »(٤٤) ؛ كما راح يؤكد أن الكهنوت اللاتينى واقع تحت لعنة الحرمان بسبب استخدام الخبز الغير مختمر فى شركة التناول . على أن أحد رجال الدين اللاتين وهو بطرس الشماس — وهو علم من أعلام مونت كاسينو — كان حاضراً فى البلاط ، فتصدى للفيلسوف البيزنطى ، ودار بين الاثنين حوار حاد اللهجة به إصرار من الطرفين على لعن الآخر ووضعه فى عداد الهراطقة . والخلاف الذى لا تهاود فيه بين الكنيستين — على لسان هذين المتجادلين — هو تحريف اللاتين لقانون الإيمان النيقى فى إضافة الغرب لعبارة « انبثاق الروح القدس من الابن أيضاً » ؛ بينما

---

(٤٢) Ibid., pp. 5 - 6.

(٤٣) Ibid., p. 4.

(٤٤) Chronica Monasterii Casinensis', in M.G.H.SS. Vol. VII, p. 833.

يعيب اللاتين على البيزنطيين إنكار ما لله الأب من طبيعة ، فى مجال انبثاق الروح القدس ، على الابن ؛ مما يضعه بالضرورة فى جوهر دون الجوهر الإلهى الكامل.[٤٥] .

هذا وفى موقف البابوية تجاه سياسة يوحنا كومنين فى الإمارات الصليبية مايلقى ضوءاً أكثر على حقيقة المشاعر . يحدثنا أودو دى دويل أن يوحنا كومنين بعد أن استولى على طرسوس وما مستّرا فى كيليكيا ، طرد الأساقفة اللاتين من كافة مدنها وعين بدلا منهم يونانيين هراطقة.[٤٦] .

ولما علم البابا أنوسنت الثانى بهذا ، أصدر قراراً بابوياً فى ٢٨ مارس ١١٣٨ يحض فيه المرتزقة من اللاتين فى خدمة يوحنا كومنين على التمرد ضده ، إذا هاجم أنطاكية ؛ مهدداً من لا ينصاع للأمر بلعنة الحرمان.[٤٧] .

ليس بمستغرب إذن أن نجد لاهوتى بيزنطة والمشتغلين بالقانون الكنسى فى القرن الثانى عشر ينظرون بازدراء إلى مزاعم البابوية وتحدياتها لبطريركية القسطنطينية . ولعل أشهر ماكتب فى هذا الصدد مقالة أهداها نيلوس دوكسوپاترس إلى روجر الثانى ملك صقلية فى عام ١١٤٣ . وفيها يتحدث الكاتب عن مركز القسطنطينية الفريد كعاصمة للإمبراطورية الرومانية المسيحية ، وكبيت للبطريركية المسكونية . أما عن روما فقد فقدت إمرتها على الكنائس بعد وقوعها فى يد المتبربرين[٤٨] . وهذا البرهان الذى اعتمد عليه نيلوس وغيره من كتاب القرن الثانى عشر يقوم أساساً على ما ورد فى القانون الثامن والعشرين من قرارات مجلس خلقدونية (٤٥١) الذى سبق ذكره .

---

(٤٥) Ibid.

(٤٦) Odo of Deuil, De Profectione Ludovici VII in Orientem (ed. G. Berry) New York, 1948. IV, p. 70.

(٤٧) P.L. Vol. CLXXX, cols. 354 - 55.

(٤٨) Nilus Doxopatres 'Notitia Patriarchatum', in P.G. Vol. CXXXII, cols. 1100 - 1101.

الفصل السابع

بيزنطة والحملة الصليبية الثانية

تمهيـــد

أصيب الإمبراطور يوحنا كومنين بسهم مسموم وهو فى رحلة صيد فى كيليكيا فأتى على حياته . وكان الإمبراطور الراحل قد اختار عمانويل أصغر أبنائه ليخلفه على العرش بأن وضع بيديه ، فى اللحظات الأخيرة من حياته ، التاج الإمبراطورى على رأس ولده (إبريل ١١٤٣) .

وعمانويل واحد من أمجد أباطرة بيزنطة : وهو إذ يطل من بعض الجوانب عملاقاً بيزنطياًّ فى ملامحه وسماته ، نلمس فيه أيضاً نتاجاً للحضارة الغربية اللاتينية . وكان عمانويل فى هذا يحاكى بعض الفرسان اللاتين من أبناء القرن الثانى عشر الذين دربوا على التقاليد الفروسية ، ويذهب البعض فى هذا إلى حد مقارنته بالملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد . والواقع أن افتتان عمانويل بمثل الفروسية العليا وزواجه من أميرتين لاتينيتين أنبت فى وجدانه حباًّ وتفضيلا خالصين للعنصر اللاتينى .

ولذا فلقد وفد على بلاطه عديد من اللاتين من جرمان وفرنجة ونورمان وإيطاليين وإنجليز وهم على ثقة من النزول أهلا وسهلا فى القسطنطينية سواء أقاموا بخدمة العاهل البيزنطى فى بلاطه أو فى جيشه . ومع جهل هؤلاء المرتزقة اللاتين باللسان اليونانى ، إذ كانوا « يبصقون أفضل مما ينطقون » ، إلا أنهم نجحوا — رغم هذا — فى الحصول على أخطر المناصب فى الإدارة والحكومة ؛ الأمر الذى أثار نار الحقد فى قلوب شعب العاصمة الإمبراطورية . ولقد أجج من نار هذه الكراهية للاتين ما صارت عليه من ثراء فاحش تلك الجاليات الجنوية والبيزية وجماعة البنادقة الذين استقروا واستمرءوا فى القسطنطينية .

كان عمانويل كومنين مهتما بالآداب هو وزوجه ورجال بلاطه ؛ ولذا فقد التف حوله خيرة مثقفى عصره وفلاسفتهم . من طراز تزاتزيس، وقسطنطين ماناسيز وغليكاس وأحد الأخوين برود رومى . هذا وفى عهد عمانويل أتمت الأميرة آنا كومنينا ملحمتها الرائعة «الكسياد» ، كما حذا حذوها الكاتبان زوناراس وغليكاس ؛ وفى نفس الآونة جمع المؤرخان الكبيران يوحنا كناموس ، ونيكيتاس كونياتس المادة اللازمة لتاريخهما .

على أن عمانويل كومنين لم يكن على وفاق مع الكنيسة البيزنطية . فنجد نيكيتاس كونياتس ينتقد جرأته فى الخروج على النصوص الواردة فى الكتاب المقدس وتراث الآباء الباكرين[١]. ومن قبيل ذلك اضطهاد عمانويل للبطريرك ثيودوزيوس الذى انتقد تفسيرات الإمبراطور لبعض النصوص الإنجيلية . كذلك عمد البازيلوس إلى سمل عيون ميخائيل غليكاس لأنه فند ما كتبه الأول فى التنجيم . كذلك عيب على عمانويل جهوده فى التقليل من شأن الكنيسة كمؤسسة ذات شعبية عريضة . ولعل من أشهر أمثلة استخفافه بتقاليدها أنه أقدم على اصطحاب سلطان قونية التركى — الذى كان فى زيارة رسمية للقسطنطينية — لزيارة كنيسة أياصوفيا ، مما أزعج بطريركها[٢] هذا وفى المجامع التى دعيت لمحاكمة الهراطقة كانت قرارات عمانويل وحدها هى فيصل القول ، وكان على أكليروس أياصوفيا ابتلاع آرئهم الخاصة . على أن الذى أثار رجال الكنيسة البيزنطية بشكل خاص تلك السياسة الودية التى انتهجها عمانويل قبالة اللاتين والبابوية . وقد ذهب الإمبراطور فى هذا إلى حد راح فيه يساوم روما على الاعتراف به امبراطوراً رومانياًّ مقابل إخضاعه بطريركية بيزنطة لسلطان خلفاء القديس بطرس الرسول . وقد جلبت تلك السياسة على العاصمة البيزنطية توتراً شديداً هدد شعبية عمانويل

(١) Nic... Chonitates Historia, (C.S.H.B.) 'De Manuele, Bonn 1835, VII, v, pp. 274 - 75.

(٢) John Kinnamos, Epitome Historiarum (C.S.H..B.) Bonn, 1836, V, iii, p. 206.

ذاته . ولعل فى هذا بعض من إجابة للسؤال الذى حير جماعة المؤرخين فى تعليل العداوة الفجائية التى رمى بها عمانويل اللاتين ، عندما استنفر غوغاء العاصمة لسلب حى البنادقة فى العاصمة وعندما أمر بسجن وجهاءهم فى معتقلاته .

ومهما كان الأمر فإن عمانويل كومنين كان معجباً باللاتين حريصاً على توظيفهم فى امبراطوريته ، مفضلا إياهم — على حد تعبير وليم الصوري — على « رجاله المخنثين[٣] » . ونجد من بين خلصائه اللاتين الكسندر كونفرسانو كونت جرافينا الذى كان قد تمرد ضد سيده روجر الثانى ملك صقلية . وكان الكسندر هذا قد لجأ إلى بلاط كونراد الثالث الألمانى ومن هناك وفد على القسطنطينية فى مهمة دبلوماسية . غير أنه قرر البقاء فى بيزنطة وعينه عمانويل قائداً للجند المرتزقة النورمان فى خدمته والمعروفين فى الحوليات البيزنطية باسم « الكلت » . وقد وكل عمانويل إليه مهام خطيرة من قبيل مقابلة ملك فرنسا وألمانيا القادمين على رأس الحملة الصليبية الثانية . كما وأنه مثل الإمبراطور أيضاً فى المباحثات التى كانت تدور بين الحين والآخر مع البندقية وانكونا . والكسندر هو أيضاً الذى وقع تلك المعاهدة مع ملك بيت المقدس اللاتينى والتى بمؤداها تقرر أول هجوم بيزنطو — لاتينى على مصر (عام ١١٦٦) .

هذا ولقد كان سفراء عمانويل إلى لويس السابع والبابا اسكندر الثالث من اللاتين العاملين فى خدمته . كما كان بلاطه عامراً بالمترجمين اللاتين وعلى رأسهم ثيوفيلاكت ، وميخائيل من أوترانتو ، وليومن تسكانا الذى ترجم صلاة قداس القديس يوحنا خرايزوستوم إلى اللاتينية .

* * *

عندما توفى يوحنا كومنين (١١٤٣) غزا رايموند ، أمير أنطاكية الصليبى ، بعض المناطق المتاخمة لإقليم كيليكيا[٤] ومع أن قوات عمانويل استعادت ما نهبه رايموند ، ورغم قدوم هذا الأخير إلى القسطنطينية للاعتذار ولأداء يمين

(٣) William of Tyre, op. cit., XXII, x, p. 107.

(٤) Kinnamos, I, iii, p. 33.

الولاء والطاعة ؛ إلا أن عمانويل كان موقناً أنه لن يتم له إرساء سلطانه فى الشرق اللاتينى حتى يجد حليفاً قوياً فى الغرب فى مقدوره تقليم أظافر ملوك صقلية النورمان . وهذا هو الدافع الأساسى لذلك التقارب الذى تم بين البلاطين البيزنطى والألمانى خاصة فى عهد عمانويل كومنين . ففى أوائل ١١٤٥ أرسل عمانويل سفيره نقفور محملا بالهدايا للإمبراطور كونراد الثالث ؛ ليطلب منه ٥٠٠ فارساً للخدمة فى الجيش البيزنطى ، وأيضاً ليبلغه رسالة شفوية من قبل العاهل البيزنطى . ولما استمع كونراد إلى هذه الرسالة الشفوية على لسان نقفور — كما تقول المصادر المعاصرة — « استشاط غضباً وأقسم أنه لو كان ولده هنرى قد ذبح أمام بصره لما كان ليتألم هذا الألم الذى أحدثه كلام نقفور »(٥) .

ولقد حيرت هذه المسألة كتاباً كثيرين ، إذ لا ندرى تماما فحوى ما قاله نقفور لكونراد فأغضبه على هذه الشاكلة . على أن رد كونراد على عمانويل قد يلقى بعض الضوء على أعماق هذا الموقف الصعب : نجد فى هذه الرسالة أن كونراد يخاطب عمانويل على أنه مجرد « ملك يونانى » لا كامبراطور رومانى(٦). ولنا أن نتساءل : هل رفض عمانويل مخاطبة كونراد كإمبراطور رومانى فى بادئ الأمر(٧) ؟ أم أن هناك مسائل أخرى أدت إلى ثورة العاهل الألمانى ؟

يبدو أن السفير نقفور قد ذكر شيئا على لسان سيده فى أمر خطيبته الألمانية — برتا — شقيقة زوج كونراد . والمعروف أن برتا قد وصلت بعد خطبتها لعمانويل إلى القسطنطينية ولم يكن وقتئذ ولياً للعرش ؛ ولكن بوفاة شقيق عمانويل الأكبر — الكسيوس — وضحت فرصته لحمل التاج البيزنطى . ومن ثم فقد راح — أغلب الظن — ليبحث عن أميرة غيرها كزوجة له ، خاصة وأن والده لم يكن راضياً تماماً عن هذا الزواج ، وإنما كان راغباً فى تزويج ابنه من أميرة من الدم الملكى الخالص .

(٥) Otto of Freising, Gesta Friderici I Imperatoris, I, XXV.

(٦) Ibid.

(٧) See P. Lamma, Comneni e Staufer, Rome, 1955 - 57, I, p. 51.

ويحتمل أن نقفور قد طلب زوجة لسيده من الدم الملكى الخالص بدلا من برتا ؛ مما أثار كونراد عليه . ومما يؤيد ذلك أن كونراد — فى رسالته لعمانويل — أولى أهمية خاصة لموضوع برتا مؤكداً أن هذا الأمر قد اتفق عليه وأن زواجها من عمانويل لابد وأن يتم (٨) .

وبالفعل تم زواج عمانويل كومنين من برتا الألمانية فى عام ١١٤٦ . وقد رأى الكاتب برودروموس فى اقتران الأميرة الجرمانية بخليفة قسطنطين شرفاً زائداً لكونراد الثالث والألمان ، مشيراً ضمنا إلى علو شأن بيزنطية بالنسبة إلى ألمانيا (٩). وكان الشعور فى البلاط الجرمانى أن هذا الزواج الميمون لبنة فى التضامن بين الإمبراطورين من أجل «إعلاء اسم المسيح حتى تلهج به كل الألسن فى المسكونة (١٠)» . ولقد وعد كونراد صهره عمانويل بأنه يكون صديقاً لأصدقائه وعدواً لأعدائه ، وأنه سينظر إليه «كابن عزيز للأسرة الجرمانية الملكية» . كذلك عرض كونراد إرسال ٣,٠٠٠ فارس من رجاله لخدمة بيزنطة ، ووعده بمعونة القوات الألمانية جميعاً إذا مادعت الضرورة إلى ذلك (١١) .

كانت السلطات البيزنطية تعقد على هذا الزواج آمالا عراضا فى التعاون بين الإمبراطوريتين لتقليم أظافر ملك صقلية . غير أن هذه الآمال كانت سراباً ، إذ سرعان ماتوافدت الأنباء من الغرب عن اقتراب جحافل الحملة الصليبية الثانية صوب العاصمة البيزنطية ؛ مما أدى إلى توتر بين السلطات البيزنطية وقائدى الحملة كونراد امبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا .

* * *

فى ٢٣ نوفمبر ١١٤٤ هجم عماد الدين زنكى على مدينة الرها واستردها من الصليبيين . وبسقوط الرها فى يده باتت مملكة بيت المقدس ذاتها مهددة بالخطر ؛

---

(٨) Otto of Freising, op. cit., I, xxiv.

(٩) P.G. Vol. CXXXIII, col. 1360.

(١٠) Otto of Freising, loc. cit.

(١١) Ibid.

وتوقع الرأى العام فى الإمارات اللاتينية الباقية أن يكون غزو أنطاكية الخطوة التالية لهذا القائد المسلم فى مخططه الواسع . ويحدثنا أوتو من فريزنج أن أسقف جبلا وصل إلى روما « وعيناه قد اغرورقت بالدموع يحذر سامعيه من الخطر المحدق بالكنيسة فيما وراء البحار نتيجة لسقوط الرها ؛ ومبديا رغبته فى عبور جبال الألب ليستعطف ملكى الألمان والفرنسيس لاستنقاذها[١٢] » .

وفى ٢٥ ديسمبر ١١٤٥ أعلن لويس السابع ملك فرنسا عن عزمه لحمل الصليب ، وأبرق للبابا يوجينيوس الثالث بقصده هذا . فأمر البابا بكلام « أحلى من العسل » سائر المؤمنين تلبية مبادأة صاحب الجلالة ، وخطط لوضع زوجات وأطفال من يسير وراءه فى الحملة الصليبية تحت الحماية البابوية ذاتها . ولقد عبر يوجينيوس عن تحرقه ذاتياً للتبشير بالحملة لولا « طغيان سيده الجبار » ؛ يقصد الشعب الرومانى الذى لم يكن ليكف عن مناوأته للبابا . ولذا فقد وكل مهمة التبشير بها إلى معلمه القديس برناردى كليرفوه ، الذى كان لسان حال الكرسى البابوى آنذاك .

ولقد أصدر البابا يوجينيوس الثالث مرسومين : أولهما فى أول ديسمبر ١١٤٥ موجهاً إلى لويس السابع والأمراء وسائر المؤمنين ، فى غالة ؛ والثانى فى أول مارس ١١٤٦ موجها إلى « المؤمنين » على الإطلاق فى غالة أيضاً ، يدعوهم فيه إلى الإنخراط فى الحملة الصليبية . وفى يوم أحد الشعانين (الخوص) الموافق ٣١ مارس ١١٤٦ اجتمع جمع كبير فى مدينة فيزيلاى حيث تلقى الملك الفرنسى الصليب الخاص الذى بعث به البابا لهذه المناسبة من يد القديس برنارد . واعتلى القديس المنصة أمام هذا الجمع الغفير وسحرهم ببيانه وحماسه فسارعوا لتلبية دعوته لهم لحمل الصليب ؛ وكان على رأس هؤلاء الملكة إليانور الأقطانية ، وثيودوريك كونت فلاندرز ، وهنرى ابن ثيوبالد كونت بلوا ، وروبرت شقيق الملك لويس السابع ، وعمه آماديوس الثالث كونت مورين ، ووليم كونت

---

(١٢) Otto of Fresing 'Chronicon' in M.G.H.SS. Vol. XX. vii, 33.

نيفيرز ، وارتشيبالد كونت بوربون ، وانجيرراند من كوسى ؛ ثم الأساقفة جودفرى من لاروش ، وارنولف من ليزييه . ولقد تقرر فى هذا المجمع تكوين حملة صليبية ضخمة لمقاتلة عرب لشبونة ، والسلاف على نهر إلب ، والأتراك فى آسيا الصغرى والأراضى المقدسة [١٣] . وقد حدد موعد رحيل الحملة فى مارس من العام التالى (١١٤٧) .

على أن الجماهير الشعبية لغرب أوربا اللاتينى كانت تحتاج ، لكى تنخرط فى حركة صليبية جديدة ، إلى نداء علوى من السماء مثلما ألفوا وقت بطرس الناسك ورفاقه .

يحدثنا أوتو من فريزنج عن راهب يدعى راؤول ظهر فى أراضى الراين واستنفر الآلاف فى كولون ومينز وورمز وستراسبورج وسبايرز لحمل علامة الصليب ، حاثا إياهم على ذبح اليهود « الأعداء الحقيقيين للصليب ومسيحه » ؛ فانقضوا عليهم نهبا وتقتيلا . على أن القديس برنارد غضب من هذا المسلك وراح يهاجم راؤول رغم أنه كان من أبناء جماعة السيسترشيان الديرانية ، ورغم موافقة رئيس ديره لوبز من هينولت على هذا التصرف [١٤] .

وجدير بالذكر هنا أن لويس السابع قد فرض ضريبة صليبية على أتباعه الإقطاعيين من علمانيين وأساقفة ، وكذا البيوتات الدينية . غير أنه لم يطلب من يهود غالة المساهمة فى حملته الصليبية ؛ الأمر الذى أغضب مقدم ديركلونى — بطرس الوقور — فكتب إليه يقول بأن « الذين تستوجب عليهم الجباية فى هذه المناسبة بالذات هم اليهود الملاعين » الذين اضطهدوا المسيح وصلبوه وأراقوا دمه. ثم لامه على إعفائهم من الضريبة رغم ثرائهم الفاحش وكنوزهم المكدسة . على

---

(١٣) E. Vacandard, Vie de St. Bernard Abbé de Clairvaux, 2 Vols. Paris, 1895, I, p. 301.

(١٤) Otto of Freising, Gesta, I, 38.

أنه أوضح أنه لا يطالب بقتلهم وإنما بجباية الضريبة منهم تكفيراً عن جرمهم ضد المسيح والمسيحية (١٥) .

يقص علينا السجل المعروف باسم Liber miracularum ، وهو يحوى تسجيلات رفاق القديس برنارد عن رحلاتهم فى غرب أوربا ، المنجزات التى حققها القديس فى أسفاره للتبشير بالحملة : فلقد زار مدائن فلاندرز ، وآراس، وڤوسى ؛ ولى دين ، وكليرماريه ، وبروج ، وأفلجهم ، وجمبلوفى ، وڤيللير ز ، وميتز ، وكونستانس . وفى مدينة فرانكفورت التقى بكونراد الثالث ملك الألمان ؛ غير أن العاهل الألمانى وقتها أعلن أنه لن يتمكن من المشاركة فى الحملة . وبعدها يمم برنارد صوب شافهاوزن ، وڤنترثور وغيرهما من المدن . ويحدثنا جودفرى كاتب سيرة القديس أنه أينما حل سيده كان لسانه ينطق قدسية وتقى من الطراز العلوى (١٦) وفى مدينة سپاير ز التقى القديس الملك الألمانى للمرة الثانية وأخذ يستميله إلى قيادة حملة صليبية أسوة بالملك الفرنسى . وقد اتفق أن حضر هذا الاجتماع بين الرجلين سفراء من البلاط البيزنطى كانوا قد وفدوا للتفاوض على حملة مشتركة ضد النورمان فى صقلية . وبينما كان أحد السفراء البيزنطيين منشغلا فى الحديث مع القديس برنارد ، تقدم قوم بامرأة ضريرة إلى مجلس القديس ؛ فما إن لمسها بأنامله حتى رفعت عنها غشاوة بصرها ورأت النور . ويقول نفس المصدر — جودفرى — أن السفير البيزنطى ذهل مما رآه (١٧) .

ويروى مانريكيه أن القديس بعد أن اختتم صلواته للعذراء بقوله « أيتها الرحيمة التقية النقية الحلوة ماريا » ألقى بنفسه أرضاً ثلاث مرات أمام أيقونتها فى الكاتدرائية ، فحياه جمهور المصلين صارخين « طوباك يابرنارد » . وفى

(١٥) Peter the Venerable, ep. XXXVI in P.L. Vol. CLXXXIX.

(١٦) Vita Bernardi, VI, i, 4, 15, in P.L. Vol. CLXXXV.

(١٧) Idem.

حفل قداس الروح المقدس اعتلى الرجل منبر كاتدرائية سبايرز وفتح فاه وتكلم فحرك شغاف القلوب . وهنا انفعل كونراد وابن أخيه فردريك بربروسا وعديد من أسياد القوم ؛ فحملوا جميعاً علامة الصليب[١٨] . وفى مدينة كولون خرجت جموع البشر للقياه وللحملقة فى وجهه . وهناك أقام المعجزات وشفى المرضى وهم كثيرون ؛ فصاح الجمع صارخين :

Christ, uns gnade ! Kyrie, eleison ! Die Heiligen alle helfen uns. (19)

وبعد عدة رحلات أخرى فى غرب أوربا وصل القديس إلى شالون — سير — مارن حيث التقى بلويس الصغير وسفراء من قبل كونراد الثالث وولف زعيم الجولف . وفى نهاية المطاف ، فى فبراير ١١٤٦ ، وصل إلى مقره فى كليرفوه .

* * *

أعد لويس السابع لحملته الصليبية باتصالات دبلوماسية واسعة النطاق ؛ ففى أغسطس ١١٤٦ أرسل سفراءه ميلون من شفريز وراهبين من الداوية إلى البلاط البيزنطى . وقد سلم هؤلاء المبعوثون رسالة ودية من سيدهم وأخرى من البابا يوجينيوس الثالث إلى عمانويل كومنين . وقد طلب صاحبا الرسالتين من العاهل البيزنطى تسهيل مهمة الصليبيين فى عبور أراضى الإمبراطورية وتزويدهم بالمؤن اللازمة مقابل ثمن معقول . كما تلقى عمانويل فى نفس الوقت رسالة من القديس برنارد يوصيه فيها خيراً بهنرى ابن الكونت ثيوبالد من شمبانى وبرجال الحملة الصليبية عامة التى يقودها لويس السابع بتعضيد وبركات من السيد البابا . ولقد عبر القديس عن كبير أمله فى جهود عمانويل لمناصرة قضية المسيحية مثلما فعل أجداده ، كما وأنه أكد فى مكتوبه أن عمانويل كومنين « أمل العالم المسيحى شرقيه وغربيه »[٢٠] . ولا ندرى إذا ما كانت هذه العبارة

---

(١٨) Ibid.

(١٩) Ibid.

(٢٠) St. Bernard, ep. 462, in Opera Omnia, cols. 771 - 73.

على لسان برنارد مجرد مجاز برناردى أنيق من طراز الإطراء المبالغ فيه ، أم أنه حقيقة كان يقصد ما قد كتب .

أرسل عمانويل كومنين برسالتين وسفارة إلى البابا يوجينيوس الثالث رداً على مكتوبه السابق موضحاً في الأولى استعداده لتسهيل مهمات الصليبيين إن هم وافقوا على أداء يمين الولاء والطاعة له مثلما جرت العادة على عهد أسلافه (٢١) . وفي الرسالة الثانية طلب الإمبراطور من البابا إيفاد أحد كرادلته مندوبا بابويًا مع الحملة الفرنسية ليحول دون إيقاع الصليبيين ضرراً بأراضيه وشعبه ، كما عرج على موضوع الوحدة بين الكنيستين (٢٢) . أما رسالته إلى لويس السابع ففيها تأكيد واضح عن استعداده للتعاون مع لويس بنفس الشروط السابقة . والمهم في هذه الرسالة الأخيرة أن عمانويل يلقب نفسه بلقب « العاهل المولود في العباءة الأرجوانية ، امبراطور الرومان الأغسطس » (٢٣) . وهذا أمر له دلالته عند مخاطبة واحد من أقوى ملوك غرب أوربا آنذاك .

هذا وجدير بالذكر هنا أن روجر الثاني ملك صقلية كان مدركا للنفع الذي سيعود عليه إن هو شارك في هذه الحملة الصليبية بجهده ونفوذه . ولذا فإنه قد أوفد سفراءه إلى المؤتمر الذي عقد في مدينة ايتامب (١٦ — ١٨ فبراير ١١٤٧) ليعرضوا على المؤتمرين استعداد سيدهم لنقل الصليبيين إلى سوريا على سفنه وكذا تزويدهم بالمؤن اللازمة لهم طوال الرحلة . كذلك وعد بأن يشارك هو ذاته أو أحد أولاده في الحملة (٢٤) ولقد كان رسل عمانويل كومنين وكذا سفراء كونراد

---

(٢١) F. Dölger Regesten der Kaiserurkunden des ostromischen Reisches, II, Monaco, 1921 n. 1348, ed. in S. Lampros pp. 112 - 14.

(٢٢) W. Ohnsorge, Ein Beitrag zur Geschichte Manuels I Von Byzanz Festschrift für Albert Brackmann (ed. L. Santifaller Weimar1931) pp. 391-93.

(٢٣) R.H.G., Vol. XVI, pp. 9 - 10.

(٢٤) Odo of Deuil, De Profectione Ludovici VII in Orientem (ed. V.G. Berry) I, p. 14. Odo was a monk of St. Denis from Deuil in the valley of

الثالث من بين الحضور فى هذا المؤتمر . وقد عرض رسل عمانويل شروط سيدهم وأهمها أداء قادة الحملة الفرنسية يمين الولاء والطاعة له . وهنا تصدى الوفد النورماندى للبيزنطيين وراحوا يشككون فى نوايا الإمبراطور البيزنطى . على أن سفراء كونراد الثالث قابلوا هذه المظاهرة النورماندية بفتور شديد مما قلل من شأنها . وفى نهاية الأمر قرر لويس السابع قيادة حملته عبر الأراضى البيزنطية ، أى أنه رفض عروض روجر الثانى . وهنا يحدثنا مؤرخ هذه الحملة — أودودى دويل — عن سخاء عروض روجر ، بينما يحجم عن ذكر اسم امبراطور القسطنطينية فى كتابه لأنه قد أسقط من سجل الخالدين لخيانته للحملة الصليبية « الثانية » ؛ كما أنه يعيب على سيده ثقته فى بيزنطة التى أودت بشباب فرنسا وتآمرت على هلاكهم (٢٥) .

كانت الحملة الصليبية الثانية تختلف عن الأولى من حيث أن قائديها كانا أقوى ملكين فى غرب أوربا : لويس السابع وكونراد الثالث . على أنه على عكس ما كان يتوقع كان المشاركون فى هذه الحملة على نفس القدر من السوء الذى تميزت به الجماعات المشاركة فى الحملة الصليبية الأولى . ففى الحولية المعروفة باسم Annales Herbipolenses نطالع أن كثيرين من المشاركين فى هذه الحملة كانوا لا يصلحون البتة لمثل هذه المهمة بسبب أوضاعهم الاقتصادية ، كما أن بعضهم تظاهر بالتقى والحماس الدينى وإن كانوا فى حقيقة أمرهم من المنافقين المخاتلين (٢٦) . كذلك نجد فى كتابات جرهوه بعنوان De Investigatione Antichristi وصفاً أميناً لجند الصليبية الثانية : فهم من فئات العبيد والأقنان الهاربين من التزاماتهم ومن جماعات لا تفهم شيئاً فى فن القتال ومن المفلسين وقطاع الطرق

Montmorency. He was Louis VII's chaplain for the Second Crusade. In 1149 he returned with Louis to France. In 1152 when Suger died Odo became the Abbot of St. Denis.

(٢٥) Ibid.

(٢٦) Annales Herbipolenses, in M.G.H.SS. Vol. XVI, an. 1147.

وجميعهم كانوا قد حملوا الصليب أملا فى النهب والسلب والغنم (٢٧) .

عندما أرسل عمانويل كومنين سفراءه للتفاوض مع لويس السابع فى الشروط التى أصر عليها الأول لتسهيل مهمة عبور الفرنجة أراضى الإمبراطورية البيزنطية لم يكن كونراد الثالث قد قرر بعد حمل الصليب والارتحال إلى الشرق ، فلما وفدت الأنباء إلى البلاط البيزنطى بأن الملك الألمانى أيضاً قد قرر المشاركة فى الصليبية استشاط الإمبراطور البيزنطى وحكومته غضباً لهذا القرار . إذ أن ذلك كان يعنى مضاعفة فى العبء الذى كانت الإمبراطورية لا بد وأن تثقل به أثناء عبور أكبر جيشين فى غرب أوربا : الفرنسى ثم الألمانى . والمسألة التى باتت تقلق عمانويل هى أنه على حين أن لويس كان قد أرسل ما يفيد قبوله لشروط بيزنطة فى قسم يمين الولاء والطاعة للبازيليوس ، لم ير العاهل البيزنطى كيفية ما يعامل بها الإمبراطور الرومانى المقدس كونراد الثالث . كما أن قبول كونراد مؤخراً لقيادة حملة صليبية جعله فى حل من أية التزامات ارتبط بها الملك الفرنسى قبالة السلطات البيزنطية . وأيضاً كان تغيب كونراد عن مسرح الأحداث فى غرب أوربا يعنى فرصة ذهبية لروجر الثانى الصقلى ليغزو الأراضى الغربية للدولة البيزنطية منتهزاً فرصة انشغال جيوش بيزنطة فى مراقبة تحركات الصليبيين من ألمان وفرنجة ، وفرصة رحيل عدوه اللدود كونراد الثالث عن الغرب .

كان الألمان أول من ارتحل فى الصليبية الثانية عبر الأراضى البيزنطية . وفى المجر تلقى كونراد الثالث رسالة من عمانويل كومنين سلمها له السفيران ديمتريوس ماركبوليتس واسكندر من جرافينا . اللذان طلبا باسم سيدهما من العاهل الألمانى الإفصاح عن نيته إن كان قد قدم ورجاله أعداء أم أصدقاء ، وراح السفيران يبسطان شروط عمانويل : لئن كان كونراد صديقاً فعليه أن يأمر أتباعه النبلاء وقواد الجيش بقسم يمين الولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطى . وعلى هذا جمع الإمبراطور الألمانى رجاله وحثهم على قبول مطلب البازيليوس . وبعدها زحف

---

(٢٧) Gerhoh, De Investigatione Antichristi, in M.G.H.SS., Libelli de Lite, III, p. 305 seq.

الألمان إلى بلغراد . وحتى وصولهم إلى بلدة برانشيفو لم تحدث قلاقل بين الصليبيين وبين الكتائب البيزنطية التى كانت تراقب تحركاتهم عن كثب . ولقد أوضح كونراد فى رسالته إلى ويبالد رئيس دير ستافيلوت أن البيزنطيين لم يتحرشوا برجاله عندما دخلوا الأراضى الإمبراطورية (٢٨) .

على أنه سرعان ما أدى جشع الألمان وعجرفتهم إلى صدام بينهم وبين الكتائب البيزنطية ؛ إذ أصر الصليبيون على النهب بأن رفضوا دفع أثمان الأطعمة والسلع التى أخذوها من البيزنطيين ، ولما احتج الأخيرون قابلهم الألمان بالإهانة وضربات الحراب . ومن أمثلة الفظاظة الجرمانية ما حدث فى إحدى الحانات على أطراف مدينة فيليبوبولس حيث عرج للراحة والشراب جماعة من الصليبيين ، وبينما هم يمرحون دخل الحانة أحد « الحواة » اليونان وطلب قدحا من الخمر راح يحتسيه . وبعد قليل أخرج الرجل من جيب سترته الداخلية ثعباناً ووضعه على الأرض وراح يمارس ألاعيبه بقصد الفكاهة والمداعبة . على أن الألمان ، ولكأنهم أبصروا شراً مستطيراً ، أمسكوا بالرجل من عنقه وطرحوه أرضاً ثم قطعوه إرباً بسيوفهم وصاحوا فى صوت واحد بأن البيزنطيين قد عزموا على قتلهم بالسم الزعاف (٢٩) . وقد وردت هذه الحادثة فى مؤلف أودودى دويل فى صدد تعريضه بمسلك الألمان ، لا حباً وعطفاً على البيزنطيين وإنما لتصوير غلظتهم وعجرفتهم وتحرشهم بالصليبيين الفرنسيين من بنى جلدته ؛ إذ دأب الألمان على السخرية من الفرنجة ونهب ما قد ابتاعوه من الأسواق أثناء عودتهم إلى معسكراتهم (٣٠) . ولقد مضى الألمان فى غيهم وسلبهم للمواطنين العزل مما دعى رئيس أساقفة فيليبوبولس ، الأديب المرموق ميخائيل أتاليكوس ، إلى أن يتدخل فى الأمر ويطلب من كونراد الثالث معاقبة الذين أخلوا بأمن وسلام مواطنى مدينته .

(٢٨) Wibald, ep. 48, in Jaffé, Biliotheca Rerum Germanicarum, I, p. 126.

(٢٩) Odo of Deuil, op. cit., III, p. 44.

(٣٠) Ibid.

ولما علم عمانويل كومنين بالجرائم التى ارتكبها الألمان ضد رعاياه العزل أرسل فرقاً بقيادة بروزوش للدفاع عن السكان . وبالفعل انقضت الكتائب البيزنطية على الجماعات التى أخذت على النهب والسلب وقاتلتها قتالا مريراً . ولقد حدث بعد أن رحل كونراد ومعظم أفراد جيشه الرئيسى عن مدينة أدريانوبل أن تخلف أحد أقاربه بسبب مرض مفاجئ ألم به فى أحد أديرة المدينة . على أن نفراً من أشقياء المدينة هاجموا الرجل وسرقوا متاعه وماله وقتلوه وواروه التراب إخفاء لجرمهم . فلما علم كونراد بالخبر أوفد فردريك السوابى ليتحرى الأمر . فما كان من فردريك إلا أنه أشعل النيران فى الدير وقبض على عديد من أهل المدينة وأعدمهم فى التو ، مما أدى إلى صدام بينه وبين بروزوش ورجاله[٣١] وبعدها أسرع فردريك ورجاله للحاق ببقية الجيش الألمانى الزاحف صوب القسطنطينية .

كان كونراد قد خطط السير بجيشه فى الطريق المؤدى من تشورلو إلى القسطنطينية . وفى طريقه قابل اندرونيكوس أوبوس سفيراً من قبل عمانويل لتقريع الملك الألمانى على الجرائم التى ارتكبها رجاله ، وأيضاً ليطلب منه اتباع الطريق المؤدى إلى سيستوس حيث كانت هناك سفن معدة لنقله وجيوشه إلى آسيا الصغرى . كما أوضح له أوبوس أن عمانويل سوف يعتبر مسيرة الألمان إلى القسطنطينية ضربا من ضروب العدوان السافر[٣٢] . ومع أن الطريق الذى أوصى به عمانويل كان الطريق الأقل وعورة والأكثر أماناً للحملة الألمانية لأنه يؤدى بهم إلى سيستوس ومنها إلى اللاذقية ، التى كان الطريق إليها فى أيدى السلطات البيزنطية ، إلا أن كونراد أصر على السير نحو العاصمة البيزنطية فى عناد وإصرار بالغين .

جاء رفض كونراد لمطلب عمانويل ليزيد من عمق الهوة التى باتت تفصل بينهما . ولقد فكر الإمبراطور البيزنطى جدياً فى قيادة حملة بذاته لمقاتلة الصليبيين الألمان وإجبارهم على الابتعاد عن عاصمته . وبالفعل أرسل القائدين بروزوش وبازل تزيكانديلس ليعدا كميناً عند مدينة لونجا فى المنطقة المتاخمة

(٣١) Kinnamos, II, xiii, p. 71; conf. Choniates, I, V, p. 85.

(٣٢) Kinnamos, II, xiv, p. 72.

لأدريانوبل (٣٣). ويبدو أن عمانويل قد زحف ورجاله بالفعل لمقاتلة كونراد وجيشه ولكنه فجأة قرر العودة إلى العاصمة مستدعياً الجنرالين اللذين كان قد سبق إيفادهما إلى لونجا (٣٤).

وصل كونراد الثالث وقواته إلى فيلوپاتيون ومنها عبروا قنطرة القرن الذهبي وأقاموا معسكرهم عند بكرديون وجيوفيريا . ومن هناك بدأت المفاوضات بينه وبين عمانويل كومنين. ونجد هنا تناقضاً كبيراً بين ماتورده المصادر الغربية وبين ماتطالعنا به المصادر البيزنطية : فبينما تتكلم المصادر اللاتينية عن لقاء أخوى بين العاهلين وعن هدايا إمبراطورية للملك الألمانى (٣٥) ، تتحدث الأصول البيزنطية عن العلاقات بين الطرفين فى تلك المرحلة بالذات فى شيء من المرارة (٣٦) . وأغلب الظن أن صداما قد وقع خارج أسرار القسطنطينية بين الألمان والبيزنطيين ، أعلن بعدها كونراد أنه قادم فى العام التالى لحصار القسطنطينية (٣٧) . ويؤيد هذا الرأى ذلك التقارب الذى تم بين عمانويل كومنين وسلطان قونية فى تلك المرحلة بالذات. ذلك أن الإمبراطور البيزنطى لما استبان نوايا الملك الألمانى العدوانية رأى ضرورة التحالف مع السلطان التركى لمواجهة التحرشات الألمانية وأيضاً ليؤمن حدوده المتاخمة لسلطنة قونية فى آسيا الصغرى ، وكذلك ليقاوم الغزو النورماندى لممتلكاته الغربية . على أنه إنصافاً للواقع يجب ملاحظة أن هذا التحالف بين بيزنطية وسلطنة قونية لم يكن موجها ضد الحملة الصليبية الثانية ، وإنما قصد به تأمين حدود الإمبراطورية فى آسيا الصغرى .

لما وصلت الأنباء بقرب قدوم لويس السابع ورجاله سارع كونراد الثالث

(٣٣) Ibid.

(٣٤) Ibid, p. 73.

(٣٥) Annales, Palidenses, in M.G. H.SS.Vol. XVI, p. 82; Annales Casinenses, in M.G.SS. Vol. XIX p. 310.

(٣٦) Kinnamos, II, XV, p. 75; Chcniates, I, v, p. 87.

(٣٧) Kinnamos, II, xvi, p. 79.

فى طلب التفاوض مع عمانويل كومنين . والمعروف أن الملك الألمانى لم يكن على وفاق مع ملك فرنسا فى ذلك الوقت . ووافق عمانويل كومنين على نقل الألمان على سفنه إلى آسيا الصغرى كما وعد بإمداده بمرشدين من رجاله . كذلك أمر الإمبراطور البيزنطى بتوزيع الأسلحة على فقراء الحملة العزل [٣٨] .

وقد أرسل عمانويل كومنين رئيس حرسه الخاص لمقابلة كونراد والتفاوض معه فى آسيا الصغرى ، طالباً منه إمداده ببعض الفرسان الألمان مقابل تعاونه معه فى حربه ضد « السراكنة » [٣٩] . ولم يكن عمانويل بعرضه هذا يعنى محاربة سراكنة قونية الذين عقد معهم معاهدة فى تلك الآونة ، وإنما كان يقصد، بطبيعة الحال ، سراكنة سوريا وبوجه خاص عماد الدين زنكى الذى كان قد استولى على الرها من أيدى الصليبيين ومن ثم فقد كان السبب الأساسى لقيام الصليبية الثانية . على أن كونراد رفض شروط عمانويل وتوقفت المحادثات بين الطرفين ؛ ومن بعـــدها أحجم العاهل البيزنطى عن تقديم أى عون أو نصح للملك الألمانى .

اتبع كونراد وجيشه الطريق المؤدى إلى قونية عبر نيقوميديا ونيقيا . وفى نيقيا دب الخلاف بين البارونات ، إذ قرر أوتو اتباع الطريق المؤدى إلى اللاذقية وآتاليا ؛ بينما أصر الباقون على الزحف صوب قونية . وبعد مضى ثمانية أيام من مسيرتهم اكتشف الصليبيون نقصاً فى المؤن ؛ وسرعان ما بدأت المجاعة تنتشر فى معسكرهم . ثم جاءت ضربات الأتراك المتلاحقة الخاطفة لتشيع الفزع فى نفوسهم وذلك على مقربة من دوريلايوم .

ولقد كان فى رفقة الألمان مرشد بيزنطى لمساعدتهم فى التعرف على المسالك فى آسيا الصغرى . فلما انهارت معنوياتهم لاذ هذا بالفرار خوفاً من اتهامه بالخيانة. ويتهم أودودى دويل هذا الضابط البيزنطى بالخيانة وبأنه تعمد تضليل

(٣٨) Annales Herbipolenses, loc. cit.

(٣٩) Kinnamos, II, xvi, p. 80.

الصليبيين فى متاهات آسيا الصغرى لكى يدفنهم أحياء هناك بعد أن أعلم الترك بأماكن تجمعاتهم (٤٠) . وبعد هزيمة ماحقة لحقت بالألمان عند باثيز قرر كونراد التقهقر إلى نيقيا . وكان هذا القرار المفاجئ كافياً لإشاعة الفوضى والفزع بين رجاله ، فانقض عليهم الترك ذبحاً وتقتيلا (٤١) . ولقد جرح كونراد ذاته أثناء المعركة ، ويقدر عدد الذين هلكوا بسيوف الترك بحوالى ٣٠,٠٠٠ (٤٢) . وبعد عنت مرهق وصلت فلول الجيش الألمانى إلى نيقيا ، حيث التقى كونراد بلويس السابع .

لقد كانت هزيمة صليبية كونراد ساحقة ماحقة بالفعل . هذا وتجمع المصادر اللاتينية دون استثناء على تجريم عمانويل كومنين فى الحديث عن فشل حملة كونراد وتتهمه اتهامات ثلاثة : أنه باع الألمان دقيقاً مخلوطاً بالحجر الجيرى ؛ وبأنه أنقدهم عملة مزيفة ، وبأنه استعدى عليهم الترك ودلهم على تحركاتهم . والاتهام الأول ظهر بعد وصولهم فارين من ضربات الترك إلى نيقيا . والواقع أن الوباء الذى تفشى فى معسكرهم على أثر النتن الذى فاح من جثث القتلى العديدين قد ساعد على إطلاق هذه الإشاعة ضد السلطات البيزنطية . أما عن المعاهدة التى أبرمت بين عمانويل وسلطان قونية فقد أملتها تحرشات كونراد ورجاله بالأراضى البيزنطية . كما أن هنالك نقطة هامة حدد الإمبراطور البيزنطى على أساسها سياسته تجاه الحملة الألمانية بوجه خاص : فالذى لاشك فيه أن أية تعزيزات لاتينية كانت تصل إلى أنطاكية كانت تعنى مناعتها وبالتالى كانت سوف تؤدى إلى إحباط محاولات عمانويل كومنين فى فرض سيطرته التامة عليها . وكونراد كان فى حل من قسم يمين الولاء والطاعة لعمانويل ، مما كان سوف يتركه سيد الموقف فى سوريا لو نجحت مهمته فى آسيا الصغرى . وأهم من هذا فإن تلك الفترة قد شهدت جهوداً لتوحيد الكنيستين البيزنطية والرومانية ، وكان الرأى

(٤٠) Odo de Deuil, V, p. 76.

(٤١) Michael the Syrian, op. cit., III, p. 276.

(٤٢) Odo de Deuil, V, p. 75.

العام البيزنطى يأمل فى اعتراف البابوية بعمانويل امبراطوراً رومانياً ، ولذا فإن أى نجاح يحرزه كونراد الثالث فى الشرق اللاتينى كان سيؤدى حتما إلى التقليل من شأن مطامع عمانويل كومنين. كما أن الإمبراطور البيزنطى لم ينس أن والده قد أذل فى سوريا (١١٤٢) باسم البابا والإمبراطور الألمانى، وذلك خارج أسوار أنطاكية. ويتفق فى تأييد هذا الرأى كل من يوحنا كناموس المؤرخ البيزنطى، ووليم الصورى المؤرخ اللاتينى(٤٣). ولعل فى هذا ما يفسر وجهة نظر عمانويل كومنين الذى كان على يقين من أن أى نجاح يحرزه إمبراطور الألمان كان يمثل تهديداً مباشراً لمصالح بيزنطية فى سوريا وأيضاً فى إيطاليا، بل وفى غرب أوروبا كلها.

* * *

تلقى جند الصليبية الفرنسية بركات البابا يوجينيوس الثالث، الذى زار فرنسا خصيصاً لهذا الغرض، فى عيد فصح ١١٤٧ فى كنيسة سان دينيس. وتحركت جحافل لويس السابع من متز وورمز إلى فيرزبورج، ومنها إلى راتسبون ثم باساو. واستغرق عبورهم أراضى المجر خمسة عشر يوماً؛ مروا بعدها خلال أراضى بلغاريا حتى وصلوا مدينة نيش، أولى المدائن فى الأراضى البيزنطية من الجانب الغربى. وهنا يروى أودودى دويل أنهم فى تلك المدينة تعرفوا على العملة البيزنطية النحاسية المعروفة باسم ستامينا ى التى ابتاعوها من أهلها بخمسة دينارات أى أنهم كانوا يخسرون ماركا كاملا فى تبديل ما قيمته اثنتا عشر سوليداى، «وهكذا ما إن وطأنا أرض البيزنطيين»، يقول الكاتب، «حتى كان فى استقبالنا ذاك الغش اليونانى المعهود»(٤٤). وينتقد نفس المصدر أساليب المداهنة والنفاق والخداع فى معاملات البيزنطيين ومفاوضاتهم الرسمية؛ فعندما ضاق لويس السابع ذرعاً بنفاق السفير الذى جاء ليحييه، صاح فى وجهه أسقف لانجريه — جودفرى — قائلا: «أيها الرفاق! لاحاجة بمليكنا إلى ألفاظكم المعسولة

(٤٣) Kinnamos, II, xii, p. 70; William of Tyre, XVI, xxi.

(٤٤) Odo de Deuil, p. 20.

« صاحب الجلالة والمجد والحصافة والتقى » فى كل عبارة تنطقون بها ، هو عليم بذاته ونحن أيضاً نعرفه جيداً . أو لا تعرفون سبيلا آخر لإيضاح رسائلكم دون طنطنة وغموض؟ ! »[٤٥] .

طلب سفراء عمانويل من الملك الفرنسى أن يتعهد بالقسم هو ونبلاؤه بألا يعرضوا مدن الإمبراطورية لأى عبث ؛ وبأن يردوا إليه ما يقع فى أيديهم من أراض فى حوزة الترك كانت أصلا ضمن أراضى الإمبراطورية . ولما لم يتسلم السفراء رداً عاجلا من لويس السابع صرحوا له بأن سيدهم عازم على إحراق المؤن وتخريب الطرق ليأمن شر الصليبيين وليحمى رعيته من غزواتهم ونهبهم[٤٦] .

والواقع أن سكان الإمبراطورية فى الجزء الغربى كانوا قد عانو الأمرين على يد الجماعات الألمانية من حملة كونراد الثالث ، فلما دخلت أراضيهم جيوش لويس السابع أحجم الناس عن التعامل معهم بل وأغلقوا متاجرهم ودورهم ، وفى الحالات القليلة التى تم فيها البيع والشراء بين الجانبين كان البيزنطيون يدلون بسلعهم من وراء جدرانهم مدلاة بالحبال . وأمام هذا هجم الفرنسيس على المتاجر والدور وحطموها بعد نهب ما كانت تحتويه من مال وسلع . ورغم هذا نطالع كيف أن أهالى صوفيا خرجوا لاستقبال الحملة الفرنسية فى شرف زائد رافعين أمامهم الأيقونات والصلبان . وجاء حاكم المدينة ليوفر لهم ما كان يلزمهم من طعام وشراب ، كما يقرر ذلك أودو دى دويل ذاته[٤٧].

كانت بعض الفرق الفرنسية من جيش لويس السابع قد سبقت غالبية الحملة ووصلت القسطنطينية . وكان على رأس هؤلاء أسقف متز وشقيقه رينولد كونت مونسون ، ثم أسقف تول . ولما حدث توتر بين هؤلاء الفرنسيين ورجال كونراد الثالث ، تقرر أن تنتظر هذه الفرق فى العاصمة البيزنطية حتى

---

(٤٥) Ibid., p. 28.

(٤٦) Ibid.

(٤٧) Ibid., III, p. 41.

وصول بقية الجيش والملك إلى هناك(٤٨). وطبقاً لرواية أودو دى دويل أغلق أهالى العاصمة الأسواق فى وجههم بقصد إجبارهم على العبور إلى آسيا الصغرى، ونجحت الخطة. على أن نفراً من هؤلاء قد آثروا البقاء فى المدينة ورفضوا اللحاق ببنى جلدتهم على الشاطئ الآسيوى. وأمام هذا هجم عليهم فريق من الجند البشنق والكومان الذين كانوا فى خدمة عمانويل كومنين. ولما علم سفراء لويس فى القسطنطينية بهذا هرعوا إلى الإمبراطور للشكوى من أجل « هؤلاء الحجاج الذين تعرضوا لوحشية الكفار فى مدينة مسيحية » ، على حد تعبير أودو دى دويل (٤٩).

أصدر الإمبراطور أوامره بالسماح لهؤلاء الفرنجة من جيش لويس السابع بإقامة معسكرهم على مقربة من أحد قصوره كما فتح لهم سوقاً خاصاً لتسهيل مهمتهم فى البيع والشراء(٥٠) ولكن صداماً آخر وقع بينهم وبين البشنق. وهنا انطلق بعض سفراء لويس — افرارد من برتويل ، ومناسيس من بيل ، وانسلم سنيكال فلاندرز وغيرهم— شاهرين سيوفهم للدفاع عن بنى جلدتهم ضد ضربات البشنق. ووسط هذا الصراع يمم اللورد افرارد من بارريه ، وبارتيلميو المستشار ، وآرشيبالد من بوربون شطر القصر الإمبراطورى للاحتجاج على هذا العدوان. على أن عمانويل أقسم لهؤلاء السادة أنه لا يعلم بأمر هذا الهجوم من جانب البشنق ، وطلب منهم العفو لرجاله ، ثم سمح للفرنجة بإقامة معسكرهم على مقربة من قصره كما أصدر الأوامر بإمدادهم بكافة المؤن اللازمة.

وفى هذه المرحلة من الأحداث نجد أودو دى دويل يلعن عمانويل كومنين وينعته بالخيانة ؛ موضحاً أن سفراء لويس السابع قد علموا آنئذ بأمر المعاهدة التى أبرمها الإمبراطور البيزنطى سراً مع سلطان قونية التركى.

ولعل أهم ما يستلفت النظر فى كتابات هذا الراهب الفرنسى — أودو دى دويل—

(٤٨) Ibid. p. 50.

(٤٩) Ibid.

(٥٠) Ibid.

تحامله الشديد على الكنيسة البيزنطية وعقيدتها وطقوسها . ومن خلال صفحاته التى كرسها للتسفيه من بيزنطة وكنيستها يدرك القارئ تلك الفجوة المهولة التى باتت تفصل بين اللاتين والبيزنطيين على المستوى العقائدى : فهو يذكر أنهم اعتادوا تطهير المذابح المقدسة فى الكنائس إن تصادف وكان اللاتين قد استخدموها لأداء صلواتهم عليها ظناً منهم أن اللاتين قد دنسوها بطقوسهم . كذلك يذكر نفس المصدر أن البيزنطيين ، إذا ما تزوجوا من نساء لاتينيات أجبروهن على العماد مرة ثانية وفقاً للطقوس اليونانية . ويمضى الكاتب فى تعديد « هرطقات » البيزنطيين خاصة مسألة انبثاق الروح القدس من الأب فقط (٥١) . ولهذه الأسباب مجتمعة فإن الصليبى ، علمانياً كان أو من جماعة الإكليروس ، كان يؤمن إيماناً راسخاً أن بيزنطة كانت بمثابة العدو الألد له ولقضية الصليب ؛ بل وراح البعض من المسئولين فى الحملة يؤكد أن خطر بيزنطة على المسيحية كان أدهى وأنكى من خطر الأتراك السلاجقة. ومن ثم فقد استحل الفرنجة دم البيزنطيين ، واعتبروا مقاتلتهم واحدة من مكرمات الصليبى الحقيقى . وهذا ما نجده تماماً فى كتابات أودودى دويل (٥٢) .

أرسل عمانويل كومنين رسله إلى لويس السابع لينصحوه بتغيير خط سيره إلى سيستوس ضمانا لسهولة العبور وسرعتها ؛ ولكن الملك الفرنسى ، مثله فى هذا مثل الملك الألمانى من قبله ، رفض المشورة وواصل السير نحو القسطنطينية . وعلى مسيرة يوم من العاصمة التقى الملك بسفرائه الذين قصوا عليه ما وقع لبنى جلدتهم فى العاصمة البيزنطية كما أبلغوه بنبأ المعاهدة السرية المبرمة بين بيزنطة وسلطان الترك . وهنا بدأت الأصوات فى المعسكر الفرنسى تعلو منادية بالاستيلاء على الأراضى البيزنطية وقلاعها ، كما طلبوا من الملك مكاتبة روجر الثانى الصقلى — الذى كان آنذاك يسدد ضرباته لإملاك بيزنطة فى البحر الأدرياتى — للمساهمة

---

(٥١) Ibid., p. 51.

(٥٢) Ibid.

بأسطوله ورجاله للهجوم على القسطنطينية (٥٣) . ولكن الملك لم يأخذ بهذا الرأى لأنه أراد مواصلة سيره إلى الأرض المقدسة .

عندما اقترب لويس السابع ورجاله من العاصمة البيزنطية خرج للترحيب بهم خيرة رجالات المدينة من علمانيين وكهنوت ، طالبين من الملك قبول الدعوة لملاقاة البازيليوس فى قصره . وفى حين يروى أودو دى دويل أن سيده لقى استقبالا إمبراطوريًّا فى بهو القصر تبادل وقتها العاهلان القبلات والعناق ثم ولجا إلى الداخل فجلسا على مقعدين أعدا خصيصاً للمناسبة (٥٤) ؛ نجد أن كناموس يروى قصة أخرى ؛ فهو يقول إنه جئ بلويس إلى حيث كان عمانويل جالساً على عرشه ، ثم أجلس على مقعد صغير ليتمكن من المحادثة . وفى رأى هذا الكاتب البيزنطى أن ما سمح به للويس كان شرفاً بعيداً ؛ لأنه كان على سائر نبلائه الوقوف طيلة المحادثة (٥٥) . ومهما كانت الحال فإن أغلب الظن أن عمانويل رحب بضيفه الفرنسى ترحيباً طيباً ؛ وعقب هذه المقابلة اصطحبه نبلاء البلاط إلى قصر فيلوباتيون الفاخر الذى خصص له أثناء إقامته فى العاصمة .

سحر جمال القسطنطينية خيال صاحبنا أودو دى دويل ، الذى كان مرافقاً للويس السابع . والمدينة كما رآها هى مجد الإغريق ، ثرية فى شهرتها وأزيد من هذا فيما تحويه من نفائس وآيات للفن . كما أن الجمال الأخاذ الذى تفردت به آيا صوفيا وما احتوته من أيقونات وآثار مقدسة أخذ بألباب الفرنجة . هذا ولقد اصطحب عمانويل كومنين ضيفه لزيارة أضرحة القديسين فى المدينة ؛ ثم أقام له وحاشيته مأدبة فاخرة ؛ كانت على حد تعبير أودو « تفوح شواء وتفيض أنبذة يسيل لها لعاب الفم » (٥٦) على أن هذه الخاتمة قوبلت ، كالعادة ، بنكران

(٥٣) Ibid.

(٥٤) Ibid.

(٥٥) Kinnamos, II, xvii, p. 81.

(٥٦) Odo de Deuil, IV, p. 66.

للجميل وبشعور بالريبة من جانب الفرنجة ؛ إذ رأى أودو فى هذا الكرم الزائد والفضل السابغ تغطية لما كان معشر البيزنطيين فى الخفاء يمكرون(٥٧) .

تقاطر الفرنجة من معسكراتهم فى خارج الأسوار إلى قلب المدينة الفاحشة الثراء ، وراحوا يشبعون وحمهم الجشع فى السرقة والابتزاز والعربدة(٥٨) . واستاء أهل العاصمة من مسلك هؤلاء « الحجاج » السكارى وفجورهم فاحتجوا وكان جزاؤهم أن أشعل نفر من الصليبيين النيران فى الدور والمتاجر وأشجار الزيتون(٥٩) .

ويقص علينا أودو حدثاً له دلالته فى إلقاء الضوء على الخلافات الطقوسية بين كنيسة الفرنجة وكنيسة بيزنطة : فبينما كان لويس السابع فى معسكره منتظراً وصول بعض قواته القادمة من أبوليا بحراً إلى دورازو ، حل عيد القديس دينيس . ولما كانت الكنيسة البيزنطية أيضاً تحتفل بهذا العيد ، فإن عمانويل كومنين أرسل بنفر من خيرة القسيسين مزودين بدفوف ذهبية رائعة الزينة إلى معسكر الملك لينشدوا لهم صلوات الابتهاج بحلول العيد . ويقول صاحبنا الراهب الفرنجى — مؤرخ الصليبية الثانية — إن ما صاح به هؤلاء القسس «كان غريباً على أسماعنا لغة ومعنى ؛ فهو مغاير لما اعتدناه فى صلواتنا اللاتينية » . ولا يكتفى هذا الجاحد بهذا القول ، وإنما يلمز بأن جل هؤلاء الكهنة كانوا من الخصيان(٦٠) . وعلى هذا فإن تلك اللفتة الإمبراطورية الكريمة قوبلت بالاستهزاء والسخرية وبأقذع الاتهامات فى المعسكر الصليبى .

والواقع أن رجال الدين المرافقين للويس السابع بوجه خاص كانوا يضمرون عداوة شديدة لبيزنطة واحتقارا فظًّا لكنيستها : فها هو جودفرى أسقف لانجريه يهمس فى أذن الملك أنه يحسن به مهاجمة القسطنطينية « مدينة الجبناء والهراطقة ، أشياع كل الغزاة » . وأوضح الأسقف لسيده أن المدينة لا تحمل شيئا من المسيحية

---

(٥٧) Ibid.

(٥٨) Ibid.

(٥٩) Ibid.

(٦٠) Ibid. IV, p. 70.

بين ظهرانيها عدا اسمها ، وذكره بما فعله يوحنا كومنين « والد هذا التعس » فى أنطاكية وكيف أنزل الذل والهوان بالرهبان اللاتين فى كيليكيا فحرق صوامعهم، ثم طرد الأساقفة الفرنجة وأحل مكانهم هراطقة من عنده. وراح جودفرى يقص على الملك كيف أن يوحنا كومنين حالف « الكفار » ضد الصليبيين لاستئصال شأفتهم ، ولكن الله شاء أن يصيب هذا نفسه برمح مسموم لينهى هكذا حياته المدنسة بالعار جزاء وفاقاً على جرمه . وأنهى الأسقف الفرنجى حديثه للويس السابع مؤكداً له أن الصليب وضريح المسيح المقدس لن يكونا فى أمان طالما جلس على عرش هذه المدينة اللعينة عمانويل هذا عدو القديس بطرس وعرشه الرسولى فى أنطاكية(٦١) .

بذل عمانويل كومنين كومنين قصارى جهده لإقناع لويس السابع بضرورة عبور البسفور إلى آسيا الصغرى . وأخيراً وافق الملك الفرنسى وتم العبور . وهناك كان على لويس أن ينتظر وصول بقية أجناده لمدة عشرة أيام . وفى أثناء ذلك هاجم نفر من الصليبيين التجار البيزنطيين اللذين أتوا لتسهيل مهمة تغيير العملات ونهبوا كنوزهم ؛ مما أساء إلى مشاعر السلطات البيزنطية فأوقفوا إمداد الفرنجة بالأسواق اللازمة . ولما طلب لويس من عمانويل إعادة فتح هذه الأسواق المغلقة أصر الأخير على تأدية البارونات الفرنجة يمين الولاء والطاعة له ضماناً لحسن نيتهم . غير أن البارونات والأساقفة رفضوا مطلب عمانويل وانبرى الأسقف جودفرى يقول : « صه ! هو ذا الملحد يظهر ما كان يبطن . لقد أتى يطلب منكم أنتم تبعيته سيداً عليكم . . هو الذى لا يصلح فصلا لكم . أما نحن – يا سيدى الغالى – فيحسن بنا الحصول على ما نبغى بقوة السيف منه . كما وأننا لن نرضى بهذا الوثنى لنا سيداً »(٦٢) .

تم لقاء ثان بين عمانويل كومنين ولويس السابع تعهد فيه الثانى بألا يستولى على أراض كانت ضمن السلطان البيزنطى من قبل ؛ وفى مقابل

---

(٦١) Ibid.

(٦٢) Ibid., pp. 74 - 76.

هذا وعد الأول بتزويده بثلاثة من رجاله لإرشاد الصليبيين عبر مسالك آسيا الصغرى ؛ كما وعد بتسهيل مهمة إمدادهم بالمؤن اللازمة . ولقد طلب عمانويل من لويس تأييده له فى صراعه ضد روجر الثانى الصقلى ، الذى كان قد أثقل ضرباته على أراضى الإمبراطورية ، ولكن لويس رفض المعاونة . ويبدو أن هذا كان كافياً لأن يهمل عمانويل صليبية لويس السابع ويتركها وشأنها : فمع أن الأسواق قد أعيدت إلا أنها سرعان ما اختفت ، ولم يرسل عمانويل المرشدين الذين كان قد وعد بإرسالهم للويس (٦٣) .

* * *

عند وصول لويس السابع مدينة نيقيا التقى بالملك كونراد الثالث جريحاً منكسراً كاسف البال وذلك عند قلعة لوبار . واتفق هناك على أن يتزود كونراد من جديد بالمؤن اللازمة لمن تبقى من رجاله من مدينة نيقيا وبعدها يسرع للحاق بالفرنجة عند لوبار . وانتشر الفرنجة فى كل حدب وصوب من الأراضى البيزنطية فنهبوا ما فيها . وسار الألمان للحاق بجيش الفرنجة فى لوبار وكأنهم فى موكب جنائزى رهيب بطله المتوفى هو الكرامة الجرمانية . ومن هناك تقدم الجيشان حتى فيلادلفيا ومنها إلى ميناء ادرميد . ولقد خبر الفرنسيون فى جبال تلك المنطقة أهوالا بشعة . ومن ثم فإن جماعة من الصليبيين الذين انهارت معنوياتهم ركبوا سفينة راسية فى ادرميد ومخروا عباب البحر ؛ بينما قرر آخرون العمل خدماً لدى الموسرين من البيزنطيين فى ذلك الجزء الشرقى من الإمبراطورية .

أما بقية جند الصليبية ، من ألمان وفرنجة ، فقد قصدوا إلى سميرنا ثم برغامة حتى وصلوا افيسوس . وهناك التقى بهم رسل عمانويل يحملون رسائل تحذرهم من هجوم وشيك الوقوع عليهم من جانب الترك وتنصحهم بالاحتماء داخل القلاع البيزنطية فى المنطقة (٦٤) . ولكن لويس الذى كان — على

(٦٣) Ibid.

(٦٤) Ibid., VI, p. 108.

حد قول أودو دى دويل — يزدرى الترك وأيضاً مشورة عمانويل رفض النصح. وهنا أبرز سفراء عمانويل رسائل أخرى تحذر الملك من الانتقام الذى ينتويه رعاياه فى تلك المنطقة بسبب ما حل بهم وبدورهم من خراب ونهب. والثابت أن أهالى آسيا الصغرى من البيزنطيين الذين قد جن جنونهم من قسوة الفرنجة كانوا قد عقدوا العزم على محالفة الترك ضدهم انتقاماً منهم لما قد حل بهم وبثرواتهم(٦٥). وهنا تصدق رواية أودو دى دويل فى قوله بأن البيزنطيين أرشدوا الترك إلى معسكر الفرنجة ليلة عيد الميلاد ليأخذوهم على غرة(٦٦).

فى هذه المرحلة قرر الإمبراطور الألمانى العودة إلى القسطنطينية لقضاء فصل الشتاء ضيفاً على عمانويل كومنين. وأغلب الظن أن كونراد الثالث اضطر للعودة بسبب شدة مرضه، وإن كان كناموس يعزو الأمر كله إلى السخرية التى تعرض لها الألمان من الفرنجة وإلى شعور الإمبراطور بتضاؤل شأنه إن هو بقى فى معسكر لويس السابع(٦٧).

دفع الصليبيون بأنفسهم بعد هذا إلى اللاذقية، وجاءت الأمطار الغزيرة والثلوج لتزيد الطين بلة. وعلى هذا المنوال وصلوا إلى ضفة نهر الماياندر حيث انقض عليهم الترك. وفى طريقهم إلى آتاليا هوجموا مرة أخرى وسقط الآلاف منهم صرعى فى ساحة القتال. وفزع الباقون منهم ففر البعض إلى حيث لا يدرى بينما سقط آخرون على الأرض إعياء ورعباً. أسرع لويس السابع لنجدة رجاله، ولكن الترك أثقلوا ضرباتهم، وتعرض الملك لخطر فادح هدد حياته ذاتها، وهوت من حوله جثث الضحايا مخضبة بالدماء. « وهكذا » ينوح أودو دى دويل، « ذبلت ورود فرنسا قبل أن تتفتح

(٦٥) B. Kügler, Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzuges, Stuttgart, 1866, p. 166.

(٦٦) Odo de Deuil loc. cit.

(٦٧) Kinnamos, II, xviii, p. 83.

براعمها فى دمشق »[٦٨] .

يقول أودو دى دويل إن البيزنطيين والترك اتفقوا على إبادة من تبقوا من الصليبيين سواء بتجويعهم أو بمقاتلتهم . ولذا فقد أطلقوا السائمة لتلتهم كل عشب ونبات فى طريق الفرنجة ، كما أحرقوا المحاصيل لحرمانهم من العيش . وأمام هذا اضطر الصليبيون إلى هجر خيولهم الجائعة المتهالكة ، وكذا تخففوا بإلقاء متاعهم وخيامهم وملابسهم وسلاحهم لأن أحوالهم لم تكن لتسمح لهم بحملها أثناء فرارهم[٦٩] .

كانت الكارثة التى حلت بصليبية لويس السابع مهولة بالفعل : ولقد لخص الملك أسباب الفشل الذريع فى رسالة بعث بها إلى شوجير مقدم سانت دينيس . فهو يتهم عمانويل كومنين بالخيانة ، ويشير إلى وعورة المنطقة الطبيعية وكراهية أهلها للفرنجة ثم نقص المؤن فى معسكره . على أنه عزا الشر الذى حاق به وبرجاله إلى الآثام التى ترددوا فيها دون مراعاة لغضب الله[٧٠] .

بلغت المحنة غايتها فى آتاليا (٢٠ يناير ١١٤٨) وانحدرت معنويات البارونات إلى وحل اليأس والإعياء الحقيقى . وفى هذه اللحظة ظهر رسل عمانويل كومنين ينصحون لويس السابع بأنه لم يبق أمامه سوى البحر يلوذ إليه مسلما أمره وأمر السفينة إلى سيد العواصف . وأسلم لويس أمره إلى « عفو الله » وتمثل بولس الرسول « هأنذا فى التهلكة فى لجة البحر . . وفى البرية . . وبين أنياب الكفار . . وفى شباك أخوة مزيفين[٧١] » . وأبحر لويس والمقربون إليه على متن السفن التى أرسلها إليه عمانويل كومنين ، ميممين شطر سوريا ؛ تاركين من خلفهم من تبقوا من الحملة ليموتوا !

---

(٦٨) Odo de Deuil, loc. cit.

(٦٩) Ibid., VI, p. 110.

(٧٠) R.H.G, XV, xv, p. 496.

(٧١) Odo de Deuil, VI, p. 111.

وما من شك فى أن هؤلاء التعساء قد صعقوا وهم يرقبون السيد الذى وضعوا آمالهم فيه ينسل هارباً مع خلصائه تاركاً إياهم للهلاك المحقق .

أبحر مؤرخنا أودو دى دويل مع لويس السابع من آتاليا . ولا ندرى المصدر الذى استمد منه معلوماته عن بقية أفراد الحملة الذين تخلى عنهم لويس فى آتاليا ؛ ويرجح أنه استقى أخبارهم من أرشيبالد من بوربون كونت فلاندرز ، الذى وكل إليه الملك مهمة ترحيل من تبقوا من الحملة .

لم يسمح البيزنطيون للصليبيين الاحتماء داخل قلاعهم ، ولذا كان أمر ذبحهم على يد الترك شيئاً ميسوراً . على أن أودو دى دويل يذكر أن الترك تحركت قلوبهم عطفاً على هؤلاء التعساء المخذولين وقدموا الطعام والشراب لمرضاهم ومعدميهم ؛ فى حين أن البيزنطيين سخروا الأصحاء منهم فى القيام بخدمتهم وكانوا ينقدونهم لكماً وضرباً مقابل خدماتهم . كما أن الترك اشتروا من البيزنطيين بعض العملات الفرنسية وتصدقوا بها على الصليبيين . غير أن البيزنطيين قاموا بسرقة هذه الصدقات من جيوب هؤلاء البؤساء . ولقد جاء عطف الترك هذا بأكبر الأثر وأعمقه على نفوس الفرنجة ؛ ولذا فإن ثلاثة آلاف منهم اعتنقوا الإسلام[٧٢] . ومن الثابت أن الترك لم يجبروا واحداً منهم على هجر مسيحيته .

جاهد لويس السابع ومن تبقوا معه من ألمان وفرنجة لكى يؤدوا شيئاً يذكر فى سوريا . فاقترح عليه رايموند[٧٣] أمير أنطاكية أن يهاجم نور الدين أمير حلب ؛ بينما نصح بطريرك أورشليم بتوجيه حملة ضد دمشق . وفى نهاية الأمر شارك لويس وجماعة فى حصار عسقلان الذى انتهى بفشل ذريع فى صيف ١١٤٨[٧٤] . هذا ولم يكن جند الصليبية الثانية على وفاق

---

(٧٢) Ibid.

(٧٣) Louis VII was shocked at the romantic intimacy between Raymond of Poitiers and Queen Eleanor.

(٧٤) R. Grousset, op. cit., p. 250; C. Cahen, La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades, pp. 379 - 82; S. Runciman, op. cit., II, p. 285.

مع الفرنجة فى سوريا بسبب «خستهم وفوضويتهم» على حد تعبير وليم الصورى (٧٥) . وبعد سلسلة من الفشل المتلاحق تسلل الباقون من أفراد صليبية ١١٤٧ عائدين إلى غرب أوربا .

• • •

وكما جرت العادة فى الأوساط الكنسية والعلمانية فى غرب أوربا اللاتينى ألقى ثقل اللوم جميعه فى فشل الحملة على كاهل بيزنطة وإمبراطورها . على أن هناك بعض السطور الواردة فى حوليات اللاتين تلقى اللوم على الصليبيين أنفسهم فنطالع فى كتابات أحدهم أن ما حل بالصليبيين يرجع إلى عجرفتهم وسوء خلقهم واستبدادهم بالرأى واستخفافهم بالسراكنة (٧٦) . ويذكر أوتو أسقف فريزنج أن هذه الصليبية قد شملت فيما شملت لصوصاً وقطاع طرق (٧٧) .

ولقد جزع الرأى العام فى غرب أوربا عندما وفدت الأنباء بفشل حصار عسقلان (٧٨) . وراح التقريع ينصب على رأس مبشر الحملة برنارد دى كليرفوه ، خاصة وأن إشاعة كانت قد راجت آنذاك بأن أحباب القديس من جماعة الداوية قد خانوا قضية صليبية ١١٤٧ . على أن برنارد كان موقناً أن « أخلاقيات » الحملة كانت قد تمرغت فى الطين ولذا نجده فى « تأملاته » يصرخ قائلا « بشرنا بالسلام وليس هناك سلام ، ووعدنا بالخير فعجت من حولنا صنوف الشر » (٧٩) .

واكن القديس برنارد اعتقد أن البيزنطيين لهم يد فى أسباب فشل حملة

(٧٥) William of Tyre, XVII, vi.

(٧٦) Annales Herbipolenses, p. 399.

(٧٧) Otto of Freising, Gesta, I, 42, 44.

(٧٨) Reported by some historians, wrongly, as "Damascus." .

(٧٩) St. Bernard de Clairvaux, De Consideratione, II, i, col. 1021, in Opera Omnia.

١١٤٧ . ولما هاجم الأسطول البيزنطى السفن التى كانت تحمل لويس السابع والملكة اليانور من الشام نحو غرب أوربا ، ونهب الجند أمتعة الملكة هاج الرأى العام الفرنسى منادياً بالانتقام، وأضحت النظرية الحاكمة آنئذ ، والتى تشدد لإنفاذها شوجير من سانت دينيس ؛ وبطرس الوقور ؛ والقديس برنارد دى كليرڤوه، أنه لابد من توجيه حملة صليبية لتقليم أظافر البيزنطيين ومعاقبتهم على خيانتهم للقضية المسيحية .

الفصل الثامن

بيزنطة والإمارات الصليبية

(١١٤٣ – ١١٨٠)

إن دراسة سياسات عمانويل كومنين تجاه الدويلات الصليبية فى الشرق الأدنى أمر حتمى لتفهم علاقاته بغرب أوربا بصفة عامة وبالبابوية على وجه الخصوص .

ولقد تغير ميزان القوى تماماً على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية : فالجزء الأكبر من مكاسب يوحنا كومنين فى كيليكيا قد ضاع على بيزنطة على إثر الثورة الأرمينية هناك . وأدى هذا إلى صراع دموى شمل البيزنطيين والأرمن والترك واللاتين . وساعدت الفوضى الناجمة عن هذا الصراع العناصر الأرمينية واللاتينية الطموحة على توسيع نفوذها على حساب أراضى بيزنطة وإمارة نور الدين صاحب الموصل . وتاريخ هذه الفترة غامض وبخاصة فى التفاصيل المتصلة بالثورة الأرمينية ؛ وذلك لأن الحوليات المقتضبة التى لدينا عن تلك الثورة مليئة بالتناقض وبالقصص الأسطورية عن الأبطال الأرمن وكفاحهم من أجل الاستقلال .

وبطل استقلال أرمينيا هو ثوروس ابن الزعيم ليو . وكان ليو هذا وولداه ثوروس وروبن ، قد وقعا أسيرين فى يد يوحنا كومنين . أما أبناء الزعيم الأرمينى الثلاثة الباقون : قسطنطين وستيفانوس ومليح فقد أفلتوا من يد الإمبراطور ، ولجأوا إلى قريبهم جوسلين كونت الرها . والصورة التى يرسمها المؤرخون الأرمن لثوروس محاطة بإطار أسطورى . فهم مثلا عندما يتحدثون عن فترة سجنه فى القسطنطينية يصورونه بطلا غراميا إذ هنالك

وقعت فى حبه أميرة بيزنطية أمدته بالمال اللازم لاستعادة أراضى والده الضائعة[١] .

ومهما كان الأمر فإن ثوروس وصل آنزاربا حيث قابل صديقه الوفى أثاناسيوس الثامن (١١٣٨ – ١١٦٦) بطريرك اليعاقبة السوريين[٢] .

تمكن ثوروس من جمع بعض الرجال حوله وهجم على قلعة آمودة واستولى عليها بمعونة سكانها الذين انقضـــوا على حراسها البيزنطيين وفتكوا بهم[٣] .

بعد هذا النصر انضم إلى ثوروس عديد من شباب الأرمن ، كما أن بعض اللاتين تطوعوا للمحاربة فى صفه ضد البيزنطيين[٤] . وبهذه القوات الجديدة تمكن ثوروس من الاستيلاء على عدة بلدان من حوزة بيزنطة أشهرها فاجا[٥]. ثم تزوج ثوروس من ابنة سيمون حاكم مدينة رابان اللاتينى[٦] . وواصل هذا الثائر غزواته فهاجم بعض الفرق التركية وهزمها ثم أطلق سراح الأسرى الذين كانوا معهم .

وسار البطل الأرمينى من نجاح إلى نجاح فاستولى على سمنجالا ، وأريوندسبرت فى كيليكيا ، وفى عام ١١٥٢ دانت له موبسوستا وتل حمدون من يد البيزنطيين ، كما أن توماس قائد القوات البيزنطية وقع أســيراً فى يده[٧] .

---

(١) Chronique Rimée de la Petite Arménie, in R.H.C. Arm., Vol. I, p. 503: Documents Arméniens, Ibid., p. 618.

(٢) Michael the Syrian, Chronique, (ed. Chabot), III, p. 281.

(٣) Ibid.

(٤) Sempad, Chronique, in R.H.C. Arm., Vol. I, p. 618.

(٥) Chronique Rimée, p. 594; Sempad, loc. cit.

(٦) Michael the Syrian, loc. cit.; the Documents Arméniens (p. 342) give Jocelin instead of Simon.

(٧) Sempad, p. 619.

تعرض نفوذ بيزنطة فى كيليكيا إلى خطر آخر تمثل فى سياسة مسعود سلطان قونية ، الذى استغل الصراع الدائر فى المنطقة وبدأ يتوسع فى كيليكيا ووادى الفرات على حساب ممتلكات ونفوذ بيزنطة . وكانت المنطقة الواقعة بين ميليتين وأنطاكية بقلاعها الحصينة فى قيسون وبهنزى ورابان تحت إمرة بلدوين اللاتينى كونت ماراش(٨) .

توفى بلدوين فى عام ١١٤٦ فخلفه فى الإمارة شقيقه رينولد الذى كان متزوجاً من أجنس ابنة جوسلين صاحب الرها(٩) .

وفى يونية ١١٤٩ توفى رينولد فآلت أملاكه إلى صهره جوسلين . ولكى يحمى أراضيه من الغزوات القادمة من الشمال اضطر جوسلين إلى عقد معاهدة مع قلج أرسلان ، ولكن الوفاق بينهما لم يدم طويلا .

وفى سبتمبر ١١٤٩ سقطت ماراش فى يد السلطان مسعود وتعرضت تل بشير لهجوم شديد أيضاً(١٠). واضطر جوسلين إلى الاعتراف بالسلطان سيداً إقطاعياً له ، كما تعهد بإطلاق سراح جميع الأسرى الترك كما قدم له هدايا نفيسة القيمة(١١) . وفى مايو ١١٥٠ وقع جوسلين أسيراً فى يد الكتائب التركمانية التى كانت فى خدمة نور الدين(١٢) ؛ مما سهل على الأتراك مهمة غزو كيليكيا . وبذلك أصبحت سلطنة قونية تملك ماراش، فرزمان ، رابان ، قيسون ، ثم بهنزى ؛ واستولى قلج أرسلان على بابولا ، جاكتا ، ثم جارجار(١٣) ؛ أما تمورتاش فقد سيطر على بير ؛ ساموساتا غورس ، وكفاسود ؛ وصار لنور الدين بلدان آزاس ، كاليد (خالد ؟)

---

(٨) Gregory the Priest, Chronicle, in R.H.C. Arm., Vol. I, p. 158.

(٩) Michael the Syrian, III, p. 275.

(١٠) Gregory the Priest, p. 162; Michael the Syrian, p. 296.

(١١) Michael the Syrian, p.p. 293 - 94; William of Tyre, XVII, X.

(١٢) Gregory the Priest, p.p. 165 - 66; Michael the Syrian, p. 296.

(١٣) Michael the Syrian, p. 295.

وغيرهما من البلدان الصغيرة[١٤] .

باتت الإمارات اللاتينية فى سوريا فى خطر داهم أمام هذه الانتصارات الساحقة من جانب الأتراك . ولذا فإن أرملة أمير أنطاكية ، كونستانس، التى كانت أراضيها عرضة لهجوم وشيك الوقوع ، وضعت نفسها وأملاكها تحت حماية بيزنطة[١٥] . ولقد رحبت السلطات البيزنطية بهذا ، وفى عام ١١٥٢ صـــدرت الأوامر إلى حاكم كيليكيا البيزنطى ، ليعرض على أرملة جوسلين ، بياتريس ، شراء ما تبقى من أراض فى يدها مقابل مبلغ سنوى يحق لها ولأولادها من بعدها[١٦] .

وفى أثناء المباحثات بين البيزنطيين وبياتريس وصل بلدوين ملك بيت المقدس فى زيارة إلى أنطاكية وأحيط علماً بها . وقد ثار جدل عنيف بين الأمراء والبارونات اللاتين حول هذا الأمر : ففريق رفض الاعتراف بخطورة الموقف ورأى فى تسليم أراضى بياتريس للسلطات البيزنطية اعترافاً بالعجز واليأس ؛ وفريق آخر نصح بضرورة تسليم بعض المناطق للإمبراطور البيزنطى بدلا من ضياعها ليد الأتراك خاصة وأن الصليبيين كانوا عاجزين تماماً عن الدفاع عنها ، وكان ملك أورشليم مؤيداً لرأى الفريق الثانى ، ولذا فقد اصطحب القوات البيزنطية إلى تل بشير حيث أشرف على تهجير بياتريس كونتيسة الرها وأبناءها وكذا السكان اللاتين والأرمن الذين رفضوا البقاء فى المدينة فى ظل الحكم البيزنطى . ثم سلم بلدوين المدينة للسلطات البيزنطية . وتم نفس الشىء فى عنتاب ، وراوندان ورانكولات ، وبيلا ثم ساموساتا[١٧] . وقامت قوات ملك بيت المقدس

(١٤) Ibn al-Athir, Kamel el-Tawarikh, in R.H.C or , Vol. I, p. 481; Michael the Syrian, p. 297.

(١٥) Kinnamos, IV, xvii, p. 178.

(١٦) William of Tyre, XVII, vi; Sempad, p. 619.

(١٧) Bar - Hebraeus, Chronicon Syriacum, II, p. 345; William of Tyre, XVII, xvi; Michael the Syrian, p. 297.

بحماية عدد وافر من السكان اللاتين والأرمن أثناء هجرتهم إلى أنطاكية .

على أن ما آل إلى البيزنطيين هكذا دون قتال من أعمال إمارة الرها لم يلبث أن سلب منهم على يد نور الدين الذى ألحق بهم هزيمة نكراء فى عام ١١٥٢ . وفى نفس الوقت استولى الثائر الأرمينى ثوروس على طرسوس وموبسوستا وأخذ توماس دوق كيليكيا أسيراً للحرب .

قوبلت هذه الأنباء بضيق شديدفى العاصمة البيزنطية واضطرت السلطات إلى اتخاذ موقف حاسم فى كيليكيا . فعين الإمبراطور ابن عمه أندرونيكوس كومنين دوقاً على كيليكيا . وأوفد معه القيصر يوحنا أرمل شقيقة عمانويل ، ماريا ، فى مهمة خاصة إلى أنطاكية تلبية للرغبة التى كانت قد أبدتها أميرتها كونستانس . وكان على القيصر هذا أن يطلب يد الأميرة كونستانس للزواج منه . ولكن أفصال أنطاكية استنكروا هذا العرض لأنهم رأوا فيه سيطرة للنفوذ البيزنطى على إمارتهم وأميرتهم . وأغلب الظن أن كونستانس رفضت الاقتران بالقيصر بسبب كبر سنه . ولما فشل القيصر فى مهمته رجع إلى القسطنطينية واعتزل الحياة العامة وارتدى مسوح النساك(١٨) .

كان الدوق الجديد لكيليكيا — أندرونيكوس كومنين — معروفاً بغرامه النهم بالنساء وبحبه الجم للمسرح . ويحكى عنه أنه كان يصطحب معه فرقة من الكوميديين إلى ساحة المعركة(١٩) . وكان يختار ضباطه ممن يقدرون فيه هذه الملكات الفنية والمغامرات النسائية . هجم أندرونيكوس ورجاله على مدينة موبسوستا ، حيث أقام ثوروس معسكره القيادى ، وضربوا حولها حصاراً . ولكن ثوروس ورجاله ثقبوا مخارجاً فى ذلك الجزء من سور المدينة الذى لم يكن أندرونيكوس قد اهتم بحراسته . وذات صباح انقض القائد الأرمينى وفرسانه على معسكر أندرونيكوس وهم فى غفلة من أمرهم وهزموهم هزيمة نكراء ، قتل خلالها السباستوس ثيودور كونتستيفانوس ، كما

(١٨) Kinnamos, III, xiv, pp. 121 - 23; IV, xvii, p. 178.

(١٩) Ibid., p. 123.

وقع كل ما احتواه المعسكر البيزنطى من عتاد ومؤن غنيمة فى يد الأرمن . هرب أندرونيكوس بعد هذه الهزيمة إلى أنطاكية ، ومنها عاد إلى القسطنطينية(٢٠) وقد توج ثوروس انتصاره هذا بالاستيلاء على عدة مدن أخرى من يد البيزنطيين ، مما زاد من هيبته بين أمراء أرمينيا ، فاعترفوا به سيداً عليهم .

اهتزت كرامة عمانويل كومنين على إثر الهزائم المتلاحقة التى أحلها ثوروس بالقوات البيزنطية فى كيليكيا . ولذا فإن الإمبراطور لجأ إلى سلاح الدبلوماسية فى مصارعته ثوروس ؛ ففتح باب المفاوضات مع سلطان قونية ، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال إن هو شن حرباً على ثوروس بمؤازرة القوات البيزنطية(٢١) .

هجم السلطان على كيليكيا ، ولكنه عندما حاول عبور جبال طوروس وجد ممراتها مدججة برجال ثوروس المسلحين . ولذا فقد آثر التفاوض مع الثائر الأرمينى ، وطلب منه الاعتراف به سيداً عليه وإعادة المدن التى استولى عليها من البيزنطيين إليهم . وقد قبل ثوروس الشرط الأول من عروض السلطان مسعود ولكنه رفض التنازل عن شبر من الأراضى البيزنطية . واتفق الطرفان على هذا ووقعا معاهدة صلح كانت بطبيعة الحال لمصلحة الطرفين ، ولكن على حساب بيزنطة (١١٥٣) .

ومع هذا فقد سعى عمانويل كومنين مرة أخرى لتأليب السلطان مسعود على ثوروس بأن بذل له قدراً من الذهب . وفى مايو ١١٥٤ وجه السلطان حملة بقيادة يعقوب لمهاجمة ثوروس ، ولكن الذى حدث أن انقض جماعة الداوية ورجال ستيفانوس ، شقيق ثوروس ، عليهم فى ممر بورتللا الضيق الذى يصل كيليكيا بسوريا . وكانت هزيمة الترك فى هذه

(٢٠) Ibid., p. 126.

(٢١) Gregory the Priest, p. 169; Sempad, p. 260.

الموقعة تامة، كما قتل فيها قائد الحملة يعقوب [٢٢]. هذا فى حين أن وباء حل برجال مسعود أثناء حصارهم لتل حمــدون مما اضطره لرفع الحصار والتقهقر إلى قونية .

وفى عام ١١٥٥ توفى مسعود ، فاندلعت نار الحرب الأهلية فى سلطنته. كما أن ولده وخلفه قلج أرسلان وقع فى صدام شديد مع نور الدين صاحب حلب فى وادى الفرات . وأمام هذا التحدى من جانب نور الدين عقد قلج أرسلان معاهدة صلح مع ملك بيت المقدس وأمير أنطاكيـــة وثوروس الأرمينى ، وذلك فى عام ١١٥٧ [٢٣] .

لما وصلت أنباء هذه المعاهدة إلى البلاط البيزنطى أرسل عمانويل سفيره الكسيوس جيفارد محملا بالهدايا إلى بلاط قلج أرسلان وإلى الأمير يعقوب أرسلان ، طالبا منهما وعداً باحترام حدود الإمبراطورية فى آسيا الصغرى (١١٥٨) . وبعد أن تم له هذا قرر قيادة حملة ضخمة بنفسه لتصفية الموقف المعقد فى كل من كيليكيا وسوريا .

كان عمانويل قد شعر بالإهانة التى وجهتها إليــه كونستانس أميرة أنطاكية برفضها الزواج من القيصر يوحنا. ولقد زاد من غيظه أنها تزوجت فى عام ١١٥٣ من مغامر صليبى يدعو رينولد دى شاتيلليون الذى كان قد رافق لويس السابع من أورشليم إلى أنطاكية حيث التقى بالأميرة الفرنجية [٢٤]. وقد رأى عمانويل فى هذا الزواج تحديا صارخاً لأوامره ونكراناً لحقوقه على إمارة أنطاكية المتعارف عليها .

ولذا نجد أن رينولد بعث يطلب الصفح من الإمبراطور البيزنطى مبديا استعداده لتنفيذ ما يطلب منه لنيل رضاءه [٢٥] . طلب عمانويل منه أن

---

(٢٢) Gregory the Priest. . 172; Michael the Syrian, p. 347.

(٢٣) Gregory the Priest, pp. 177 - 78.

(٢٤) William of Tyre., XVII, xxvi.

(٢٥) Kinnamos, IV, xvii, p. 178.

يشن حملة على ثوروس ، متعهــداً إمداده بالمال اللازم لتمويل هذه الحملة[٢٦] . وكان رينولد لا يمانع فى الاضطلاع بهذه الحملة ؛ لأن ثوروس كان قد اغتصب حصن جاستين من جماعة الداوية . وبالفعل دارت الحرب بين رينولد وثوروس على مقربة من الإسكندرونة . ويبدو أن النصر فيها كان لأمير أنطاكية على الأمير الأرمينى[٢٧] . إلا أن الطرفين قد عقدا صلحاً ثم معاهدة للعمل سويا بغية تحقيق أطماعهما الشخصية . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً تحالف الاثنان على العمل سويا ضد البيزنطيين . ويحاول المؤرخ الصليبى وليم الصورى تبرير موقف رينولد بقوله إن الأخير لم يتلق المال الذى وعده به عمانويل كومنين رغم أنه أنفذ بالفعل حملة ضد ثوروس[٢٨] . ولذا فإن أمير أنطاكية قرر التعاون مع خصم عمانويل — ثوروس — للانتقام من خداع الإمبراطور له .

اختار رينولد وثوروس جزيرة قبرص الغنية بالخيرات مسرحاً لمغامرتهما المشتركة ، وجهزا أسطولا لهذا الغرض . كانت قبرص فى ذلك الوقت تحت حكم يوحنا كومنين ، ابن شقيق عمانويل كومنين ، يعاونه فى إدارة شئونها ميخائيل براناس . ويبدو أن حاكم الجزيرة قد علم بطريقة ما بمشروع رينولد ضد الجزيرة ، ويدل على ذلك أنه عند رسو سفن رينولد كان براناس ورجاله واقفين له بالمرصاد ، فى حين أن يوحنا ذاته كان مرابطاً بقواته فى ليكوزيا (نيقوسيا)[٢٩] .

يزعم المؤرخ كناموس أن رينولد قد هزم على يد أهالى قبرص[٣٠] ، ولكن روايته هنا غير صحيحة . ونجد الحقيقة فيما كتبه وليم الصورى فى

---

(٢٦) William of Tyre, XVIII, x.

(٢٧) William of Tyre, loc. cit.; conf., Michael the Syrian, p. 350 gives the opposite version of the story.

(٢٨) William of Tyre, ioc. cit.

(٢٩) Ibid.

(٣٠) Kinnamos, IV, xvii, p. 179.

هذا الصدد : فالقوات البيزنطية التي حاولت صد رينولد ورجاله منيت بالهزيمة واضطرت للتقهقر إلى ليكوزيا . ثم تعقب الغزاة القوات المتقهقرة وأسروا القائد ميخائيل براناس . وعندما تقدم يوحنا كومنين لمعاونة الفرق المتقهقرة منى هو الآخر بهزيمة فادحة بل ووقع أسـيراً فى يد رينولد . وبعد هذا أطلق الأمير الصليبى عصاباته فى كل ركن من أركان الجزيرة لتجريدها من كل ثرواتها وخيراتها . وهكذا فإن مدائن الجزيرة وقراها وكنائسها ودورها وقعت فريسة للنهب والسلب والعبث . وعملت سيوف الفرنجة فى الأهلين دون رحمة ، بل وتعرض النساك فى صوامعهم للتشويه . وكان الحصاد من الذهب والفضة والأقمشة جد وفير ، هذا إلى جانب أعداد مهولة من القطعان على مختلف صنوفها . على أن رينولد ، لكى يتجنب مشقة نقل هذه الأعداد الضخمة من الماشية والقطعان على سـفنه إلى أنطاكية ، فرض على أهل الجزيرة شراء مواشيهم وقطعانهم وبثمن باهظ . كذلك فرض ضريبة أسماها « جزية الحرب المقدسة » على سكان الجزيرة . ولضمان جباية هذه الضريبة قبض على عدد من وجهاء الجزيرة ورؤساء الدين رهائن لديه فى أنطاكية(٣١) .

وقعت أحداث حملة رينولد هذه فى عام ١١٥٦ ، وجاءت هذه الفعلة صدمة عنيفة للرأى العام . ولقد غضب الأمراء الصليبيون أقران رينولد فى سوريا وبيت المقدس من مسلكه هذا ، لأن السلطات البيزنطية أغلقت جميع الموانى فى وجه السفن القادمة من الغرب إلى الإمارات الصليبية ، رداً على هذا العدوان السافر . هذا وقد عنف بلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس ، الأمير الأنطاكى على خطئه أثناء حصارهما لمدينة شيزار(٣٢) . ولم يكن غضب بلدوين دون مبرر : فإلى جانب كراهيته لشخص رينولد ،

---

(٣١) William of Tyre, XVIII, xvii; Gregory the Priest, p. 187; Michael the Syrian, p. 350; Bar - Hebraeus, II, p. 325.

(٣٢) William of Tyre, loc. cit.

رأى فى حملته على قبرص المسمار الأخير فى نعش التفاهم بين الصليبيين وبيزنطة ، وذلك فى وقت بلغت فيه سطوة نور الدين أوجها ، مما بات يهدد كيان الإمارات اللاتينية بخطر محقق .

ورغم هذا فقد كتب بولدوين إلى الإمبراطور البيزنطى يطلب الصفح والغفران ، كما أوفدسفارة إلى القسطنطينية لتخطب له أميرة بيزنطية للزواج منه . ولكى يؤكد حسن نواياه أعلن الملك الصليبى أنه عازم على إخضاع السلطات الحاكمة فى إمارة أنطاكية لطاعة عمانويل كومنين[٣٣] .

تألف سفراء بلدوين إلى العاصمة البيزنطية من إيتارد رئيس أساقفة الناصرة ، وهمفرى من تورون ، وجوسلين بيزوه ، ثم وليم من باريه[٣٤] . وقد توفى رئيس الأساقفة أثناء زيارته للقسطنطينية . هذا ولم يسمح للوفد اللاتينى بمقابلة عمانويل كومنين فور وصولهم العاصمة . على أنه بعد حين سمح لهم بذلك، وتقرر تلبية طلب بلدوين بأن رشح الإمبراطور زوجاً له ثيودورة ابنة شقيقه إسحق . ووهب الإمبراطور ملكة أورشليم المستقبلة ١٠٠,٠٠٠ هايبيربيروى إلى جانب ٤٠,٠٠٠ أخرى وبعض الأحجار الثمينة والأقمشة والسجاجيد وخلافه من نفائس القصر الإمبراطورى . وأوفد معها وفداً من أعيان المدينة فى رحلتها الميمونة مع السفراء الفرنجة إلى الأرض المقدسة .

وصلت ثيودورة إلى صور فى سبتمبر ١١٥٨ ، ومنها تقدمت فى موكبها إلى أورشليم حيث عقد قرانها على بلدوين الثالث على يد عمورى بطريرك أنطاكية ؛ إذ كان بطريرك أورشليم متغيباً فى تلك اللحظة[٣٥] .

بعد أن وثق عمانويل كومنين علاقاته ببلدوين الثالث قرر قيادة حملة لتقليم أظافر المارقين رينولد وثوروس لفعلتهما البشعة ضد أهالى جزيرة

(٣٣) Gregory the Priest, p. 189.

(٣٤) Ibid.; William of Tyre, XVIII, xxii.

(٣٥) Ibid.

قبرص . ولكى يأخذ عدويه على غرة روج إشاعة مؤداها أنه قادم لمحاربة الترك(٣٦) . وزحف الجيش البيزنطى بقيادة إمبراطوره من آتاليا إلى سلوقيا حيث كان فى انتظاره حاكمها الكسيوس كازيانوس .

لعب القدر دوراً بارعاً فى إنقاذ ثوروس من قبضة عمانويل . ذلك أن أحد الحجاج اللاتين ، الذى كان قادماً من الشمال ، أبلغه أنه قد رأى الإمبراطور البيزنطى على رأس جيش هائل يزحف صوب الجنوب . جمع الزعيم الأرمينى أفراد عائلته وكنوزه وفر إلى بطن الجبال . وتوارى هذا الهارب وذووه فى بقعة تعرف باسم دادجيق ، لم يعرف عنها من قبل أنها آوت إنساناً ما(٣٧) . ولم يعلم ثوروس بملاذه هذا أحداً عـــدا صديقيه توماس وكوركيس . وكان بين الحين والآخر يخرج من كهفه هائماً فى جبال طوروس ليتسقط الأنباء عن الانتصارات المتلاحقة التى حققها عمانويل كومنين فى كيليكيا(٣٨) .

كان عمانويل قد دخل كيليكيا بعد هروب ثوروس بثلاثة أيام فقط(٣٩) ولم يلق مقاومة تذكر ، فاســتولى على لاموس وكستراموس وآنزربا وطرسوس ، واونجينياس ، ثم تل حمدون ، وعند حلول نوفبر من عام ١١٥٨ أصبح عمانويل السيد المطلق لإقليم كيليكيا(٤٠). أمر عمانويل أن يقام معسكره عند بوابات موبسوستا ، ثم بدأ يفكر فى كيفيـــة إذلال رينولد دى شاتيلليون .

نظر رينولد من حوله فرأى الإمبراطور وجيشـــه على أطراف إمارته يتأهبون للنيل منه ، ووجد أعداءه داخل أنطاكية مستبشرين ارتياحاً لما

(٣٦) Kinnamos, IV; xvii, p. 179.

(٣٧) Dadjig was a castle in the Cydnus valley.

(٣٨) Greogry the Priest, p. 187; Kinnamos, loc. cit.

(٣٩) William of Tyre, XVII, xxiii.

(٤٠) Gregory the Priest, loc. cit.; Kinnamos, IV, xvii, pp 180 - 81.

كان لا محالة واقع به من عقاب . وكان على رأس أعدائه فى أنطاكية عمورى بطريركها العنيد . ولقد بدأت العداوة بين الرجلين منذ عارض البطريرك زواج رينولد من الأميرة كونستانس . وانتقم الأمير من رجل الدين بأن قبض عليه وأمر بضربه ثم طلاه وهو عريان بالعسل وألقى به أرضاً نهباً للدغ الذباب فى صيف أنطاكية القائظ . ولم ينقذ عمورى من الهوان سوى دفعه لرينولد مبلغاً ضخماً من المال اشترى به حريته . على أنه ما إن أطلق سراحه حتى فر يلتجئ عند بلدوين الثالث ملك بيت المقدس(٤١) . كان طبيعيا ان يشمت بلدوين الثالث وعمورى فى رينولد وأن يودا عقابه على يد عمانويل كومنين . وكان رينولد مدركاً لهذا ، ولذا فقد بعث يعرض على البازيليوس تسليمه قلعة أنطاكية ولكن هذا العرض رفض بشدة . وهنا نصح لرينولد خلصاؤه بأن يسرع فيضع نفسه تحت رحمة الذات الإمبراطورية بدلا من أن يخسر كل شيء .

عارى الرأس ، حافى القدمين ، ويداه أيضاً عاريتان حتى العنق الذى التف حوله حبل من مسد ، وقد أمسك بغمده من حده لا من المقبض جر رينولد دى شاتيللون قدميه على طول طريق موبسوستا حتى الخيمة الإمبراطورية . وكان يحيط به من حوله جمع من النساك عارى الرؤوس حافى الأقدام ، وهو يقدم خطوة ويؤخر أخرى قبالة مقام صاحب العباءة الأرجوانية . أما عمانويل كومنين فقد كان متربعاً على عرشه محاطاً بالحاشية والحرس المدجج بالسلاح ؛ الذين وقفوا شاهرين سيوفهم . وفى حين ركع القوم الذين قدموا مع الأمير النادم وهم يمدون أيديهم توسلا للرحمة والغفران ألقى رينولد بنفسه على الأرض عند قدمى الإمبراطور يشحذ رضاه . تعمد عمانويل إطالة مدة هذا المشهد المهين إلى حد راح من طوله بعض المشاهدين فى سنة من النوم .

---

(٤١) William of Tyre, loc. cit.

وفى نهاية الأمر منح الإمبراطور عفواً مشروطاً للأمير الذليل . ومهما كان الأمر فإن من شاهد أو سمع عن هذا الإذلال من الفرنجة رأى فيه مهانة مقصودة للعنصر اللاتينى على إطلاقه . ويروى وليم أسقف صور تفاصيل هذه الحادثة فى أسى وحزن بالغين « بسبب العار الذى لحق بالفرنجة » فى موبسوستا[٤٢] . والذى زاد من قدر هذه المهانة وجود عدد كبير من السفراء من مختلف الأمصار والأقطار : من خراسان وبغداد وحلب وقونية، ليشهدوا تلطيخ كبرياء الفرنجة فى وحل كيليكيا[٤٣] . وقبـــل أن يسمح عمانويل كومنين لأمير أنطاكية بأداء قسم الولاء والطاعة له ، الذى كان عليه بمؤداه أن يسلم إلى الإمبراطور قلعة أنطاكية ، كان عليه أن يتعهد بقبول بطريرك بيزنطى لكرسى المدينة بدلا من بطريركها اللاتينى . ولم يكن هذا الشرط بدعة جديدة ، فهو التزام كان يصر عليه من قبل يوحنا كومنين ، ومن قبله الكسيوس كومنين عندما وقع اتفاق ديابولس (١١٠٨) مع بوهمند الأول . كذلك كان على رينولد إمداد عمانويل بعدد محدد من الكتائب للخدمة فى جيش الإمبراطور وقتما تدعو الحاجة إلى ذلك[٤٤] .

كان إذلال موبسوستا انتصاراً كبيراً لبيزنطة على اللاتين فى سوريا . ونظر أهل الإمبراطورية إلى هذا الحدث على أنه حصاد كفاح مرير دام ستين عاماً مع جنس الفرنجة المتبربر . ولقد نظم ثيودور برودروموس قصيدة لتخليد هذا الحدث التاريخى تحدث فيها عن دونية اللاتين وسيادة بيزنطة[٤٥] .

بعد ذلك بقليل وصل بلدوين الثالث وشقيقه عمورى كونت يافا إلى أنطاكية . ومن هناك أوفدا جيوفرى مقدم دير معبد السيد المسيح ليطالب

---

(٤٢) Ibid.

(٤٣) Kinnamos, IV, viii, p. 183.

(٤٤) Kinnamos, IV, xxiv, p. 199; William of Tyre, XVIII, xxiii.

(٤٥) Theodore Prodromus, Carmen, in R.H.C.Gr., Vol. II, pp. 303 seq.

من عمانويل كومنين السماح لهما بزيارته . ويبدو أن بلدوين كان يطمح فى أن يقطعه الإمبراطور إمارة أنطاكية بدلا من رينولد(٤٦) . ولقد ذهب رجال البلاط لاستقبال بلدوين على بعد من الخيمة الإمبراطورية . غير أن حادثاً صغيراً وقع فعكر صفو المودة بين الضيف والمضيف إلى حد : ذلك أن ملك أورشليم ، بقصد أو بغير قصد ، تقدم ممتطياً جواده أبعد من النقطة التى كان يتحتم عندها أن يترجل كائن من كان إلا الإمبراطور ذاته . وكان هذا الخرق لقواعد البروتوكول من جانب بلدوين سبباً فى فتور الاستقبال الذى لقيه من الإمبراطور(٤٧) . ومع ذلك فقد أقام بلدوين ضيفاً على الإمبراطور عشرة أيام ، اتفق خلالها على أن يمد الأول الثانى بعدد معين من الكتائب . ولا يستبعد أن يكون بلدوين قد أقسم يمين الولاء والطاعة لعمانويل أيضاً .

هذا عن قصة رينولد دى شاتيلليون . أما عن ثوروس فيبدو أنه طلب من بلدوين الثالث التوسط له لدى الإمبراطور لتسوية خلافه مع بيزنطة . ووافق عمانويل كومنين على أن يقدم ثوروس نفسه فى مشهد شبيه بذلك الذى كان رينولد بطله الذليل . وقبل ثوروس هذا الشرط وأدى يمين الولاء والطاعة الذى طلب منه . وعليه فقد أقطع بالأراضى التى كان قد استولى عليها من الإمبراطورية(٤٨) .

وكما جرت العادة ، وزع البازيليوس الهدايا الإمبراطورية على أتباعه وحلفائه . ويروى وليم الصورى أن نصيب بلدوين الثالث كان ٢٢,٠٠٠ هايبربيروى و ٣٠٠٠ مارك من الفضة(٤٩) وغادر بلدوين موبسوستا عائداً إلى أنطاكية ، تاركاً وراءه شقيقه عمورى ، وهيومن إبلسين ليتلقيا

---

(٤٦) William of Tyre, XVIII, xxiii.

(٤٧) Kinnamos, IV, xix, p. 183; William of Tyre, loc. cit.

(٤٨) Kinnamos, p. 187.

(٤٩) William of Tyre, XVIII, xxiv.

نصيبهما من الكرم الإمبراطورى (٥٠)

قبل حلول فصح ١١٥٩ أرسل عمانويل كومنين سفيره يوحنا كاماتيروس إلى أنطاكية ليعلن وشوك زيارة سيده للمدينة (٥١) . غير أن السلطات الحاكمة فى أنطاكية أعلنت أنها لا تنصح بإتمام هذه الزيارة لأن هناك مؤامرة قد دبرها البعض لاغتيال البازيليوس (٥٢) . ولكن عمانويل كان مصراً على دخول أنطاكية فى موكب المنتصرين ، فأرسل يطلب من أمراء إنطاكية بعض الرهائن ، كما أمرهم بعدم حمل سلاح ما إن أرادوا المشاركة فى حفل استقباله .

كان دخول عمانويل كومنين مدينة إنطاكية دخولا مظفراً : فقد ظهر فى ردائه الإمبراطورى يتلألأ بالأحجار الثمينة ممسكاً بصولجانه على ظهر جواده .

أما رينولد دى شاتيلليون ورفاقه الأمراء اللاتين فقـد ساروا على الأقدام فى تواضع جم بجواره . وأتى من خلفه ملك أورشليم على ظهر جواده دون أن يحمل سلاحاً . وكان فى استقبالهم عند بوابة المدينة الشعب والإكليروس وعلى رأسهم البطريرك فى كامل زيه الكهنوتى ممسكاً بالأناجيل فى يديه . وهنا علا رنين الأبواق وارتفعت نغمات الترانيم الدينية ، وتقدم الموكب الحافل على البسط المفروشة فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى الكاتدرائية التى توجه منها الإمبراطور إلى قصره (٥٣) . ولمدة ثمانية أيام ارتفع العلم الإمبراطورى ليرفرف فى أعلى قلعة المدينة ؛ كما أمر الإمبراطور بتوزيع الهبات والصدقات على أهلها . كذلك أمر بعقد مبارزات ودية بين فرسانه والفرسان اللاتين ، واشترك بذاته فى هذه الرياضة وأوقع بفارسين لاتينيين

(٥٠) Ibid.

(٥١) Ibid.

(٥٢) Kinnamos, IV, xxi, pp. 186 - 87.

(٥٣) William of Tyre, XVIII, xxv.

من على ظهر جواديهما أرضاً[٥٤] .

فى آخر مايو ١١٥٩ رحلت القوات البيزنطية عن أنطاكية بقصد شن الحرب ضد نور الدين أمير حلب . وانضمت لهذا الغرض قوات الأمراء اللاتين إلى قوات بيزنطة . ضرب المتحالفون معسكراتهم عند عواصى بالا استعداداً للقتال . غير أن البازيليوس قرر فجأة عدم القتال وعقد صلحاً مع نور الدين ، تعهد الأخير بمقتضاه إطلاق سراح الأسرى اللاتين الذين كانوا فى حوزته . كما وعد أمير حلب معاونة عمانويل فى حربه ضد سلطان قونية[٥٥] . كان عدد الأسرى الذين أطلق نور الدين سراحهم أكثر من ستة آلاف[٥٦] غالبيتهم من أفراد الحملة الصليبية الثانية . وكان من بين هؤلاء برتراند ولد الفونس جوردان وحفيد رايموند من سان جيل ، ثم برتراند من بلانكافورت رئيس الداوية[٥٧] .

عندما قرر عمانويل كومنين عقد هدنة مع نور الدين ، رأى الأمراء اللاتين فى هذا الإجراء مثلا آخر من جبن البيزنطيين وغدرهم . كما أن الفرق الأرمينية التى كانت مشتركة مع القوات المتحالفة شاركت اللاتين فى شعورهم بالمرارة[٥٨] .

على أنه ينبغى ملاحظة أن عمانويل كومنين عندما قدم إلى كيليكيا وسوريا لم يأت بغية التعاون مع الأرمن أو اللاتين ضد نور الدين ، وإنما العكس هو الصحيح ، إذ أنه قد جاء ليعاقب أمير أنطاكية وزعيم الأرمن لهجومهما الغادر على جزيرة قبرص . وما من شك فى أن الخطر الذى كان يمثله نور الدين على الإمارات اللاتينية كان عاملا أساسياً من العوامل التى

(٥٤) Nicetas Choniates III, iii, p. 142.

(٥٥) Kinnamos, IV, xxi, p. 188.

(٥٦) Ibid.

(٥٧) William of Tyre, XVIII, xxv.

(٥٨) Gregory the Priest, p. 191.

شجعت عمانويل على الزحف على كيليكيا وسوريا لتحقيق أغراضه ولتأكيد حقوقه على إمارة إنطاكية بقوة السيف . وأغلب الظن أن عمانويل عقد صلحاً مع نور الدين بدلا من مقاتلته ليبقى عليه شوكة قوية فى ظهر الصليبيين ، مما يترك الأمور فى سوريا فى شىء من التوازن الذى كان بالضرورة من مقتضيات الحفاظ على مصالح الإمبراطرية البيزنطية فى المنطقة . يضاف إلى هذا أنه بهذا الصلح كسب إلى جانبه حليفاً يخشى بأسه ضد سلطان قونية . ومع هذا فإن المعاهدة التى عقدها الإمبراطور مع أمير حلب قد حققت مكسباً وافراً للصليبيين إذ بمقتضاها أطلق نور الدين سراح ما يربو على ستة آلاف أسير صليبى ، كان من بينهم أفراد ذوو مكانة هامة .

بعد هذا رجع جيش عمانويل بطريق سلوقيا — لاراندا . ولكن القبائل التركية فى المنطقة انقضت عليه عند كاتايون (كوتاهية) وأوقعت به هزيمة نكراء[٥٩] . وما من شك فى أن ساطان قونية — قلج أرسلان — هو الذى حرض القبائل على هجومها ضد الجيش البيزنطى ، كرد فعل طبيعى على المعاهدة التى أبرمها عمانويل مع أمير حلب .

فى عام ١١٦٠ أرسل عمانويل كومنين سفيريه يوحنا كونتستيفانوس وثيوفيلاكت كبير التراجمة فى مهمة خاصة إلى ملك بيت المقدس . كان على هذين السفيرين أن يطلبا من بلدوين الثالث يد إحدى الأميرات اللاتينيات للزواج من عمانويل كومنين ، الذى كانت زوجته الألمانية إيرينى قد توفيت فى عام ١١٥٨ . وكانت رغبة البازيليوس تنحصر فى واحدة من اثنتين : إما مليسيندا شقيقة الكونت رايموند الثالث صاحب طرابلس ، وإما ماريا ابنة رايموند أمير أنطاكية المتوفى .

تشاور بلدوين الثالث مع نبلائه فى الأمر ، ثم قرر عرض يد ابنة

---

(٥٩) Ibid., p. 192.

(٦٠) William of Tyre, XVIII, xxx; Kinnamos, V, iv, p. 210.

أخته — ميليسيندا — على عمانويل . والواقع أن ملك بيت المقدس أراد أن يبعد الإمبراطور عن شئون أنطاكية خوفاً من ازدياد النفوذ البيزنطى فى سوريا ، إن تم زواجه من ماريا الأنطاكية . بدأ السفراء يتقصون أخبار الأميرة المرشحة لمشاركة سيدهم فى التاج الإمبراطورى وأرسلوا بتفاصيل دقيقة عن قوامها وجمالها إلى عمانويل(٦١) . وفى أثناء ذلك بدأ رايمــوند فى تجهيز اثنتى عشرة سفينة للمناسبة السعيدة وراح يشترى لأخته أغلى النفائس استعداداً للزفاف الميمون . وانتشرت الأخبار السارة فى كل أرجاء الشرق اللاتينى ، فوفدت جماعات النبلاء من كل ركن إلى بلاط طرابلس حيث أمتعوا بفاخر المآدب والشراب ابتهاجاً بالمناسبة . وأطال الأضياف إقامتهم فى بلاط رايموند فى انتظار وصول رسالة من القسطنطينية يحدد فيها عمانويل موعد اللحظة المرتقبة . ولكن شيئاً من هذا القبيــل لم يرد البتة من هناك .

كان طبيعياً أن يزداد القلق فى نفسى بلدوين ورايموند بعد أن انصرم عام كامل دون رد من القسطنطينية . ولذا فقد طلبا من السفراء البيزنطيين البحث فى الأمر . وأعلن رايموند أن هذا الزواج إن لم يتم فإنه لقاطع أواصر الصلة بالبيزنطيين ، كما أنه صرح بعزمه على استرداد جميع ما أنفقه من مال استعداداً لهذا الزواج(٦٢) . أما بلدوين فقد أرســل أوتو من رزبرج إلى العاصمة البيزنطية لكشف الأمر ، وهناك علم أن عمانويل قد رفض الزواج من ميليسيندا(٦٣) . وسرعان ما انتشر الخبر فى كل مكان وأشاع اضطراباً شــديداً بين الأوساط اللاتينية خاصة فى بلاط طرابلس إذ أعلن رايموند أنه سيقود حملة بحرية بنفس السفن التى كان قد أعدها للزفاف ليخرب سواحل الإمبراطورية انتقاماً للإهانة التى لحقت بشرف

(٦١) Ibid., XVIII, xxxi.

(٦٢) Ibid.

(٦٣) Ibid.

أسرته من جراء تصرف عمانويل كومنين (٦٤) . أما السفراء البيزنطيون فى طرابلس فقد انسلوا سرًا من هنـــاك وأبحروا هاربين فى قارب صغير إلى قبرص .

اختلفت الآراء فى تفسير الأسباب التى من أجلها رفض عمانويل يد الأميرة ميليسيندا : إذ نجد كناموس يصرح بأن السفير كونتستيفانوس اكتشف من خلال تحرياته الدقيقة أن ميليسيندا كانت من أصل غير شرعى ، ولذا فقد قرر العودة إلى العاصمة دون إتمام شىء (٦٥) . أما وليم الصورى فيقرر أن سبب عدول عمانويل عن هذا الزواج تلك الأحداث المتلاحقة التى شهدتها أنطاكية : ففى ٢٢ نوفمبر ١١٦٠ وقع رينولد دى شاتيلليون أسيراً فى يد الترك ، ونتج عن هذا أن نشط الحزب المعادى لبيزنطة فى أنطاكية بتحريض من ثوروس الأرمينى ، بهدف طرد كونستانس من حكومة الإمارة وإعلان ابنها القاصر ، بوهمند الثالث ، أميراً . وأمام هذا فقد كتبت كونستانس — سرًا — إلى عمانويل كومنين تستنجد به بوصفه سيدها الإقطاعى هى وزوجها وفق معاهدة ١١٥٩ . وكانت كونستانس تخشى أيضاً نفوذ بلدوين ملك أورشليم ، الذى كان كارهاً لها ولزوجها . ومن هنا جاءت سياستها الودية قبالة بلاط القسطنطينية .

أرسل عمانويل يطمئن كونستانس وفى نفس الوقت طلب يد ابنتها ماريا فى الزواج منه . وأوفد لهـــذا الغرض بعثة دبلوماسية من كبير الأدواق الكسيوس ، ابن الأميرة آنا كومنينا ، ومحافظ العاصمـــة أندرونيكوس كاماتيروس (٦٦) .

ولما قدم بلدوين الثالث إلى أنطاكية علم بالأمر فحاول إحباط مشروع الزواج . ولكن الأمر كان قد قضى بعد أن وافقت الأميرتان الأم والابنة

---

(٦٤) Ibid.

(٦٥) Kinnamos, V, iv, p. 26.

(٦٦) Ibid., V, iv, p. 210.

على مشروع عمانويل . وبعد قليل سافرت ماريا إلى القسطنطينية (٦٧) . وفى ٢٥ ديسمبر ١١٦١ احتفلت أياصوفيا بعقد قران عمانويل كومنين على ماريا الأنطاكية، وقام بالمراسيم لوقا بطريرك القسطنطينية، يعاونه فى ذلك سوفرونيوس بطريرك الإسكندرية وآثاناسيوس البطريرك البيزنطى لأنطاكية (٦٨) .

وثق هذا الزواج العلاقات بين بلاطى أنطاكية وبيزنطة ، وأخذ النفوذ البيزنطى يزداد وضوحاً فى الإمارة ، مما أزعج ملك بيت المقدس الجديد عمورى وأيضاً بوهمند الثالث الأمير الأنطاكى . ولذا نجدهما يكتبان إلى الملك لويس السابع فى عام ١١٦٢ للشكوى من ازدياد نفوذ بيزنطة فى سوريا . ورغم هذا فإن القوات البيزنطية حاربت جنباً إلى جنب مع اللاتين فى كيليكيا ضد نور الدين : فقد حارب دوق هذا الإقليم كولومان ورجاله معهم فى موقعة البقيع ضد أمير حلب . وفى أغسطس ١١٦٤ وقع الدوق البيزنطى أسيراً فى موقعة حارم ، هو وبوهمند الثالث ورايموند الثالث (٦٩) .

فى هذه المرحلة كان عمانويل كومنين منصرفاً لمحاربة الهنغار فى أوربا الذين كانوا يمثلون خطراً على أراضى الإمبراطورية . فاستغل ثوروس زعيم أرمينيا وأخوه ستيفانوس هذه الفرصة وراحا يهجمان على كيليكيا البيزنطية . وحدث أن دعا الدوق الجديد لكيليكيا ، أندرونيكوس يوفوربينوس ، ستيفانوس إلى مأدبة عشاء ، تم فيها اغتيال الضيف ورجال حرسه جميعاً (٧٠). وانتقاماً لهذا شدد ثوروس وشقيقه الآخر مليح ضرباتهما للبيزنطيين فى كيليكيا وقتلا ما يزيد على عشرة آلاف منهم ثم استوليا على موبسوستا ، وانزاربا ، وفاجا (٧١) .

(٦٧) William of Tyre. XVIII, xxxi.

(٦٨) Kinnamos, V, iv, p. 211.

(٦٩) Ibn al-Athir, History of the Atabeks, p. 209; William of Tyre, XIX, ix.

(٧٠) Michael the Syrian and almost all the Armenian chroniclers report, wrongfully, that Sdephanus was murdered by Andronicus Comnenus.

(٧١) Sempad, pp. 621 - 22.

تدخل عمورى ملك بيت المقدس ليفض الصراع الدامى بين الأرمن والبيزنطيين فى كيليكيا وعقد بينهما صلحاً ، ولكن سرعان ما نقض ثوروس العهد واستأنف مقاتلة القوات البيزنطية من جديد .

اضطر عمانويل كومنين بعد هذا إلى أن يعين دوقاً جديداً لإقليم كيليكيا : هو أندرونيكوس كومنينوس ، وزوده بمال وفير لمحاربة ثوروس والقضاء على ثورته الجديدة . على أن الدوق الجديد لم يكن رجل حرب، إذ دأب على قضاء جل وقته فى مدينة أنطاكية ، حيث أقام علاقات ودية مع أميرتها وآل بيتها . وسرعان ما أوقع فى حبائل غرامه الأميرة فيليبا شقيقة زوج عمانويل كومنين . وهامت فيليبا بأندرونيكوس حبًّا وإعجاباً وأسلمت ذاتها كلية لهذا الممثل البارع .

ولما علم الإمبراطور بهذه العلاقة بين الاثنين غضب غضباً شديداً ، إذ كان موقناً أن أندرونيكوس سيعبث بالصبية بغية تحقيق مآربه الخاصة فى اغتصاب إمارة أنطاكية ذاتها . ولذا أقاله من منصبه وعين بدلا منه كولومان الذى افتداه من الأسر . وقد أمر الإمبراطور هذا الدوق الجديد بالتردد على البلاط الأنطاكى ومحاولة كسب قلب فيليبا وتأليبها على أندرونيكوس . ولكن الأميرة المدللة ، التى كان عليها أن تستقبل كولومان تنفيذاً لأوامر زوج شقيقتها ، باتت تشكو علانية من إحلال هذا « الفارس الأشعث القمىء » محل أندرونيكوس الجميل ، كما وأنها كثيراً ما سخرت منه لقصر قامته . وقد تبع هذا نزاع حاد بين عمانويل وأندرونيكوس ، قرر بعده الأخير ، وقد مج خليلته ، الرحيل عن أنطاكية . وقد حمل أندرونيكوس معه الأموال الوفيرة التى كانت قد سلمت إليه لمهمته فى كيليكيا[٧٢] . وصل أندرونيكوس بعد هذا إلى بيت المقدس حيث وجد ثيودورة أرملة بلدوين الثالث فطارحها الغرام ، ثم هرب الاثنان معاً إلى بلاط أحد الأمراء المسلمين .

---

(٧٢) Kinnamos, VI, i, p. 250.

فى عام ١١٦٥ أطلق الأمير نور الدين سراح بوهمند الثالث مقابل فدية تعهد الأخير دفعها . واتجه بوهمند مباشرة إلى القسطنطينية حيث أعطاه عمانويل كومنين المبلغ المطلوب منه (٧٣) . واصطحب بوهمند فى عودته إلى أنطاكية بطريركاً بيزنطياً للمدينة ، مما يوحى بأن معاهدة ١١٥٩ التى أبرمت بين عمانويل ورينولد دى شاتيللون قد بعثت من جديد . على أنه ما إن وصل البطريرك البيزنطى إلى أنطاكية حتى ثار عمورى البطريرك اللاتينى للمدينة وترك المدينة غاضباً بعد أن أصدر قراراً بالقطع ضدها (٧٤) . هذا وقد وثق بوهمند الثالث علاقاته بعمانويل بأن تزوج من ثيودورة ابنة شقيق الأول .

ورغم هذا فإنه فى بداية عام ١١٧٠ نشط الحزب المعادى لبيزنطة فى أنطاكية وازداد نفوذه ، ويدلنا على ذلك حقيقة إعادة البطريرك اللاتينى عمورى إلى عرشه البطريركى وإغفال حقوق بطريركها البيزنطى (٧٥) .

* * *

أما عن علاقات عمانويل بمملكة بيت المقدس ، فقد سبق ذكر أن بلدوين الثالث قد غضب من زواج البازيليوس بماريا الأنطاكية بعد الإهانة التى ألحقها بابنة شقيقته ميليسيندا أميرة طرابلس .

توفى بلدوين الثالث فى العاشر من فبراير ١١٦٢ فخلفه على العـرش شقيقه عمورى . وكان الملك الجديد يرى فى سياسة عمانويل عداء للصليبيين لا يقل عن عداوة الجانب الإسلامى لهم . وقد وضح موقفه هذا فى الرسالة التى بعث بها إلى الملك لويس السابع فى بداية عهده بالملك

(٧٣) William of Tyre, XIX, ii.

(٧٤) Michael the Syrian, p. 360. Amouri retired to Koseir (Kursat), and his case was the cause of Pope Alexander III's anger in 1178. See Jaffé, 3020.

(٧٥) William of Tyre, XX, xviii; Michael the Syrian, p. 339.

يطلب فيها نجدات ضد « عدوان نور الدين وعمانويل على الإمارات اللاتينية[٧٦] .

ولكن الرأى العام فى غرب أوربا كان قد صم أذنيه بعد الفشل الذريع الذى منيت به صليبية ١١٤٧ . وبهذا لم يتلق عمورى رداً مطمئناً من الغرب لاستنجاده المتكرر . وهنا أخذ عمورى يتملق العاهل البيزنطى ويخطب وده . والذى دفعه إلى هذا التقارب ذاك الخطر الذى كان يكمن فى مخطط نور الدين فى مصر والشام والذى كان يستهدف تطويق الفرنجة تماماً ومن هنا ولدت فكرة عمورى فى قيادة حملة مشتركة مع بيزنطة ضد مصر التى كان النفوذ فيها وقتئذ لنائب نور الدين : صلاح الدين الأيوبى .

أرسل عمورى سفيريه هيتيزاوس رئيس أساقفة قيسارية وأودو من سانت آماند رئيس جماعة الداوية للتفاوض مع عمانويل كومنين فى أمر الحملة المشتركة ضد مصر ، وأيضاً ليخطبا له إحدى الأميرات البيزنطيات لتكون شريكة لحياته[٧٧] .

نجح السفيران فى مهمتهما وعادا إلى أورشليم يصطحبان معهما الأميرة ماريا ابنة البروتيسيباستوس يوحنا كومنين ، وممثلى الإمبراطور : جورج باليولوغ والسيباستوس عمانويل كومنين الأصغر . وتم حفل الزواج فى مدينة صور فى ٢٩ أغسطس ١١٦٧[٧٨] . كما أرسل الإمبراطور فيما بعد اسكندر كونفرسانو ، وميخائيل أوترانتو للتفاوض مع ملك بيت المقدس فى أمر الحملة المشتركة . وقد طلب عمانويل كومنين جزاء اشتراكه فى الحملة نصيباً معيناً من الغنائم وكذا بعض الأراضى . ويبدو أن عمورى لم يرض عن هذه الشروط فأرسل وليم رئيس أساقفة صور ، مؤرخنا المرموق ، ليتفاوض مع الإمبراطور فى هذه الشروط .

(٧٦) R.H.G., Vol. XVI, pp. 36 - 37, 39 - 40.

(٧٧) Kinnamos, VI, xiii, p. 237; William of Tyre, XX, i.

(٧٨) William of Tyre, loc. cit.

لما وصل وليم الصورى إلى العاصمة البيزنطية علم أن الإمبراطور كان على رأس حملة لتأديب الصرب . ولما كان رئيس الأساقفة شديد الرغبة فى إنفاذ مهمته على أسرع وجه سافر إلى بيتوليا (موناستير) حيث استقبله الإمبراطور بالترحاب . وفى هذا اللقاء وقعت معاهدة بين الطرفين تعهد عمانويل بمقتضاها التعاون مع الملك عمورى فى حملة ضد مصر فى العام التالى من اللقاء ، مقابل تسليمه نصف ما قد يقع من غنائم فى أيديهم .

ولما عاد وليم الصورى إلى أورشليم اكتشف أن الملك عمورى قد رحل على رأس حملة إلى مصر[٧٩] .

هذا فى حين أن عمانويل كومنين أمضى شتاء ١١٦٩ يشرف على تجهيز أسطول لنقل الكتائب البيزنطية التى كانت ستشارك عمورى فى حملته المتفق عليها . وعين الإمبراطور كبير الأدواق الكسيوس كونتستيفانوس قائداً عامًّا للحملة ، يعاونه فى ذلك اسكندر من جرافينا وثيودور ماروزوميس . وكان الأسطول البيزنطى يتألف من ٢١٠ قطعة حربية وناقلة للجند[٨٠] .

وفى العاشر من يوليو ١١٦٩ أبحر الجزء الأكبر من الأسطول إلى جزيرة قبرص ، بينما أبحرت ستون ناقلة إلى الأرض المقدسة ليعلن قائدها ماروزوميس عن نبأ وصول الحملة إلى قبرص ، وكذا لينقل الفرسان الفرنجة الذين اتفق على سفرهم على الناقلات البيزنطية[٨١] . على أن القائد العام للحملة الذى كان منتظراً برجاله وسفنه فى جزيرة قبرص لم يتلق ردًّا من ملك بيت المقدس ، فقرر الإبحار إلى الأرض المقدسة لتقصى الأمر بنفسه . وقد ذهل كونتستيفانوس عندما اكتشف أن عمورى لم يتم أية استعدادات توحى بأنه راغب فى الاشتراك مع بيزنطة فى هذه الحملة . وأمام هذا الواقع اضطر عمورى إلى أن ينجز ترتيباته على أسرع وجه للمشاركة فى الحملة .

---

(٧٩) William of Tyre, XX, iv.

(٨٠) Dandolo, Chronicon, in Muratori, R.I.SS., XII, p. 291.

(٨١) Choniates, V, iv, p. 208.

فى ٢٥ أكتوبر ١١٦٩ وصلت القوات البرية إلى الفرما ، حيث التقت بالأسطول البيزنطى الذى نقلها عبر الفرع الشرقى لنهر النيل . وتقدمت بعض الفرق بحراً على الضفة الغربية لنفس الفرع قبالة دمياط ، التى وصلوها فى ٢٧ أكتوبر وأقاموا معسكراتهم . وبعد ثلاثة أيام وصل الأسطول ، ولكن تعذر عليه دخول ميناء المدينة بسبب السلاسل الضخمة التى كانت تربط بين برجين كبيرين على الجانبين (٨٢) .

كان أمر حكومة مصر فى ذلك الوقت موكولا إلى صلاح الدين الأيوبى ، نائب نور الدين ، ووزير الخليفة الفاطمى فى آن واحد . وحينما بدأ الفرنجة والبيزنطيون حصارهم لمدينة دمياط ، وفدت للمدينة تعزيزات ومؤن من قبل صلاح الدين ، لمواجهة هذا العدوان المشترك . كما قاوم أهل المدينة هذا الهجوم مقاومة مشرفة ، وقتلوا عدداً وافراً من المعتدين (٨٣) . وسرعان ما نفذت مؤن الجيش البيزنطى ، فى حين كانت لدى اللاتين كميات باقية . وعندما طلب البيزنطيون من حلفائهم بعض المؤن عرضوا بيعها لهم بأسعار خيالية . ولما اشتد بهم الجوع ، وازداد عنف المقاومة بدأ الكثير من الجند البيزنطيين يفكر فى الهروب . وازداد الأمر سوءاً عندما راجت إشاعة مؤداها أن الملك عمورى قد اتفق سراً مع صلاح الدين ، دون مشاورة مع السلطات البيزنطية . ويشير — هنا — نيكيتاس كونياتس إلى الفرقة التى حلت بين الحليفين ، مذكراً القارئ بقصة الأخوين بروميتيوس وأبيميثيوس ؛ من أعمال هزيود (٨٤) . هذا فى حين أن وليم الصورى (٨٥) يؤنب الجانب البيزنطى لأن السلطات البيزنطية — فى رأيه — قد فشلت فى تحقيق التزامها فى تزويد

---

(٨٢) William of Tyre, XX, xv.

(٨٣) See Beha ed - Din - Life of Salah ed-Din, II, v; Ibn al - Athir, Kamel el-Tawarikh, p. 567.

(٨٤) Choniates, V, vi, p. 214.

(٨٥) William of Tyre, XX, xvii.

الحملة بمال وبمؤن كافية . كما وأن نفس المصدر يعتذر لبنى جلدته فى موقفهم هذا بأنه كان يتحتم عليهم اختزان الفائض من طعامهم لغد غير مأمونة عواقبة (٨٦) .

جاءت الأنباء إلى معسكر المعتدين بأن أعداداً وفيرة من الجند المسلمين كانوا فى طريقهم إلى دمياط لنجدة إخوانهم ضد الفرنجة والبيزنطيين . وما إن بدأ البيزنطيون هجومهم على المدينة حتى ظهر عمورى على ظهر جواده بين القادة البيزنطيين يطلب منهم وقف القتال ، معلناً لهم أن مفاوضاته مع الجانب المصرى قد أسفرت عن تسليم المدينة إليه (٨٧) . وأغلب الظن أن الملك عمورى تلقى أنباءاً من أورشليم تفيد بأن نور الدين قد شدد هجماته على مملكة بيت المقدس ، مما اضطره إلى وقف القتال والإسراع فى العودة للدفاع عن أراضيه . على أنه قد اتخذ هذا القرار دون الرجوع إلى حليفه كونتستيفانوس ، وأمام هذا بدأ البيزنطيون رفع حصارهم عن المدينة استعداداً للانسحاب . وقد تخلص الكثيرون من أسلحتهم بأن أشعلوا فيها النيران ، تخفيفاً للعبء فى رحلة العودة (ديسمبر ١١٦٩) . واستقلت غالبية جند كونتستيفانوس سفن الأسطول ، بينما تخلف هو بست سفن فقط . وقد وقعت سلسلة من النكبات نلأسطول البيزنطى فى البحر الأبيض المتوسط ، إذ حطمت العواصف عدداً من السفن (٨٨). أما عن كونتستيفانوس فقد رافق ملك بيت المقدس إلى عسقلان ، ومنها عاد إلى القسطنطينية .

عندما عاد عمورى إلى أورشليم اكتشف أن الخسائر التى تكبدتها مملكته من جراء إغارات نور الدين أثناء تغيبه ثلاثة وخمسين يوماً فى حملته على دمياط كانت فادحة . ونظر ملك بيت المقدس من حوله فأيقن أن إمارته باتت عرضة لحصار من الشمال على يد نور الدين ومن الجنوب من جانب

---

(٨٦) Ibid.

(٨٧) Choniates, V, vii, p. 217.

(٨٨) William of Tyre, XX, xvii.

نائبه صلاح الدين فى مصر . كما أدرك عمورى أن لا تعزيزات يرجى وصولها فى القريب العاجل من غرب أوربا . وهنا قرر الملك مرة أخرى طلب العون من الإمبراطور البيزنطى(٨٩) .

قرر عمورى القيام بزيارة رسمية للعاصمة البيزنطية لمقابلة البازيليوس . فأرسل فيليب من نابلوز مقدم الداوية ليعلن عن مقدم سيده . وفى العاشر من مارس ١١٧١ أبحر ملك بيت المقدس من عكا ، يرافقه وليم الصورى ، وجيرموند من طبرية ، ويوحنا من أسور ، وجيرارد من پوجى ، ورايموند من نفرين(٩٠) .

رست السفن المقلة لعمورى وحاشيته عند جاليپولى حيث كان فى استقباله حموه يوحنا كومنين على رأس بعض الفرق البيزنطية لمرافقة الضيف المرموق إلى أرجلى ثم منها إلى المرسى الخاص بالإمبراطور فى بوصوليون . وكان رجالات البلاط فى استقبال عمورى هناك، ثم رافقوه إلى القصر الإمبراطورى حيث استقبله عمانويل كومنين فى قاعة العرش . وقد احتفى الإمبراطور بضيفه وحاشيته وأقام المآدب الفاخرة تكريماً لهم وسمح لهم بمشاهدة آثار الآلام المقدسة [وهى جزء من صليب الصلبوت ، المسامير ، الحربة المقدسة ، قطعة الإسفنج التى قدم بها اليهود خلا بدلا من الخمر للمسيح المصلوب ، ثم إكليل الشوك](٩١) .

أظهر عمانويل كومنين عطفه على قضية ملك بيت المقدس ووعده بالمعاونة ضد أعداءه ، ثم أبرمت معاهدة بين الطرفين (١١٧١) تعهد فيها الإمبراطور بمساعدة الملك ضد نور الدين وصلاح الدين . هذا

---

(٨٩) Ibid., XX, xxii.

(٩٠) Ibid.

(٩١) F de Mély; 'La Croix des Premiers Croisés', in Supplementary Vol. to P. Riant, Exuviae Sacrae Constantinopolitanae, Paris, 1904, III, pp. 39 - 172.

ويروى كناموس أن عمورى قبل ، فى مقابل هذا ، أن يصبح « رجل الإمبراطور » أى تابعه الإقطاعى(٩٢) . ويؤيد قول كناموس هذا ذاك النص المنقوش فى كنيسة بيت لحم ، الذى يرجع تاريخه إلى عام ١١٦٩ ، والذى يعترف فيه عمورى بعمانويل كومنين سيداً له(٩٣) .

فى عام ١١٧٤ اتفق وليم الثانى ملك صقلية مع عمورى ملك بيت المقدس على قيادة حملة مشتركة بينهما ضد مصر . ولما علم عمانويل كومنين بأمر هذا الاتفاق رأى فيه خرقاً للمعاهدة المبرمة بينه وبين عمورى فى عام ١١٧١ . ولذا فقد أبلغ الإمبراطور البيزنطى صلاح الدين الأيوبى بأنباء تحركات الحملة النورماندية أولا بأول . وفى ١١ يوليو ١١٧٤ توفى عمورى تاركاً النورمان ليمضوا فى حملتهم بمفردهم(٩٤) .

جدد ملك بيت المقدس الجديد ، بلدوين الرابع ، معاهدة ١١٧١ مع بيزنطة ، كما اتفق مع عمانويل كومنين على قيادة حملة مشتركة ضد مصر . ولكن هذه الحملة لم تتم بسبب تعثر المحادثات بين الطرفين .

فى السنى الأخيرة من حكمه أظهر عمانويل كومنين عطفاً بالغاً على اللاتين فى الشام : فعندما وقع الكونت هنرى من شامبـــانى أسيراً فى يد أتراك آسيا الصغرى افتداه الإمبراطور بمبلغ كبير من المال(٩٥) . وفى نهاية عام ١١٧٩ ، كان وليم الصورى عائداً إلى الأرض المقدسة بعد مشاركته فى المجمع اللاتيرانى الثالث بروما ، فتوقف فى القسطنطينية لمدة سبعة أشهر وهناك أكرم عمانويل وفادته كما تبرع له بهبات قيمة لكنيسة صور . كذلك دعى رئيس الأساقفة هذا فى الحفلين اللذين أقيما ابتهاجاً بزواج ابن الإمبراطور وابنته (الكسيوس وماريا)(٩٦) . وفى عام ١١٨٠ أوفد

---

(٩٢) Kinnamos, VI, x, p. 28.

(٩٣) See M. de Vogue, Les Eglises de la Terre Sainte, Paris, 1860, p. 99.

(٩٤) F. Chalandon, Histoire de la Domination Normande, II, p. 395.

(٩٥) R.H.G., Vol. XVIII, p. 249.

(٩٦) Wiliam of Tyre, XXII, iv.

ملك بيت المقدس السنكال جوسلين ليطلب عون القوات البيزنطية لمملكته ضد أعدائها ، وقد أقام السفير فى العاصمة البيزنطية حتى بعد وفاة عمانويل كومنين فى نفس العام(٩٧) .

وقد كتب وليم الصورى الكثير عن صفات عمانويل الحسنة وعن تسامحه وكرمه الزائد ، كما أوضح أن ذكرى هذا البازيليوس ستظل تتلى فى كنيسة القديسين فى مدينة صور بسبب هباته الكثيرة لها(٩٨) .

(٩٧) Ibid., XXII, v.

(٩٨) Ibid., XVI, xxviii; XVII, xvii; XVIII, xvi; XX, xxii; XXI, xii.

الفصل التاسع

العلاقات السياسية بين بيزنطة وغرب أوروبا

من ١١٤٧ إلى ١١٨٠

فى الوقت الذى كانت فيه بيزنطة مهددة بجيوش الحملة الصليبية الثانية ، نكبت بغزو غربى آخر من جانب النورمان . فقد سبق أن ذكرنا أن روجر الثانى الصقلى قد حاول فى مجلس ايتامب أن يقنع الملك لويس السابع بالسفر بصليبيته عن طريق صقلية . وكان هدف روجر من هذا بسط نفوذه على أمور الإمارات اللاتينية فى الشرق ، حيث يمكنه مضايقة السلطات البيزنطية بصورة مباشرة . على أن نفوذ الإمبراطور الألمانى كونراد الثالث قد حطم مخطط روجر الثانى فى السيطرة على صليبية ١١٤٧ .

ومع أن خطة روجر قد باءت بالفشل ، إلا أنه استغل فرصة تغيب كونراد الثالث من غرب أوروبا وراح يقلم أظافر الإمبراطورية البيزنطية بالتحرش بحدودها الغربية . وجاء الصدام الذى وقع بين عمانويل كومنين وكونراد الثالث أثناء عبور حملته للأراضى البيزنطية ليزيد من فرص روجر الثانى فى تشديد ضرباته للأراضى البيزنطية . ففى النصف الثانى من عام ١١٤٧ تحرك الأسطول النورماندى من أوترانتو إلى جزيرة كورفو واستولى عليها [١]. ثم سقطت فى يده بعد ذلك مدائن مثنا ، وموممفيسيا ، ونوبليا ، كما نهبت قواته يوبيا ونجروبونت وآثينا . كذلك وقع تحت طائلة يده جزيرة سيريجو ، ورأس ماليا ومنطقة سيرفى . أما مدينة طيبة فقد دمرت عن كاملها ثم سيقت نسوتها أسيرات للحرب إلى مدينة بالرمو بصقلية لتعليم

---

(١) Nicetas Choniates, II, i, p. 97; Kinnamos, III, ii, p. 92; Otto of Freising, Gesta, I, xxxiii.

أهلها صناعة الحرير التى اشتهرن بها . كذلك نهبت كورنثة واستولى النورمان على رفات القديس ثيودور ونقلوها إلى جزيرة كورفو . وبعد هذه القرصنة عاد الأسطول المنورماندى محملا بالأسلاب والأسرى إلى جزيرة صقلية [٢] .

كان هذا التحدى النورماندى السافر لأراضى بيزنطة مدعاة لأن يطلب عمانويل كومنين من لويس السابع ثم من كونراد الثالث معاونتهما ضد روجر الثانى ، ولكنهما رفضا المعاونة . ولذا فقد عقد عمانويل صلحاً مع سلطان قونية ليؤمن حدوده فى آسيا الصغرى أثناء كفاحه ضد روجر الصقلى . كذلك فتح عمانويل باب المفاوضات مع جمهورية البندقية ، التى باتت مصالحها التجارية فى الأدرياتى مهددة أمام النفوذ المتزايد للنورمان فى تلك المنطقة . ولقد منح عمانويل كومنين جمهورية سان مارك امتيازات تجارية طائلة فى قبرص ورودس كما خصص لها مرسى بحرياً رابعا فى ميناء القسطنطينية ، وذلك فى مقابل وضع أسطولها فى خدمته وتطوع البنادقة المقيمين فى الإمبراطورية للحرب ضد النورمان .

جهز البازيليوس جيشاً ضخماً وأسطولا لمقاتلة « تنين الغرب ، عدو المسيحية الأكبر ، الذى يحكم صقلية اغتصابا » [٣] . ولقد باركت الكنيسة البيزنطية حملة عمانويل هذه ضد « آماليك » [٤] . ولحق أسطول جمهورية البندقية بالأسطول البيزنطى عند اسكى — ساجرا . وهناك التقى عمانويل بالإمبراطور كونراد الثالث أثناء عودته من عكا ، وتوجه العاهلان سويا إلى القسطنطينية ؛ حيث أمضى الضيف الألمانى أعياد ميلاد ١١٤٨ مع عمانويل كومنين ، وحيث شارك فى حفل زواج هنرى دوق النمسا من الأميرة البيزنطية ثيودورة . كذلك ناقش الطرفان مشروع زواج ابن كونراد

(٢) Otto of Freising, loc. cit.

(٣) Choniates, II, ii, pp. 102-103.

(٤) Ibid.

الثالث من إحدى أميرات البيت المالك فى بيزنطة . ولعل أهم ما تم إبرام معاهدة بين الطرفين ، تعهد فيها كونراد الثالث بقيادة حملة لتأديب روجر الثانى فى عام ١١٤٩ ، كما وعد ، فى حالة سقوط آبوليا وكلابريا فى يده ، أن يقدمهما هدية لشقيقه زوجه ، برتا ، زوج عمانويل كومنين .(٥) ثم غادر كونراد العاصمة البيزنطية فى فبراير ١١٤٩ عائداً إلى ألمانيا .

فى خلال ذلك الوقت حاصر الأسطولان البيزنطى والبندقى جزيرة كورفو لمدة ثلاثة أشهر دون نجاح . ثم نشب نزاع بين البنادقة والبيزنطيين كان من نتيجته أن أشعل البنادقة النيران فى السفن البيزنطية(٦) . واضطر هذا الإمبراطور إلى أن يتدخل بذاته لفض النزاع بين الطرفين ، ثم أقنع البنادقة بضرورة مشاركتهم مرة أخرى فى حصار كورفو . غير أن النورمان قاوموا هذا الحصار فى إصرار وعنف وقتلوا الكثير من جند القوتين المتحالفتين .

فى هذه المرحلة من الصراع كان الملك لويس السابع مبحراً من الأرض المقدسة إلى فرنسا ، فلما قابل قطع الأسطول النورماندى آثر الانتقال على ظهر إحداها . وقد حدث أن هاجم البيزنطيون السفينة المقلة لبعض رجال الملك ومتاعه واستولوا عليها . غير أن عمانويل كومنين أصدر أوامره بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين وإعادة أمتعة الملك إليه فوراً .

أراد روجر الثانى أن يستغل هذا الحادث ليظهر حرصه على الانتقام لشرف الملك من السلطات البيزنطية ، فأرسل جزءا من أسطوله لمهاجمة القسطنطينية . وقد نجح النورمان بالفعل فى الحصول على غنائم وفيرة من البيوتات الساحلية على البسفور ، كما وأنهم أمطروا القصر الإمبراطورى بوابل من السهام . وفى صيف ١١٤٩ فتح أحد الخونة من النورمان ، واسمه ثيودور ، بوابات مدينة كورفو للجيش البيزنطى فتم لهم الاستيلاء

---

(٥) Kinnamos, IV, i, p. 134.

(٦) Ibid., III, v, p. 98.

عليها [٧] . بعد هذا يمم عمانويل كومنين شطر آفلونا بقصد محاربة روجر الثانى فى إيطاليا ، ولكن سوء الأحوال الجوية حال دون ذلك . ولقد علم الإمبراطور آنذاك بثورة الصرب ضد الإمبراطورية فأسرع عائداً لقمعها ، تاركاً أمر القيادة إلى اكزوش . ولكن هذا اكتشف أن البنادقة باتوا يتآمرون ضد القوات البيزنطية فقرر العودة بقواته إلى العاصمة فى شتاء ١١٥٠ [٨] .

اندلعت ثورة الصرب بوحى من روجر الثانى الذى كان قد بذل مالا وفيراً للهنغار والصرب للتمرد ضد عمانويل كومنين ؛ بغية تحويل أنظاره عن حملته ضد إيطاليا . وفى نفس الوقت استمال روجر الثانى الدوق ولف شقيق هنرى المتكبر إلى جانبه . ولقد عمد ولف إلى تأليف عصبة من الأمراء الألمان أجبروا كونراد الثالث على التراجع عن قيادة حملة ضد روجر الثانى.

ولم يكتف روجر بهذا وإنما بدأ يروج فى دوائر غرب أوربا الكنسيه السياسية أن الفشل الذى أصاب الحملة الصليبية الثانية كان من فعل الخيانة البيزنطية ، وأن آل كومنين قد غدروا بقضية المسيحية .

كانت البابوية أول من تلقف هذه الدعاية وتحمس لها : فإلى جانب كراهيتها الدفينة لبيزنطة وبطريركيتها المنشقة ، كانت تنظر إلى علاقات المودة بين عمانويل كومنين وكونراد الثالث فى قلق زائد . إذ فسر البابا ذاك الحلف المبرم بين الألمان والبيزنطيين على أنه تهديد مباشر لنفوذه فى غرب أوربا بشكل عام وفى إيطاليا بصفة خاصة . وشارك البابا فى رأيه لويس السابع ملك فرنسا ، الذى كانت لديه من الدواعى ما يجعله يكره كلا من عمانويل كومنين وكونراد الثالث . ولقد صدم الرأى العام فى فرنسا عندما جاءت أنباء المهانة التى لحقت بملكتهم ومايكهم فى البحر على يد الأسطول

(٧) Choniates, II, v, pp. 117 - 18.

(٨) Kinnamos, III, ix, p. 113.

البيزنطى أثناء عودتهما من الحملة الفاشلة ، التى كانت — فى رأيهم — ضحية للخيانة البيزنطية .

تقابل لويس السابع مع روجر الثانى فى بوتنزا حيث ناقشا مشروع إقامة حلف أوربى ضد الإمبراطورية البيزنطية . كذلك أوحى روجر إلى الدوق ولف أن يبحث هذا المشروع مع سينسيو فرانجيبانى ، زعيم الحزب البابوى فى روما ، وذلك عندما دارت بينهما المحادثات . وأهم من هذا وذاك أن لويس السابع عرض الأمر نفسه على البابا يوجينيوس الثالث عند لقاءه به فى مدينة تيفولى ، وذلك قبل عودته إلى فرنسا .

كان يوجينيوس الثالث شديد الريبة فى الحلف القائم بين عمانويل كومنين وكونراد الثالث . والحق أن كونراد راح يتحدث علانية عن حاتمية صهره البيزنطى وشهامته واهتمامه البالغ به عندما كان ضيفا معتل الصحة عليه فى عاصمته (٩) . ولذا نجد البابا يوجينيوس الثالث ، فى رسالته إلى كونراد معزياً إياه فيها على النهاية المشئومة التى لقيتها الحملة الصليبية الثانية ، يذكره بالتزاماته كإمبراطور للرومان — تجاه الكنيسة الرومانية الأم ، حاثًا إياه على توثيق أواصر المحبة معها بدلا من العمل ضدها (١٠) .

هذا ، ولقد كان من خلصاء عمانويل كومنين فى ألمانيا أيضاً مقدم دير ستافيلوت ، وهو ويبالد . ولقد دأب ويبالد على تقوية عرى المحبة والمودة بين سيده كونراد الثالث وبين صديقه عمانويل كومنين . غير أن البابا ومجلس كرادلته استشاطوا غضباً من موقف هذا الزعيم الدينى الألمانى ، ولذا فقد كتب إليه الكردينال جيدو — المستشار البابوى — يطلب منه إعلام كونراد أن البابوية هى التى قامت بحماية ابنه هنرى من أى أذى أثناء غيابه فى الحملة الصليبية ، وأنه على هذا لا يحسن به أن يبدى نكراناً

---

(٩) P. Jaffé, Bibliotheca Rerum Germanicarum, Vol. I, p. 152.

(١٠) Ibid., p. 304, an. 1149, Jun. 23.

للجميل فى إبرام أحلاف بينه وبين القسطنطينية ضد مصالح كنيسة روما[١١].

على أن صيحات جيدو وسيده يوجينيوس الثالث لم تلق أذناً صاغية فى البلاط الألمانى. وعليه فقد حدث تقارب سياسى بين البابوية وروجر الثانى الصقلى. غير أن هذا الاتجاه البابوى الجديد أغضب مجلس السناتو فى روما والحزب الجمهورى بزعامة آرنولد من بريشيا. وبدأ الصراع يحتدم بين الحزب البابوى، الذى احتمى فى قلعتهفى توسكيلو، وبين أهل مدينة روما. وهنا استنجد السيناتو والأهلون بكونراد الثالث — « إمبراطور الرومان وسيد العالم » —؛ طالبين منه الهجوم على إيطاليا لتأديب البابا وحليفه روجر الصقلى. ولقد ذكر أصحاب الرسالة الإمبراطور كونراد بالدسائس والمؤامرات التى كادها البابوات السابقون للايقاع بالأباطرة الألمان من أسلافه. وبعد هذا كشفت الرسالة عن طبيعة المعاهدة المبرمة بين البابا يوجينيوس الثالث وروجر الصقلى: فقد وافق البابا على الاعتراف بأحقية روجر فى الأراضى التى استولى عليها جنوب إيطاليا مقابل مبلغ ضخم من المال يدفع سنوياً للخزانة البابوية. وفى نهاية الرسالة استنجاد بكونراد بأن يشهر سيفه ليرد ما لقيصر لقيصر؛ « مثلما فعل من قبل جستينيان، وحسبما أوصى السيد المسيح »[١٢].

كذلك تلقى كونراد الثالث رسالة أخرى من مجلس السيناتو الرومانى يرجوه فيها القدوم إلى روما ليحكم بنيهم وبين البابا يوجينيوس الثالث حسبما جرت العادة على عهد أسلافه حتى جاء البابا جريجورى السابع وخرق هذا التقليد. كذلك جاء فى الرسالة أن البابا يوجينيوس الثالث، بدلا من التبشير بالسلام والرحمة كما ينبغى عليه، قد انصرف كلية إلى تدبير جرائم القتل والإرهاب[١٣].

تعقدت الأمور على المسرح السياسى فى غرب أوربا ووصلت قمة التأزم فى عام ١١٤٩ — ١١٥٠؛ إذ حفل هذا العام بمناورات سياسية

(١١) Ibid., p. 316.

(١٢) Ibid., p. 316.

(١٣) Wibaid, ep. CCXVI.

ودبلوماسية من جانب روجر الثانى من ناحية ، ومن جانب عمانويل كومنين من ناحية أخرى . والحق أن جهود روجر الدعائية العدائية تجاه بيزنطة آتت أكلها فى مختلف الدوائر الكنسية الفرنجية . فمن بين الذين تحمسوا لمشروعه ضد بيزنطة شوجير من سانت دينيس ، وبطرس الوقور ، ثم برنارد دى كليرڤوه . ففى رسالة موجهة من بطرس الوقور إلى روجر الصقلى ، نجد الزعيم الكلونى يعبر عن حب وإعجاب بالغين للملك صقلية ، كما وأنه يعلمه بمدى الحزن الذى يكابده هو ورفاقه أبناء دير كلونى من جراء ذاك الخصام الواقع بين عاهل صقلية وكونراد الثالث . ثم يبدى الكاتب استعداده للوساطة بينهما من أجل إقرار السلام بين البلاطين . بعد هذا يتعرض بطرس الوقور إلى تحديد أعداء المسيحية ، فيؤكد أن البيزنطيين والسراكنة هم الخطر الحقيقى عليها . كما يشير نفس المصدر إلى « ملك » البيزنطيين على أنه « تافه ودنىء » لأنه خان قضية « حجاج » الصليبية الثانية . ويهيب الكاتب فى نهاية الأمر بروجر أن يعقد صلحاً مع كونراد الثالث للتفرغ لتأديب أعداء الله السابق ذكرهم (١٤) .

أما القديس برنارد دى كليرڤوه فكان يشارك بنى جلدته فى الرغبة فى الانتقام من البيزنطيين لخيانتهم الصليبية ١١٤٧ . ولذا فإنه بداية من أبريل ١١٥٠ نشطت الاجتماعات والمجالس فى شارترز ولاون لمناقشة مشروع حملة صليبية ضد بيزنطة . وقد رأس لويس السابع مجلس لاون الذى قرر الائتناس برأى البابا فى هذا الأمر الهام . ورد البابا بأن فوض لويس السابع باتخاذ القرار الذى يراه صالحا . غير أن هذا الموقف السلبى من جانب البابا يوجينيوس الثالث أغضب عليه معلمه برنارد دى كليرفوه ؛ فكتب له يقول « بواسطة من إذن يسلط سيفا القديس بطرس للانتقام إن لم يكن بيدك أنت ؟ » (١٥) كذلك كتب القديس برنارد دى كليرفوه

(١٤) Peter the Venerable, ep. XVI, in P.L., Vol. CLXXXIX, col. 424.

(١٥) St. Bernard de Clairvaux, ep. CCLVI, in Opera Omnia, I, cols. 538 - 40.

إلى روجر الثانى يمتدح كرمه وغيرته على قضية المسيحية . وكان روجر قد كتب إلى القديس يطلب منه إيفاد عدد من الرهبان من طائفته الديرانية إلى صقلية . ولبى برنارد طلب العاهل الصقلى ، وبعد أن أتته أخبار حفاوته بهؤلاء النساك أرسل يشيد بشخصه وبغيرته على المسيحية (١٦) .

كذلك كان شوجير زعيم سانت دينيس ناقماً على بيزنطة وإمبراطورها فأيد مشروع حملة صليبية ضد الإمبراطورية الممقوتة ، كما كاتب روجر الثانى فى هذا الأمر (١٧) .

كان عمانويل كومنين مدركاً تماماً أن صقلية وفرنسا والبابوية وسائر البيوتات الديرانية فى غرب أوربا قد عقدوا النية على إيذاء بيزنطة . ولم يقف العاهل البيزنطى مكتوف الأيدى أمام هذه التحركات الدبلوماسية النشطة فى الغرب ، فراح يعقد المعاهدات والأحلاف مع القوى المجاورة له بقصد مجابهة العدوان الجماعى المرتقب من دول وكنيسة الغرب اللاتينى . وفى عام ١١٤٩ وقع معاهدة مع جمهوريتى بيزا وجنوة اتفق فيها على ضرب حصار حول صقلية فى حوض البحر المتوسط غربيه وشرقيه (١٨) .

كذلك واصل عمانويل كومنين مكاتبة أصدقائه فى غرب أوربا وعلى رأسهم ويبالد مقدم دير ستافيلوت . والحق أن هذا الزعيم الدينى الألمانى هو الذى حذر عمانويل من دسائس روجر الثانى : ففى رسالة له مؤرخة بابريل ١١٥٠ يصف روجر الثانى بأنه العدو المشترك لبيزنطة وألمانيا وأيضاً لويبالد شخصيا ؛ فلقد طرد روجر ويبالد هذا من ديره فى مونت كاسينو ، ولذا نجده ينعته بنعوت من قبيل « الطاغية » و « عدو الله » (١٩) .

غير أن موقف ويبالد هذا أزعج البابا والكيوريا الذين راحوا يكيلون

(١٦) St. Bernard de Clairvaux, ep. CCIX.

(١٧) Vita Sugerii, in R.H.G., Vol. XX, pp. 110, 495.

(١٨) Codice Diplomatico della Citta di Genova, a cura di G. Imperiale, I, Rome, 1936, n. 195.

(١٩) Wibald, ep. CCXXIV.

له الإيلام والتقريع مع اتهامه بخيانة « أمه » : كنيسة روما . ولذا نجده فى رسالة إلى المستشار البابوى جيدو يعلن بأنه لامبرر بعد لانزعاج السيد البابا والسادة الكرادلة لأنه عازم — تلبية لأوامرهم — على المباعدة بين سيده كونراد الثالث و بين عمانويل كومنين (٢٠) .

فى شتاء ١١٥٠ أوفد الإمبراطور البيزنطى مندوبه ميخائيل بارداليا ليحث كونراد الثالث على قيادة حملة ضد روجر الصقلى. ورداً على هذه البعثة كتب الإمبراطور الألمانى إلى عمانويل معبراً عن اعتذراه الشديد لتأخره فى الهجوم على جنوب إيطاليا لتقليم أظافر ملك صقلية ، بسبب اعتلال الصحة ونتيجة للاضطرابات الداخلية فى ألمانيا . أما وقد نجح فى قمع تمرد الدوق ولف (٨ فبراير ١١٥٠) ، وقد من الله عليه بالشفاء فإنه عازم على تحقيق ماسبق ووعد به فى هذا الصدد (٢١) .

كذلك كتب كونراد إلى الإمبراطورة برتا ، شقيقة زرجه وقرينة عمانويل كومنين ، معبراً مرة أخرى عن أسفه للتأخر فى قيادة الحملة التى كان قد وعد بها زوجها ضد ملك صقلية ، بسبب اعتلال صحته . كما زف إليها أنباء انتصاره الساحق على عدوه ولف ، الذى كان قد تلقى معونة مالية من « الطاغية الصقلى » لتدبير حركة التمرد داخل ألمانيا ؛ وبعد هذا كشف كونراد النقاب عن مشروع روجر الثانى والملك لويس السابع ضد الإمبراطورية البيزنطية ؛ ولكنه (كونراد) أوضح أنه واقف لهما بالمرصاد حتى يسحق مؤامراتهما الدنيئة (٢٢) .

وفجأة حدث تحول عجيب فى الدبلوماسية الغربية : فبعد أن أنهى البابا يوجينيوس الثالث مقابلته مع روجر الثانى فى مدينة سبرانو ، أيقن أن مطامع هذا النورماندى الجبار لن تعرف حدوداً . وجاء تتويج روجر

---

(٢٠) Ibid., ep. CCXXV.

(٢١) Ibid., ep. CLXXXVII.

(٢٢) bid., ep. CLXXXVIII,

لابنه دون حتى مشاورة البابا فى هذا الأمر ليؤكد مخاوف البابا من ملوك صقلية . ولذ فقد سارع يوجينيوس الثالث فى إصدار أوامره إلى مستشاره جيدو ليخاطب القديس برنارد دى كليرفوه وبطوس الوقور ويحثهما على التخلى عن وساطتهما فى إقرار صلح بين روجر وكونراد الثالث (٢٣) .

كذلك كتب كونراد الثالث إلى محافظ مدينة روما والقناصل وإلى «كافة الشعب الرومانى» معلنا عن عزمه فى القدوم إلى إيطاليا لإعادة السلام والأمن إلى المدينة وشبه الجزيرة . (٢٤) غير أن ابنه هنرى توفى فجأة ، ولذا فقد كتب إلى القسطنطينية ليعلم عمانويل كومنين بهذا ، كما طلب ترشيح أميرة بيزنطية للزواج منه (٢٥) .

كان البابا يوجينيوس الثالث فى موقف لايحسد عليه : فمن ناحية راقب ازدياد نفوذ روجر الثانى فى قلق زائد ، ومن ناحية أخرى جاءته الأنباء بقرب وصول كونراد الثالث على رأس حملة إلى مدينة روما . أمام هذا طلب البابا من ويبالد أن يتوسط فى إقرار صلح بينه وبين الإمبراطور الألمانى . ونجح ويبالد فى المهمة التى وكلت إليه ، وأقنع سيده بإيفاد سفارة للتفاوض مع البابا لإقرار الصلح بينهما ، وذلك فى ربيع عام ١١٥٠ .(٢٦)

ما من شك أن الصداقة المتينة التى كانت تربط بين كونراد الثالث وعمانويل كومنين كانت العامل الرئيسى فى إحباط المشروع الصليبى الذى خطط له روجر الثانى ولويس السابع ضد بيزنطة . ولما راح القديس برنارد دى كليرفوه ، من جديد ، ليغرى كونراد على حمل الصليب مرة أخرى تعمد الإمبراطور الألمانى تجاهل آراء القديس السياسية . كما أن كونراد لم

---

(٢٣) See Lamma, op. cit., p. 111.

(٢٤) Wibald, ep. CCCXLV.

(٢٥) Ibid., ep. CCCCXI.

(٢٦) Ibid., ep. CCXLII.

يخف غضبه بسبب المودة الزائدة التى كان القديس ورجال ديره يبدونها للملك صقلية . وبينما كان عمانويل كومنين يترقب لحظة انقضاض حليفه الألمانى على جنوب إيطاليا لتقليم أظافر روجر ، فجع بخبر وفاة كونراد الثالث المباغتة فى ١٥ فبراير ١١٥٢ . وبموت كونراد الثالث بدأت المانيا تتخذ نهجاً مغايراً تماما تجاه الآمبراطورية البيزنطية .

جلس على عرش ألمانيا بعد وفاة كونراد الثالث فردريك بربروسا (١١٥٢ — ١١٩٠) ، الذى استن قواعد جديدة فى سياسته كامبراطور رومانى . والمطالع للرسالة التى كتبها الأسقف أوتو من فريزنج وكذا للطبعة الثانية لحوليته اللتين أهداهما إلى الإمبراطور الرومانى الجديد يجد صورة مثلى للإمبراطور الرومانى المقدس الذى كان على غرب أوروبا ، علمانيين وإكليروس ، أن يخضعوا له تماماً . (٢٧) كذلك جاءت رسالة بربروسا للبابا يوجينيوس الثالث لتحدد فى حزم أن إقرار العدالة ، وحماية اليتامى والأيامى ، وإعلاء كلمة القانون فى ارجاء الأمبراطورية الرومانية هى جميعا من حق الإمبراطور وحده . ولما أوفد بربروسا سفارة إلى البلاط البابوى برئاسة ادورادو أسقف بامبرج ، طلب من ويبالد تزويد الأسقف برسالة تتفق وروح العزة والكرامة والعلو التى ميزت هنرى الثالث وهنرى الرابع . وكتب ويبالد الرسالة المطلوبة فصور العاهل الألمانى فى إطار أسمى من سائر الأمراء والملوك فى العالم : فهو وحده الإمبراطور والآخرون أمراء « برابرة » (٢٨)

أدرك البابا يوجينيوس على الفور أنه أمام إمبراطور عنيد مهيب الجانب فسارع يطلب الصلح معه ؛ خاصة بعد أن ساءت العلاقات بين الكيوريا وبلاط

---

(٢٧) Otto of Freising, Chronica sive Historia de Duabus Civitatibus, in SS. Rer. Germ., Leipzig, 1912.

(٢٨) Wibald, ep. CCCLXXII.

بالرمو . وفى ٢٣ مارس ١١٥٣ وقع يوجينيوس الثالث وبربروسا اتفاق كونستانس : الذى تعهد فيه الإمبراطور بألا يوقع هدنة أو سلماً مع شعب روما أو مع روجر الثانى دون موافقة البابا أو من يخلفه . كذلك أخذ بربروسا على عاتقه إخضاع شعب روما للسلطان البابوى والحفاظ على شرف البابوية وسلطان القديس بطرس . وتعهد الإمبراطور أيضاً بأن يستأصل شأفة نفوذ البيزنطيين من إيطاليا . أما عن البابا فقد تعهد باحترام شرف الإمبراطور وبتتويجه بذاته ، كما وعد بمقاومة أى تدخل بيزنطى فى شئون إيطاليا بجيشه المؤلف من رجال القديس بطرس(٢٩) .

بعد شهور قلائل من توقيع معاهدة كونستانس وطلاق زوجته آديلا ، كتب بربروسا إلى عمانويل كومنين يخاطبه على أنه « إمبراطور القسطنطينية » ، بينما احتفظ لنفسه دون غيره بلقب « إمبراطور الرومان ، الأغسطس الأمجد ، المتوج من قبل الله » . وفى نفس الرسالة نجد بربروسا يطلب يد إحدى أميرات البيت المالك البيزنطى فى الزواج منه ، كما أنه ألمح بأنه يعد العدة لقيادة حملة ضد أبوليا وصقلية(٣٠) . وكان بربروسا يبغى الزواج من الأميرة ماريا ابنة السباستوكراتور إسحق ، شقيق عمانويل كومنين ، والتى كان قد رآها أثناء زيارته للقسطنطينية فى رفقة كونراد الثالث(٣١) . على أن هذا الاختيار بالذات أزعج عمانويل ؛ إذ رأى فى مصاهرة بربروسا لشقيقه الأكبر — صاحب الحق الشرعى فى التاج — تهديداً مباشراً له . وفى نوفمبر ١١٥٣ أرسل عمانويل سفراءه لعرض مشروع تحالف بينه وبين بربروسا وفق شروط معينة حددها عمانويل . ولقد أغضبت شروط عمانويل الإمبراطور الألمانى إلى حد جعله يطرد السفراء البيزنطيين ويأمرهم بالعودة فوراً إلى عاصمتهم .

(٢٩) P. Jaffé, op. cit., p. 546.

(٣٠) Wibald, ep. CCCLXXXVII.

(٣١) Kinnamos, IV, i, pp. 134 - 35.

ويشير أوتو من ڤريزنج هنا إلى أن عمانويل قد طلب أن يكون له من النفوذ فى إيطاليا نفس القدر الذى يبغيه بربروسا لنفسه فيها[٣٢] . وفى خريف ١١٥٤ أرسل بربروسا أنسلم من هاڤلبرج و إسكندر من جراڤينا لمتابعة المفاوضات مع عمانويل . وفى أثناء رحلتهم إلى القسطنطينية علموا بموت روجر الثانى ملك صقلية[٣٣] .

ما أن توفى روجر الثانى فى ٢٦ فبراير ١١٥٤ حتى اندلعت الثورة فى مملكته وتمرد البارونات ضد خلفه وليم الأول . وكان على رأس المتمردين روبرت من باساڤيلا كونت لوريتللو[٣٤] . ووجد وليم نفسه مهدداً من كل جانب ؛ فلم يقتصر الأمر على تمرد باروناته وإنما كانت هناك أيضاً تحديات الإمبراطورين الألمانى والبيزنطى له . انتهز عمانويل كومنين الفرصة وأرسل قنسطنطين انجيلوس على رأس بعض السفن إلى مومڤاسيا حيث كان عليه الانتظار حتى مجيء بقية الأسطول البيزنطى . وحدث فى تلك الآونة أن كان الأسطول النورماندى عائداً من عملية قرصنة ضد مصر ، قرر إنجيلوس مهاجمة الأسطول النورماندى بما كان تحت يديه من قطع بحرية محدودة ، أملا فى تحقيق نصر يرفع من قدره فى نظر الإمبراطور ، ولكنه هزم هزيمة ساحقة ووقع أسيراً فى يد النورمان .

وفى نفس الوقت قاد فردريك بربروسا حملة على إيطاليا فى ١١٥٤ ؛ ولم يكن فى نيته التعاون مع البيزنطيين ، ولذا فإنه لم يأبه حتى بمجرد إعلام عمانويل كومنين عن خطته . ولذا فقد قرر عمانويل الكفاح فى إيطاليا بقواته دون معاونة من الإمبراطور الألمانى ، فأمر إسكندر من جراڤينا الاتصال بالذين تمردوا ضد وليم من البارونات النورمان . وفى إيطاليا لحق إسكندر

(٣٢) Otto of Freising, Gesta Friderici, III, xx.

(٣٣) Kinnamos, IV, i, p. 134.

(٣٤) Romuald of Salerno, Chronicon, in M.G.H.SS., Vol. XX.

بميخائيل پاليولوغ ويوحنا دوكاس ، وذهبوا جميعاً إلى مدينة انكرنا حيث قابلوا فردريك بربروسا بعد أن تم تتويجه على يد البابا هادريان الرابع (١٨ يونيو ١١٥٤)[٣٤] ، وقدموا له الهدايا الإمبراطورية وعرضوا عليه يد إحدى أميرات البيت المالك فى بيزنطة للزواج منه وفق مطلبه الأسبق .

ولقد كان الإمبراطور الألمانى عازماً على مقاتلة وليم الأول ولكن البارونات الألمان عارضوا هذا وأجبروه على العودة إلى ألمانيا ، تاركاً أصدقاءه من الأمراء النورمان المتمردين وحدهم فى ميدان القتال ضد ملك صقلية الجديد .

جاء موقف بربروسا هذا مخيباً لآمال روبرت لوريتللو ، ولذا أرسل سفراءه لفتح باب المفاوضات مع اسكندر من جراڤينا ويوحنا دوكاس وميخائيل پاليولوغ ؛ القائد العام للقوات البيزنطية المحاربة فى إيطاليا . وبعد قليل تم توقيع معاهدة بين روبرت وپاليولوغ فى مدينة ڤيستى نصت على قيام حلف بين الطرفين من أجل محاربة وليم الأول[٣٦] . والحق أن پاليولوغ أثبت جدارة بالغة فى مهمته فى إيطاليا فاستولى على القلاع والمدن الواحدة تلو الأخرى ، فتجمع من حوله كافة أعداء ملك صقلية أملا فى القضاء على نفوذه فى جنوب إيطاليا تماماً ، وكان على رأس هؤلاء روبرت لوريتللو وشقيقه وليم ، وروبرت من كاپوا ثم أندريا من روپيتشانينا ، وبتأييدهم سقطت مدائن آركا وترانى وبارى فى أيدى القوات البيزنطية تباعاً . وأضحى اسم عمانويل كومنين يدوى فى كل مكان فى الجنوب الإيطالى .

بعد سقوط مدينة پارى فى يد پاليولوغ تشجع البابا وكرادلته وقرروا الدخول فى هذا الصراع المحتدم لاسترجاع الأراضى التى اغتصبها ملوك صقلية من البابوية فى جنوب إيطاليا . وعلى هذا ففى سبتمبر ١١٥٥ زحفت الكتائب البابوية واستولت على بعض من هذه الممتلكات[٣٧] . كذلك اتصل البابا هادريان الرابع بالقائد العام البيزنطى وأعلمه أنه على استعداد للحرب هو

(٣٥) Kinnamos, IV. i, p. 135, Choniates, II, vi, p. 210.

(٣٦) Kinnamos, IV, i, p. 135, F. Ughelli. Italia Sacra, XX, p. 363.

(٣٧) Liber Pontificalis, Vol. II, p. 393.

ورجاله فى صف بيزنطة ضد ملك صقلية بغية استرداد بينفنتم وكامپانا[٣٨]. واتفق الطرفان وزود پاليولوغ البابا بالمال الذى طلبه لإعداد المرتزقة للخدمة فى جيشه ، كما أحاط نفسه بالأمراء المتمردين ضد وليم ، وعلى رأسهم روبرت من كاپوا . ودارت الحرب فى شتاء ١١٥٥ – ١١٥٦ بين القوات البابوية وكتائب وليم الأول ، وسيطر رجال البابا على بينيفنتم كما ساعدوا البيزنطيين فى الاستيلاء على برنديزى .

بعد هذا النجاح الرائع الذى حققه پاليولوغ ودوكاس كان منتظراً أن يتسع المد البيزنطى ليضاعف من هيبته فى الجنوب الإيطالى . غير أن العكس تماماً هو الذى حدث . ومرد ذلك هذا الخلاف الذى دب بين القادة البيزنطيين والأمراء النورمان الذين حاربوا فى صفهم ضد وليم الأول . والواقع أن الجنرالين البيزنطيين كانا فى ريبة من أمر روبرت لوريتلاو ، وظنا أنه على اتصال خفى بوليم الأول . ومع أن صلحاً قد تم بين پاليولوغ وروبرت عند مدينة بيتتو ، إلا أن الصفاء لم يعد كما كان فى سابق عهده بين الجانبين . ثم توفى پاليولوغ فجأة وحل محله فى القيادة يوحنا دوكاس . ولعل من العوامل الأخرى التى كانت قد سهلت على البيزنطيين الاستيلاء على ما استولوا عليه ذاك المرض الذى ألم بوليم الأول فى سبتمبر ١١٥٥ . على أنه عوفى فى مطلع عام ١١٥٦ ثم انقض على مركز الثوار فى بيوتيرا واستولى عليها[٣٩] .

وفى مايو من نفس العام رحل وليم عن مسينا على رأس جيش ضخم وفاجأ القوات البيزنطية المرابطة عند برنديزى . وقد شجع قدومه حراس قلعة المدينة المحاصرين على الدفاع عنها ضد الحصار البيزنطى فى بسالة نادرة . وهنا أدرك روبرت لوريتللو أن الكارثة لا محالة واقعة بالبيزنطيين ، فآثر الانسحاب برجاله من وراء الجواد الخاسر وهرب إلى شمال إيطاليا . كذلك انفض بعض الجند المرتزقة من حول يوحنا دوكاس لأنه كان قد أخر صرف

(٣٨) Kinnamos, IV, xiv, p. 171.

(٣٩) F. Chalandon, La Domination Normande, p. 225.

رواتبهم . وجاء الأسطول النورماندى ليؤازر القوات البرية ولضرب حصار محكم حول قوات دوكاس البرية وأسطوله البحرى فى ميناء برنديزى .

وفى ٢٨ مايو ١١٥٦ انقض النورمان على البيزنطيين وفتكوا بهم ، وكانت الهزيمة ماحقة بالفعل ، إذ وقع القائد العام دوكاس ونائبه برينيوس وعدد من الأمراء النورمان المحاربين فى صفهم أسرى فى يد وليم الأول ، كما استولى وليم على سفن الأسطول البيزنطى وما كانت تحمله من كنوز وذهب . وجاء يوم برنديزى هذا ليبتلع كافة انتصارات باليولوغ ودوكاس وليلحق العار الشائن بهيبة عمانويل كومنين فى شبه جزيرة إيطاليا . وانتشرت زحوف وليم الأول صوب الشمال ففتحت المدائن أبوابها صاغرة ضارعة فى أمل العفو ، ولكن وليم الأول فتك بأهل مدينة بارى وأشعل النار فى الزرع والحرث والدور ولم يتركها إلا كومة من رماد ؛ وذلك بسبب مشايعتها للقوات البيزنطية ضده .

أما البابا هادريان الرابع ورجال جيشه فقد حوصروا فى مدينة بينيفنتم ، وراح البابا يتوسل إلى العاهل النورماندى طالباً الصلح . ولكن وليم أصر على أن يرضخ البابا لسائر الشروط التى يمليها عليه بأن يعطيه مملكة صقلية وأبوليا وكابوا ونابلى وآمالفى وسالرنو وأراضى المارسى . ووافق البابا ووقع معاهدة تنص على هذا، بعد أن اقسم له وليم يمين الولاء والطاعة (١٨ يونيو ١١٥٦) وهكذا جددت معاهدة بينيفنتم الحلف القديم بين البابوية والنورمان الصقليين.

كان عمانويل كومنين قد أرسل سفراءه بصحبة صديقه ويبالد فى يونيو ١١٥٦ للتفاوض مع بربروسا ؛ ولكن الأخير كان حانقاً على السلطات البيزنطية بسبب عملياتها العسكرية فى جنوب إيطاليا . ولذا فقد أساء معاملة السفراء الوافدين من بيزنطة بأن رفض مقابلتهم كما أمر باحتجازهم فى سالزبورج بل فكر فى محاكمتهم بتهمة الخيانة(٤٠) . ويزعم أوتو أسقف فريزنج أن

(٤٠) Otto of Freising, Gesta, II, xxix.

غضب بربروسا من عمانويل يرجع إلى أن رجاله قد زيفوا رسائل ممهورة باسم الإمبراطور الألمانى لإخضاع مدن جنوب إيطاليا . فى ذلك الوقت لم يكن بربروسا قد علم بعد بالإذلال الذى لحق بالقوات البيزنطية فى برنديزى ، ولكنه ما أن سمع به حتى سمح لسفراء عمانويل بمقابلته . ومرد ذلك أنه رأى فى الصلح الذى تم فى بينيفنتم بين البابا ووليم الأول تهديداً لنفوذه فى إيطاليا ؛ ومن ثم فكر فى عقد حلف مع الإمبراطور البيزنطى .

وفى عام ١١٥٧ أرسل بربروسا قسيس بيته المدعو ستيفن رسولا خاصاً لعمانويل كومنين . وكان هذا التقارب الجديد من ثمار جهود ويبالد الذى كان قد أمضى الجزء الأكبر من عام ١١٥٥ — ١١٥٦ ضيفاً على عمانويل فى القسطنطينية . فلذا نجد البابا يكتب إلى ويبالد رسالة تقريع عنيفة متهماً إياه بالتآمر ضد كنيسة روما مع سلطات القسطنطينية (١٩ يناير ١١٥٧) . وحث البابا رئيس دير ستافيلوت على أن يفيق لصوابه وأن يخدم أمه الكنيسة الرومانية وذلك بالكف عن محاولة تنفير الإمبراطور الألمانى من الكرسى الرسولى[٤١] .

أرسل عمانويل كومنين سفراءه مرة أخرى للتفاوض مع بربروسا أملاً فى عقد حلف معه يمكنه من غسل العار الذى لحق به فى برنديزى . كما حمل السفراء رسالة خاصة من الإمبراطورة برتا (إيرينى) الألمانية تطلب فيها من بربروسا الإنعام بشرف الفروسية على فردريك ابن كونراد الثالث . واستجاب العاهل الألمانى لطلب برتا ، ولكنه أهمل مشروع عمانويل كومنين . ويحدثنا أوتو أسقف فريزنج عن صدام بين العاهلين بسبب الألقاب : فلقد استنكر بربروسا على عمانويل أن يلقب نفسه فى رسائله « بإمبراطور الرومان » وكتب إليه مؤكداً بأن " هنالك إمبراطوراً واحداً للرومان " ؛ وهو بربروسا بطبيعة الحال . أما إذا أصر عمانويل على حمل لقب « إمبراطور » فيحسن به أن

(٤١) Jaffé, p. 585.

يحمل لقب « إمبراطور القسطنطينية » فحسب[٤٢] .

كان هذا بحق هو موضع الخلاف بين الطرفين : ذلك لأن ما قد يحققه عمانويل من نصر فى إيطاليا كان حتماً على حساب كرامة ونفوذ الإمبراطور الألمانى . ومن هنا لم يكن هنالك سبيل إلى تحالف الطرفين اللدودين : خليفة قنسطنطين من ناحية وخليفة شارلمان من ناحية أخرى . وهناك حادث معين يبين مشاعر الريبة والتربص التى ميزت العلاقات بين عمانويل وبربروسا : فقد حدث أن أوفد بربروسا سفيره ويبالد فى مهمة إلى القسطنطينية ، وفى أثناء عودته من هنـــاك توفى فى الطريق . فسارع عمانوبل ، وهو الصديق القديم لويبالد ، بإرسال سفرائه إلى ألمانيا ليؤكدوا أن ويبالد قد توفى وفاة طبيعية وأن السلطات البيزنطية لم يكن لها يد فى موته !

لم يكتف وليم الأول ملك صقلية بما أوقعه هو ورجاله ببيزنطة من إذلال ، بل راح هو ووزيره مايون يدبران خططاً أخرى لتأديب عمانويل كومنين . فقد عقدا معاهدتين مع البندقية وجنوة لضمان مساندة الأولى وحيدة الثانية فى الصراع ضد بيزنطة .

وفى ربيع ١١٥٧ أرسل وليم أسطوله لتخريب الشواطئ البيزنطية ومدنها . وهجم الأسطول النورماندى على الأسطول البيزنطى عند نجروبونت وأحرق بعض سفنه ، ثم أشعل الجند النيران فى مدينتى نجروبونت وألميرا . وبعدها أبحر الأسطول النورماندى حتى القسطنطينية وأمطر قصر بلاكرناى بوابل من السهام المدمرة .

وقفت السلطات البيزنطية وعلى رأسها عمانويل كومنين عاجزة تماماً أمام هذا العدو الضارى ، فلقد أحرقت معظم سفن الأسطول وهلك الكثير من الجند وأنهكت الخزانة الإمبراطورية . وهنا تدخل البابا هادريان الرابع فى

(٤٢) Otto of Freising, IV, xxxvi.

الأمر وعرض وساطته من أجل صلح بين وليم وعمانويل(٤٣) .

وما من شك فى أن البابا كان يخطط لحماية نفسه ، فهو بتكتيل قوات النورمان مع جيش عمانويل من ورائه كان يستطيع النهوض أمام تحديات عدوه اللدود فردريك بربروسا ، ونجحت مساعى البابا ووصلت سفارة من البلاط الصقلى إلى العاصمة البيزنطية حيث اتفق الطرفان على عقد هدنة مدتها ثلاثون عاماً ، كما أطلق وليم سراح أسراه من الجند البيزنطيين . ويضيف مصدرنا كناموس أن الملك الصقلى وعد بتأييد عمانويل كومنين فى مشروعاته فى الغرب(٤٤) . فإن صح هذا يكون الطوفان قد وقعا حلفاً ضد العدو المشترك فردريك بربروسا بإيحاء من البابا هادريان الرابع .

اتجهت جهود عمانويل السياسية فى تلك الفترة إلى توثيق علاقاته بمدن شمال إيطاليا ، التى كانت تناصب بربروسا العداء الشديد . وأغدق الإمبراطور البيزنطى العطايا والهدايا فى سخاء زائد على مدائن ميلان وكريمونا وبافيا وانكونا وبيزا وجنوة والبندقية(٤٥) . وكانت انكونا أشد مدن الشمال الإيطالى عداوة لبربروسا ، ولذا فإنها رغم تبعيتها نظرياً للإمبراطورية الألمانية ، نادراً ما كانت تأبه بالسلطان الألمانى . ولذا كانت انكونا دواماً هدفاً لغضب وانتقام بربروسا . ففى عام ١١٦٧ ضرب الإمبراطور الألمانى حولها حصاراً لمدة ثلاثة أسابيع ولم ينقذها من هذه الأزمة سوى دفعها جزية طائلة القيمة وتقديمها بعض الرهائن(٤٦) . وفى عام ١١٧٣ حاصر المستشار الألمانى كرستيان من مينز مدينة انكونا مرة أخرى بمعرنة أسطول جمهورية البندقية . غير أن عمانويل كومنين أسرع بإرسال الأموال اللازمة لمعاونة الأهلين على مقاومة

---

(٤٣) Choniates, II, viii, p. 128.

(٤٤) Kinnamos, IV, xv, p. 172.

(٤٥) Bon Compagni (ed. Gaudenzi), in Bulletino dell' Istutio Storico Italiano, Vol. XV, p. 181.

(٤٦) Anonymi Laudensis Continuato, in M.G.H.SS., Vol XVIII, p. 646.

المستشار الألمانى وحليفته[٤٧] . ولقد ظلت مدينة أنكونا طوال عهد عمانويل كومنين مركزاً للنشاط البيزنطى وللخطط التى كان يدبرها البازيليوس فى محاولته بسط نفوذه فى إيطاليا .

أما عن الصلات بين جمهورية بيزا وعمانويل كومنين فقد بدأت فى عام ١١٦٢ عندما قدم السفيران كوتشو جريفى وبوتاشيوس إلى البلاط البيزنطى للتفاوض . وقد وعد الإمبراطور البيزيين بدفع مبلغ ضخم من المال لحكومتهم ومنحهم امتيازات تجارية واسعة المدى إذا أحجمت الجمهورية البيزية عن تعاونها مع الإمبراطور الألمانى ضد بيزنطة[٤٨] . غير أن السلطات البيزية لم تكن ترغب فى إغضاب بربروسا ، ومن ثم فقد رفضت شروط عمانويل . أدى هذا إلى أن أمر عمانويل بطرد الجالية البيزية من الحى المخصص لها فى العاصمة البيزنطية . وهنا أدرك البيزيون أن عداوتهم لبيزنطة قد جرت عليهم ضرراً كبيراً ، فراحوا يفاوضون الإمبراطور من جديد ، وأرسلوا إليه القنصل ألبرت بلزى وبيرجنديوس وكونت ماركو الذين عقدوا معه صلحاً وحصلوا فى مقابل ذلك على تجديد للامتيازات التجارية القديمة التى كانت تتمتع بها جمهوريتهم ، إلى جانب الهبة السنوية التى كان البازيليوس يمنحها لرئيس أساقفتها[٤٩] . ويمكن تفسير هذا الكرم الزائد الذى أبداه عمانويل كومنين فى اتفاقه مع بيزا عام ١١٧٢ على أنه تقارب دبلوماسى مع سلطاتها بقصد كسب تأييدها خاصة بعد أن انقض عمانويل على جالية البنادقة فى عاصمته وقضى عليها وعلى ثرواتها . ولذا نلاحظ فى مضمون الاتفاق المشار إليه أن تعتبر بيزا كل معاهدة أبرمتها سابقاً مع « أفراد متوجين أو غير متوجين » ضد المصالح البيزنطية باطلة المفعول[٥٠] . ويبدو أن العلاقات بين بيزنطة وبيزا ظلت حسنة حتى نهاية حكم عمانويل كومنين .

(٤٧) Historia Ducum Veneticorum, in M.G.H.SS., Vol. XIV, p. 81.

(٤٨) Annales Pisani, in M.G.H.SS., Vol. XIX, p. 246.

(٤٩) Ibid., p. 262.

(٥٠) Ibid.

أما جمهورية جنوة فقد دخلت فى مفاوضات مع السلطات البيزنطية فى عام ١١٥٥ بفضل جهد القائد البيزنطى الشهير ميخائيل پاليولوغ بطل الحرب الإيطالية الذى تحدثنا عنه سلفاً . وقد أعقب هذا توقيع معاهدة بين الطرفين تعهد بمقتضاها عمانويل بدفع مبلغ معين من المال سنوياً لسلطات جنوة ، إلى جانب مبلغ آخر خصص لرئيس أساقفتها . كذلك سمح للجالية الجنوية بقطعة أرض مجاورة لحى البنادقة للسكنى فيها ، مع تخصيص مرسى خاص لنشاطهم التجارى فى ميناء العاصمة . وفى مقابل هذه الامتيازات تعهدت جنوة بألا تشارك فى أى عمل يشكل تهديداً لأراضى الإمبراطور وشرفه ؛ كما فرضت على الجنويين المقيمين فى الأراضى البيزنطية الخدمة العسكرية مع الجيش البيزنطى إذا ما وقع اعتداء على بيزنطة (٥١) .

غير أن جنوة عقدت معاهدة صداقة مع وليم الأول الصقلى فى عام ١١٥٦ مما جعل عمانويل كومنين يتجاهل المعاهدة المبرمة بينه وبينها . وازدادت العلاقات بين الجانبين سوءاً عندما وقعت جنوة حلفاً مع فردريك بربروسا فى عام ١١٦٢ . وعلى هذا فقد باتت السلطات البيزنطية تفكر فى الانتقام من جنوة والقضاء على مصالحها فى الإمبراطورية البيزنطية . والحق أن المسئولين فى العاصمة البيزنطية كانوا يدركون عمق الأحقاد والضغائن التى كانت بين الجاليات الإيطالية فى القسطنطينية؛ وهذا شجع السلطات على حض البنادقة والبيزيين على مهاجمة حى الجنويين ونهبه لمدة عشرة أيام . وحدث أثناء هذا الهجوم أن قتل أحد الشبان الجنويين ويدعى روفو ؛ كما أسفرت خسائر الجالية عن قرابة ٣٠,٠٠٠ هايبربيروى (٥٢) .

تبع هذه الخسائر أن رحل الجنويون عن القسطنطينية خوفاً من نكبات مثيلة قد تحل بهم مستقبلا . وفى عام ١١٦٨ أوفدت الجمهورية الجنوية السفير أميكو من مورتا لمقابلة عمانويل كومنين ومطالبته بتعويضات قدرها

---

(٥١) Caffaro de Caschifelone, Annales Januenses, in M.G.H.SS., Vol. XVIII, p. 25.

(٥٢) Ibid., p. 33.

٤٣٠,٠٠٠ هايبربيروى؛ ولكنا نعلم أيضاً أن السلطات الجنوية فوضت آميكو هذا بأن يقبل أقل من هذا بكثير إلى حد ٢٠,٠٠٠ فقط . وكان على آميكو أن يطلب من الإمبراطور مساهمة سنوية فى بناء كاتدرائية سان لورنزو إلى جانب هبة خاصة لرئيس أساقفة جنوة لا تقل عن تلك التى يتلقاها كل عام بطريرك البندقية ؛ أو على الأقل عن تلك الموهوبة لرئيس أساقفة بيزا . كذلك طلبت جنوة امتيازات مثيلة بتلك التى كانت تتلقاها البندقية فى النشاط التجارى وفى المراسى البحرية فى الإمبراطورية البيزنطية . هذا إلى جانب تأكيدات بأن لا ضير سوف يحل بالجالية الجنوية فى القسطنطينية مستقبلا . وفى مقابل هذا تعهدت الجمهورية بإمداد بيزنطة بثلاثين قطعة بحرية حربية للخدمة مع الأسطول البيزنطى بإشراف طاقمهم الجنوى .

ولكن آميكو لم يفلح فى الحصول على كافة المطالب الجنوية فى المعاهدة التى وقعها مع عمانويل كومنين عام ١١٦٩ ، مما أغضب القناصل الذين رأوا فى شروط عمانويل المنصوص عليها ، والخاصة بمساعدة جنوة لبيزنطة فى حالة « عدوان من متوج أو غير متوج » على الإمبراطورية ، خطراً داهماً يستنفر فردريك بربروسا ضدهم . ولذا فقد طلبوا من آميكو السعى لحذف هذه الفقرة بعينها من المعاهدة .

وبينما كانت المباحثات تجرى بين السفير الجنوى والإمبراطور البيزنطى ، مر السفراء البيزنطيون الذين كانوا يتفاوضون مع البابا إسكندر الثالث بجمهورية جنوة (يونيو ١١٧٠) ؛ وعرض هؤلاء السفراء مبلغ ٥٦,٠٠٠ هايبربيروى على السلطات الجنوية مقابل تأييد عمانويل ضد بربروسا . ولكن رفض القوميون مناقشة الأمر حتى عودة آميكو من القسطنطينية ومعرفة صيغة الاتفاق النهائى على لسان سفيرهم الخاص . ولما وصل آميكو بعد إنجاز مهمته اكتشف القوميون خلافاً كبيراً بين عروض السفراء وعرض سيدهم ، ولذا فقد رفض القوميون مواصلة المحادثات مع بيزنطة (٥٣) .

---

(٥٣) Osberti Annales, in M.G.H.SS., Vol. XVIII, p. 86.

أرسل عما نويل كومنين يحتج على موقف جنوة الملترى ، وسافر آميكو مرة أخرى إلى القسطنطينية للتفاوض . وتم الاتفاق فى هذه الجولة بعد أن غيرت الفقرة التى اعترضت عليها جنوة إلى الآتى : « تتعهد جمهورية جنوة بأنها لن تؤيد أية قوة أجنبية تغير على أراضى الإمبراطور أو تهدد تاجه » . ويلاحظ كذلك أن المعاهدة خلت من أية ضمانات من جانب عمانويل فى حالة وقوع أذى جديد بالجالية الجنوية ومصالحها فى العاصمة البيزنطية .

هذا وبعد فترة قصيرة من توقيع هذه المعاهدة هوجم حى الجالية الجنوية وتم نهبه مرة أخرى . ويروى المؤرخ كناموس أن البنادقة هم الذين أقدموا على هذه الفعلة (٥٤). على أنه يجب ملاحظة أن عمانويل كومنين قام بعد ذلك بمصادرة ثروات عدد كبير من البنادقة والبيزيين من كبار التجار فى القسطنطينية بحجة أنهم قد شاركوا فى المؤامرة ضد الحى الجنوى . فإذا ما وضعنا فى اعتبارنا أن المعاهدة التى أبرمها عمانويل مع آميكو فى عام ١١٧٠ قد خلت من أية فقرة أو نص عن ضمانات فى حالة وقوع ضرر بالجالية الجنوية ، فإنه يحق لنا أن نتساءل : هل كان عمانويل يتوقع وقوع هذا الأذى بالفعل ضدهم ؟ ليس بمستبعد أن يكون عمانويل قد أوعز بحادث نهب الجالية الجنوية فى عاصمته ، وليس غريباً أيضاً أن يتخذ من الحادث ذاته ذريعة لمصادرة أملاك وثروات بعض البنادقة والبيزيين ؛ لأنه فى ذلك الوقت بالذات كانت مشروعاته فى غرب أوربا قد منيت بالفشل الذريع بعد أن أثقل الخزانة والرجال بأعباء جسام ، الأمر الذى أدى إلى وجود تذمر شديد بين المواطنين فى العاصمة والذين كانوا ينظرون إلى مخططاته الممالئة للاتين بالكثير من الحنق والاستنكار . على أنه من المرجح أن البنادقة قد شاركوا الغوغاء من البيزنطيين الذين هاجموا فنهبوا الحى الجنوى فى العاصمة — بإيعاز من السلطات — والدليل على ذلك أنه عندما قاد دوق البندقية حملة ضد عمانويل — بسبب ما حل بجاليته فى عـــام ١١٧١ — طلب من

(٥٤) Kinnamos, VI, x, p. 282.

الجنويين المقيمين فى آميرو المشاركة معه فى حملته ، ولكنهم رفضوا مطلبه فاستولى منهم على بعض سفنهم [٥٥] .

وعدت السلطات البيزنطية تعويض الضحايا الجنويين عن خسائرهم ولكنها لم تحقق وعودها . ولذا أرسل القوميون الجنوى السفير جريمالدى فى عام ١١٧٣ ليطلب من عمانويل كومنين تعويض بنى جلدته من الضحايا عن النكبات التى حلت بهم ، وأيضاً ليطالب « برد حى كوباريون من جديد للجالية الجنوية » [٥٦] ، وهو الحى الذى كانت تتمتع بالإقامة والتجارة فيه هذه الجالية فى مدينة القسطنطينية . وبالفعل وصل السفير الجنوى إلى العاصمة وقابل البازيليوس وعرض مطالب القوميون ، ولكنا لا نعلم شيئاً عما أسفرت عنه هذه المفاوضات .

• • •

اجتازت العلاقات بين البندقية وبيزنطة تغيراً هاماً أثناء حكم عمانويل . فلقد تخلى البنادقة عن بيزنطة أثناء حصار كورفو سنة ١١٤٩ ، ويقال إنهم كانوا ينظمون مظاهرات للسخرية من شخصية عمانويل وذلك بتمثيله زنجياً قبيح المنظر بقصد الاستهزاء به [٥٧] . والواقع أن البندقية كانت تشعر بضيق شديد أمام توسع بيزنطة فى دلماشيا (١١٦٦) وتنظر إليه بريبة شديدة . ولكن هجمات فردريك بربروسيا المتتابعة على مدن شمال إيطاليا دعت البندقية إلى أن تخطب التعاون مع عمانويل فى تأييد هذه المدن ضد بربروسا [٥٨] . أرسل عمانويل سفيره نقفور كالوفيس إلى البندقية ، وتم اتفاق بين الطرفين تعهدت البندقية بمؤداه بإمداد بيزنطة بأسطول قوامه

---

(٥٥) G. Bertolottoi Documenti sulle Relazioni di Genova coll Impero Bizantino, in Atti della Societa Ligure di Storia Patria, Vol. XXVIII (1897) pp. 371, 397.

(٥٦) Ibid.

(٥٧) Choniates, I, i., p, 64,

(٥٨) Kinnamos, V, ix, p, 230,

٣٠٠ قطعة حربية للمشاركة فى حملته الإيطالية[٥٩]. وفى العاشر من ديسمبر ١١٦٧ كان هناك ثلاثة سفراء بيزنطيون فى البندقية ، ولكنا لا نعرف شيئاً عن طبيعة مهمتهم هناك [٦٠] . وفى نفس الوقت نجد سفراء الملك ستيفن ، ملك المجر ، الذى كان وقتئذ فى حرب ضد بيزنطة ، موجودين فى البندقية للتفاوض فى مشروع زواج ابنة أخيه ماريا من نيقولاس ابن الدوق ميخائيل فيتالس[٦١] . هذا التقارب بين البندقية والمجر يحدد بداية العداوة بين البلاط البيزنطى وجمهورية البندقية . فنى عام ١١٦٨ قامت ست قطع بحرية حربية تابعة للبندقية بالهجوم والقبض على خمس قطع بحرية تملكها مدينة أنكونا التى كانت آنئذ مركز النشاط البيزنطى فى شبه جزيرة إيطاليا ؛ متحدية بهذا سياسة عمانويل الإيطالية .

ثم أخذت العلاقات تتدهور بين بيزنطة والبندقية حتى بلغت ذروتها فى عام ١١٧١ . والحق أن موقف عمانويل العدائى لجالية البنادقة فى عام ١١٧١ كان مخالفاً لخطوط سياسته الودية تجاه اللاتين، كما أن عنصر المفاجأة فيه قد حير الدارسين . ويقص علينا داندولو أن عمانويل كان قد عرض يد ابنته فى الزواج من وليم الثانى ملك صقلية ، ثم غير رأيه ، وعندما طلب من دوق البندقية تأييده ضد ملك صقلية فى حالة الحرب المتوقعة بينهما رفض الدوق ، ومن ثم فقد راح البازيليوس يدبر فى الخفاء للانتقام من هذا الموقف من جانب الدوق فى تقويض مصالح جمهوريته فى القسطنطينية[٦٢]. على أن بعض المؤرخين لم يقبلوا برهان داندولو ، موضحين أن القطيعة التامة مع وليم الثانى لم تحدث إلا فى عام ١١٧٢ أى بعد عام كامل من ضربة عمانويل ضد جالية البنادقة فى بيزنطة [٦٣] . وأوضح فريق آخر من

---

(٥٩) Ibid,, V, xii, p. 237.

(٦٠) Annales Venetici Breves, in M.G.H.SS., Vol. XIV, p. 71.

(٦١) Ibid.

(٦٢) Dandolo, Chronicon Venetum. in Muratori, R.I.SS., Vol. XII, p. 291.

(٦٣) See W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant, I, p. 216.

المؤرخين بأن هناك قطيعتين وقعتا بين عمانويل وليم الثانى : الأولى فى عام ١١٦٦ والثانية فى عام ١١٧٢[٦٤] . وربما أدى فشل المفاوضات بين عمانويل وولیم فى عام ١١٦٧ إلى سعى الأول لكسب حلف جمهورية البندقية ضد الثانى ، ولما رفضت البندقية هذا التحالف فكر عمانويل فى الانتقام خاصة وأنه لم ينس للبنادقة تخليهم عنه أثناء صراعه السابق ضد النورمان .

على أن هنالك عوامل أخرى تساعد فى تفسير أحداث عام ١١٧١ التى وقعت بين جمهورية سان مارك وبيزنطة . يلاحظ أن أفراد جالية البندقية فى القسطنطينية كانوا قد كدسوا ثروات ضخمة مستغلين الامتيازات والحصانات التى منحها لهم الأباطرة السابقون . وكانت عامة الشعب والخاصة فى العاصمة تنظر إلى هؤلاء الأجانب الفاحشى الثراء فى حقد وغيظ . ولما كانت خزانة عمانويل كومنين فى هذا الوقت شبه خاوية فإنه بدأ ينظر إلى تلك الثروات الهائلة فى شىء من الطمع . وكان البازيليوس مدركاً أن رعاياه الساخطين على سياسته الفاشلة فى الغرب سوف يهللون فرحاً إن هو أقدم على مصادرة أملاك وثروات هؤلاء الأجانب اللاتين . ومن هنا فإن إقدامه على هذا العمل كان سيوفر له مالا كثيراً وأيضاً قد يهدئ الرأى العام الساخط ضد كل ما هو لاتينى . وتشير الـ Historia Ducum Veneticorum إلى الحقد الذى كان يعتمل فى قلب عمانويل قبالة التجار البنادقة فى إمبراطوريته[٦٥] . أما المؤرخ البيزنطى كنامس فإنه يزعم أن عمانويل قرر إعقاب البنادقة بسبب هجماتهم المتكررة على الجالية الجنوية فى القسطنطينية[٦٦] . وهنالك ما يؤكد رواية كناموس فى الأوامر التى أصدرها قوميون جنوة إلى السفير جريمالدى بأن يقابل البازيليوس ويكشف له عن العداوة التى يضمرها البنادقة والبيزيون تجاه الجنويين[٦٧] . أما نيكيتاس كونياتيس فإنه يؤكد

(٦٤) See F. Chalandon, Les Comnénes, II, p. 586.

(٦٥) Historia Ducum Veneticorum, p. 78.

(٦٦) Kinnamos, VI, x, p. 282.

(٦٧) G. Bertolotto op. cit., p. 371 : ".. Cum inde culpabiles essent."

أن مسلك البنادقة السيئ واستهتارهم استفز جماهير الشعب فى العاصمة البيزنطية ، كما أن البازيليوس ذاته كان منزعجاً لأن البنادقة طالما تجاهلوا أوامره[٦٨] .

وفى عام ١١٧٠ بدأ عمانويل فى مصادرة أملاك البنادقة وثرواتهم بحجة أنهم قد نهبوا حى الجنويين فى القسطنطينية . وكرد فعل أمام هذا التصرف أمر دوق البندقية بمقاطعة بيزنطة ، وبدأ البنادقة يرحلون عن الإمبراطورية عائدين إلى جمهوريتهم[٦٩] . غير أن الإمبراطور أرسل سفارة إلى البندقية يطلب إعادة العلاقات التجارية بين البلدين واعداً منح امتيازات خاصة بل واحتكاراً للنشاط التجارى للبنادقة دون غيرهم ، مؤمناً إياهم وفق ضمانات خاصة[٧٠] . وجاءت هذه الوعود الطائلة لتهدئ من روع الدوق ، وسرعان ما أعيدت العلاقات التجارية بين الجانبين . وتقول المصادر إن أكثر من ٢٠,٠٠٠ من أهالى البندقية عادوا إلى بيزنطة يحملون معهم كميات ضخمة من السلع والمال والسلاح . كما أرسل الدوق سفيرين مع هذه الجالية هما سباستيانوس زيانى وأوريوس ماستيروبترو[٧١] . استقبل عمانويل السفيرين بكرم زائد ووعدهما بمعاملة أفراد جالية البندقية معاملة الأبناء[٧٢] . وعندما استقر البنادقة مرة أخرى فى العاصمة وغيرها من مدائن الإمبراطورية راح عمانويل يخطط لهدم كيانهم تماماً . وفى العاصمة بوجه خاص ، حيث احتفظت الجالية بمعظم ثرواتها ، اتخذت احتياطات خاصة لإنفاذ المؤامرة فى إحكام زائد : فقد استدعت السلطات فرقاً عسكرية من خارج العاصمة ووضعت فى حالة طوارئ ليل نهار لحين تنفيذ المخطط . وكان هذا كفيلا لأن يثير شكوك البنادقة ، فأسرع السفيران لمقابلة البازيليوس للاستوثاق من

(٦٨) Choniates, V, ix, p. 233.

(٦٩) Dandolo, pp. 291-93.

(٧٠) Historia Ducum Veneticorum, p. 78.

(٧١) Ibid.

(٧٢) Ibid.

نيته . هدأ الإمبراطور من روعهما وأرسل منادين يعلنون بأن أية جريمة ترتكب ضد البنادقة سوف تردع بقسوة من جانب الإمبراطور ذاته[٧٣] .

ولكن عما نويل كومنين خدع السفيرين بحق : ففى ١٢ مارس ١١٧١ – تقول الحولية – هجم الإمبراطور ورجاله على البنادقة كما ينقض الأسد على الحمل وألقى القبض على عشرة آلاف منهم وأودعهم السجون ، كما صادر ثرواتهم . ولما ضاقت السجون بهذه الأعداد، استعين ببعض الأديرة لهذا الغرض . ولم يتمكن من الإفلات من القسطنطينية سوى عدد قليل من البنادقة الذين لاذوا بإحدى السفن الراسية فى الميناء وأبحروا فيها إلى عكا . كذلك هربت الجالية المقيمة فى أرميرو على خليج ڤولو على متن عشرين سفينة نقلتهم إلى موطنهم . وهناك راحوا يولولون على ما أصابهم من عنت على يد الإمبراطور « الجاحد » ، مطالبين بإعداد حملة للانتقام منه[٧٤] .

بدأت جمهورية سان مارك تعد العدة لمقاتلة بيزنطة من مارس إلى سبتمبر ١١٧١، فأعدت ١٢٠ سفينة لهذا الغرض . وساهمت زارا وبعض مدائن دلماشيا الأخرى باثنتى عشرة سفينة للمشاركة فى هذه الحملة[٧٥]. انقض الدوق ورجاله على مدن دلماشيا التى كانت تحت النفوذ البيزنطى ، وفتحت تراو أبوابها لهم . أما مدينة راجوزا فمع أن المسئولين فيها قد أقسموا يمين الولاء والطاعة للدوج إلا أنهم سرعان ما هجموا على البنادقة ، ولكنهم أصيبوا بخسائر فادحة فى الرجال . ولذا فقد خرج رئيس أساقفتها ورجال الأكليروس الآخرون إلى معسكر الدوج وألقوا بأنفسهم عند قدميه طالبين العفو والغفران . ووافق الدوج على الصلح مع راجوزا بعد أن أقسم له سادتها يمين الطاعة والولاء وتعهدوا بدفع مبلغ كبير من المال إليه ، إلى جانب كميات معينة من المؤن والأنبذة . كذلك أجبر رئيس

(٧٣) Ibid.

(٧٤) M. de Canale, La Cronica dei Veneziandi, (ed. Galvani), Frienze, 1845, p. 312.

(٧٥) Historia Ducum Veneticorum, loc. cit.

الأساقفة على الاعتراف بتبعيته لبطريرك البندقية وبالخضوع لسلطان البابا (٧٦) .

بعد هذا هجم البنادقة على نجروبونت ونهبوها . وهناك طلب بعض رجال عمانويل كومنين من الدوج إيفاد سفارة خاصة إلى العاصمة لتسوية النزاع دون إراقة دماء . ووافق الدوج على هذا وأوفد الأسقف باسكال من أقويليا ، ومناسيس بادوڤاريوس لمقابلة البازيليوس للتفاوض معه (٧٧) . وفى خلال ذلك احتل البنادقة جزيرة خيوس حيث قرروا قضاء فصل الشتاء فيها ، ومن هنالك انتشرت عدة قطع بحرية من أسطولهم لتنهب خيرات المدن الواقعة على الساحل .

غضب عمانويل كومنين من هذه القرصنة فرفض السماح للسفيرين باسكال ومناسيس بمقابلته . ولكنه أرسل من لدنه سفيراً إلى الدوج يطلب منه إرسال بعثة جديدة لفتح باب المناقشات من جديد .

ويحدثنا داندولو فى هذا الصدد أن عمانويل إنما أرسل هذا السفير للتجسس على معسكر البنادقة (٧٨) . ومع هذا أوفد الدوق سفارة جديدة إلى القسطنطينية . وفى أثناء ذلك تفشى وباء خطير فى معسكر البنادقة (أبريل ١١٧٢) وهلك عدد كبير منهم . وتعلل حوليات البنادقة هذا بأن الإمبراطور دس سماً فى مياه الآبار وفى الأنبذة التى كانت فى جزيرة خيوس (٧٩) .

فى هذه المرحلة من الصراع أبحر الأسطول البيزنطى لمقاتلة البنادقة عند جزيرة خيوس ، ولكن الدوج ورجاله كانوا قد انتقلوا إلى جزيرة صغيرة هى سانكتا باناتشيا . وهناك عادت السفارة الثانية لتعلم الدوج بفشل مساعيها فى القسطنطينية . وكان مع هذه السفارة مبعوث آخر من لدن الإمبراطور يطلب إيفاد سفارة ثالثة لمواصلة المفاوضات . ولما كانت أحوال الجند قد ساءت بسبب الوباء فى معسكر البنادقة فقد أوفد الدوج السفيرين هنرى داندولو وفيليب

---

(٧٦) Ibid.

(٧٧) Ibid.

(٧٨) Dandolo, p. 295.

(٧٩) Historia Ducum Veneticorum, p. 79.

لمحاونة الوصول إلى « حل سلمى » مع البازيليوس[٨٠] . وهنا قرر البنادقة الانتقال إلى جزيرة لمنوس للاحتفال هناك بعيد فصح ١١٧٢، غير أن عاصفة فجائية أجبرتهم على الرسو فى جزيرة سكيروس . وبعد احتفالات عيد الفصح ارتفعت صيحات التذمر والسخط بين الجند البنادقة ، كما اشتدت وطأة الوباء عليهم فانحطت معنوياتهم . ولذا قرر الدوج العودة بحملته إلى البندقية .

عاد الدوج ميخائيل فيتالس مع من تبقى من أفراد الحملة ليواجه إشاعات تتهمه بالعجز وبخيانة قضية الجمهورية[٨١] ؛ وبينما كان فيتالس يرأس مجلس الشيوخ هجمت عليهم جماعة مسلحة . هرب الشيوخ جميعاً من قاعة الاجتماع وتسلل فيتالس إلى خارج أبواب القصر الذى كان المجلس منعقداً فيه ، ولكن أحد أفراد هذه الجماعة المسلحة ويدعى ماركوس كازولوس لحق به عند كنيسة سان زكريا وقتله بسيفه[٨٢] .

خلف فيتالس فى منصب الدوج سباستيانو زيانى . وأرسل الدوج الجديد سفارة مكونة من فيتالس داندولو ومنسس بادوفاريوم وفيتالس فاكرتوس إلى القسطنطينية للتفاوض مع عمانويل كومنين ، ولكن جهودهم لم تأت بنتيجة . ولذا فقد قرر زيانى محالفة أعداء بيزنطة ، فتعاون بأسطوله مع بربروسا فى حصاره لمدينة أنكونا — حليفة عمانويل — فى عام ١١٧٣ ، كما عقد معاهدة ود وصداقة مع وليم الثانى ملك صقلية فى عام ١١٧٥[٨٣] .

هذا ويحدثنا نيكيتاس كونياتس أن عمانويل فتح باب المفاوضات مع البندقية وأن اتفاقاً عقد بين الطرفين أطلق البازيليوس بمؤداه سراح أسرى عام ١١٧١ ، وأعاد لجمهورية سان مارك امتيازاتها التجارية السابقة[٨٤] . أما داندولو

---

(٨٠) Ibid.

(٨١) Ibid.

(٨٢) Dandolo, p. 296.

(٨٣) Historia Ducum Veneticorum, p. 81.

(٨٤) Choniates, V, x, p. 225.

فيروى أن هذا الاتفاق لم يتم فى عهد عمانويل وإنما فى زمن حكم أندرونيكوس كومنين (١١٨٣ — ١١٨٥)(٨٥) .

على أنه ليس هناك دليل مقنع بأن البندقية قد حصلت على تعويض مرض لما حل بها فى عام ١١٧١ لا فى عهد عمانويل ولا فى زمن حكم أندرونيكوس. وقد جاء هذا الحادث ليشعل نار الكراهية فى قلوب البنادقة ضد بيزنطة ، الأمر الذى دفعهم إلى المشاركة فى غزو القسطنطينية فى صليبية ١٢٠٤ .

لم تكن البندقية هى القوة الوحيدة الغاضبة على عمانويل كومنين فى غرب أوربا ، وإنما كان هنالك أيضاً برنامج فردريك بربروسا المعادى لكل ماهو بيزنطى . فى عام ١١٧٢ أرسل بربروسا الأسقف كونراد من ورمز إلى القسطنطينية ليتكشف طبيعة ذاك الاتفاق الذى كان العاهل الألمانى يظن أنه قد أبرم بين عمانويل كومنين وبين هنرى الأسد دوق سكونيا . والمعروف أن هنرى الأسد قد عرج على القسطنطينية فى عام ١١٧٢ أثناء رحلته إلى الأرض المقدسة . وليس بمستبعد أن يكون عمانويل قد عقد بالفعل حلفاً مع هنرى الأسد ضد بربروسا . وهنالك فى بعض المصادر ما يؤكد هذا الفرض . فيحدثنا أرنولد من لوبك أن عمانويل كومنين قد أرسل بعثة ودية لمقابلة دوق سكسونيا فى عام ١١٦٤(٨٦) . ومصدر آخر يتهم الدوق صراحة بأنه كان يتآمر ضد بربروسا(٨٧). ويقول بنيدكت من پيتربرو أن الدوق هنرى سافر إلى القسطنطينية بقصد «إيذاء الإمبراطور الرومانى» (٨٨) . كذلك نجد فى الرسالة التى بعث بها بربروسا إلى عمانويل كومنين فى عام ١١٧٧ توبيخاً للإمبراطور البيزنطى

---

(٨٥) Dandolo, p. 309.

(٨٦) Arnold of Lübeck, Chronica Slavorum, in M.G.H.SS., Vol. XXI, p. 117.

(٨٧) Continuatio Cremifanensis, in M.G.H.SS., Vol. IX, p. 564.

(٨٨) Benedict of Peterborough, Gesta Regis Henrici II, (ed. W. Stubbs), 2 vols., Rolls Series, London, 1867, Vol. I, p. 249.

« لمحاولته غواية أفصال الإمبراطورية الألمانية »(٨٩) .

كان الساعد الأيمن لبربروسا فى هذا الوقت كرستيان رئيس أساقفة مينز . وكرستيان هذا كان متعصباً للنظم الإمبراطورية والسياسة الألمانية أكثر من الإمبراطور ذاته . ولقد كان هذا المستشار الألمانى يحتقر البيزنطيين ، كما كان عازماً على تقليم أظافر السلطات البيزنطية بسبب تحرشها بالمصالح الألمانية فى إيطاليا . وفى عام ١١٧١ ظهر كرستيان على رأس حملة فى إيطاليا ليخيف مدن العصبة اللومباردية المتمردة على بربروسا وحليفها البابا الشرعى إسكندر الثالث . وفى أبريل ١١٧٣ حاصر المستشار الألمانى بجيشه ، بمعونة أسطول البندقية ، مدينة أنكونا التى كانت مركز النشاط البيزنطى فى إيطاليا . ولم يرفع المستشار هذا الحصار عن أنكونا إلا بعد أن دفع أهلوها جزية مالية كبيرة جاءتهم من خزانة بيزنطة .

هذا وفى أثناء حصار أنكونا فتح الإمبراطور فردريك بربروسا باب المفاوضات مع ألد أعداء بيزنطة وهو قلج أرسلان سلطان قونية . وحث الإمبراطور الألمانى سلطان الروم على مهاجمة الإمبراطورية البيزنطية . ونجد أن سفراء السلطان قد أتوا إلى البلاط الألمانى محملين الهدايا لبربروسا فى عام ١١٧٣ ، ليطلبوا يد ابنة بربروسا لابن السلطان . ولاشك فى أن علاقات المودة بين البلاطين الجرمانى والتركى آنذاك كانت من العوامل التى جعلت قلج أرسلان يثقل من ضرباته التى وجهها ضد بيزنطة فى عامى ١١٧٤، ١١٧٥ ، والتى فتت فى عضد الجيش البيزنطى . وجاء عام ١١٧٦ ليشهد أسوأ هزيمة منيت بها بيزنطة ، وذلك فى واقعة ميريوكيفالون ، حيث قتل خيرة ضباط الإمبراطورية وجندها ، وحيث تعرض عمانويل كومنين ذاته للهلاك ثم للعار . وكانت كارثة ١١٧٦ أكثر هولا من واقعة ملاذكرد (١٠٧١) فى الخسائر فى الرجال والعتاد ، كما أنها لطخت سمعة عمانويل الذى حاول بعد الهزيمة النكراء الهرب

(٨٩) H. Kap - Herr, Die Abendländische Politik Kaiser Manuels mit Besonderer Rücksicht auf Deutschland, Strassburg, 1881, pp. 156 - 57.

بذاته تاركاً من تبقوا حوله نهباً لسيوف الترك » وما من شك أن أنباء ميريوكيفالون قد أدخلت السرور على نفس بربروسا .

وفى عام ١١٧٧ عقد بربروسا صلحاً مع البابا إسكندر الثالث، وهو المعروف بصلح البندقية ، فانتهى بذلك عهد التفاهم بين عمانويل كومنين والبابوية ضد الإمبراطور الألمانى . ولسوء حظ عمانويل جاءت كارثة ميريوكيفالون فى وقت منيت فيه مشروعاته فى غرب أوربا بفشل ذريع ، بعد أن أجهد خزانة الدولة . ولعل خير ما يصور ذلك الضياع الذى منى به البازيليوس تلك الرسالة التى بعث بها بربروسا إلى عمانويل فى ذلك الوقت . تخاطب الرسالة عمانويل على أنه « ملك اليونان » فحسب ؛ الذى عليه هو وشعبه إظهار الخضوع والطاعة للإمبراطور الأوحد للرومان — بربروسا — ، وأيضاً للبابا رأس الكنيسة الرومانية. كذلك ألمح بربروسا فى رسالته أنه على استعداد لفض النزاع القائم بينه وبين بطريرك القسطنطينية . وفى ختام رسالته كشف بربروسا عن طبيعة الحلف الذى عقده مع سلطان الروم، الذى لن يجرؤ أحد على إيلامه من أجله حتى فى يوم الدين(٩٠) .

(٩٠) H. Kap - Herr, op. cit., pp. 156 - 57.

الفصل العاشر

بيزنطة والبابوية

من ١١٥٦ إلى ١١٨٠

منذ اللحظة التى حصل فيها تقارب شديد بين عمانويل كومنين والبابا هادريان الرابع (٤ ديسمبر ١١٥٤ / ١ سبتمبر ١١٥٩) ، اتسمت العلاقات بين القسطنطينية وروما بشىء غير عادى من المودة . كان البازيليوس حتى تلك اللحظة مهتماً فى المقام الأول بمحاربة النورمان فى جنوب إيطاليا ، ولكن عندما لجأ إليه البابا يطلب العون صراحة ، راح عمانويل يخطط لما هو أبعد فى سياسته فى الغرب اللاتينى . ولما وصل الصدام بين البابا وفردريك بربروسا درجته القصوى تشجع الجالس على عرش قنسطنطين العظيم فأخذ يفكر جديا فى استعادة التاج الذى سلبه الملوك الألمان منذ عهد شرلمان من الإمبراطور الشرعى على ضفاف البسفور . ونجد صدى هذا الاتجاه فيما كتبه المؤرخ المعاصر كناموس إذ يقول إن السادة الذين حكموا إيطاليا من وقت القوط لا يمكن اعتبارهم أكثر من أمراء ، أما أولئك الذين وضعوا تاج الإمبراطورية على رؤوسهم فهم لا محالة غاصبون[١] . كذلك يؤكد نفس المصدر أن الشرف الذى ازدانت به البابوية هو من صنع الإمبراطور قنسطنطين العظيم . وعلى هذا فإن حق تعيين البابوات يبقى فى يد الجالس على عرش قنسطنطين[٢] .

وبثقل هذا الرأى أخذ عمانويل كومنين يعلل النفس بالأمانى مستغلا فى هــذا ذاك الصراع المحتدم بين البابا وفردريك بربروسا . على أن

(١) Kinnamos, Epitome, in C.S.H.B., V, vii, p. 218.

(٢) Ibid.

البازيليوس كان دبلوماسيًّا فى مفاوضاته مع البابا هادريان الرابع ، إذ أنه لم يكشف عن نواياه الحقيقية فى بادئ الأمر وإنما اكتفى بإبداء استعداده لمؤازرة هادريان فى صراعه ضد النورمان وأيضاً ضد بربروسا . وكان عمانويل ماهراً عندما راح يؤكد حماسه فى نفس الوقت لتوحيد كنيستى روما وبيزنطة ؛ الأمر الذى كانت الكيوريا ترغب كل الرغبة فى تحقيقه منذ أيام هلدبراند .

وبطبيعة الحال تصور عمانويل كومنين أنه بمقدوره — كأوتوقراط — أن يجبر إكليروس أياصوفيا على موافقته فى سياسة توحيد الكنيستين . ولكن الدلائل تشير إلى عكس ذلك تماماً . ففى عام ١١٥٥ كتب البابا هادريان الرابع إلى بازل رئيس أساقفة تسالونيكا يخطب حبه لكنيسة روما — رأس الكنائس — ويرغبه فى مشروع الوحدة الكنسية . على أن البابا ذكر فى رسالته أن الشقاق الذى وقع بين بيزنطة وروما يرجع إلى عناد وعجرفة البطارقة البيزنطيين الذين شاءوا لكنيستهم أن تنسلخ عن الجسد الواحد مثلها فى ذلك مثـــل « القطيع الضال » الذى انفصل عن أمير الرعاة بطرس الرسول (٣) .

جاء رد بازل على البابا مليئاً بالمرارة والسخرية ؛ محتجا على انزلاق لسان البابا وعلى اتهامه كنيسة بيزنطة المسكونية بالزيغ والضلال فى تشبيهه إياها « بالخراف الضالة » . ثم راح صاحب الرسالة يعدد أفضال بطريركية القسطنطينية على العالم المسيحى أجمع شرقيه وغربيه (٤) . لا شك فى أن البابا هادريان الرابع كان يدرك تماماً استحالة الوحدة بين الكنيستين ، ولكنه برغم ذلك رحب بمبادأة عمانويل كومنين ما دام هذا سيخدم حلفه مع الجيوش البيزنطية فى الانتقام من النورمان الذين سطوا على الممتلكات البابوية فى الجنوب الإيطالى . وجاءت تحديات فردريك بربروسا المتتابعة للبابا لتوثيق العلاقة بين البلاطين البابوى والكومنينى . وبعد وفاة هادريان

(٣) Mansi, Vol, XXI, cols. 796 - 99.

(٤) Ibid., cols. 799 - 801.

الرابع ومجيء البابا إسكندر الثالث (٧ سبتمبر ١١٥٩/ ٣٠ أغسطس ١١٨١) واصل عمانويل كومنين جهوده لتوثيق حلفه مع الكرادلة الرومان وسيدهم الجديد .

وكان من حسن حظ عمانويل أن بلغ الصدام بين بربروسا وإسكندر الثالث مرحلة حرجة من التوتر ، خاصة بعد أن عقد العاهل الألمانى مجلساً فى مدينة پاڤيا أعلن فيه شرعية البابا المعارض — فكتور الرابع — وذلك نكاية فى البابا الشرعى إسكندر الثالث. ولذا نجد إسكندر الثالث يوفد سفارة من اثنين من أخلص كرادلته إلى القسطنطينية لمواصلة المفاوضات مع عمانويل كومنين من أجل إرساء حلف متين بين الطرفين [٥] .

وعندما قدم بربروسا على رأس حملة لتهديد المدن اللومباردية ولاستعادة نفوذه بقوة السيف فى تسكانيا ، سارع إسكندر الثالث فى الاستنجاد بالملك الفرنسى لويس السابع ، طالباً منه مخاطبة عمانويل كومنين لتأييده ضد الملك الألمانى [٦] . وفى نفس الوقت كتب وليم من پاڤيا ، المندوب البابوى الدائم فى فرنسا ، رسالة إلى عمانويل كومنين يطلب منه فيها الاعتراف بالبابا إسكندر الثالث بابا شرعيا . ونجد المندوب البابوى يخاطب العاهل البيزنطى على أنه " الأغسطس المعين من قبل الله لحكم الإمبراطورية، خليفة العظماء الذين كانوا حماة الكنيسة ضد طغيان البرابرة والغزاة " . وهذه الفقرة من الرسالة ذات مغزى خطير ، إذ أنها تنطوى على إشارة صريحة إلى الألمان على أنهم عنصر متبربر ، وأهم من هــذا إشارته إلى أباطرة بيزنطة على أنهم حماة الكرسى البابوى الرسولى فى روما [٧] .

استجاب عمانويل كومنين على الفور لتلك النداءات المتتالية ؛ فكتب إلى الملك لويس السابع رسالة تفيض مودة واعتزازاً بتلك الصلة التى باتت تربط بينهما بعد زواج الأول من ماريا أميرة أنطاكية حفيدة عمة لويس السابع .

(٥) Liber Pontificalis, II, p. 403.

(٦) R.H.G., Vol. XVI, p. 82.

(٧) Ibid., p. 55.

وأكد « الأوتوقراط الرومانى صاحب الرداء الأرجوانى » لملك فرنسا أنه ملتزم بكل تأييده فى صف البابا إسكندر الثالث ضد خصومه[٨]. وفى يوليو ١١٦٣ ظهر سفراء عمانويل كومنين فى سان جيل فى طريقهم إلى بلاط الملك الفرنسى لمواصلة المفاوضات معه ومع البابا إسكندر الثالث. وهنالك التقى السفراء بالمندوب البابوى الدائم فى فرنسا ، فسلموه رسائل سيدهم الموجهة إلى البابا . وفى ٢٠ أغسطس ١١٦٣ كتب البابا اسكندر الثالث إلى ملك فرنسا يعلمه أن سفراء عمانويل كومنين لديهم رسالة شفوية ذات أهمية قصوى موجهة إلى البابا والملك مجتمعين فى مدينة بورج . وأوضح البابا أنه لايمانع الاستجابة لطلب عمانويل ، راجياً منه استقبال السفراء البيزنطيين استقبالا حسناً[٩] .

ولكن موقف لويس السابع كان مائعاً بعض الشىء : فنحن نعلم أنه قد حدث فى تلك الفترة تقارب ما بينه وبين فردريك بربروسا ، ولذا فإن الاجتماع الذى كان قد اتفق على عقده فى مدينة بورج بين البابا والملك الفرنسى لم يتم . ولا نكاد نعلم شيئاً بعد ذلك عما تم فى المفاوضات بين لويس السابع وعمانويل كومنين اللهم إلا ذلك الجزء من الرسالة التى كتبها البابا إسكندر الثالث إلى الملك الفرنسى فى ٢٦ يناير ١١٦٥ والذى يتحدث فيه البابا عن بالغ السرور الذى أدخله كتاب لويس إلى عمانويل، مرفقاً بطيه بعض الرسائل التى بعث بها العاهل البيزنطى إلى لويس مع رئيس أساقفة بنفنتم[١٠] .

إن أسلوب المودة ومنهج التقارب مع القسطنطينية الذى يميز موقف البابا إسكندر الثالث فى هذه الفترة بالذات يؤكد أن حلفا ما كان بسبيل الإرساء بين البابوية وفرنسا وبيزنطة ضد فردريك بربروسا . والواقع أن

---

(٨) Mansi, XXI, cols. 974 - 75.

(٩) R.H.G., Vol . XV, p. 814.

(١٠) Ibid.

حماس إسكندر الثالث لهذا الحلف الغير طبيعى كان يرجع إلى الضربات الشديدة التى كالها بربروسا له فى عناد غريب . فبعد وفاة البابا المناهض لإسكندر الثالث — ڤكتور الرابع — عقد المستشار الألمانى رينالد من دازل مجلساً فى ڤينسا أعلن فيه انتخاب خلف لفكتور فى شخص باسكال الثالث .

وفى عام ١١٦٥ عقد الأساقفة الألمان ، بإيعاز من بربروسا ومستشاره ، مجمعاً فى فرزبورج أكدوا فيه من جديد شرعية باسكال الثالث ضد إسكندر الثالث . وليس بمستبعد أن يكون البابا إسكندر الثالث فى هذه اللحظات اليائسة من صراعه ضد بربروسا قد فكر جديا فى التلويح لخصمه الألمانى بمقدرته على نقل التاج من على رأس خليفة شرلمان إلى رأس خليفة قنسطنطين العظيم ، الذى لم يكف عن المطالبة بحقه المسلوب .

وصل جوردان ابن روبرت أمير كابوا فى تلك المرحلة مندوباً عن عمانويل كومنين لمقابلة البابا إسكندر الثالث ومواصلة التفاوض معه بشأن وحدة الكنيسة والتاج . وعرض سفير عمانويل على البابا مبالغ ضخمة من الذهب ، واعداً إياه إخضاع مدينة روما وسائر أجزاء إيطاليا لسلطانه بقوة الكتائب الإمبراطورية التابعة لبيزنطة . وبعد أن ناقش البابا عروض العاهل البيزنطى مع كرادلته ، قرر إيفاد اثنين من خلصائه لمواصلة المفاوضات مع القسطنطينية(١١) ، وفى حين أن المصادر اللاتينية لا تذكر شيئاً عن طبيعة مهمة هذين القاصدين الرسوليين ، نجد أن المؤرخ البيزنطى كنامس يروى أنهما أكدا لعمانويل قبول البابا إسكندر الثالث لشروطه على شريطة أن يأتى للإقامة الدائمة فى مدينة روما . ويمضى كنامس فى روايته فيقول إن العاهل البيزنطى رفض هذا الشرط ، ومن ثم وصلت المفاوضات بين الطرفين إلى مرحلة من الركود(١٢) . وتشير الدلائل الأخرى على أن المحادثات التى جرت بين سفراء البابا وعمانويل قد فشلت بالفعل : فنحن

---

(١١) Liber Pontificalis, II, p. 415.

(١٢) Kinnamos, op. cit., VI, iv, p. 262.

نعلم أن جدلا لاهوتيًّا قد اندلع بين أحد السفراء من الكرادلة الرومان وبين عمانويل كومنين ذاته حول عبارة الـ Filioque وأيضاً حول مزاعم روما فى إمارة الكنيسة العالمية . ونعلم كذلك أن عمانويل قد هاجم الكنيسة الرومانية فى هاتين النقطتين هجوماً شديداً ومريراً(١٣) .

والواقع أن تحولا قد طرأ على موقف البابا إسكندر الثالث مذ أنشأت العصبة اللومباردية مدينة الساندريا — المشتقة من اسم البابا — وقد وقفت القوميونات اللومباردية وقفة تحد سافر ضد بربروسا وجيوشه القادمة من وراء الألب .

وشهد عام ١١٦٧ النكبات الفادحة التى حلت ببربروسا ورجاله فى حملته الفاشلة على لمبارديا . وجاء مرض الطاعون لينزل الهلاك إلى جانب الهزيمة برجال الملك الألمانى العنيد .

لم يعد إسكندر الثالث إذن فى حاجة ماسة إلى العون أو التأييد من عمانويل كومنين بعد أن أذلت العصبة اللومباردية بربروسا فى ممرات جبال الألب ، وبعد أن أوشك ذات مرة على الوقوع فى أيدى اللومبارديين أسيراً للحرب .

ولهذا عندما قدم مبعوثو عمانويل كومنين من جديد إلى روما لمواصلة سعيهم لتحقيق أطماع سيدهم قوبلوا بفتور . فلقد قال لهم إسكندر الثالث أنه بعد مشاورته للآباء الكرادلة فى عروض القسطنطينية تبين له استحالة تحقيق مطالب العاهل البيزنطى ، ولكنه شكر له حسن نواياه تجاه البابوية وقت الشدة(١٤) . ولكى يخفف البابا من وقع الصدمة على نفس عمانويل أرسل إليه قاصدين رسوليين من قبله يحملان عبارات المودة والمجاملة دون تعرض من قريب أو بعيد لأحلام العاهل البيزنطى . والواقع أن العلاقات بين إسكندر الثالث وعمانويل ظلت طيبة : ففى عام ١١٧٠ حضر البابا

(١٣) Hugh Eterianus, De Haeresibus Graecorum, in P.L., Vol. CCII, cols. 231 seq.

(١٤) Liber Pontificalis, II, pp. 419 - 420.

حفل زفاف ابنة شقيق عمانويل إلى الأمير أوتو من فرانجيبانى فى مدينة فيرولى[١٥] . كما بارك البابا زواج الكسيوس الثانى ، ابن عمانويل ، من اجنس ابنة الملك لويس السابع فى عام ١١٧١[١٦] . وفى عام ١١٧٥ بعد أن أعاد عمانويل كومنين بناء مدينة دوريلا يوم كتب إلى البابا يعلمه ببعض انتصار حققه على الأتراك ويطلب منه إرسال نجدات من الغرب إليه لعونه على مقاتلة الترك . ونجد البابا يستجيب لنداء الإمبراطور البيزنطى فيبعث إلى مندوبه الدائم فى فرنسا ليحث الرجال على تلبية رجاء عمانويل كومنين[١٧] . وفى أكتوبر ١١٧٦ أثناء المحادثات التمهيدية لإقرار الصلح بين فردريك بربروسا والبابا إسكندر الثالث ، فى مدينة آناجنى ، نجد البابا يصر على إدراج اسم عمانويل كومنين بين أصدقائه وحلفائه[١٨] . ولكن اسم عمانويل أهمل تماماً فى الصيغة النهائية لمعاهدة البندقية (١١٧٧) التى أقرت السلام بين الإمبراطور الألمانى من جانب والبابا إسكندر الثالث وحليفه ملك صقلية من جانب آخر . وبينما كان البابا والإمبراطور الغربى يتلقيان التهنئة على هذه المعاهدة كانت القسطنطينية تندب حظها بعد أن فتك الترك بخيرة ضباطها فى واقعة ميريوكيفالون (١١٧٦) . وليس بمستبعد أن تكون أنباء فاجعة ميريوكيفالون قد دعت البابا إسكندر الثالث إلى أن يهمل هذا الجواد البيزنطى الخاسر ويسارع فى إقرار السلم مع غريمه بربروسا.

ولعل خير ما يوضح تلك المرارة التى منى بها عمانويل كومنين بعد فشل سياسته الردية تجاه الغرب اللاتينى تلك المناقشة الحادة التى حدثت بينه وبين البطريرك ميخائيل الثالث أنشيالوس فى عام ١١٧٦ فى المجلس الذى كان يناقش موضوع الوحدة بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية .

فقد كان من رأى عمانويل أن الخلافات الطقوسية والعقائدية بين

---

(١٥) Annales Caccanenses, in M.G.H.SS., Vol. XIX, p. 286.

(١٦) Jaffé, nos. 11883, 11894.

(١٧) R.H.G., XV, p. 952.

(١٨) Liber Pontificalis, Vol. II, p. 434; Jaffé, nos. 12737, 12743.

الكنيستين ليست بالعمق الذى درج بطارقة القسطنطينية على إبرازه . وهنا تصدى له انشيالوس معلناً إدانة اللاتين بالهرطقة بسبب الـ Filioque الدخيلة على قانون الإيمان النيقى ، كما فند مزاعم البابوية فى الإمارة على الكنيسة العالمية موضحاً أن أولوية روما قد انتهت مذ نقلت العاصمة منها إلى روما الجديدة على ضفاف البسفور . وعند هذا الحد صفق المؤتمرون تحية لإنشيالوس « رجل الأرثوذكسية الملتهب إيماناً » موجهين الشكر لله على تثبيت هذا العمد الصالح ليعلى بناء كنيسته المسكونية .

وفى نهاية الأمر اتفق الحاضرون على صيغة مرسوم يدعو إلى فصم العلاقات جميعاً مع اللاتين ، تاركين أمرهم إلى قضاء الله دون حتى إلحاق اللعنة بهم بسبب زيغهم فى العقيدة . ودعا المرسوم بطارقة المشرق إلى عدم مجادلة كنيسة الفرنجة فى أمور سبق إدانتهم بسببها مراراً وتكراراً ؛ وذلك تمشياً مع قول الكتاب : « فر من الهراطقة بعد تحذير وتحذير ، فإن إثمهم وحده كفيل بإدانتهم »[١٩] .

والواقع أن ما أكده ميخائيل انشيالوس فى هذا المجلس يمثل الرأى الذى كان سائداً فى القرن الثانى عشر لدى اللاهوتيين والمشتغلين بالقانون الكنسى من أمثال آرستينوس وزوناراس وبلسامون . فهم جميعاً يلقون بثقل أقلامهم على القانون الثامن والعشرين لمجمع خلقدونية على أنه نقل إمارة الكنيسة من روما إلى القسطنطينية . ونجد زوناراس يقول بأن إمارة البابا قد انتهت مذ راحت البابوية تردد قانوناً للإيمان منحرفاً عن القانون الأرثوذكسى المتفق عليه بين الآباء الباكرين للكنيسة[٢٠] .

(١٩) See. V. Grumel, Les Registres des Actes de Patriarcat de Constantinople, II, 2, p. 151.

(٢٠) See Aristenus, in P.G., Vol. CXXXVII, col. 325; Zonaras, ibid., cols. 485 - 92; Balsamon, ibid., cols. 1433 - 44.

الفصل الحادى عشر

بيزنطة والصليبية الثالثة

توفى عمانويل كومنين فى عام ١١٨٠ وخلفه على العرش ابنه الكسيوس الثانى الذى كان فى الثانية عشرة من عمره ؛ وذلك تحت وصاية أمه ماريا الأميرة الأنطاكية . وبذا صار هناك إمبراطورتان لاتينيتان فى البلاط البيزنطى : ماريا الإمبراطورة الأم وأجنس زوج الإمبراطور الطفل . ولقد استعانت ماريا فى توجيه الحكم بأحد أبناء أشقاء عمانويل الراحل وهو البروتوسباستوس الكسيوس كومنين الذى كان هو أيضاً محبًّا للعنصر اللاتينى . وقد كان موقف ماريا هذا مدعاة إلى ظهور الأحقاد والضغائن فى نفوس أفراد آل كومنين ذاتهم لتفضيلها واحداً بعينه على سائر أفراد البيت . وكان الشعب كارهاً لهذه « الأجنبية » وصديقها « المخنث » اللذين أحاطا الحكومة بعدد هائل من المرتزقة اللاتين ، بينما كانت جماهير الشعب تئن من وطأة الفقر الذى عم بسبب مشروعات عمانويل الباهظة الفاشلة فى غرب أوربا . ونظر أهل العاصمة من حولهم ليروا جاليات البنادقة والبيزيين والجنويين تعيش فى رفاهية زائدة فزاد حنقهم على ماريا والكسيوس . وهكذا بات أمر هذه الحكومة ومصيرها مقضياً عليه لا محالة . وهنا برز من جديد على مسرح السياسة البيزنطية أندرونيكوس كومنين ، حاكم كيليكيا الأسبق ، الذى كان وقتئذ دوقاً على بنطس . وجاءت أحداث البلاط لتمهد الطريق لهذا الطامع المترقب لفرصته فى تحقيق أطماعه فى العرش . فقد نشب خلاف شديد بين ماريا ومارى ابنة عمانويل وزوج رينيه دى مونت فرات . ودبرت مارى وزوجها مؤامرة لقلب نظام الحكم ولكن المؤامرة اكتشفت قبل إنفاذها . ولذا فقد هرب المتآمرون إلى آيا صوفيا طلباً فى حماية الكنيسة . وسرعان ما تحولت الكنيسة إلى قلعة حصينة

محاطة بالآلاف من الرجال المسلحين الذين هبوا لمناصرة مارى ضد « المرأة الأجنبية » . ومن داخل الكنيسة أرسلت مارى بإنذار شديد اللهجة إلى ماريا تطلب منها فيه اعتزال الوصاية على الحكم هى « وعشيقها المخنث » الكسيوس . ولقد وقف رجال الدين والبطريرك علانية فى صف المتآمرين ضد الحكومة . ولكن الحكومة بعثت بجندها الذين هجموا على آيا صوفيا ودار القتال عنيفاً بين الطرفين فى قلب البازيليكا ، مما اضطر البطريرك ذاته إلى التدخل لوقف القتال داخل بيت العبادة . وحينما راجت الإشاعات عن قرار الكسيوس بعزل البطريرك اجتاحت المظاهرات شوارع العاصمة تهتف بسقوط الحكومة التى « انتهكت حرمة بيت الله » .

وهنا نشط أندرونيكوس كومنينوس فى بنطس وأرسل يبشر بنى جلدته بأنه قادم إليهم ليخلصهم من نير اللاتين . أرسلت الحكومة حملة بقيادة أندرونيكوس أنجيلوس لمحاربة أندرونيكوس كومنين ولكن الحملة باءت بالفشل وانضم قائدها أنجيلوس إلى أندرونيكوس كومنين . وضرب أندرونيكوس معسكره فى خلقدونية ، ومن هناك وجه إنذاره الشهير إلى الحكومة مطالباً بعزل الكسيوس وإبعاد ماريا إلى أحد الأديرة . واستغل أندرونيكوس شعور الكراهية الدفين فى قلوب الأهلين تجاه اللاتين الذين كانوا يكونون سدس سكان العاصمة ، فأرسل من يروج إشاعات بأن المرتزقة اللاتين قد دبروا مذبحة للفتك بالأبرياء العزل من المواطنين . وهنا زحف غوغاء القسطنطينية على أحياء الجاليات اللاتينية فى العاصمة وذبحوا النساء والأطفال والشيوخ كما أشعلوا النيران فى كل ما وقعت عليه أيديهم . ولم ينج من تلك المأساة الرهيبة سوى عدد قليل من اللاتين فروا يولولون قبالة الغرب اللاتينى [١] .

دخل أندرونيكوس العاصمة دخول « المخلص » المنتظر ، وقوبل بحماس منقطع النظير من سكان العاصمة على مختلف طبقاتها . وبدأ برنامجه

(١) C. Diehl, Figures Byzantins, pp. 91 - 92.

« الإصلاحى » بالتخلص من كل منافسيه فى العاصمة : وكانت مارى عمانويل وزوجها رينيه أول من اختفيا كلية من على المسرح . كما وجهت تهمة الخيانة العظمى إلى الإمبراطورة الأم وحكم عليها بالإعدام ، الذى وقع عليه ولدها الكسيوس الثانى تحت إلحاح أندرونيكوس . بعد هذا تجمهر أشياع أندرونيكوس ووضعوا التاج على رأسه ، شريكاً فى الحكم للإمبراطور الطفل . وسرعان ما أغتيل الطفل خنقاً بيد عصابة هذا المغتصب للعرش (نوفمبر ١١٨٣) . ولكى يضفى على نفسه صفة الشرعية فى الحكم تزوج أندرونيكوس الذى كان وقتها فى الخامسة والستين من العمر من الإمبراطورة الطفلة أجنس التى كانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، بعد فترة وجيزة من اغتيال زوجها الطفل .

إن السياسة التى استنها أندرونيكوس لحكم الإمبراطورية ، مثلها مثل شخصيته ، لمدعاة للدهشة بسبب تلك التناقضات الصارخة التى ميزته عن دونه من سائر الأباطرة البيزنطيين . لقد حاول هذا الرجل « الغريب الأطوار » أن يحيى الإمبراطورية وهى إذ رميم : فقد أقدم فى عزم من حديد على استئصال الشرور التى استشرت فى المجتمع البيزنطى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، والتى كان أبرزها تسلط الطبقة الأرستقراطية من كبار ملاك الأرض على الفلاحين . واستخدم أندرونيكوس السبيل الأوحد الذى كان يعرفه جيداً فى حربه الضارية ضد هذه الطبقة « المسعورة » ، ولذا فإن فترة حكمه كانت فى الواقع سلسلة من أعمال العنف والإرهاب من من جانب الحكومة ، والمؤامرات تلو المؤامرات من جانب هذه الطبقة الموسرة الفاحشة (٢).

فى ذلك الوقت الذى انصرف فيه أندرونيكوس لإشعال النار فى العفن الذى كان يعمل فى قلب المجتمع البيزنطى ، جاءت سحب الغزو والتهديد تنذر من الغرب . فقد ثار الملك بيلا الثالث المجرى والخان الصربى ستيفن

---

(٢) See G. Ostrogorsky, op. cit., p. 352.

نيانجا ضد القسطنطينية : فنى عام ١١٨١ استولى بيلا على دلماشيا وبعض من كرواتيا وعلى مقاطعة سرميوم ، فقضى بهذا على الجهود التى كان عمانويل كومنين قد بذلها فى المجر بعد أن أنهك خزانة الدولة . وفى عام ١١٨٣ عقد الهنغار والصرب حلفاً ثنائيا ضد بيزنطة وسقطت فى أيديهم بلغراد وبرانشيڤو ونيس وصوفيا(٣) .

وفى آسيا تمردت طبقة كبار الملاك ضد أندرونيكوس بقيادة فرع من آل كومنين مما أقلق مضاجع الحاكم . هذا فى حين أن إسحق كومنين ، حاكم جزيرة قبرص ، سرعان ما أعلن استقلال الجزيرة عن الإمبراطورية ولقب نفسه إمبراطوراً كما سك عملة خاصة بإمبراطوريته الصغيرة . ولم يستطع أندرونيكوس مقاومة هذه الحركة الانفصالية الخطيرة ، وكل ما استطاع فعله هو أن قبض على أقرباء إسحق كومنين وأصدقائه القائمين فى القسطنطينية وقتلهم أشنع قتل .

أما هذا النفر القليل من اللاتين الذين هربوا من مذبحة ١١٨٢ فقد وصلوا إلى غرب أوربا ليقصوا الأهوال التى لقيها إخوانهم من الضحايا على يد السلطات البيزنطية ؛ مطالبين بالثأر . وكان هذا حافزاً جديداً لاشتداد موجة الكراهية ضد كل ما هو بيزنطى . وليس من قبيل الصدفة أن أعلن بربروسا وقتها عزمه على تقليم أظافر الجالس على عرش البسفور ، خاصة بعد أن زوج ولده ووريثه هنرى السادس من الأميرة كونستانس وريثة تاج صقلية فى عام ١١٨٤ . وبهذا أصبحت القوتان الغربيتان اللتان كانتا أشد القوى عداوة لبيزنطة فى يد ألمانية واحدة ، وبات فى مقدورها اتخاذ صقلية ونابلى قاعدة للتحرك بغية القضاء على كيان الرجل المريض على ضفاف البسفور . وهذا ما نجده فى إحدى الحوليات المعاصرة التى تقول بأن « الإمبراطور وقد رغب فى طعن حكم البيزنطيين طعنة نجلاء خطب لولده أميرة صقلية »(٤) .

(٣) Ibid., p. 354.

(٤) Annales Colonienses Maxim'. .n M.G.H.SS., Vol. XVIII, p. 791.

وجاء وليم الثانى ملك صقلية على رأس حملة للانتقام من المذبحة التى أحلها أندرونيكوس بالجاليات اللاتينيه فى عام ١١٨٢ . وكان فى معيته أحد الأمراء البيزنطيين يطالب بأحقيته فى العرش ؛ ولكن الغرض الحقيقى من وراء تلك الحملة كان خلع أندرونيكوس ثم ضم التاج البيزنطى إلى التاج النورماندى(٥).

أمام كل هذه التحديات فى الداخل ومن الخارج اضطر أندرونيكوس إلى البحث عن حلفاء له فى كل من الشرق والغرب . فعقد معاهدة مع البندقية فى بداية عام ١١٨٥ ، أطلق بمؤداها سراح الأسرى من البنادقة كما وعد بدفع تعويضات لمن أصيبوا بأضرار على أثر أحداث ١١٧١ و١١٨٢(٦). كذلك راح أندرونيكوس يتودد إلى البابوية مبدياً رغبته فى الاستجابة لكافة مطالب البابا بشأن الكنائس اللاتينية فى الإمبراطورية البيزنطيه . وهناك رسالة هامة من البابا لوسيوس الثالث (١١٨١– ١١٨٥) موجهة إلى ليو كبير التراجمة اللاتين فى البلاط البيزنطى تلقى بعض الضوء على هذا الأمر الهام . فمع أن الجزء الأكبر من هذه الرسالة يتضمن تعزية لليو فى وفاة شقيقه الكردينال هيومن سان أنجيلوس ، إلا أن هنالك فيها ما يفيد بأن البابا قد أرسل قاصداً رسولياً إلى القسطنطينية للتفاوض مع أندرونيكوس كومنين فى مسائل كنسية(٧) . كذلك يحدثنا أحد الكتاب المعاصرين أن اندرونيكوس كومنين قام برغم المعارضة الشديدة التى أبداها بطريرك القسطنطينية ببناء كنيسة على حسابه فى العاصمة البيزنطية ومنحها للاتين ليمارسوا فيها طقوسهم فى حرية تامة دون تدخل من جانب السلطات الكنسية البيزنطية(٨) .

(٥) See A. Vasiliev, A History of the Byzantine Empire (trans. B. Blackwell), Oxford, 1952, p. 453.

(٦) Dandolo, Chronicon, p. 309.

(٧) P. Jaffé, I, p. 444 (14712).

(٨) Benedict of Peterborough, op. cit., I, p. 257.

وبرغم هذه الجهود اليائسة بات الخطر محيطاً ببيزنطة من كل صوب وحدب . وجاءت الضربة القاضية على يد وليم الثانى ملك صقلية الذى استولى على دورازو ، ثم زحف على رأس رجاله عبر طريق أجناشيا قبالة تسالونيكا . وفى أغسطس ١١٨٥ سقطت تسالونيكا ، العاصمة الثانية للإمبراطورية ، فى يد النورمان الذين ابتلوا المدينة بدمار بشع وبمذابح قاسية انتقاماً لأحداث ١١٨٢[٩] . وبعدها زحف النورمان صوب العاصمة ذاتها ، وبات مصير بيزنطة فى خطر داهم .

لجأ أندرونيكوس كومنين فى تلك المرحلة اليائسة من فترة حكمه إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى وعقد معه حلفاً ضد اللاتين فى الشام وضد سلطان قونية . غير أن تلك الأحلاف التى عقدها أندرونيكوس لم تنجه من مصيره المحتوم . وبينما كانت جحافل النورمان تزحف صوب العاصمة البيزنطية ، كان أندرونيكوس يطارح خليلاته الغرام ، ويمضى أمسياته حتى مطلع الفجر يستمع إلى أنغام إحدى العازفات على الناى والتى كانت محببة إلى قلبه[١٠]. وكان هذا كفيلا بأن يثير السخط كله من جانب أهل العاصمة على مختلف طبقاتها ضده . فقامت المظاهرات الشعبية تهتف بسقوط الطاغية « المخمور » . وقبض رجال الإمبراطور على المحرضين على الثورة ونكلوا بهم تنكيلا شديداً .

وفى عام ١١٨٥ توجه وزير البوليس (الهاجيوخرستوفوريتوس) للقبض على أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية فى العاصمة واسمه إسحق أنجيلوس ، ولكن الأخير ضرب الوزير بسيفه فأرداه ثم مرق بجواده إلى آيا صوفيا حيث طلب الحماية من الكنيسة . ولما انتشرت أنباء هذا الحادث تقاطر الناس حول البازيليكا ووقفوا بسيوفهم مشهورة لحماية البطل اللاجئ . وفى الصباح التالى اختارت جماهير العاصمة هذا الهارب ليكون إمبراطوراً

---

(٩) Nicetas Choniates, Historia, pp. 391 - 92.

(١٠) C. Diehl, op. cit., p. 125.

عليهم . وتم بعدها القبض على اندرونيكوس كومنين الذى قيد بالأغلال وأقتيد إلى مقام أسحق انجيلوس الذى سلمه إلى سوقة العاصمه ليفعلو به ما يشتهون . وأقتيد الإمبراطور المخلوع على ظهر بعير حقير فى طرقات العاصمة وشوارعها فى موكب مهين ، محفوفا باللطم وأقذع الأهانات ، حتى وصلت الفريسة إلى الهيدروم . وهناك تسابق الجمع بيزنطيين ولاتين فى تعذيب اندرونيكوس بضربات سيوفهم حتى مزقوه إربا .

وعلى هذه الشاكلة أنتهت حياة آخر الآباطرة من آل كومنين ، وبدأت فترة حكم أسرة انجيلى فى عام ١١٨٥ . ولم يكن الإمبراطور الجديد اسحق انجيلوس (١١٨٥—١١٩٥) يملك القدرة الحقيقية على حمل تاج الإمبراطورية . وهو بثورته فى عام ١١٨٥ قد مكن للطبقة الارستقراطية من مواصلة نفوذها والسيطرة على مقدرات الفلاحين من جديد ، بعد أن قضى على عدوها الأول اندرونيكوس كومنين . كذلك كانت سياسة اسحق الخارجية تجاه مملكة البلغار الثانية وتجاه الترك غير محددة المعالم (١١) .

ولعل أهم حدث وقع فى فترة حكم اسحق انجيلوس هو قيام الحملة الصليبية الثالثة . وهذا يدعونا إلى ذكر بعض الوقائع الأساسية التى سبقت التبشير بهذه الحملة : ففى فبراير ١١٨٣ أبحر الأمير رينولد دى شاتيلليون صاحب الكرك الصليبى على رأس جيشه صوب الحجاز بغية تدمير مكة والمدينة ، ولكنه هزم هزيمة نكراء على يد حسام الدين لؤلؤ وزير صلاح الدين الأيوبى . وفى بداية يوليو ١١٨٧ هجم صلاح الدين ورجاله على الصليبيين ومناهم بهزيمة فادحة عند حطين ، بعد أن أسر جاى ملك بيت المقدس وهمفرى من تورون زعيم الداوية ثم رينولد (أرناط فى المصادر العربية) ذاته . ولقد عامل السلطان البطل أسراه باحترام زائد ولكنه قتل بيده رينولد بسبب خرقه للمواثيق والعهود التى كان قد أبرمها من قبل مع صلاح الدين وأمراءه ،

(١١) See F. Cognasso, Un Impetatore Bizantino della Decadenza, Isacco Angelo, Rome, 1915, p. 44.

وبسبب إغاراته على الحجاز والأماكن المقدسة فيه . وفى ٢ أكتوبر ١١٨٧ دخل السلطان بيت المقدس، وكان فتحه لها فتحاً إنسانياً من الطراز الأول: فقد أبدى من العطف والتسامح مع الصليبيين ما أكسبه إعجاب كافة المؤرخين فى الشرق والغرب على السواء . وكان هذا الموقف المتسامح الكريم مخالفاً تماماً للصورة الرهيبة التى دخل بها الفرنجة بيت المقدس فى عام ١٠٩٩ .

بعد الهزيمة المنكرة التى حلت بالصليبيين فى واقعة حطين سافر وليم الصورى إلى غرب أوربا لينقل الأنباء وليطلب النجدة من أمراء الغرب . هذا وتعزو الحوليات الغربية سقوط أورشليم إلى الفساد والآثام التى كانت قد استشرت بين اللاتين فى الأرض المقدسة ، وعلى رأسهم بطريرك أورشليم هرقليوس، وبوهمند الثالث أمير انطاكية (١٢) .

والمعروف أن الفرنجة فى سوريا وفلسطين كانوا قد بعثوا الى السلطات الغربية يطلبون النجدة من قبل عندما ضيق صلاح الدين عليهم الخناق . ففى أثناء انعقاد المجلس اللاتيرانى الثالث سنة ١١٧٩ وفى مجلس فيرونا عام ١١٨٤ وصل أساقفة ومبعوثون من الإمارات اللاتينية فى الشرق يحثون المؤتمرين على المسارعة فى انقاذ ما تبقى من نفوذ صليبى فى الشام . وقد حمل البابا اسكندر الثالث وخلفه لوسيوس الثالث هؤلاء المبعوثين رسائل إلى أمراء وملوك غرب أوربا ، وعلى رأسهم فيليب أغسطس ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك إنجلترا لمساعدة هؤلاء السفراء فى التبشير بحملة صليبية جديده . ومع أن الملكين الفرنسى والإنجليزى فوضا هؤلاء حق التبشير بحملة صليبية بلديهما ، إلا أن الرأى العام لم يبد اهتماماً يذكر لهذه النداءات . ولكن أنباء سقوط أورشليم كانت حافزاً كبيراً لإشعال حماس صليبى جديد فى غرب أوربا . فأرسل البابا الجديد جريجورى الثامن خطاباً دوريا إلى سائر المؤمنين فى الغرب

---

(١٢) Caesarius of Heisterbach, Dialogus Miraculorum (ed. Strange), 2 vols., Cologne, 1851, Vol. I, p. 187; William of Tyre, XXXI, vii; Ricardi Londiniensis Itinerario Peregrinorum, in M.G.H.SS., Vol. XXVII, p. 195.

يحثهم فيه على التطوع فى صليبية جديدة لإنقاذ إخوانهم فى الشام[١٣] . وجاء خلفه كلمنت الثالث ليواصل الجهد لتحقيق المشروع : فأمر بإقامة صلوات خاصة فى سائر الكنائس من أجل استعادة أورشليم ، كما أوفد سفراءه إلى أمراء غرب أوربا ليحثوهم على حمل الصليب . وأشهر من تولى مهمة التبشير بالحملة الثالثة وليم الصورى والكاردينال هنرى من البانو ، وذلك بتفويض من البابا كلمنت الثالث . ولقد قوبلت دعوى الأسقف وليم الصورى بحماس زائد شبيه بذلك الحماس الذى غمر غرب أوربا أيام التبشير بالصليبية الأولى ، حتى أن وليم الثانى ملك صقلية الذى كان حتى ذلك الوقت يعوق أية اتصالات بالأرض المقدسة من خلال مملكته بادر بإرسال خمسين قطعة بحرية حربية تحمل خمسمائة من فرسانه كانوا السبب الرئيسى فى انقاذ انطاكية من السقوط[١٤] . ولما توفى وليم الثانى (فى ١٨ نوفمبر ١١٨٩) تعهد صهره الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد ، كونت بواتو ، بقيادة حملة صليبية إلى الشرق. وسرعان ما حذا حذوة فليب اغسطس ملك فرنسا . وقد فرض هذان الملكان ضريبة خاصة على شعبيهما تعرف « بعشور صلاح الدين »[١٥] . كذلك قوبل القاصد للبابوى فى ألمانيا بحفاوة بالغة على يد فردريك بربروسا ، الذى عقد مجلساً فى مدينه مينز أعلن فيه إعتزامه الرحيل على رأس حملة إلى الشرق (٢٣ ابريل ١١٨٩) .

أرسل بربروسيا رسائل إلى ملك المجر وإمبراطور القسطنطينية وسلطان قونية يعلمهم فيها بحملته ويطلب منهم تقديم التسهيلات اللازمة له أثناء عبوره إلى آسيا الصغرى . كذلك بعث بالكونت هنرى من ديز إلى السلطان صلاح الدين يطلب منه إعادة أورشليم وصليب الصلبوت ، وإلا فليستعد للحرب[١٦] . وكان بربروسا فى السبعين من عمره عندما حمل شارة الصليب . ولقد

---

(١٣) Mansi, Vol. XXII, cols. 507 - 31.

(١٤) Ricardi Londiniensis, loc. cit.

(١٥) Baronius, Annales Ecclesiastici, ad. an. 1188.

(١٦) Otto of Saint Blaize, Chronica. in M.G.H.SS., Vol. XX, p. 319.

استقبله ملك المجر استقبالا طيباً وقدم له هدايا نفيسة . ومن المجر بعث بربروسا أسقف منستر والكونت روبرت وماركوارد للتفاوض مع اسحق انجيلوس إمبراطور بيزنطة ، ولكن الأخير احتجز السفراء الألمان فى عاصمته كرهائن . وسرعان ما بدأت الاشتباكات بين الحملة الألمانية والكتائب البيزنطية التى كانت تراقب تحركاتهم عبر الأراضى البيزنطية . وفى إحدى المناسبات قبض فرسان بربروسا على ثلاثين من جند بيزنطة ونصبوا لهم المشانق وأعدموهم على مشهد من الأهلين(١٧) . ودار القتال عنيفاً بين الطرفين فى أثناء اختراق الألمان لأراضى بلغاريا المليئة بالغابات .

كتب بربروسا فى تلك المرحلة إلى السلطان قلج أرسلان يطلب منه مهاجمة حدود بيزنطة فى آسيا الصغرى . ولذا فقد قرر الإمبراطور البيزنطى — إسحق أنجيلوس — عقد حلف مع السلطان صلاح الدين الأيوبى . ويحدثنا بهاء الدين ابن شداد عن حرص العاهل البيزنطى على الحفاظ على علاقات المودة والصداقة بينه وبين صلاح الدين ، وعن جهوده فى إنهاك قوى الحملة الألمانية قبل وصولها إلى أراضى العاهل الأيوبى(١٨) . أما المصادر اللاتينية فتصور العلاقات الودية بين إسحق أنجيلوس وصلاح الدين على أنها دليل جديد على خيانة البيزنطيين وغدرهم . كما وأنهم يؤكدون أن الإمبراطور البيزنطى تلقى أنباء سقوط أورشليم فى يد صلاح الدين بسرور بالغ ، وأسرع يرسل له التهنئة والهدايا . وقد حدث أن وقع شقيق إسحق ، الكسيوس أنجيلوس ، فى يد أمير أنطاكية وكونت طرابلس وهو فى طريقه لمواصلة المفاوضات مع صلاح الدين ، ولكن السلطان أجبرهما على إطلاق سراحه . كذلك توضح هذه المصادر أن السلطان صلاح الدين بعث بمؤذن ليشرف على المسجد القائم فى العاصمة البيزنطية تلبية لرغبة إسحق أنجيلوس(١٩) .

---

(١٧) Ansbert, Historia de Expeditione Friderici Impexatoris, in A. Chroust, Quellen.., Berlin, 1928, pp. 40 - 43.

(١٨) Beha ed-Din ibn shaddad, Anecdotes, in R.H.C.Or., III, pp. 172 - 75.

(١٩) Chronicon Magni Presbiteri, in M.G.H.SS., Vol. XVIII, p. 511.

ولذا فقد عامل بربروسا ورجاله أهالى الإمبراطورية البيزنطية على أنهم أعداء للصليبيين ، فانقضوا على مدينة فيليبوبولس ونهبوها (٢٤ أغسطس ١١٨٩) من كل نفيس فيها إلى حد جعل أحد المصادر يقول بأن « رجال بربروسا جميعاً قد حصلوا على كميات من الذهب والفضة » وفيرة[٢٠] . وفى فيليبوبولس تلقى بربروسا رسائل من القسطنطينية « مكتوبة بلغة متعالية وفيها تلويح بالتهديد إلى جانب نبرات النفاق والمخادعة » ، على حد تعبير انسبرت[٢١] . وفى هذه المرحلة وصلت الأنباء إلى المعسكر الألمانى تفيد بأن سفراء بربروسا قد احتجزوا أسرى فى يد إسحق أنجيلوس. وكان هذا كافياً لأن يقدم الإمبراطور الألمانى وجيشه على تدمير القلاع والقرى والمدائن التى كانوا يعبرونها انتقاماً من موقف انجيلوس . وأمام هذا اضطر إسحق أنجيلوس إلى أن يطلق سراح هؤلاء السفراء الذين وصلوا إلى المعسكر الألمانى يؤكدون أن الإمبراطور البيزنطى قد سرق أموالهم وأذلهم ذلة بالغة . ونجد تفصيلا لهذا فى الرسالة التى بعث بها بربروسا إلى ابنه هنرى السادس من مدينة فيليبوبولس :

« هذا ولعلكم تدركون أن عبورنا من سان جورج أمر صعب بسبب موقف إمبراطور القسطنطينية ، ولذا فإنى أطلب من جلالتكم المبادرة للتفاوض مع جنوة والبندقية وأنكونا وبيزة لإرسال أساطيلهم لمقابلتنا عند القسطنطينية لكى نشن عليها حصاراً من البر والبحر . . . . ويحسن بفخامتكم أيضاً الكتابة إلى سيدنا البابا ليبعث بمندوبيه إلى بلدان غرب أوربا لاستنفار المقاتلين ضد أعداء الصليب وضد اليونانيين ؛ ذلك لأن سفراءنا (. . . .) قد سمعوا بآذانهم بطريرك آياصوفيا يعلن لجمهور المصلين أن البيزنطى الذى يقتل مائة صليبى تغفر له كل آثامه حتى ولو كان قد سفك دماء عشرة من بنى جلدته»[٢٢] .

---

(٢٠) Cronica Ymaginis Mundi, p. 82.

(٢١) Ansbert, pp. 42 - 43.

(٢٢) Ibid.

وهكذا فإن بربروسا قد عقد العزم هو وفرسانه على تدمير بيزنطة وقتل أهليها . وقد أنفذ الألمان مخططهم هذا فى مدينة برانتس (٢ يوليو ١١٨٩) ثم فى صوفيا (١٣ أغسطس ١١٨٩) . وأصبح الأدواق الألمان يتنافسون فى قتل البيزنطيين والتنكيل بهم : فنجد الدوق برتولد يربط أربعة وعشرين رجلا فى ذيول خيوله حتى وصوله إلى المعسكر ثم يقوم بشنقهم على مشنقة واحدة وهم معلقون؛ أرجلهم إلى أعلى ورؤوسهم إلى أسفل . هذا بينما كان فردريك من برج يثبت ضحاياه فى سيقان الأشجار بالخطاطيف . وكان بربروسا يبرر هذه الوحشية بما أسماه « جريمة البيزنطيين فى عقد حلف مع صلاح الدين عدو الصليب »(٢٣) . وزاد من إصرار بربروسا على تقليم أظافر أنجيلوس تلك الروايات التى استمع إليها من سفرائه وكيف « احتجزوا فى الأسر ونهبت أموالهم وأخضعوا للمهانة والسخرية بأن اغتصبت منهم خيولهم وقدمت هدية لسفراء صلاح الدين فى العاصمة البيزنطية(٢٤)» .

وجاءت رسالة أخرى من إسحق أنجيلوس لتزيد النار ضراماً : فقد خوطب بربروسا فيها على أنه « ملك الألمان » لا إمبراطور الرومان . ولذا فقد نهر بربروسا سفراء أنجيلوس وسخر من سيدهم الذى يلقب نفسه بإمبراطور الرومان دون استحقاق . كما أفهمهم أنه سيعبر أراضى بيزنطة دون مشاورة مع السلطات البيزنطية وإنما بحد السيف(٢٥) . وبالفعل قام فردريك دوق سوابيا فى الرابع والعشرين من نوفمبر ١١٨٩ باحتلال ديموتيقا وقتل أكثر من ١٥٠٠ من أهليها(٢٦) .

وفى نفس الوقت عقد بربروسا حلفاً مع الجالية الأرمينية فى مدينة فيليبوبولس بعد أن قام زعماؤهم بأداء يمين الولاء والطاعة له . ويرى المؤرخ البيزنطى نيكيتاس كونياتس فى هذا التقارب بين الألمان والأرمن نتيجة لتشابه

---

(٢٣) Ibid., p. 44.

(٢٤) Ibid., pp. 44 - 45.

(٢٥) Ibid., p. 50.

(٢٦) Ibid., p. 54.

الجانبين فى العقيدة والطقوس الدينية : فكلاهما لا يبدى احتراماً كافياً للأيقونات ، كما وأنهما يستخدمان خبزاً غير مختمر فى الأفخارستيا (٢٧) .

استمر القتال بين صليبية بربروسا والبيزنطيين : فقد هجم أسقف فرزبورج وكونتا سالم وسبنهايم على أراضى الولاشيين واستولوا على ثلاث مدن ، بعد أن قتلوا قرابة خمسين ألفاً من أهليها . كذلك زحف كونت ابنبرج وفردريك من برج صوب الجنوب وسلبا خيرات مدنه . فى حين أن أسقف بساو ودوق دلماشيا استوليا على الأراضى المجاورة لتسالونيكا . وعند مدينة جرادتز وجد الألمان كنائسها مليئة بصور للصليبيين على هيئة خيول يمتطيها البيزنطيون وقد ألجموهم ، فجن جنونهم وحرقوا المدينة عن آخرها (٢٨) . كذلك فتح بربروسا باب المفاوضات مع الخان ستيفن نيمانجا زعيم الصرب وحضه على التمرد ضد بيزنطة وعلى محالفته فى تدمير القسطنطينية (يناير ١١٩٠) (٢٩) . وجاء بطرس زعيم الولاشيين يطلب من بربروسا مساعدته فى الحصول على تاج بيزنطة مقابل إمداده بأربعين ألفاً من رجاله لمهاجمة القسطنطينية (٣٠) .

أمام هذه التحديات المروعة اضطر إسحق أنجيلوس إلى تغيير موقفه من الحملة الألمانية ، فأرسل سفارة ودية فى ٢١ يناير ١١٩٠ إلى بربروسا لتعقد صلحاً معه على الشروط التالية :

١ — تنازل إسحق أنجيلوس عن التعويضات التى كان قد طالب بها عن الخسائر التى حلت بالأهلين فى مقدونيا وتراقيا .

٢ — أعلن البازيليوس استعداده لمد بربروسا بالسفن الكافية لنقل « جيش المسيح المرقر » من جاليبولى .

(٢٧) Nicetes Choniates, 322, A, in R.H.C.Gr., Vol. II, p. 442.

(٢٨) Ansbert, pp. 59 - 60.

(٢٩) Ibid., p. 61.

(٣٠) Ibid., p. 58.

٣ — تعهد إسحق بأن تبقى سفنه الحربية على الشاطئ أثناء عملية عبور الألمان .

٤ — تبقى الكتائب البيزنطية على منأى من الجيش الصليبى بمسيرة أربعة أيام .

٥ — يقدم الإمبراطور البيزنطى ثمانى عشرة رهينة من الدم الملكى الخالص .

٦ — إذا لم توف السلطات البيزنطية التزاماتها فى مد الألمان بالأسوان الكافية يصبح جيش بربروسا حراً فى تصرفه للحصول على متطلباته .

٧ — يصدر إسحق أنجيلوس عفواً شاملا عن هذا النفر من البيزنطيين والأرمن الذين أدوا خدمات للسيد الأمجد إمبراطور الرومان .

٨ — يدفع إمبراطور بيزنطة تعويضات كافية عن الخسائر التى حلت بسفراء بربروسا إلى القسطنطينية .

٩ — يتعهد إسحق أنجيلوس بإطلاق سراح كافة الأسرى اللاتين الذين وقعوا تحت يده .

بهذه المعاهدة المعروفة بصلح أدريانوبل[٣١] تمكن إسحق أنجيلوس من إنقاذ عاصمته من خطر محقق ، ونجح أيضاً فى إغراء بربروسا على العبور من أوربا إلى آسيا . وفى ٢٥ إبريل ١١٩٠ دخل الألمان الأراضى التابعة لسلطنة الأتراك ، حيث وقعت مناوشات بين الطرفين ، وانتهى الأمر بأن عقد صلح بين قطب الدين ملك شاه وبربروسا[٣٢] . وفى ٣٠ مايو وصل الألمان لاراندا ، على حدود كيليكيا حيث قوبلوا بالترحاب من قبل أمرائها الأرمن وعلى رأسهم ليو الثانى . وكانت عملية عبور منطقة طوروس الجبلية مهمة شاقة للغاية ، وصل بعدها الألمان إلى وادى نهر سالف (كاليسادنوس) . وهناك

---

(٣١) Ibid., pp. 64 - 66.

(٣٢) Ricardi Londinensis Itinerario Peregrinorum, p. 204.

نزل بربروسا إلى النهر ليتخفف من حدة الحرارة ولكنه غرق (١٠ يونية ١١٩٠) .

بعد وفاة بربروسا تحولت حملته إلى موكب جنائزى ، وانقسمت إلى ثلاث جماعات : الأولى أبحرت من طرسوس إلى طرابلس ؛ والثانية إلى أنطاكية ؛ والثالثة قررت مواصلة السير براً حتى سوريا . وفى سوريا وقع الألمان فريسة لوباء الطاعون فهلك منهم جمع كبير من بينهم جودفرى أسقف فرزبورج ومارتن أسقف ميش والمارجريف هرمان من بادن ، والبرجريف بركهارد من مجدبرج والكونت فلورند من هولندة والكونت بوبو من هنبرج والكونت ولاراند من هالرمند ثم فردريك من برج . كذلك هلك من هذا الوباء الدوق فردريك ولد بربروسا فى عكا فى ٢٠ يناير ١١٩١ ودفن فى جبانة جماعة الاسبتارية . بعد هذا تولى أمر الحملة كونرادى مونت فرات لحين وصول ليوبولد دوق النمسا فى ربيع ١١٩١ . ولكن ليوبولد وجيشه قد أذلوا على يد الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد وقت حصار عكا فى ديسمبر ١١٩١ ، مما اضطر ليوبولد إلى العودة إلى وطنه وهو يعقد النية على الانتقام من ريتشارد . وبهذا فإن عدداً ضئيلا جداً من صليبية بربروسا ظلوا فى الشام ليشهدوا سقوط عكا فى يد الصليبيين .

ولعل أهم نتيجة لحملة بربروسا — برغم فشلها الذريع — هى أنها قد أوضحت للسلطات المسئولة فى غرب أوربا إمكانية تحطيم الدولة البيزنطية تماماً وإزالتها كعقبة فى طريق الصليبيين إلى الأرض المقدسة . وهذا ما سيقدم عليه خلف بربروسا : هنرى السادس .

* * *

قاست الإمبراطورية البيزنطية الأهوال على يد صليبية بربروسا . وجاءت صليبية ريتشارد قلب الأسد هى أيضاً لتهديد كيان جزيرة قبرص . فى ١٠ إبريل ١١٩١ أبحر ريتشارد على رأس أسطوله من مسينا وتوقف عند كريت ثم عند رودس . وفى أثناء ذلك هبت عاصفة دفعت بالسفينة التى كانت تقل جوانا شقيقة الملك الإنجليزى وبرنجاريا خطيبته إلى شواطىء جزيرة

قبرص . كذلك تحطمت سفينتان أخريتان على نفس الشاطئ . وكانت قبرص تخضع لحكم إسحق دوكاس كومنين الذى كان قد أعلن نفسه إمبراطوراً فى عهد أندرونيكوس كومنين . قام إسحق بالقبض على رجال ريتشارد وصادر أمتعتهم وأموالهم ، ثم وجه الدعوة إلى الملكة جوانا لتنزل ضيفة عليه ولكنها رفضت . ولما طلبت الملكة إمداداً من الماء العذب لطاقم سفينتها رفض إسحق مطلبها « فى وقاحة زائدة » . وراح إمبراطور الجزيرة يقيم التحصينات لحماية نفسه من أسطول ريتشارد قلب الأسد . وفى الخامس عشر من مايو ١١٩١ وصل ريتشارد إلى جزيرة قبرص ، حيث علم بما حل برجاله وبأخته على يد إسحق كومنين . وتصور الحوليات الإنجليزية إسحق هذا على أنه « يهوذا الأسخريوطى » لأنه كان ينهب ويقتل الصليبيين الذين يصلون إلى شواطئ جزيرته ، ولأنه قد عقد حلفاً مع صلاح الدين الأيوبى[٣٣] .

طلب ريتشارد من إسحق كومنين إطلاق سراح الرجال الذين وقعوا فى يده من الحملة هم وأمتعتهم وأموالهم ، ولكن الأخير رفض الاستجابة لهذا المطلب . ولذا فقد هجم هو ورجاله على الجزيرة « كما ينقض الذئب على الحمل » وعملوا فيها نهباً وتقتيلا[٣٤] . فر الأهالى مذعورين من ضربات سيوف الإنجليز واختبأوا فى الجبال بعد أن هزم إسحق كومنين وفقد الراية الإمبراطورية ومتاع خيمته . وفى ١١ مايو ١١٩١ وصل إلى قبرص جاى من لوزينيان ملك بيت المقدس وجودفرى شقيقه ورايموند أمير أنطاكية وبوهمند كونت طرابلس . وكان جاى قد أتى ليطلب مساعدة ريتشارد له ضد أطماع كونراد دى مونت فرات فى تاج مملكة بيت المقدس خاصة وأن الملك الفرنسى فيليب أغسطس كان يؤيد كونراد فى أطماعه[٣٥] . استقبل ريتشارد

---

(٣٣) Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte, (ed. Gaston Paris), Paris, 1897, cols. 37 - 38.

(٣٤) Anglo - Norman Texts (The Crusade and Death of Richard I, (ed. R. Johnston), Oxford, 1961, pp. 24 - 25.

(٣٥) Ambroise, col. 39.

ملك بيت المقدس وصحبه استقبالا حسناً ، ثم قام هؤلاء بأداء يمين الولاء والطاعة له[٣٦] .وفى اليوم التالى تم حفل زواج الملك الإنجليزى من خطيبته برنجاريا فى مدينة ليماسول .

قرر إسحق كومنين التفاوض مع ريتشارد قلب الأسد ، فعرض عليه أن يدفع له مبلغ ٢٠,٠٠٠ مارك من الذهب ، وأن يطلق سراح الأسرى الإنجليز ؛ وأن يشارك فى حملة ريتشارد بفرقة قوامها مائة فارس وألف من المحاربين والمشاة . وقبل ريتشارد عروض إسحق بعد أن أقسم الأخير يمين الولاء والطاعة للأول وتلقى « إمبراطوريته » إقطاعاً من يد الملك الإنجليزى[٣٧] . غير أن إمبراطور قبرص سرعان ما ندم على صلحه مع هذا الغازى وهرب من ليماسول .

أرسل ريتشارد بعد هذا بجزء من أسطوله تحت قيادة روبرت من تيرنهام ليكتسح شواطئ الجزيرة غرباً وليستولى على سفن وموانئ اسحق كومنين . وقاد هو ذاته النصف الثانى من الأسطول وأبحر شرقاً قبالة فماجوستا . أما القوات البرية فقد عهد بقيادتها إلى جاى من لوزينيان الذى كان عليه السير ورجاله بمحاذاة أسطول ريتشارد . وعند نيقوسيا توغل جاى داخل البلاد ونهب القرى والمدن والقلاع . ووقعت ابنة إسحق كومنين أسيرة فى يد جاى عندما عثر عليها فى حصن كيرين . أما الإمبراطور فقد اختبأ فى أحد الأديرة ولكنه عندما علم بقرب وصول الملك إلى هذه البقعة أسرع ليلقى بنفسه عند قدمى ريتشارد يطلب منه الرحمة والغفران متوسلا إليه ألا يقيده بقيد من الحديد . أمر ريتشارد بتقييد إسحق بقيد من فضة ثم أرسله تحت حراسة وزيره رالف فرتز جودفرى إلى طرابلس . وصادر الملك الإنجليزى ثروة الإمبراطور الأسير وسلب نصف ممتلكات سائر سكان الجزيرة[٣٨] .

(٣٦) Anglo - Norman Texts, p. 25.

(٣٧) Ambroise, col. 49.

(٣٨) Anglo - Norman Texts, p. 26 : "Puis prist tout son avoir et la moitié ovelement de touz les biens moebles de toutes gentz de l'ilse de Cypre".

ترك ريتشارد حامية صغيرة تحت قيادة ريتشارد من كامفيل وروبرت من تيرنهام للإشراف على شئون الجزيرة ، وفى ٥ يونيو ١١٩١ أبحر وأسطوله قبالة عكا . وتميز هذان الضابطان الإنجليزيان بغلظة وشراسة فقد أمرا الأهلين بحلق لحاهم علامة على خضوعهم التام ، كما راحا يبتزان أرزاق وأموال الناس فى إرهاب مخيف . ثار الأهلون على هذا الظلم ولكن ثورتهم قمعت فى قسوة بالغة .

ولما كان ريتشارد قلب الأسد منشغلا فى حربه فى عكا وفى مواجهة تحديات حزب فيليب أغسطس وكونراد دى مونت فرات ، ولما علم بموت ريتشارد من كامفيل فإنه قرر بيع الجزيرة لجماعة الداوية (٣٩) . واستخدم الداوية وسائل العنف أيضاً فى حكم جزيرة قبرص فقوبلوا بثورة الأهلين . ولذا فقد باعوا الجزيرة إلى جاى من لوزينيان ملك بيت المقدس (مايو ١١٩٢) (٤٠) . حكم جاى جزيرة قبرص مدة عامين وعند وفاته فى عام ١١٩٤ خلفه فى حكمها شقيقه عمورى .

كان غزو جزيرة قبرص على يد الصليبيين برهاناً قاطعاً على أطماع اللاتين فى ولايات الإمبراطورية البيزنطية . ولعل أهم دلالة لهذا الغزو هو أنه قد أوضح للسلطات فى غرب أوربا أنه إذا كان فى المقدور ضم إقليم هام من أقاليم الإمبراطورية البيزنطية للتبعية اللاتينية ولكنيسة روما فإنه من اليسير أيضاً على الجماعات الصليبية الزحف على القسطنطينية ذاتها وإسقاطها . وكانت هذه هى الفكرة المسيطرة على هنرى السادس خليفة فردريك بربروسا .

• • •

(٣٩) Benedict of Peterborough, Gesta Regis Henrici II, Vol. II, pp. 172-73; Estoire d'Eracles, in R.H.C Occ., II, p. 170.

(٤٠) G. Hill, History of Cyprus, Vol. II, Cambridge, 1948, pp. 67 - 69.

الفصل الثانى عشر

صليبية هنرى السادس
ضد بيزنطة

تسلم هنرى السادس زمام حكم الإمبراطورية الألمانية وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بعد غرق والده بربروسا أثناء قيادته للحملة الصليبية الثالثة فى آسيا الصغرى (يونيو ١١٩٠) . وكان هنرى يشارك والده الرأى فى مخططاته ضد المصالح البيزنطية ، ويقال إنه ألقى مسئولية وفاة والده على الإمبراطور الشرقى . وأجج من شعور الكراهية هذا تلك الروايات التى نقلها الأفراد العائدون من الصليبية الفاشلة ضد السلطات البيزنطية .

كان هنرى السادس يرى ضرورة غزو بيزنطة لاعتقاده أنها قد وقفت عقبة فى سبيل المنجزات الألمانية فى إيطاليا وفى الشرق . ولقد أصبح واضحا له بعد الحملة الصليبية الثالثة أن الدولة البيزنطية تعانى من اضطرابات داخلية ، وأن الصرب والبلغار يقفون على أهبة الاستعداد للانقضاض عليها فى أية فرصة مناسبة . كذلك بينت الحملة الصليبية الألمانية بقيادة بربروسيا أن سلطنة قونية التركية التى لم يكن فى مقدورها محاربة الجيش الألمانى المتهالك فى آسيا الصغرى، هذه السلطنة على ضعفها كانت قد هزمت وأذلت بيزنطة فى عديد من المناسبات . وكان هذا دليلا قاطعا على العفن الذى أصاب الدولة البيزنطية وعلى إمكانية تحطيمها دون عناء كبير . والذى شجع هنرى السادس على المضى فى خطته ضد بيزنطة ذلك الشعور المتوقد انتقاما من القسطنطينية والذى كان يضمره النبلاء والأساقفة الألمان الذين أصروا على ألا تضيع جهود بربروسا فى الشرق هباء . ولكن كانت أمام هنرى السادس مشكلتان كان عليه حسمهما قبل الزحف على بيزنطة هما أن يتوج إمبراطورا على يد البابا ، ثم إخضاع صقلية .

توفى البابا كلامنت الثالث فى مارس ١١٩١ واختار الكرادلة خلفاً له البابا سلستين الثالث . اختار هنرى السادس هذه الفرصة بالذات للذهاب إلى إيطاليا على رأس جيش ضخم ليتوج على يد البابا الجديد . ولما وصل هنرى من وراء جبال الألب طلبت منه سلطات مدينة تسكولوم حمايتها ضد البابا والسيناتو الرومانى . وفى نفس الوقت أرسل أهل روما إلى هنرى يبلغونه أنهم سيعارضون تتويجه إن لم يخضع تسكولوم لسلطانهم . ووافق هنرى على مطلب الرومان . وفى ١٥ أبريل ١١٩١ تم تتويج هنرى وزوجه كونستانس الصقلية فى كاتدرائية القديس بطرس . وفى اليوم التالى هجم الألمان على مدينة تسكولوم واستولوا عليها . ثم سلم هنرى المدينة المنهزمة إلى البابا ، الذى سلمها بدوره إلى أهل روما . وانقض الرومان على المدينة نهباً وقتلا حتى أتوا على كل من فيها وما فيها حتى صارت كومة من رماد[١].

بعد هذا زحف هنرى صوب أبوليا بغية خلع الملك تانكرد الذى كان قد تسلم صقلية إقطاعا من البابوية . ولم يجرؤ البابا على معارضة الإمبراطور الألمانى ضد فصله فى صقلية . على أن حملة هنرى هذه لم تصادف نجاحا . وفى عام ١١٩٤ توفى تانكرد فأسرع هنرى بجيشه وغزا صقلية دون مقاومة تذكر . وبعد هذا الانتصار العظيم أعلن هنرى صراحة أنه عازم على إخضاع البابوية تماما لسلطانه ، فجدد بهذا خطة والده فى إخضاع إيطاليا والقضاء على التعاليم الهلدبراندنية . وقد فكر هنرى جديًّا فى جعل الملكية فى ألمانيا نظاما وراثيًّا فى آل الهوهنشتاوفن . أما فى إيطاليا فقد خلع الوظائف الهامة فيها على أتباعه من النبلاء الألمان : فعين شقيقه فيليب دوقا على تسكانيا وضم إليه أملاك الكونتيسة ماتيلدة ، وأقطع كونراد من فرسايجن إقليم سبولتو ، فى حين أن القائد ماركوارد حصل على رومانا . ولم يجرؤ أحد على رفع صوته ضد سياسة هنرى السادس ، خليفة شرلمان .

(١) Arnold of Lübeck, Chronica Slavorum, in M.G.H.SS., in usum scholarum, 1868, IV, iv.

بعد هذه الانجازات انصرف هنرى إلى مشروعه الصليبى ضد الدولة البيزنطية . ففى أسبوع الآلام لعام ١١٩٥ تلقى شارة الصليب من يد يوحنا أسقف سوترى ، وفى يوم العيد عقد مجلس الدياط فى مدينة بارى حيث أصدر مرسوما إمبراطوريًّا يدعو فيه إلى صليبيته الجديدة(٢) كذلك طلب من البابا سلستين الثالث أن يحث الأساقفة على الدعوة فى أبروشياتهم للحملة الصليبية التى اتفق على قيامها فى أغسطس ١١٩٥(٣) .

كان هنرى السادس يهدف من وراء صليبيته تحقيق حلم الهوهنشتاوفن فى الإطاحة بالجالس على عرش القسطنطينية الذى لم يكف عن المطالبة بالتاج الرومانى والذى كان شوكة فى جنب الإمبراطور الألمانى بسبب أطماعه فى إيطاليا . وعلى هذا فإن صليبية هنرى لم تكن تستهدف استخلاص أورشليم من يد الأيوبيين فحسب وإنما أيضا الاستيلاء على بيزنطة وذلك تحقيقًا للسياسة السائدة وقتئذ فى البلاط الألمانى والتى كان شعارها : Weltpolitik ثم Drang nach Osten . وما من شك أن شرلمان الجديد كان يبغى إحياء الإمبراطورية الرومانية تحت حكم الهوهنشتاوفن . ولقد كان زواجه من كونستانس ملكة صقلية صفقة سياسية هامة ضمنت له ملك صقلية لتكون قاعدة يتحرك منها لتنفيذ مخططه ضد بيزنطة وفى الشرق اللاتينى . وقد شجعه على المضى فى مشروعه هذا أن جاءه رسل من لدن عمورى من لوزينيان ملك قبرص وبيت المقدس ومن ليو الثانى أمير كيليكيا الأرمينى يعرضون عليه تبعية سيديهما للتاج الألمانى .

وكانت قبرص فى ذلك الوقت تحت سيطرة عمورى من لوزينيان الذى راح يفرض على أهليها النظم الفرنجية فى تعنت بالغ . فلقد أرسل إلى البابوية يطلب المشورة فى أمر الكنيسة فى الجزيرة البيزنطية . وقرر البابا سلستين الثالث إخضاع كنيسة قبرص للكرسى البابوى ، فعين آلان رئيس شمامسة

(٢) Annales Marbacenses, in M.G.H.SS., Vol. XVII, p. 166.

(٣) Annales Colonienses Maximi, in M.G.H.SS., Vol. XVII, p. 804.

اللاذقية رئيسا للأساقفة فى نيقوسيا الذى قام هو ورئيس شمامسة اللد بإنشاء أسقفيات لاتينية أخرى فى بافوس وفماجوستا وليماسول . ومع أن رجال الدين اللاتين لم يقدموا مباشرة على طرد الأساقفة البيزنطيين من أسقفياتهم إلا أن الإبروشيات والعشور التى كانت من حصتهم قد ضمت إلى الأسقفيات الجديدة التى أنشأها الغزاة (٤) .

وفى أكتوبر ١١٩٥ أرسل عمورى إلى الإمبراطور هنرى السادس يعبر عن رغبته فى وضع شخصه ومملكته تحت التبعية للتاج الرومانى (الألمانى) ، مؤكدا تشوقه لأن يصبح « رجل الإمبراطور »(٥). وفى نفس الوقت أرسل ليو الثانى أمير أرمينيا الصغرى يطلب من هنرى السادس الإنعام عليه بلقب ملك مقابل اعترافه به سيدا إقطاعيا عليه وبذا يصبح لو تابعا للإمبراطورية الرومانية(٦) .

رأى هنرى السادس فى كل هذا مقدمات لإحياء مجد الإمبراطورية الرومانية . على أنه كان يرى ضرورة صبغ إمبراطوريته الجديدة بالصبغة الجرمانو — إيطالية فحسب ، ذلك لأنه كان بطبعه كارها للفرنجة . ولذا فإنه قد عقد العزم على ضم الشرق اللاتينى إلى إمبراطوريته وتطعيمه بعناصر ألمانية بحتة . وكان يعتقد اعتقادا راسخا أن هذا لن يتم إلا إذا قضى على بيزنطة قضاء تامًّا . وبعد هذا يمكن له ضم تاجى بيزنطة وبيت المقدس إلى تاج شرلمان الأوحد. وتتضح نية هنرى تجاه بيزنطة فى الرسالة التى بعث بها إلى الإمبراطور إسحق انجيلوس يطلب منه فيها إعادة الأراضى البلقانية من دورازو إلى تسالونيكا إليه لأنه « خليفة وليم الثانى ملك صقلية » . كما طالب بتعويضات عن الخسائر الفادحة التى لحقت بوالده الراحل من جراء الخيانة البيزنطية

(٤) L. Mas-Latrie, Historie de l'Isle de Chypre sous le Régne de la Maison de Lusignan, 3 Vols., Paris, 1852 - 1861, Vol. III, Documents, pp. 599 - 605.
L. Makhaeras, Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus (ed. with trans. Dawkins), 2 Vols., Oxford, 1932, Vol. I, pp. 28 - 29.

(٥) Annales Marbacenses, p. 167.

(٦) R.C. Arm; Vol. I, pp. 422 - 23.

وقت الحملة الصليبية الثالثة ، هذا إلى جانب وضع أسطول بيزنطة تحت تصرفه فى حملته الصليبية لاسترجاع بيت المقدس[٧] .

لم يكن أمام إسحق انجيلوس من خيار سوى فتح باب المفاوضات الودية مع العاهل الألمانى الجديد الذى كانت شهرته قد ذاعت فى الشرق والغرب على حد سواء . ولكن ما إن بدأت المحادثات بين الطرفين حتى وقع انقلاب فى القسطنطينية على يد الكسيوس الثالث انجيلوس الذى خلع شقيقه إسحق عن العرش ثم سمل عينيه وأودعه السجن . وكانت هذه فرصة نادرة لهنرى السادس ليهدد الإمبراطور الجديد تهديدا مباشرا ؛ مستندا على أحقيته فى التدخل فى شئون بيزنطة . ذلك أنه كان قد زوج شقيقه فيليب دوق سوابيا من إيرينى ابنة إسحق إنجيلوس المخلوع فى ٢٥ مايو ١١٩٧ . وإيرينى هذه كانت أرملة روجر ابن تانكرد آخر ملوك صقلية .

وهكذا أرسل هنرى إلى الكسيوس الثالث ينذره بأنه قادم لتأديبه « لا كإمبراطور للرومان ووريث لمملكة النورمان وقائد صليبى فحسب وإنما قبل كل هذا كصاحب ثأر نيابة عن إسحق انجيلوس المخلوع وعائلته »[٨] . واضطر الكسيوس أمام هذا التهديد السافر إلى استرضاء هنرى السادس بالمال ففرض ضريبة أسماها « الامانيكون » أى « جباية الألمان » ، وكانت كريهة ثقيلة على كاهل الشعب البيزنطى[٩] .

راح هنرى السادس ومستشاره يعدان للحملة الصليبية فى مجالس الدياط التى عقدت تباعا فى جلنهاوزن (أكتوبر ١١٩٥) وورمز (ديسمبر ١١٩٥) وفرزبورج (مارس ١١٩٦) . واتفق على أن تبدأ الصليبية مسيرتها فى عيد ميلاد ١١٩٦ . وقد حمل الصليب وراء هنرى عدد وافر من رجال الدين الألمان وعلى رأسهم كونراد من وتلزباخ رئيس أساقفة مينز وهارتفيج رئيس

---

(٧) Nicetas Choniates, Historia (Bonn ed.) pp. 227-28.

(٨) W. Norden, Das Papsttum und Byzanz, Berlin, 1903, p. 128.

(٩) Nicetas Choniates, op. cit., p. 631.

أساقفة برمن وكونراد من كورفورت أسقف هلدزهايم ثم أساقفة هالبرشتات وفردن ونمبرج وزايتس ومنستر ورجنزبرج وبساو وبراج وتول. ومن بين العلمانيين الذين تبعوا هنرى الدوق هنرى من برابانت وهنرى من برنزويك والدوق فردريك من النمسا والدوق برتولد من دلماشيا والدوق ألرخ من كارنثيا واللاندجريف هرمان من ثورنجيا وآخرون عديدون[١٠] .

تحرك رئيس أساقفة مينز على رأس غالبية رجال الحملة نحو موانى إيطاليا وصقلية للإبحار منها إلى الشرق . ولكن الأهلين قاموا بثورة عارمة ضد رجال هنرى السادس ، فأسرع الإمبراطور وانقض هو وجيشه على الثوار وسحقهم فى وحشية بالغة ، حتى ليقال إن مملكة صقلية المزدهرة قد تحولت على يدى هنرى إلى صحراء قاحلة . كانت هذه الثورة سببا فى حرمان هنرى السادس من قيادة حملته الصليبية بنفسه . ولذا فقد أمر قواده بالتحرك صوب الشرق وقرر هو البقاء فى إيطاليا إلى حين . وبداية من مارس ١١٩٧ فصاعدا بدأت تحركات الصليبيين الألمان نحو الشرق .

وفى أغسطس من نفس العام وصلت إلى مسينا أربع وأربعون سفينة تقل المقاتلين من أراضى الراين وسكسونيا بقيادة هنرى من برنزويك ورئيس أساقفة برمن ، بعد أن عرجا على النرويج وإنجلترا والبرتغال . ومن مسينا تحرك الجيش فى سبتمبر مع جزء آخر من الجيش الإمبراطورى تحت قيادة المستشار الألمانى كونراد من كورفورت وهنرى من كالدن . وقد توقف المستشار الألمانى والكونت ادولف من هولشتين عند جزيرة قبرص لإتمام حفل تتويج الملك عمورى من لوزينيان وليتلقى كونراد منه ، نيابة عن هنرى السادس ، يمين الولاء والطاعة[١١] .

ولما وصل الصليبيون الألمان إلى مدينة عكا راحوا يعيثون فيها نهباً وفساداً

(١٠) Annales Marbacenses, pp. 167-68.

(١١) Ernoul, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier (ed. Mas- Latrie), Paris, 1871, pp.302-303; Estoire d'Eracles, pp. 209-12.

مما أدى إلى تذمر شديد بين الفرنجة القاطنين هناك الذين ساءهم عجرفة الألمان وسوء سلوكهم تجاه النساء الفرنجيات (١٢) . ولذا فإن هنرى من شامبانى ملك بيت المقدس أمر أتباعه وفرسانه بمقابلة عبث الألمان بالضرب على أيديهم بشدة « حيث أن هذه هى اللغة الوحيدة التى بواسطتها قد يتفهمون (١٣) » . وفى أثناء ذلك نجح هنرى من برابانت ورجاله فى احتلال صيدا ومنها زحف قبالة بيروت (١٤) . وكان الهدف من وراء هذا محاولة فتح طريق يصل بين مملكة أورشليم وإمارة طرابلس . وفى العاشر من سبتمبر ١١٩٧ توفى هنرى من شمبانى على أثر حادث وقع له فى مدينة عكا . وكانت هذه فرصة المستشار الألمانى كونراد لكى ينفذ سياسة سيده فى الشرق اللاتينى فقدم تاج مملكة بيت المقدس إلى عمورى من لوزينيان ملك قبرص وفصل هنرى السادس . وكان نجاح المستشار الألمانى فى هذا عنوانا على قوة النفوذ الألمانى فى الشام .

فى ٢٨ سبتمبر ١١٩٧ توفى فجأة الإمبراطور هنرى السادس بالحمى التى أصابته فى مسينا . ولما وصلت هذه الأنباء إلى عكا سارع النبلاء الألمان فى العودة إلى الوطن لحماية حقوقهم . وقد شجعهم على المبادرة بالعودة أن وقعت بيروت فى يد صاحب بيت المقدس .

وقبل أن يرجع المستشار الألمانى إلى وطنه نجح فى تحقيق هدفين من حملة هنرى السادس : فلقد تمكن من تنصيب أحد أفصال الإمبراطور الألمانى على عرش بيت المقدس ، وبذا وضع الأرض المقدسة فى إطار نفوذ الهوهنشتاوفن (١٥) . كذلك قام المستشار بتتويج الأمير ليو الثانى ملكا على

(١٢) Estoire d'Eracles, p. 216.

(١٣) Ibid.

(١٤) The Letter of Duke Henry of Loyrraine to the Archbishop of Cologne, in Bibliothéque de Valenciennes, Manuscript 482, ff. 132-133.

(١٥) Roger of Hovden, Chronica (ed - W - Stubbs), Rolls Series, London, 1868-71, P. 439.

أرمينيا الذى أقسم يمين الولاء والطاعة للإمبراطور الألمانى (١٦) .

* * *

كان هدف هنرى السادس من وراء صليبيته هذه محاصرة الدولة البيزنطية من الجانبين الأوربى والآسيوى ، ولكنه توفى فجأة وترك المسألة البيزنطية لخلفائه . ولعل أهم نتيجة لسياسة هنرى السادس هى : أن بدأت البابوية توقن أنه إن قدر النجاح لبرنامج الهوهنشتاوفن فى إنشاء إمبراطورية عالمية تضم بيزنطة وصقلية والشرق اللاتينى فإنه لا محالة مقضى عليها بالشلل السياسى . وقد كان حرمان البابوية من النفوذ فى صليبيتى بربروسا وهنرى السادس مظهراً آخر من مظاهر قوة الهوهنشتاوفن وخور الكرسى الرسولى فى روما . ولذا فإن الكيوريا كانوا يتوقون إلى تحين فرصة ليرفعوا على عرش القديس بطرس رجلا من طراز هلدبراند ليقلم أظافر الألمان وليستعيد نفوذ « أمير الرسل » على الحركة الصليبية . ومن هنا جاء اختيار البابا أنوسنت الثالث للقيام بهذه المهمة الصعبة .

---

(١٦) See Sirarpie Der Nersesian, The Kingdom of Cilician Armenia, in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, pp. 647-50.

الفصل الثالث عشر

الجوانب الكنسية فى الصليبية الرابعة

التى انتهت بغزو القسطنطينية (١٢٠٤)

اهتم المؤرخون بدراسة الصليبية الرابعة وانقسموا فى هذا مدارس شتى: ففريق يفسر تحول الحملة عن هدفها الأصيل إلى غزو القسطنطينية وفق نظرية عرفت بنظرية «الصدفة»؛ بمعنى أن الغزو لم يأت عمداً وانما كان وليد ظروف طارئة(١). وجماعة أخرى ترى فى سياسة جمهورية البندقية وألمانيا مؤامرة مقصودة لتدمير بيزنطية(٢). على أن أحداً لم يحاول تقصى ما كان يكمن وراء الغزو الصليبى لمدينة قنسطنطين من دوافع كنسية. وهذا الفصل يعالج هذه الجوانب.

فى ٨ يناير ١١٩٨ توفى البابا سلستين الثالث، وكان قد جاوز التسعين من العمر، وفى نفس اليوم اختار الكرادلة خليفة له. وقد وقع اختيارهم هذه المرة بالذات على أصغرهم سناً وأقواهم شخصية: لوثير من ساجنى الذى لقب انوسنت الثالث بعد انتخابه للعرش البابوى. ولقد ألقى البابا الجديد بموعظة هامة يوم تتويجه: فهى ترتكز، وفى ثقل، على النظرية البطرسية،

---

(١) See G. Hanotaux, Les Veneticns ont -ils trahi la Chrétienté en 1202 ? in Revue Historique, IV (1887), pp. 74-102; J. Tessier, La Quatrieme Croisade-La Diversion sur Zara et Costantinople, Paris, 1884, pp.183 84; F. Cerone, Il papa ed i Veneziani nella Quarta Crociata, in Archivio Veneto, XXXVI (1888), pp. 57-70, 237-297

(٢) L. Mas-Latrie, L'Histoire de l'Isle de Chypre sous le Règne de la Maison de Lusignan, Vol. I, Histoire, pp. 162-63; P. Riant, Innocent III, Philippe de Souabe et Boniface de Montferrat', in Revue des Questions Historiques, Vol. XVIII(1875), pp. 5-75; also. Le changement de direction de la Quatrieme Croisade d'aprés quelques travaux recents', ibid., Vol. XXIII (1878). pp. 71-114.

فالبابا هو بطرس ذاته ، الصخرة التى تقوم عليها الكنيسة ، حامل مفاتيح الجنة وصاحب الحل والربط على الأرض وفى السماء ، سيد على العالم أجمع لا يعلوه إلا الله .[٣] وكان انوسنت الثالث يؤمن إيماناً قاطعا بما جاء فى « هبة قنسطنطين للبابا سلفستر »، إلى حد أنه راح يقول بأن هذا « الإمبراطوو الورع رغب فى وضع التاج الإمبراطورى على رأس سلفستر ولكن الأخير قد رفض » .[٤] ولذا نجده فى إحدى رسائله إلى قوميون تسكانيا يؤكد أن السلطات الزمنية جميعها تستمد شرعيتها وشرفها من الكرسى البابوى ! مثلما يستمد القمر نوره من الشمس [٥] .

وهكذا فإنه منذ البداية أعلن انوسنت على الملأ أنه ليس فقط « كاهن الله » وإنما أيضا — ولأول مرة فى تاريخ البابوية — « ممثل الله على الأرض ».[٦] ولم يكن هذا كافيا إذا راح البابا يدعى لنفسه السلطان على المسيحيين وغير المسيحيين فى المسكونة : « أو ألم يقم السيد المسيح بطرس أميراً على الأرض كلها ؟ » [٧] .

كان انوسنت قد جاء إلى العرش البابوى ليعيد لخليفة بطرس سلطانه الذى كان الهوهنشتاوفن قد ابتلعوه . ولذا فقد أعلن البابا أن الإمبراطور تابع للبابا لأنه يتلقى التاج من يديه ، وأنه لا يعترف بشرعيته فى الحكم ما لم ينعم عليه « سيد العالم » بهذه الشرعية . وقيل وقتئذ أن حفل تتويج الإمبراطور ما هو إلا مراسيم إقطاعية يصبح بموجبها هذا الذى يتسلم التاج تابعا لمن ينعم به عليه . وكدليل على دونية الإمبراطور بالنسبة للبابا كان يتم تتويجه أمام مذبح متواضع فى الركن الجنوبى من كاتدرائية القديس بطرس ، فى حين أن السيد البابا كان يزف إلى « مجد الإمارة العالمية »

(٣) P.L., Vol. CCXVII, col. 658.

(٤) Ibid., cols. 481-82.

(٥) P.L., Vol. CCXIV, col. 377.

(٦) Ibid., cols. 203, 272, 481.

(٧) "Principatus super omnem terram.".

أمام المذبح الرئيسى للبازيليكا، الذى كان وقفاً على هذه المناسبة دون سواها .

كانت أحوال الإمبراطورية الألمانية وقت جلوس انوسنت الثالث على العرش البابوى عاملا مشجعا له لأن يمضى فى سبيل إنفاذ برنامجه الجديد . فلقد مات هنرى السادس ، تاركاً أرملته كونستانس وطفله البالغ من العمر ثلاث سنوات فى مدينة بالرمو نهباً لثورة الصقليين وتمردهم . ولذا فقد طلبت كونستانس الحماية لها ولولدها من البابا انوسنت الثالث ، مقابل تنازلها عن الحقوق الكنسية فى مملكة صقلية . وفى ٢٨ نوفمبر ١١٩٨ توفيت كونستانس، تاركة البابا وصيًّا على ولدها ، فردريك الثانى، ولذا يقال إن انوسنت الثالث كان الوريث الحقيقى لهنرى السادس . ظل العرش الألمانى شاغرا ، ولما توج فردريك الثانى ملكا على صقلية فى بالرمو ضاعت قضيته فى التاج الألمانى . على أن الشقيق الأصغر لهنرى السادس — فيليب من سوابيا — تزعم حزب الهوهنشتاوفن وراح يطالب بالتاج الألمانى . هذا فى حين أن حزبا آخر بقيادة رئيس أساقفة كولون كان يطالب بالتاج لأوتو أصغر أبناء هنرى الأسد والذى كان أيضاً حفيداً للملك هنرى الثانى الإنجليزى . ولكن أوتو كان قد تربى فى قلعة أنجلو — نورماندية ، وكان يتكلم الفرنسية ، وبذا فإنه كان « غريبا » فى بلده ألمانيا . راح الحزبان يتملقان انوسنت الثالث كل يطلب تأييده لأميره المرشح للعرش الألمانى : فبعث ريتشارد قلب الأسد ، عم أوتو ، إلى البابا يعده بإعادة سائر الحقوق التى كان الأباطرة السابقون قد اغتصبوها من الكرسى البابوى . أما فيليب السوابى فقد أرســـل إلى البابا رسالة ودية يطلب منه فيهـــا تأييده مقابل بعض التنازلات فى إيطاليا .

وفى مايو ١١٩٩ كتب انوسنت الثالث إلى الأمراء الألمان فى اجتماعهم لانتخاب امبراطور لألمانيا يوبخهم ويهددهم لأنهم لم يستأذنوه فى عقد هذا المؤتمر ؛ « لأن انتخاب ملك ألمانيا أمر يدخل ضمن اختصاصاتنا » . وراح البابا يقول « ماذا يكون الحال إن أقدمتم على انتخاب عدو للكنيسة

أو متمرد عليها أو طاغية أو أبله أو مهرطق أو زنديق ؟ » أو أيصح للبابا وقتها وضع التاج على رأس هذا الزنديق؟ كلا ثم كلا. هذا وفى نفس العام قدم سفراء أوتو مع ستة من الأساقفة الألمان بقيادة مقدم ديركورنلمونستر وقسيس بيت ريتشارد قلب الأسد إلى مقام البابا انوسنت الثالث يطلبون منـه اعتماد انتخاب أوتو ملكاً على ألمانيا . وكان الثمن الذى طلبه البابا من هذا الحزب مقابل اعترافه بأوتو باهظاً للغاية : فقد كان عليه الاعتراف بالبابا سيداً مطلقاً على سائر ممتلكات الكنيسة فى رومانا وانكونا وسپولتو وأراضى الكونتيسة ماتلدا . هذا إلى جانب اعترافه بسلطان الكرسى الرسولى على مملكة صقلية وتلبية أوامر البابا فى تسكانيا ومدن العصبة اللومباردية . ومع أن الموافقة على هذه الشروط كان يعنى تحول الإمبراطورية الألمانية إلى مجرد دولة تابعة للبابا ، فإن سفراء أوتو وافقوا عليها .

على أنه يجب ملاحظة أن هذا البابا الجديد الذى كان يبشر بإحقاق العدل والانتصار للمظلوم كان صاحب أطماع دنيوية وأنانية ، كانت حديث الشعب فى مدينة روما . فلقد اتهم — وبحق — بالمحسوبية لأنه أقطع شقيقه ريتشارد بإمارة فى لا تينوم ، وعندما اغتال أقرباؤه ثيوبالد نسيب البابا الراحل سلستين الثالث قام لحمايتهم من القانون برغم جريمتهم فى سفك الدماء[٨] .

كانت هذه سمات الرجل الذى تربع على عرش روما من ١١٩٨ إلى ١٢١٦ . ولئن كان هذا موقفه تجاه الإمبراطورية الألمانية ، فإن موقفه تجاه الإمبراطورية البيزنطية وبطريركيتها المسكونية كان ينطق بالعداوة والحقد الشديدين . ولتقصى موقف انوسنت بطريقة موضوعية فى هذا الصدد ولكى نتفهم دوره فى الغزو اللاتينى للعاصمة البيزنطية عام ١٢٠٤ يجب البحث فى نشاطه ضد المصالح والكنيسة البيزنطية فى شرق أوربا : فى صربيا

(٨) See F. Gregorovius, History of the City of Rome in the Middle Ages, 8 Vols. (trans. by G. Hamilton), London, 1909, Vol. V, p. 41.

وبلغاريا حيث كان الأثر البيزنطى واضحا وعريقا .

فى نهاية القرن الثانى عشر ظهر زعيم صربى قوى من مونت نجرو هو ستيفن نيمانجا الذى أرسى قواعد دولة قوية ضمت صربيا وإقليم نافيبازار ومونت نجرو وجزءاً من هرتزا جوفنا وبعضا من برتزرند . ولقب العاهل الجديد نفسه بالخان الأعظم (ڤليكى زوپان) واتخذ له عاصمة فى كروتشيفاك فى وادى المورافا . كان ستيفن رجلا تقيا وقد كان شديد الإعجاب بكنيسة بيزنطة، التى ساعدته فى إنشاء الكثير من الأديرة وبيوتات العبادة. ووهب أصغر أبنائه سافا نفسه للحياة الديرانية ويعتبر بحق مؤسس النظم الديرية فى صربيا .

عندما اعتزل سافا فى ١١٩٥ إلى دير على جبل آثوس آل السلطان على صربيا بلقب الخان العظيم إلى شقيقه ستيفن الذى أقطع شقيقه الثالث ڤولكو أقاليم دلماشيا الصربية ومونت نجرو والهرتزا جوفينا . وسرعان ما دب النزاع بين ستيفن وڤولكو ، الأمر الذى أتاح الفرصة للبابا وملك المجر للتدخل فى شئون صربيا . فلقد اعترف ڤولكو باميرى ملك المجر سيدا له وفتح باب المفاوضات مع البابا انوسنت الثالث طالبا منه معاونته فى تنظيم الكنيسة فى أملاكه وكذا الاعتراف بأسقف مدينة انتيفارى .

رحب الباب انوسنت الثالث بمطلبى ڤولكو الذى أتاح له الفرصة النادرة لخلع كنيسة صربيا من تبعيتها التقليدية للكنيسة البيزنطية . وفى ٨ يناير ١١٩٩ أرسل انوسنت رسالة إلى ڤولكو مخاطبا إياه على أنه « الملك المعظم لدلماشيا وديوقليا » ؛ معلنا أنه موفد رسله لإرساء قواعد « الإيمان الحق » فى كنيسة صربيا(٩) . ولعل أهم فقرة فى هذه الرسالة تلك التى يؤكد البابا فيها أن مهمة رجاله فى صربيا تستهدف فى المقام الأول تقويم الانحرافات والأغلاط الشائعة فى كنيسة الصرب . وفى هذا الكلام تعريض غير خفى

P.L., Vol. CCXIV, cols. 481 - 82. (٩)

بكنيسة القسطنطينية التى كانت الكنيسة الأم للكنيسة الصربية .

على أن علاقة ڤولكو بالكرسى البابوى أقلقت شقيقه الأكبر ستيفن. ولذا فقد أرسل ستيفن إلى البابا انوسنت الثالث يعبر عن رغبته هو أيضا فى توثيق علاقات الكنيسة فى « مملكته » بكنيسة روما الرسولية . استجاب البابا على الفور لمطلب الملك الشرعى ستيفن وأرسل أسقف ألبانو ليقوم بتتويج ستيفن ملكا مقابل خضوعه للسلطان البابوى . ولكن إميرى ملك المجر الذى كان على خلاف مع ستيفن لم يمهله لجناية حصاد هذا الحلف مع البابوية . والواقع أن الذى شجع ملك المجر فى تحديه لستيفن تلك السمعة الشائنة التى كانت لصيقة بشخص ستيفن ، وبخاصة فى علاقته مع زوجه يدوكيا ابنة الإمبراطور الكسيوس الثالث انجيلوس . فقد حدث ذات مرة أن لعبت الخمر برأسه فانقض على زوجه ضربا ثم ألقى بها عريانة كما ولدتها أمها أمام أسوار قصره ؛ الأمر الذى صدم مشاعر الرأى العام فى بلاده . وفى عام ١٢٠٢ هجم ملك المجر بجيوشه على ستيفن وهزمه هزيمة نكراء ثم خلعه عن العرش وسلم الحكومة لشقيقه ڤولكو . وأضاف اميرى إلى ألقابه « ملك الصرب » بعد أن أقسم له تابعه ڤولكو يمين الولاء والطاعة . وبعد هذا الانتصار كتب اميرى إلى البابا انوسنت الثالث يعلمه بانتصاره هذا على ملك الصرب . فما كان من البابا إلا أنه رد عليه فى رسالة ودية يهنئه على انتصاره الباهر « الذى هو أيضا انتصار للكنيسة الرومانية » وللنفوذ البابوى(١٠) .

كان ملك المجر على استعداد لإخضاع كنيسة صربيا للسلطان البابوى مقابل اعتراف انوسنت الثالث بحقوقه كملك على الصرب . واتفق الطرفان على هذا ، وسرعان ما أرسل البابا إلى رئيس أساقفة كالوتزا المجرى يفوضه فى تلقى يمين الولاء والطاعة من ڤولكو ومن رجال الكنيسة الصربية جميعا للكرسى البابوى . وطلب البابا من رئيس الأساقفة أن يعلن فى وضوح

(١٠) Ibid., col. 971.

زائد وباسم البابا فصل الكنيسة الصربية تماما عن كنيسة بيزنطية « لأن بطريرك القسطنطينية متمرد ضدنا وهو لا يستحق الاحترام »[١١] .

نهج أنوسنت الثالث نفس السياسة العدائية تجاه كنيسة بيزنطة فى بلغاريا. فقد حدث أن كتب يوهانتزا «إمبراطور البلغار والولاشيين » (١١٩٧—١٢٠٧)، بعد أن وحد بلغاريا ورومانيا وأجزاء من روميليا فى مملكة واحدة تحت سلطانه، إلى البابا انوسنت الثالث يطلب منه الاعتراف به « إمبراطوراً » مقابل إخضاعه الكنيسة البلغارية لكنيسة روما . رد البابا على الخان البلغارى يفصل له كيف أن مكتوبه قد شرح صدره وبأنه كان يتطلع إلى حنوه على أمه كنيسة روما «لأن أسلافه من دم رومانى ، كما وأن هذا الدم النقى الأصيل هو الذى أنبت فيه هذا الولاء للكرسى الرسولى فى روما» [١٢] على أن البابا لم يلب طلب يوهانتزا فى أمر اللقب الإمبراطورى وكتب إليه ليفهمه أن أمر اللقب مسألة ثانوية بالنسبة لمستقبل الكنيسة البلغارية ؛ « خاصة وأن السجلات المحفوظة فى الأرشيفات البابوية قد كشفت لنا أن أحد الأمراء البلغار السابقين قد طرد رجال الدين الرومان من ملكه وأحل محلهم قسيسين « فاسدين » من أتباع الكنيسة البيزنطية »[١٣] .

وفى عام ١٢٠٣ كتب يوهانتزا من جديد إلى البابا يؤكد له ولاءه لكنيسة روما وللبابا « سيد كنائس الشرق والغرب . . . صاحب الحل والربط وخليفة القديس بطرس » . ولكى يستميل البابا للموافقة على الإنعام عليه بلقب الإمبراطور ذكر يوهانتزا أنه ما إن علم امبراطور وبطريرك بيزنطة بهذا التقارب بينه وبين البابا حتى بعثا إليه يقولان « أقدم إلينا فنحن مستعدون لتتويجك إمبراطوراً ونخلق بطريركية لملكك ؛ لأنه لا يحسن لامبراطورية أن تخلو من بطريركية »[١٤] . ولكنه (يوهانتزا) يفضل قبول

(١١) P.L., Vol. CCXV, col. 29.

(١٢) P.L., Vol. CCXIV, col. 825.

(١٣) Ibid., col. 1115.

(١٤) P.L., Vol. CCXV, cols. 155 - 56.

التاج من يدى البابا «لأن ولائى للرسول بطرس وخليفته يفوق كل شىء»[١٥].

كان هذا كفيلا لأن يسرع البابا فى استدعاء بازل رئيس أساقفة زاجورا فى ١٠ سبتمبر ١٢٠٣ ، ليفوضه نيابة عنه فى تتويج يوهانتزا وفى إنشاء بطريركية لمماكة البلغار. ولكن رئيس الأساقفة وقع أسيرا فى يد السلطات البيزنطية عند دورازو واحتجز هناك ثمانية أيام[١٦] .

وفى نفس الوقت أرسل البابا مندوباً خاصاً عنه إلى مدينة درنوفا بالقرب من العاصمة ترنوفا لإنجاز المهمة فى بلغاريا . وبالفعل كرس بازل رئيسا للكنيسة البلغارو– ولاشية وتلقى قسم الولاء والطاعة من الإكليروس البلغارى لكنيسة روما . وهناك وثيقة هامة موجهة من بازل هذا إلى البابا انوسنت الثالث تكشف عن حرصه على تسفيه الكنيسة البيزنطية وطقوسها لدى البابا . فقد كتب البطريرك البلغارى إلى البابا يطلب منه كمية من الزيت المقدس لاستخدامه فى مراسم العماد وبعض الطقوس الأخرى، وراح الكاتب يقول «حقيقة أن لدينا كمية من هذا الزيت ولكنها وردت إلينا من كنيسة القسطنطينية ، ولكنا ، مثلنا فى هذا مثلكم ، نبغض البيزنطيين وزيتهم »[١٧] .

رأى إميرى ملك المجر فى أنشطة يوهانتزا خطرا يهدد سكانه كسيد على الصرب ، كما أنه رأى فى هذا التقارب بين « الإمبراطور » البلغارى والبابا انوسنت الثالث تهديدا مباشرا لنفوذه . ولذا فقد قبض إميرى على المندوب البابوى وهو فى رحلته إلى بلغاريا . ولما علم البابا بهذا كتب رسالة غاضبة إلى الملك المجرى جرت على هذا المنوال : « لعله لايخفى عليكم كم عانى الشعب البلغارى المسكين من جبروت أباطرة بيزنطة وطغيانهم .. وها أنت ذا تقف فى طريق ابننا الروحى الحبيب يوهانتزا لتحول دون

(١٥) Ibid.

(١٦) See the Archbishop's lettr to Innocent III in 1204, in P.L., Vol. CCXV, col. 288.

(١٧) Ibid., col. 289.

تتويجه على يد مندوبنا ولكأنك تمنع أباه الرحيم من استنقاذه من مخالب الظلم مع أنه شبيه بذلك الابن الضال الذى رجع بعد البؤس إلى بيت أبيه يطلب الصفح والغفران، فذبح له أبوه العجل المسمن أضحية لرجوع الابن العاق عن الضلال »(١٨) .

* * *

يتضح من هذه الوثائق المتبادلة بين البابا انوسنت الثالث والسلطات فى صربيا وبلغاريا والمجر مدى حرصه على فصل الكنيستين الصربية والبلغارية عن الكنيسة الأم فى القسطنطينية . وكانت هذه سياسة مقصودة لتقويض نفوذ بطريركية بيزنطة المسكونية فى البلقان ولإحلال النفوذ اللاتينى مكانها . وتنطق الوثائق التى بين أيدينا ، عن سياسة انوسنت الثالث تجاه الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها ، بإصرار عنيد على إدانة الكنيسة البيزنطية بالضلال والانحراف وبإصرار أزيد على تقويم هذه الانحرافات بالقوة بغية توحيد الكنيسة العالمية تحت رعاية « راع واحد » هو انوسنت ذاته .

ففى عام ١١٩٨ كتب البابا انوسنت الثالث إلى الإمبراطور الكسيوس الثالث يطلب منه « مخافة الله وعروسه الحبيبة كنيسته روما » . وراح البابا يحذر الإمبراطور من أن الشعب المسيحى والبابا ذاته، لا، بل المسيح نفسه ، غاضبون جميعاً على بيزنطية ؛ لأن إمبراطورها لم يفلح فى إرجاع كنيسة بيزنطة الضالة إلى الوحدة مع سيدة الكنائس فى روما ، « لأنه لا يمكن بحال الاعتراف بكنيسة البيزنطيين المنشقة كنيسة حقيقية » . واختتم البابا رسالته بتوجيه إنذار إلى الكسيوس بأنه إن لم يتدارك المسئولون الأمر فإنه عازم على استخدام القوة لمحاربة الخطأ والاعوجاج فى كنيسة بيزنطة المنفصلة، لأنه لن يسمح لها بالمضى فى شقاقها وانفصالها عن البابوية صاحبة الإمارة على جسد الكنيسة العالمية(١٩) .

---

(١٨) Ibid., cols. 413 - 17.

(١٩) P.L., Vol. CCXIV, cols. 325 - 27.

كذلك كتب انوسنت الثالث إلى يوحنا العاشر كما تيروس بطريرك القسطنطينية (١١٩٨–١٢٠٦) رسالة خالية من التحية المعهودة فى المراسلات بين هايرياركية الكنائس . وجاءت هذه الرسالة لتنفى صفة الكنيسة عن كنيسة بيزنطة « بسبب حماقتها وسحابة الجهل المخيمة عليها وانشقاقها عن كنيسة روما » . ومضى البابا فى تقريعه لبطريركية القسطنطينية معلنا أنه لن يرضى على هذا العار الذى جلبه البيزنطيون على الشعب المسيحى وكنيسته الطاهرة الواحدة الوحيدة الرسولية[٢٠] .

ولكن كماتيروس رد على انوسنت الثالث وفند مزاعمه ضد كنيسة بيزنطة واستنكر عليه مطالبته لروما بالإمارة على كنائس العالم مذكرا إياه بأن السلطة الوحيدة التى تمتلك هذا الحق هى المجامع المسكونية التى حرصت القسطنطينية دواماً على الالتزام بقراراتها فى حين أن كنيسة روما قد عصفت بها بالعبث بقانون الإيمان النيقى وإضافة عبارات دخيلة عليه فى خصوص انبثاق الروح القدس . ثم تساءل البطريرك فى نهاية رسالته عمن أصاب جسد الكنيسة بالصدع والشقاق : روما أم بيزنطة ؟ [٢١] .

هذا وقد كتب الإمبراطور الكسيوس الثالث إلى البابا يخطب وده ويتملقه مبديا استعداده لمناقشة أمر وحدة الكنيسة . على أنه ذكر البابا أن الدولة البيزنطية كثيرا ما قدمت العون للحملات الصليبية ولكن قواد تلك الحملات ، وخاصة فردريك بربروسا ، قد عاملوا البيزنطيين معاملة قاسية فغزوا أرضهم ونهبوا أقواتهم[٢٢] وفى نفس الوقت طلب الكسيوس من البابا التدخل لإرجاع جزيرة قبرص لبيزنطة من يد مغتصبها عمورى الثانى من لوزينيان[٢٣] .

هذا وقد فات الكسيوس الثالث أن يعلم أن أنوسنت الثالث ذاته قد بسط حمايته على ملك وملكة قبرص فى عام ١١٩٨ ، متعهداً بصون ملكهما

(٢٠) Ibid., cols.9 327 - 29.

(٢١) Ibid., cols. 756 - 57.

(٢٢) Ibid., cols. 765 - 68.

(٢٣) Gesta Innocentii III, cols. cxxiii - cxxiv.

ضد أى تدخل خارجى وذلك فى عام ١١٩٨ (٢٤) . ولذا فقد كتب البابا إلى الإمبراطور البيزنطى يقول : « لقد جاء مطلبك ليؤذى آذاننا الرسولية بسبب الشرور المنطوية عليه والنوايا السيئة ضد ولدنا الغالى الحبيب ملك أورشليم وقبرص » . ومضى البابا يحذر الكسيوس من محاولة تهديد قبرص لئلا يضطر الملك عمورى إلى تركيز جهوده للدفاع عن الجزيرة فيفت هذا فى عضد القضية الكبرى وفى صراعه الصليبى فى الأرض المقدسة فى الشام (٢٥). كذلك كتب البابا إلى فيليب أغسطس ملك فرنسا يخبره بمطلب الكسيوس الثالث ، طالبا منه أن يبعث إليه بتهديد إن هو جرؤ على التعرض للملك عمورى وجزيرته قبرص (٢٦) .

وفى مايو ١٢٠٠ كتب البطريرك يوحنا كماتيروس إلى البابا انوسنت الثالث رسالة هاجم فيها مزاعمه فى إمارة روما على الكنيسة العالمية ، موضحا أن موت القديس بطرس فى روما لا يمكن بحال أن يبرر هذه الدعوى . فإذا كان بطرس قـد بشر فى روما فهو أيضا قد بشر فى أنطاكية . كما أن بطرس ليس أميز من إخوته الرسل الآخرين الذين قاموا مثله بالتبشير فى مدائن أخرى . كذلك لا يمكن اعتبار استشهاد بطرس فى روما شرفا لها بل عارا عليها . ومضى البطريرك يؤكد أن هناك أميرا واحدا للكنيسة العالمية وهو المسيح ذاته . وهذا الأمير « الضابط للكنيسة» يسير أمورها عن طريق حواسه الخمس أى البطارقة الخمسة ، الذين هم جميعا متساوون فى عين الله . أما الكلام الذى وجهه السيد المسيح (أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى) فهو أيضا موجه بنفس الثقل إلى سائر الرسل من إخوة بطرس . وما قيل لواحد من التلاميذ إنما قيل لجميعهم. وإذا كانت روما تفخر بأنها كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، فلنتذكر أيضا أن هذه الإمبراطورية كانت وثنية . أما القسطنطينية فهى

(٢٤) P.L., Vol. CCXIV, col. 417.

(٢٥) Gesta Innocentii III, loc. cit.

(٢٦) P.L., Vol. CCXIV, cols. 809 - 10.

العاصمة الأولى للإمبراطورية الرومانية المسيحية بعد خسران الوثنية وزوالها. كذلك أوضح كماتيروس القيمة التاريخية لأسقفيات أورشليم وأنطاكية وأشار إلى أن لفظة « مسيحى » ظهرت لأول مرة فى مدينة أنطاكية . وعليه فإن أنطاكية — وهى أيضا أسقفية القديس بطرس — لها الحق فى المناداة بالإمارة على الكنيسة لنفسها . واختتم البطريرك البيزنطى رسالته بأن « ما قد أوضحته هنا هو ما تتمسك به الكنيسة البيزنطية فى حزم، وأنه شخصياً لن يتزحزح عن هذه المبادىء حتى ولو قوبل بالتهديد والوعيد من أية جهة مهما كان سلطانها »(٢٧) .

وهكذا فإن أطماع أنوسنت الثالث وعداوته لكنيسة بيزنطة قوبلت بالاستنكار الشديد من جانب اكليروس أيا صوفيا وعلى رأسهم يوحنا كماتيروس . ولكن البابا كان يشعر أنه صاحب السلطة كلها فى غرب أوربا، وكان يعلم أن بيزنطة قد شاخت سياسياً . ولذا فقد عقد العزم على إخضاع كنيستها بالقوة لسلطانه . وما من شك أن موقفه العدائى هذا تجاه إمبراطور القسطنطينية وبطريركها قد ساهم مساهمة إيجابية فى تحول الصليبية الرابعة عن هدفها الأصيل إلى غزو مدينة القسطنينية فى عام ١٢٠٤ كما سنرى.

بدأ انوسنت الثالث الدعوة إلى حملة صليبية منذ جلس على عرش كنيسة روما . ففى عام ١١٩٨ كتب إلى أسقف سيراكيوز وإلى مقدم دير سامبوكين يطلب منهما استنفار أهالى صقلية لحمل الصليب والرحيل للقتال فى الأرض المقدسة(٢٨) . وفى نفس العام أرسل إلى رئيس أساقفة ناربون ومقدمى أديرتها وأساقفتها يذكرهم بقول داود النبى فى مزاميره « إذا نسيتك يا أورشليم فلتنس يمينى مكرها » ، طالبا منهم الدعوة إلى حمل الصليب والسير إلى بيت المقدس(٢٩) . كذلك كتب البابا إلى أسقف ليدن

---

(٢٧) V. Grumel, Le Patriarcat Byzantin, Vol. II, 2, p. 122.

(٢٨) P.L., Vol. CCXIV, col. 265.

(٢٩) Ibid., cols. 308 - 12.

يطلب منه مواصلة الجهد لإثارة حماس أهل صقلية لقضية أورشليم الضائعة من يد الصليبيين. وأشار البابا فى رسالته هذه إلى جهوده فى محاولة عقد صلح بين ملكى إنجلترا وفرنسا المتنازعين وإلى مفاوضاته مع جمهوريات بيزة وجنوة والبندقية بغية تجنيد أساطيلها لخدمة الحملة الصليبية المزمع تكوينها[٣٠].

بعد هذا أرسل البابا إلى فرنسا مندوبه بطرس كاردينال سانتا ماريا دى ڤيالاتا ليقنع ملك فرنسا بضرورة عقد صلح بينه وبين ملك إنجلترا لادخار قوة المملكتين للحملة الصليبية. وفى نفس الوقت كان على هذا القاصد الرسولى الإشراف على كبار رجال الدين الفرنسيين فى تبشيرهم بالصليبية. وسرعان ما ظهر الحماس فى غرب أوربا من جديد للحركة الصليبية، كما راح الكثيرون يبشرون بها فى مختلف البلدان اللاتينية.

ولعل أشهر من بشر بهذه الصليبية رجل يدعى فولك من أبروشية نويل وهى مدينة صغيرة تقع ما بين باريس ولانجرى سيرمارن. ولم يكن فولك صاحب ثقافة، إذ كان مجرد ريفى ساذج ولكنه كان يملك «هذا القبس القدسى» الذى جعل المعاصرين يشبهونه ببسطاء الصيادين فى بحر الجليل الذين اتخذهم المسيح له تلاميذاً[٣١]. ويظهر فولك بادىء الأمر فى المصادر المعاصرة مجرد رجل علمانى[٣٢]. ولكنه فجاءة يطل علينا وهو فى مسوح الرهبان. بعد هذا انتقل فولك إلى باريس حيث راح يدرس اللاهوت ولكأنه «كان يلتقط الحجارة اللازمة ليسقط بها الجبار جوليات[٣٣]». وتتلمذ هناك على يد المعلم بطرس لى شانتر الذى قربه منه وكلفه بالتبشير بالصليبية نيابة عنه. وسرعان ما ذاعت شهرة فولك فى باريس حتى كان القسيسون يتسابقون فى دعوته إلى كنائسهم ليتكلم فى جمهور المصلين هنا وهناك.

(٣٠) Ibid., col. 318.

(٣١) J. de Vitry, Historiae Occidentalis (ed. F. Moschi), Duaci, 1597, CCCXXIV.

(٣٢) "Saeculariter tanquam animalis".

(٣٣) J. de Vitry, op. cit., loc. cit.

وقد رتب له بطرس لى شانتر تلك المناسبة التى وقف فيها على المنصة فى سانت سيفيرين حيث كان حاضرا جمهور من خيرة أساتذة اللاهوت والفلسفة، وتكلم فولك وابكى الحاضرين، حتى إنهم راحوا يؤكدون أن «الروح القدس كان ينطق من فم فولك» . فى حين أن فريقا آخر راح يقارنه بالقديس بولس ذاته (٣٤) . وكان شيئا طبيعيًّا أن نسجت أساطير عديدة حول شخص هذا «القديس» فقيل عنه إنه شفى المرضى وأتى بالمعجزات باسم الروح القدس (٣٥) .

ولما وصلت الأنباء عن فولك هذا إلى «المسامع البابوية» كتب إليه انوسنت الثالث فى نوفمبر ١١٩٨ يبارك له فى جهوده ويفوضه بالتبشير باسمه للحملة الصليبية متعاونا مع القاصد الرسولى فى فرنسا . كما طلب منه السعى لضم «الرهبان البيض والسود فى غالة» إلى صف الحملة (٣٦) .

وبينما راح فولك والقاصد الرسولى يبشران بالصليبية فى فرنسا ، كان مارتينوس مقدم دير پايرس يبشر بها فى ألمانيا بتفويض من البابا أيضا . ووعد مارتينوس هذا من ينخرط فى الحملة بغفران لخطاياه وبنصيب وافر من الأراضى والثروة فى بلاد الشرق (٣٧) . وقد لبى الكثيرون من رجال الدين والعلمانيين دعوة مارتينوس للصليبية . كما وكل قيادة بعض الفرق إلى نفر من الاساقفة الألمان حتى تجمعوا تحت إمرته عند مدينة فيرونا (٣٨) .

وفى أواخر عام ١١٩٩ وجه البابا نداءاً إلى رؤساء الأساقفة فى غرب أوربا يأمرهم فيـــه باقتطاع جزء من دخول سائر رجال الدين لتمويل الصليبية (٣٩) . كما أعلن أنه هو وكرادلته فى الكيوريا وإكليروس مدينة

---

(٣٤) Ibid.

(٣٥) Geoffroy de Villehardouin, La Conquête de Constantinople (ed. N. de Wailly), Paris, 1872, C.I.

(٣٦) P.L., Vol. CCXIV, cols. 375 - 76.

(٣٧) Gunther of Pairis, Historia Captae a Latinis Constantinopoleos, in P.L., Vol. CCXII, cols. 226 - 28.

(٣٨) Ibid., cols, 229 - 30.

(٣٩) P.L., Vol. CCXIV, Cols. 828 - 30.

روما قد قرروا دفع «عشور» دخولهم لمدة عام للمساهمة فى تمويل الحملة. كذلك خاطب البابا هذا النفر من الكونتات والبارونات الذين كانت لهم سيرة سيئة فى المجتمع الغربى يعرض عليهم الغفران لآثامهم القديمة إذا حملوا الصليب وشاركوا فى الحملة لخدمة كنيسة القديس بطرس . ويتضح هذا الاتجاه الذى نهجه انوسنت الثالث فى رسالته إلى كونت فورز إذ كتب إليه يذكره بأن البابوات الذين توالوا على كرسى العرش البطرسى قد أصدروا ضده قرارات اللعنة بسبب جرائمه المتتابعة ، ولكنه فى وسعه الآن التكفير عن آثامه بحمل شارة الصليب والمشاركة فى الحملة الصليبية التى يبشر بها البابا[٤٠] . كذلك رحب انوسنت الثالث بقرار التوبة الذى اتخذه بلدوين كونت فلاندرز بعد أن أصدر ضده قرار الحرمان والقطع . وبلدوين هذا هو أبرز شخصية فى الحملة الصليبية الرابعة وهو الذى سيحمل التاج البيزنطى فوق رأسه كأول إمبراطور لاتينى للإمبراطورية البيزنطية بعد غزوها على يد هؤلاء الصليبيين . وليس من قبيل الصدفة أن يكون البابا انوسنت الثالث قد رفع قرارى الحرمان عن بلدوين وأراضيه وأن يكون البابا قد بسط عليه وزوجه وضياعه حمايته الشخصية وحماية الكرسى الرسولى علامة على تبعية بلدوين وأراضيه للسيد البابا انوسنت الثالث . ولعل أهم فقرة وردت فى كتاب البابا هذا تلك التى نص فيها على «حمايتك وعشيرتك وأراضيك التى تملكها الآن والتى سوف تكون من نصيبك فى المستقبل»[٤١] .

تحمس الكثيرون لتلبية نداءات انوسنت الثالث للمشاركة فى الحملة الصليبية الرابعة ، وكان على رأس النبلاء الذين حملوا الصليب ثيبوت كونت شمبانى وبرى، والكونت لويس صاحب بلوا وشارترز ، من أقارب ملكى فرنسا وإنجلترا[٤٢] . وبعد قليل أعلن بلدوين كونت فلاندرز هو وزوجه قرارهما بالمشاركة فى الحملة ، كما حذا حذوهما هنرى شقيق بلدوين ،

(٤٠) P.L., Vol. CCXIV, cols. 384 - 85.

(٤١) Ibid., cols. 582 - 85.

(٤٢) Villehardouin, C. II.

ورينيه من ترت ، وغليوم من بثوين ، وجان من نزلز ، وبرنارد من سوبرهاين وعديدون آخرون[٤٣] . وسرعان ما تحمس للفكرة أيضا هيو كونت سان بول وابن أخيه بطرس من إميان والعديد من أفصالهما[٤٤] .

وكان من بين كبار رجال الدين الذين انخرطوا فى الحملة الصليبية الرابعة جارنيه أسقف تروى ، ونيفيلون أسقف سواسون ، وأسقف أوتون ، وكونراد أسقف البرشتات ، ومقدم دير فو — دى — سرناى ، ومقدم دير لووس ومارتينوس مقدم دير پايرس ، وجان من نويون القسيس الخاص للكونت بلدوين صاحب فلاندرز وعدد لايحصى من رجال الدين من المراتب الصغيرة ، جلهم من جماعة السيسترشيان[٤٥] . وفى المؤتمر الذى انعقد عند مدينة كومبين أعلن قادة الحملة من النبلاء ، وعلى رأسهم ثيبوت ، تفويضهم لستة من فرسان الحملة للسفر إلى أى من الموانى الغربية لعقد اتفاق لنقل رجال الحملة على أسطول إحدى الجمهوريات الإيطالية . وهؤلاء الستة كانوا جيوفرى من فلهاردوان مارشال شامبانى (وهو مؤرخنا المرموق للحملة الرابعة)، وميلون لى بريبانت ، وكانون من بثوين ، وآلارد ماكورو ، وجان من فريز ، وجوتييه من جودونفيل . قرر هؤلاء السفراء السفر إلى البندقية لفتح باب المفاوضات مع دوجها هنرى داندلو فى شأن استخدام أسطول جمهوريته لنقل رجال الصليبية الرابعة[٤٦] .

رحب داندولو بهؤلاء السفراء الفرنجة وبعد مناقشات ودية اتفق الطرفان على الآتى : تقدم البندقية السفن اللازمة لنقل ٤٥٠٠ من الخيول و٩٠٠٠ من المقاتلين ، وسفنا أخرى لتقل ٤٥٠٠ من الفرسان و٢٠,٠٠٠ من المشاة. وتتعهد الجمهورية أيضا بضمان تموين رجال الحملة وخيولهم لمدة تسعة أشهر . «وحبا فى الله تتعهد البندقية بتزويد الحملة بخمسين قطعة حربية

(٤٣) Ibid., C. V - VII.

(٤٤) Ibid.

(٤٥) Ibid., passim.

(٤٦) Ibid., C. VIII - X.

بحرية مسلحة — على حسابها — لتخدم الله وقضية المسيحية ». وفى مقابل هذا كان على الفرنجة دفع خمسة ماركات عن كل خيل وماركين عن كل رأس . هذا إلى جانب تسليم البندقية نصف الغنائم التى قد تحصل عليها الحملة سواء فى البر أو فى البحر (٤٧) .

بعد هذا دعا داندولو شعب جمهوريته لصلاة خاصة فى كاتدرائية سان مارك لسماع قداس الروح القدس « وللابتهال لله ليلهمهم الصواب فى حلفهم مع سفراء الفرنجة » . وقد حضر هذه الصلاة عشرون ألفا من أهل الجمهورية . وعقب الانتهاء من طقوس القداس طلب الدوج من جيوفرى ڤلهاردوان مخاطبة جمهور المصلين وطلب موافقتهم على المعاهدة المبرمة بينهم وبين الجمهورية . ووقف ڤلهاردوان وتكلم فقال إن السادة من نبلاء فرنسا وهم أمجد وأقوى الخلق شرفا وسلطانا قد بعثوا به وبإخوانه إلى دوج البندقية ليطلبوا منه ومن شعبه النظر بعين العطف إلى قضية أورشليم التى قد وقعت فى الإسار ، وذلك بالمساهمة بقوة أسطولهم العظيم فى هذه الحملة إلى ماوراء البحار . وقد فعلت كلمات ڤلهاردوان فعل السحر فى قلوب البنادقة فانهمر الدمع من عيونهم مدرارا وصاحوا جميعا « نحن موافقون ، نحن موافقون » . وبعد هذا المشهد الرائع تلمس الدوج — الأعمى — خطاه ووقف على المنصة فأشاد بجنس الفرنجة وببطولتهم وشكر شعبه على حماسهم من أجل الدفاع عن قضية المسيح (٤٨) .

وقعت المعاهدة بين الفرنجة وجمهورية البندقية فى أبريل ١٢٠١ . وبعدها بقليل أوفد الطرفان رسلا من لدنهما إلى المقام البابوى لاعتماد نصوص هذه المعاهدة . وقد وافق البابا على المعاهدة وبارك جهود الطرفين فى خدمة الصليبية الرابعة (٤٩) .

---

(٤٧) Ibid.

(٤٨) Ibid., C. XVI, C. XVII.

(٤٩) Gesta Innocentii III, cols. cxxxi.

توفى الكونت ثيبوت فى ربيع ١٢٠١ ، فانعقد مؤتمر عند مدينة سواسون لاختيار قائد جديد للحملة الرابعة . وكان بين الحاضرين بلدوين كونت فلاندرز ، ولويس كونت بلوا ، وجيوفرى كونت برش ، وهيو كونت سان پول . اتفق المؤتمرون على توجيه الدعوة إلى بونيفاس ماركيز مونت فرات ليتلقى مهمة قيادة الحملة خلفا للكونت ثيبوت الراحل . ووافق الماركيز على هذا المطلب ، وعليه فقد صحبه أسقف سواسون وفولك دى نويل وراهبان آخران إلى كنيسة نوتردام دى سواسون حيث قلدوه علامة الصليب (٥٠) وفى يوم أحد أسبوع الفصح لعام ١٢٠٢ بدأ الصليبيون يرحلون عن ولاياتهم المختلفة للسفر إلى البندقية . وهناك تجمعوا فى معسكراتهم على جزيرة سان نيقولا دى ليدو . على أن جمعا وافرا منهم أعلنوا أنهم لا يمكنهم الوفاء بنفقات الرحلة . ولذا فقد تبرع أغنياء الحملة بقدر من المال ، ولكن برغم هذا كان المبلغ المتفق عليه مع جمهورية البندقية ما زال يعجز ٣٤,٠٠٠ مارك (٥١) .

شرح الدوج الموقف لشعبه وبعد مشاورات مع نبلاء الجمهورية أعلن داندولو أنه إذا وافق الصليبيون على مساعدة البنادقة فى غزو مدينة زارا الهنغارية فإن جمهورية سان مارك ستمهل الصليبيين دفع المال العاجز «حتى يقيض الله لنا ولهم هذا الغزو بنجاح» (٥٢) . ووافق قادة الصليبية الرابعة على مشروع داندولو وشعبه ، خاصة بعد أن علموا من الدوج أن مدينة زارا وافرة الرخاء والخيرات (٥٣) .

بعد هذا الاتفاق بين البنادقة « والحجاج الفرنجة » لغزو مدينة زارا

---

(٥٠) Villehardouin, XXVII.

(٥١) Ibid., XXXV.

(٥٢) Ibid., XXXVIII.

(٥٣) Robert de Clari, La Conquête de Constantinople (ed. P. Laucr), Paris, 1924, pp. 12 - 13.

المسيحية والتابعة للملك عضو هو وشعبه فى الكنيسة اللاتينية ، تجمع الشعب ودوجهم فى كاتدرائية سان مارك لطلب البركات من القديس لمشروعهم الحربى . وصعد الدوج مرة أخرى إلى منصة الكاتدرائية وأعلن لجمهور المصلين أن شرفاً بالغا قد حل بهم وبجمهوريتهم لتحالفهم مع « خير وأشجع الرجال فى العالم» فى حملة لم يسبق لها مثيل . ثم راح الدوج يرجو البنادقة من الحاضرين فى الكنيسة السماح له بحمل الصليب مع الفرنجة وإنابة ابنه عنه فى الحكم أثناء غيبته عن الجمهورية . ووافق البنادقة على هذا المطلب ، وهنا ركع الدوج أمام المذبح « وبكى بكاءاً مريرا » . وعلى التو برز أحد خلصائه وعلق شارة الصليب على واجهة قبعته حتى يبصرها الجميع فيحذو حذوه الشجعان من أهل البندقية (سبتمبر ١٢٠٢) [٥٤] .

بينما كان هذا يجرى فى البندقية كانت أحداث أخرى بالغة الأهمية تتابع فى غرب أوربا . فلقد ظهر الأمير الصغير الكسيوس الرابع نجل الإمبراطور المخلوع إسحق انجيلوس فى الغرب اللاتينى . وهناك من الأدلة القوية مايدعو إلى رفض رواية جيوفرى ڤلهاردوان عن وصول الكسيوس هذا إلى الغرب فى أغسطس عام ١٢٠٢ ، وإلى افتراض وصوله فى خلال عام ١٢٠١ . فنيكيتاس كونياتس يؤكد أن الإمبراطور المغتصب للعرش ألكسيوس الثالث قد أطلق سراح ابن أخيه ألكسيوس الرابع من السجن فى عام ١٢٠١ واصطحبه معه إلى إحدى المعارك ضد أحد الضباط المتمردين والمدعو عمانويل كاميزيس . على أن الأمير الشاب هرب من معسكر عمه واستقل سفينة پيزية كانت راسية فى ميناء آثيرا . وقد تمكن الكسيوس من الإفلات من عملاء عمه بأن قص شعره على الطريقة اللاتينية وارتدى ملابس شبيهة بالزى الغربى . وبهذا هرب فى عام ١٢٠١ إلى ألمانيا ليطلب العون من أخته ايرينى وزوجها فيليب دوق سوابيا [٥٥] .

(٥٤) Villehardouin, XXXIX.

(٥٥) Nicetas Choniates, Historia, De Alexio Angelo III, pp. 711 - 12.

وهناك دليل آخر نجده فى الـ Gesta Innocentii فى قولها بأن المركيز بونيفاس دى مونت فرات — قائد الحملة الصليبية الرابعة — بعد أن تدارس هو وفيليب دوق سوابيا خطة لإرجاع الأمير الكسيوس إلى عرش بيزنطية قام بزيارة خاصة للبابا انوسنت الثالث وكان يحمل معه رسالة من فيليب إلى البابا تدور حول هذا الأمر (٥٦) فلما علم الإمبراطور الجالس على عرش بيزنطية — الكسيوس الثالث — بالأمر بعث إلى البابا أنوسنت الثالث يعرض عليه موافقته على مناقشة مشروع وحدة كنيستى بيزنطة وروما إن أحجمت البابوية عن تعضيد مخطط فيليب السوابى لصالح ألكسيوس الصغير . ورد البابا على الإمبراطور البيزنطى فى ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ برسالة جاء فيها أن الأمير الكسيوس الأصغر قد زاره فى روما، وفى تحديد الفترة التى انصرمت منذ حدوث هذه الزيارة استخدم البابا فى رسالته هذه لفظة Olim . وهذه اللفظة بالذات لا يمكن بحال أن تشير إلى تاريخ يقع فى أغسطس ١٢٠٢ وهو التاريخ الذى يقدمه لنا ڤلهاردوان ، وإنما هى تشير إلى تاريخ أبعد من هذا بكثير يتحتم أن يكون فى عام ١٢٠١ (٥٧) . ولهذا فإن دليل ڤلهاردوان فى هذه النقطة غير مقبول .

والواقع أن فيليب السوابى كان على اتصال دائم بالبابا انوسنت الثالث منذ

---

(٥٦) Gesta Innocentii III, col. Cxxii. "Ipse vero (Bonifiacius Montisferrati marchio dux Christiani exercitus) de Francia per Alamanniam transitum fecit, ubi cum Philippe Duce Sueviae, qui se regem gerebat, dicebatur habuisse tractatum, ut Alexium sororium suum, filium videlicet Isachii quondam Constantinopolitani imperatoris, cujus sororem ipse Philippus duxerat in uxorem, ad se captivitatis ergastulo fugientem reduci feceret Constantinopolim ab exercitu Christiano ad obtiendum Imperium Romaniae. De quo, cum idem marchio ad summum Pontificem accessisset coepit agere a remotis".

(٥٧) P.L., Vol. CCXIV, col. 1124. "Nos autem imperiali prudentiae taliter duximus respondendum, quod praedictus Alexius *olim* ad praesentiam nostram accedens." .

١١٩٩ يخطب وده من أجل تأييده في الحصول على التاج الألماني بدلا من المرشح الآخر أوتو من برونزويك . وكان فيليب يعقد العزم على أن يتوج إمبراطورا للغرب وبعدها يكمل مشروع شقيقه الراحل هنري السادس في قيادة حملة صيلبية على الشرق لها نفس الأغراض التي كان قد رسمها لها خلف بربروسا . وهناك مصدر آخر يذكر أن فيليب السوابي قد كتب إلى البابا انوسنت الثالث في عام ١٢٠٣ يؤكد له : « إن من الله عليه أو على نسله بالسيطرة على بيزنطة فإنه سيخضع كنيسة بيزنطة لسلطان كنيسة روما » (٥٨) .

وهناك من الدلائل العرضية ما يؤيد صدق هذه النظرية . فمثلا كان القائد الأعلى للحملة الصيلبية الرابعة ، بونيفاس دى مونت فرات ، متغيبا عندما قام رجاله هم والبنادقة بحصار مدينة زارا الهنغاربة في ١١ نوفمبر ١٢٠٢ ، وهذا يوحى بأن القائد العام للحملة قد تخلف في مدينة البندقية عن عمد لمباشرة أمر بالغ الأهمية والسرية . كذلك ليس من باب الصدفة أنه بعد وصول سفراء الأمير الشاب الكسيوس الرابع إلى البندقية بوقت وجيز جدا ، ظهر سفراء فيليب السوابي : أسقف هالبرشتات ، الجراف برتولد ڤون كاتزلنبوجن ، جارنييه ڤون بورلاند ، ديترس فون لوس ، هنريك ڤون أولمن ، روجر ڤون سوسترن ، الكسندر فون فليرز ، وأورى ڤون دون ، هنالك أيضاً (٥٩) .

سقطت زارا في يد البنادقة وحلفائهم الصليبيين في ١٣ نوفمبر ١٢٠٢ . ثم اقتسم الفريقان الغنائم التي وقعت في أيديهما بعد قتل الأهلين ونهب أملاكهم . ولم يكتف الدوج داندولو بهذا وإنما — حبًّا في الانتقام فرق كل

---

(٥٨) Odoricus Raynaldus, Annales Ecclesiastici, Vols. 13 - 21, Coloniae Agrippinae, 1694 - 1727, ad. an. 1203, no 29 : "Si omnipotens Dominus regnum Graecorum mihi vel levico mes subdiderit, Ecclesiam Constantinopolitanam Romanae Ecclesiae bona fide et sine fraude faciam fore subjectam in omnibus per omnia fidelis et devotus, atque filius et defensor semper ero."

(٥٩) Villehardouin, XLIV.

شيء – فقد عمل على هدم أسوار المدينة ودورها مما حدا بأحد المعاصرين إلى القول بأن « حجراً واحد لم يبق ليساند حجراً آخراً فى المدينة » (٦٠) .

وبعد سقوط المدينة وصل الماركيز بونيفاس دى مونت فرات إلى معسكر الصليبيين . وبعد وصوله إلى هناك بأسبوعين قدم سفراء فيليب السوابى والأمير الكسيوس الرابع إلى قادة المعسكر الصليبى وسلموا إليهم رسالة من فيليب يطلب منهم فيها تعهد شقيق زوجه (الكسيوس) بالرعاية ، والعمل على إعادته بالقوة إلى عرش بيزنطة ؛ مقابل وضعه سائر الإمبراطورية البيزنطية وكنيستها تحت سلطان البابوية ؛ بالإضافة إلى دفع مبلغ ضخم من المال إليهم وكذا إمدادهم بخمسمائة من الفرسان للمشاركة فى حملتهم على بيت المقدس (٦١) .

عقد القادة الصليبيون مؤتمراً لمدارسة الأمر ، وكان مقدم دير لووس والماركيز بونيفاس والكونت بلدوين من فلاندرز والكونت لويس من بلوا والكونت هيو من سان بول يرون ضرورة قبول عروض فيليب السوابى والكسيوس الصغير « لأنه عار علينا أن نرفضها . . ولأنه لا مكاسب يرجى تحقيقها فى سوريا » (٦٢) .

أما هنرى داندولو ورجاله فقد رحبوا بقرار القادة الصليبيين ؛ لأنه جمهورية سان مارك كانت تتحرق شوقاً إلى اليوم الذى تساهم فيه فى تقويض الإمبراطورية البيزنطية ؛ حيث إن هذا يضمن لها حقوقاً اقتصادية طائلة . كما أن الدوج

---

(٦٠) Annales Herbipolenses. Devastatio Constantinopolitana', in M.G.H.SS., Vol. XVI, pp. 9 - 12.

(٦١) Villehardouin, L.I. : "Seignor, fait li rois, Je vos envoierai le frere ma feme, si le met en la Dieu main, qui le gart de mort, et en la vostre . . Tot premierement, se Diex done que vos le remetez et son heritage, il metra tot l'empire de Romanie a la obedience de Rome, dont ele ere partie pieça . . "

(٦٢) Ibid., The Letter of Count Hugh of Saint Pol, in A. Duchesne's Historiae Francorum Scriptores (5 Vois., Paris, 1636 - 49) , Vol. V, p. 272; Rerum Gallicarum Scriptores, Vol. XVIII, p. 517.

داندولو كانت لديه أسباب أخرى تدعوه إلى التفكير جدياً فى الانتقام من القسطنطنية وأهلها ، فلم ينس الدوج ماحل بجالية البنادقة فى العاصمة البزنطية عام ١١٧١ . وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الإمبراطور عمانويل كومنين كان قد أمر بسمل عينى هنرى داندولو هذا ؛ مما غرس شعوراً بالحقد والكراهية دفينين فى قلبه تجاه كل ماهو بيزنطى . [٦٣] كذلك كانت جمهورية البندقية آنذاك على علاقة طيبة مع سلطان مصر الملك العادل الأيوبى . ويروى كاتب Estoire d'Eracles أنه عندما علم الملك العادل بقدوم حملة صليبية جديدة قبالة الشرق أرسل إلى الدوج هنرى داندولو يطلب منه تحويل أنظار الحملة عن مصر ، واعداً إياه بامتيازات تجارية هائلة فى ميناء الإسكندرية وبدفع مبلغ طائل من المال لجمهورية سان مارك . [٦٤] والمعروف أنه فى عام ١٢٠٨ عقد سفيرا البندقية مارينوداندولو وبيترو ميشيل معاهدة مع سلطان مصر ، حصل بمؤداها البنادقة على امتيازات تجارية خاصة بالفعل فى ميناء الإسكندرية .

* * *

لم تكن فكرة الهجوم اللاتينى على العاصمة البيزنطية شيئاً جديداً فى عام ١٢٠٤ ، فلقد حدثت محاولات جدية لهذا الغرض عدة مرات فى مناسبات

---

(٦٣) Joannes Baptista Egnatius, De Exemplis Illustrium Virorum Venetae Civitatis atuqe aliarum Gentium (ed. M. Molinus, Paris, 1554, lib. IX, cap. XII; Marino Sanutus, Vitae Ducum Venetorum Italicae Scriptores ab Origine Urbis sive ab Anno 421 usque ad Annum 1493, in Muratori, R.I.SS., Vol. XXII, col. 532; Marcus Antonius Sabellicus, Dell' Historia Vinitiana, Vinegia, 1558, lib. XXXIII.

(٦٤) Estoire d'Eracles, pp. 251 - 52; Ernoul, Chronique (ed. Mas - Latrie), p. 362 : "Ill alerent en Constantinople. Adonc orent bien fait li Veniciens la requeste que li Sodanz (le Sultan) lor ot faire, que il destornassent les pelerins d'aler en la terre de Surie".

سابقة ذكرناها فى مكانها فى هذا الكتاب . ولكن الفرصة التى أتاحها الأمير الكسيوس الرابع لقادة الصليبية الرابعة والبنادقة كانت فرصة ذهبية لتحقيق هذا الأمل فاهتبلوها دون تردد . وقد وضح لنا فى الصفحات القليلة السابقة كيف أن غالبية أفراد الصيلبية الرابعة لم يكن لديهم من المال ما يستطيعون به سداد أجور انتقالهم على السفن التى أعدتّها جمهورية البندقية لهذا الغرض . والآن وقد وضحت لهم فرص الاغتنام والنهب من كنوز بيزنطة التى لا تحصى ولا تعد سال لعابهم . وكان داندولو يعلم هذا الشعور المتحفز لدى الصليبيين فراح يبين لهم أن الإمبراطورية البيزنطية وافرة الثراء والخيرات وأن فيها كل ما لذ وطاب مما تشتهيه الأنفس (٦٥) . وهنا أعلن القائد العام للحملة بونيفاس دى مونت فرات قراره بالهجوم على مدينة القسطنطنية مبينا أنه يود الوفاء بعهده للملك الألمانى فيليب السوابى لنصرة صهره الكسيوس الأصغر (٦٦) .

ومن الهام جدّا أن نلحظ أنه فى هذه المرحلة بالذات ، عندما قرر الصليبيون الهجوم على العاصمة البيزنطية ، راحت المصادر اللاتينية تكشف الدوافع الحقيقية وراء هذا الغزو المرتقب : فالقسطنطنية وبطريركيتها على ضلال مبين ، وكنيسة بيزنطة مهرطقة ومتمردة ضد سلطان البابا ومنحرفه عن قانون الإيمان ، مما جلب عليها وعلى أهلها كراهية السيد البابا حامى الكاثوليكية والإيمان القويم (٦٧) .

وقعت أحداث حصار ونهب مدينة زارا ما بين ١٣ و ٢٤ نوفمبر ١٢٠٢ .

---

(٦٥) Robert de Clari, p. 28 : "Seigneur, en Grece a molt rike terr et molt plentive de tous biens; se nous poiemes avoir raisonable acoison d'aler y et de prendre viandes en la tere et autre coses . ."

(٦٦) Ibid.

(٦٧) Gunther of Pairis, Historia Captae a Latinis Constantinopoleos, col. 324 : "oderat autem summus pontifex illam urbem tam ipse quam ejus praedecessores a multo tempore, quoniam jam diu Romanae Ecclesiae rebellis exstiterat. .

ولما علم البابا بهذا أصدر قرارا بالحرمان ضد الصليبيين . ولكن قادة الحملة أرسلوا سفارة إلى المقام البابوى لتطلب من انوسنت قراراً بالغفران . وكانت هذه السفارة تتألف من نيقلون أسقف سواسون، وجان نويون كاتم سر بلدوين من فلاندرز ، وجان من فريز ، وروبرت من بوفز . وافق البابا على رفع قرار الحرمان وإصدار قرار بالغفران لصالح الصليبيين وحثهم على البقاء متحدين لتتم على أيديهم خدمة جليلة لله [٦٨] . ولكن الرسول البابوى الذى حمل إلى قادة الصليبية هذا القرار بالعفو والغفران كان يحمل رسالة بقرار الحرمان ضد الدوج داندولو ورجاله [٦٩] على أن بونيفاس دى مونت فرات وأقرانه كتموا أمر هذه الرسالة وبعثوا إلى البابا يشرحون له الأسباب التى دعتهم إلى معاونة البنادقة فى غزو مدينة زارا ، كما أنهم أكدوا للبابا أنهم على استعداد لتسليم قرار الحرمان للدوج ورجاله إن أصر انوسنت على ذلك [٧٠] .

كان البابا انوسنت الثالث يدرك تماماً أن للصليبيين نوايا مبيتة ضد القسطنطينية ؛ وهو يشير إلى هذا صراحة فى رسالة له إلى إمبراطور بيزنطة فى نوفمبر ١٢٠٢ [٧١] . وفى نوفمبر ١٢٠٣ استولى الصليبيون على مدينة زارا ووضحت بهذا نيتهم على مواصلة الزحف قبالة مدينة قسطنطين . والعجيب فى الأمر أن البابا — وقد تلقى رسالة القادة الخاصة بالدوج داندولو ورجاله — ظل صامتاً لا يتحرك من نوفمبر ١٢٠٣ حتى يونيو ١٢٠٣ ، حين بعث برسالة إلى بونيفاس دى مونت فرات يطلب منه فيها تسليم قرار الحرمان إلى

(٦٨) P.L., Vol. CCXV, col. 260.

(٦٩) Gesta Innocentii III, col. CXL.

(٧٠) P.L., Vol. CCXV, col. 103.

(٧١) P.L., Vol. CCXIV, col. 1124 : "quod idem Philippus nuntios suos ad principes exercitus Christiani sine qualibet dilatione transmisit,r ogans eos et petens ut, quia Pater suus et ipse fuerant jure suo et imperio nequiter spoliati, cum eo Constantinopolitanum deberent régnum intrare... "

الدوج داندولو (٧٢) . هذا الموقف البابوى الغريب وفشل انوسنت الثالث فى دمغ العدوان ضد زارا فى حينه وصمته « المتعمد » قرابة شهور سبعة يدعونا للقول بأن البابا قد تعمد الصمت ليسمح للصليبية بالمضى فى طريقها الجديد قبالة بيزنطة . فما أن تلقى الصليبيون قرار الغفران البابوى بعد جرائمهم البشعة ضد مدينة تخضع لملك عضو فى الكنيسة اللاتينية حتى راحوا يعدون العدة فى جرأة بالغة للوثوب على بيزنطة بغية تحقيق نصر صليبى مؤزر على إمبراطورية كريهة وكنيسة متمردة على البابا ذاته . ولذا فإن القول « بانحراف » الصليبية الرابعة عن طريقها الأصيل « صدفة » قبالة بيزنطة قول مردود ويجب تصويبه : ذلك لأن الهجوم على القسطنطينية كان متعمداً ومقصوداً وبتشجيع زائد من نيقيلون أسقف سواسون وجان دى نويون اللذين كانا قد فوضا من قبل البابا بالنيابة عنه فى الإشراف على الحملة حتى وصول أحد كرادلته للاضطلاع بهذه المهمة . إن غزو القسطنطينية عام ١٢٠٤ قد تم نتيجة لخطة محكمة نسجت خيوطها فى سرية تامة فى أروقة غرب أوربا ؛ وأطرافها فيليب السوابى وبونيفاس دى مونت فرات والبابا انوسنت الثالث ذاته .

وليس بعجيب إذن أن نرى هنرى داندولو يخطب فى الصليبيين فيقول :

« أيها السادة إن لدينا الحق كل الحق فى الهجوم على القسطنطينية » ، فيرد عليه قادة الصليبية ، علمانيين وإكليروس : وما شأننا وبابل أو الإسكندرية ونحن لا نملك خبزاً ولا لحماً — إنه من الخير ألا نذهب هناك فنهلك جوعاً (٧٣) . هذا ونجد الـ Cronaca dei Veneziani تنص صراحة على أن البابا انوسنت الثالث قد أرسل الأمير الصغير الكسيوس الرابع إلى الدوج هنرى داندولو ؛ طالباً منه معاونته فى الحصول على تاج الإمبراطورية البيزنطية (٧٤) .

(٧٢) P.L., Vol. CCXV, col. 106.

(٧٣) Robert de Clari, p. 32.

(٧٤) Martino da Canale, La Cronaca dei Veneziani, Frienze, 1845, pp. 324. seq.

وصل الأمير الكسيوس إلى مدينة زارا فى مايو ١٢٠٢ ، حيث رحب به الدوج داندولو ، ثم زوده ببعض القطع البحرية . وأبحرت الحملة الصليبية الرابعة ، وفى معيتها الكسيوس هذا ، إلى مدينة دورازو . ولم تجرؤ المدينة البيزنطية على مقاومة الفرنجة فسلم أهلوها المدينة إليهم وأقسموا يمين الولاء والطاعة لالكسيوس . ومن هناك أبحر ألكسيوس إلى جزيرة كورفو نقطة تجمع الصليبيين . ولقيه الماركيز بونيفاس دى مونت فرات هناك بحماس وترحاب بالغين وأمر بإقامة خيمة ألكسيوس بجوار خيمته . ومن كورفو أبحرت الحملة إلى رأس ماليا حيث التقى الصليبيون بسفينتين تقلان بعض الفرسان العائدين من سوريا . وقفز أحد هؤلاء الفرسان من على ظهر السفينة التى كانت تقله وصرخ فى وجه رفاقه المشدوهين : « إنى لست فى حاجة إلى متاعى فإنى ماض مع هؤلاء القوم ، ويقينى أنهم مقدمون على غزو عظيم » (٧٥) . هذا وقد حدث أن أرسل الفرنجة فى سوريا رسلا إلى قادة الصليبية الرابعة يطلبون منهم المسارعة لإنقاذهم من الأخطار المحيطة بهم فى الشام : ولكن الصليبيين قد صموا آذانهم ولم يكترثوا بأمر الشام والأرض المقدسة (٧٦) .

بعد هذا دخل الأسطول الصليبى قنال أبيدوس حيث رست الكتائب وأخذت الأهلين على غرة فنهبت المحاصيل كلها . ثم استأنف الأسطول إبحاره ورسى عند خلقدونية المواجهة للقسطنطينية على الجانب الأناضولى للمضايق ؛ قبالة قصر يملكه الإمبراطور ألكسيوس الثالث . وانتشر الفرنجة فى المناطق المجاورة لخلقدونية ونهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم من غلال . ومن هناك واصلت الحملة الزحف حتى سكوتارى وأقيمت المعسكرات الصليبية على مضايق سان جورج عند سكوتارى .

وجد ألكسيوس الثالث أنه أمام عدو لا يرحم ، فأرسل إليهم أحد اللاتين الذين كانوا فى خدمته ويدعى نيقولا روكس ومعه رسالة إلى قادة الصليبية .

---

(٧٥) Villehardouin, LX.

(٧٦) Gunther of Pairis, col. 236.

تقول هذه الرسالة إن الإمبراطور يعلم أن الفرنجة هم أفضل الأجناس على وجه البسيطة ، ولذا فهو يعجب من زحفهم على أراضى مبراطوريته بدلا من مواصلة السير إلى الأرض المقدسة : « فأنتم مسيحيون والإمبراطور وشعبه أيضاً مسيحيون » . ثم يعرض الإمبراطور عليهم المال إن كانوا فى حاجة إليه.(٧٧)

وهنا تصدى للرسول شاعر فرنجى يدعى كونون من بثوين فصاح فى وجهه أن ألكسيوس الثالث قد اغتصب التاج البيزنطى دون حق وعليه إعادة التاج إلى ألكسيوس الصغير ووضع نفسه تحت رحمته .

كان هذا تحدياً واضحاً لألكسيوس الثالث بل وإعلاناً للحرب ضد الحكومة البيزنطية . ولذا فإن بارونات الحملة نظموا استعراضاً بحريا مكنوا فيه ألكسيوس الأصغر من الظهور على مرأى من أهالى العاصمة وهم يصيحون « هذا هو سيدكم الشرعى » ؛ ولكن الأهالى قابلوا هذه المظاهرة المفتعلة بفتور شديد(٧٨) .

وفى اليوم التالى بعد صلاة القداس أعد القادة العدة لحصار مدينة قنسطنطين . وكان حماس الأساقفة ومقدمو الأديرة المشاركين فى الحملة شديداً ، فراحوا يبشرون الجند والفرسان بالنصر ويحثونهم على الصلاة وكتابة وصاياهم قبل بدء المعركة(٧٩) . وفى السادس من يوليو ١٢٠٣ استولى الصليبيون على قلعة جلاتا التى كانت تتحكم فى مداخل ميناء القسطنطينية . وتقرر شن هجوم شامل على المدينة من البر ومن البحر . وبعد أربعة أيام من اتخاذ هذا القرار اتخذت كل فرقة موقعها المخطط لها أمام قصر بلاشرناى . وسرعان ما دار القتال بين اللاتين والبيزنطيين . وفى أثناء ذلك نجح أسطول البندقية فى الوصول إلى الجزء الواقع تحت أسوار المدينة ، ومن هذا الموقع الفريد انطلقت المجانيق تدك المدينة بتوجيه من الدوج داندولو الذى ، برغم فقدان بصره ، وقف

---

(٨٧) Villehardouin, LXVI.

(٧٨) Ibid., LXVIII.

(٧٩) Ibid., LXX.

شامخاً على ظهر السفينة ممسكاً براية القديس مرقص بيده ، وقد أمر أتباعه بنقله إلى المرسى . وما إن لمح البنادقة راية قديسهم على الشاطئ تسبقهم حتى وثبوا جميعاً على السور (١٧ يوليو ١٢٠٣) . وهنا فزع الجند البيزنطيون من حراس السور وولوا هاربين تاركين السور للبنادقة . وبهذا وقعت خمس وعشرون قلعة فى يد البنادقة . ولما شن ألكسيوس الثالث هجوماً على البنادقة أشعل هؤلاء النار فى المنطقة الواقعة بينهم وبين جند الإمبراطور واحتموا من ألسنتها داخل الأبراج التى استولوا عليها . ولما استدار ألكسيوس ليهاجم الفرنجة انقض البنادقة عليه من الخلف واضطروه إلى الانسحاب قبالة قصر فيلوپاتريون . ودارت الدائرة على ألكسيوس الثالث .

وفى تلك الليلة بالذات ، بعد أن أيقن ألكسيوس الثالث أن اللاتين قد عقدوا العزم على غزو المدينة ، فر من عاصمته تحت ستار الظلام واصطحب معه خلصاءه المقربين[٨٠] . ولما ذاع الخبر فى المدينة أسرعت الجماهير إلى السجن الذى كان يحتوى إسحق انجيلوس والبسوه الرداء الإمبراطورى وحملوه إلى قصر بلا شرناى حيث أجلسوه على العرش وأقسموا له يمين الولاء والطاعة . وبعدها أرسلوا رسلا إلى المعسكر الصليبى خارج أسوار المدينة لنقل الأنباء إلى ألكسيوس الأصغر ابن إسحق (١٨ يوليو — أول أغسطس ١٢٠٣)[٨١] .

أرسل قادة الصليبية سفارة من اثنين من الفرنجة واثنين من البنادقة لمقابلة الإمبراطور إسحق انجيلوس وطالب موافقته على العهود التى كان ولده الكسيوس الرابع قد التزم بها أمام الصليبيين . ولما علم إسحق إنجيلوس بطبيعة هذه العهود صعق لما سمع لأن ما تعهد به ولده كان يفوق العقل[٨٢] . ومع هذا فإن الإمبراطور الأعمى الهرم لم ير مفرا من الموافقة على هذه الشروط التى تعهد

---

(٨٠) Hygh of St. Pol., loc. cit.

(٨١) Villehardouin, LXXXIV.

(٨٢) Ibid., LXXXVII.

بها ولده « النزق »[٨٣] . وبعد وصول تلك المواثيق إلى المعسكر الفرنجى امتطى زعماء البارونات خيولهم وأحضروا ألكسيوس إلى أبيه .

كان شعب القسطنطينية يبغض آل إنجيلى جميعاً ، ولكن سخطهم الزائد كان ضد ألكسيوس الصغير الذى رأوا فيه أنموذجاً للانتهازية والنزق . فهو الذى أتى « بأصدقاءه » الفرنجة إلى مدينتهم حيث راح هؤلاء « المتبربرون القساة » الآن يضربون الطرقات والشوارع فى القسطنطينية فى تحد سافر لمشاعر الأهلين . وسرعان ما وقع الصدام الذى لا مفر منه بين أهل العاصمة والصليبيين المخمورين . وهنا رجا إسحق وألكسيوس البارونات أن يقيموا معسكرهم على منأى من المدينة عند إستانور ، ووافق القادة الصليبيون على هذا المطلب . وفى أول أغسطس ١٢٠٣ توج ألكسيوس الرابع شريكاً فى الحكم مع والده إسحق إنجيلوس . وبعدها سلم ألكسيوس إلى الدوج داندولو ١٠٠,٠٠٠ مارك من الفضة كما قدم مبلغاً آخر إلى قادة الفرنجة[٨٤] . وكانت هذه المبالغ كافية لأن ترهق خزانة الدولة .

هذا ورغم نقل معسكر الصليبيين إلى استانور إلا أن السلطات سمحت لهم بزيارة العاصمة . وكان ثراء المدينة كافياً لإيقاظ غريزة النهب لدى الفرنجة كما راح الأساقفة ومقدمو الأديرة اللاتين يرنون بأبصارهم حقداً وجشعاً إلى الأيقونات والآثار المسيحية النادرة التى كانت تكتنز بها كنائس العاصمة . ولقد اضطر ألكسيوس الرابع أمام تصاعد حدة التوتر ، إلى زيارة البارونات فى معسكرهم ، حيث طلب منهم عدم مبارحة معسكرهم تجنباً لصدام بينهم وبين شعب العاصمة . ولما كانت الخزانة قد أرهقت ولم يعد فى إمكان الكسيوس سداد المال الذى وعد به الفرنجة والبنادقة فقد طلب من القادة إمهاله عاماً كاملا . وكان هذا يعنى بقاء الحملة عند القسطنطينية عاماً آخر . رحب

---

(٤٣) Bibliothéque de Valenciennes, Manuscript 482, pp. 131 - 135.

(٨٤) Radulphus, Abbot of Coggeshall, Chronicon Terrae Sanctae, Vol. V, ad an. 1203.

البنادقة بهذا القرار وقرر الدوج وضع أسطوله فى خدمتهم طوال العام . بعد هذا اصطحب ألكسيوس الرابع الماركيز بونيفاس والكونت هيو من سان بول وهنرى من فلاندرز وبعض خلصائه من البيزنطيين للقيام بجولة فى أنحاء الإمبراطورية .

فى أثناء غياب ألكسيوس الرابع عن العاصمة وقع صدام بين اللاتيين وأهالى العاصمة . وقد نجم عن هذا الصدام أن نشب حريق كبير التهم كثيراً من المبانى وأتى على بعض الكنائس (نوفمبر ١٢٠٣) . وامتدت ألسنة النار إلى الميناء وأصابت أكثر الأحياء ازدحاماً بالسكان وهو الحى الذى كان بجوار آياصوفيا . وقد ظلت النار مشتعلة لمدة أسبوع كامل فأهلكت عدداً ضخماً من الأطفال والنساء (٨٥).

جاءت هذه الأحداث لتؤكد لألكسيوس الرابع أنه يتحتم عليه تغيير موقفه تجاه الصليبيين والبنادقة إرضاءاً للشعب الساخط على علاقات المودة بينه وبينهم . ولذا فقد بدأ الإمبراطور يستعلى على البارونات الفرنجة ، كما أبطل إرسال الهدايا والعطاءات إليهم .

أمام هذا الموقف الجديد عقد الدوج والبارونات مؤتمراً قرروا فيه إيفاد سفارة إلى البلاط البيزنطى لتهديد ألكسيوس ووالده . وذهبت السفراء كونون من بثوين وجيوفرى من فلهاردوان وميلون لى برابانت وثلاثة آخرون من رجال الدوج إلى القصر الإمبراطورى حيث طلبوا من إسحق ووالده الوفاء بعودهما للحملة التى رفعتهما إلى العرش ، وإلا فالعاقبة جد وخيمة (٨٦) . كان هذا التهديد السافر تطاولا لم يسبق له مثيل على التاج البيزنطى داخل القصر الإمبراطورى فى مدينة قنسطنطين . وما أن انتهى السفراء من الإدلاء بإنذارهم « الفظ » حتى علت أصوات داخل حجرة الاستقبال تطلب عقاب أصحاب هذه الألسنة « الوقحة » . والحق أن السفراء الفرنجة ما أن انتهوا من مهمتهم هذة حتى هربوا على خيولهم قبالة معسكرهم فنجوا بصعوبة من القتل على يد

(٨٥) Villehardouin, CX.

(٨٦) Ibid.

الحرس الإمبراطورى . وأبلغ السفراء قادة الحملة بتفاصيل الأحداث التى وقعت لهم فى القصر . ويروى روبرت دى كلارى أن مقابلة ما تمت بين الدوج وألكسيوس الرابع هدد فيها الأول الثانى بقوله : « نحن قد رفعناك من الوحل ولكنا فى مقدورنا إغراقك فيه من جديد ، أيها الطفل الأرعن » (٨٧) .

بات واضحاً إذن أن الدوج ونبلاء الحملة قد عقدوا العزم على غزو القسطنطينية فى الوقت الذى كان يتربع فيه على العرش البيزنطى ألكسيوس الرابع الذى أعطى الحملة الصليبية الرابعة الفرصة للقدوم إلى المدينة . وقبل أن نتابع الأحداث التى أدت إلى سقوط الدولة البيزنطية فى يد الفرنجة ، لابد من إلقاء بعض الضوء على عدة حقائق هامة تساعد على تفهم خلفية هذا الغزو اللاتينى لمدينة قنسطنطين :

١ — تعرضت بيزنطة ومصالحها للتهديد من جهة الغرب اللاتينى منذ القرن العاشر . وكانت البابوية هى العامل الأساسى فى تمهيد الطريق للأباطرة الألمان لاستئصال شأفة النفوذ البيزنطى فى وسط وجنوب إيطاليا . وفى النصف الثانى من القرن العاشر مضى أوتو العظيم وخلفاؤه قدماً لتحقيق سيطرتهم على مواقع النفوذ البيزنطية السابقة والتى صارت تعرف بعد ذلك باسم Regnum Italicum .

٢ — فى القرن الحادى عشر باركت البابوية هجوم النورمان على الممتلكات البيزنطية فى الجنوب الإيطالى ، كما ساهمت مساهمة إيجابية فى حملة روبرت جو يسكارد (١٠٨١) للقضاء على بيزنطة . ونهجت الكيوريا وأميرها نفس المنهج فى صليبية بوهمند ضد بيزنطة (١١٠٧) وفى ذاك الحلف الذى لم يكتب له النجاح بين روجر الثانى ولويس السابع ضد الدولة البيزنطية فى عام ١١٤٧ .

٣ — تبنى الهوهنشتاوفن هذه السياسة العدائية تجاه بيزنطة وفكر بربروسا وولده هنرى السادس جديا فى ضم بيزنطة إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

(٨٧) Robert de Clari, pp. 58 - 59.

٤ ــ كان الفرنجة يحتقرون البيزنطيين ويتهمونهم بالضعف والنفاق والخنوثة . وكان البيزنطيون يكرهون أهل الغرب اللاتيني « المتبربرين » خاصة بعد أن أيقنوا أن شارة الصليب التي يحملونها إنما هي قناع لأطماع دنيوية . ولعل خير مايدلل على هذه الكراهية ماحدث في عام ١١٨٢ عندما ربط أهل القسطنطينية رأس أحد الكرادلة اللاتين في ذيل كلب في شوارع العاصمة (٨٨) .

٥ ــ جاءت تقريرات المسئولين في الإمارات الصليبية في سوريا عن بيزنطة لتؤكد للكيوريا والدوائر الكنسية في الغرب أن السلطات البيزنطية تمثل تهديداً للقضية الصليبية أشد وأنكى من تهديد الترك لها . وقد تحمس لهذه الفكرة كبار الساسة واللاهوتيين في غرب أوربا وعلى رأسهم القديس برناردى كليرفوه وبطرس الوقور وشوجير من سانت دينيس ولويس السابع .

٦ ــ كان البابا انوسنت الثالث يرى ضرورة إخضاع الكنيسة البيزنطية بالقوة لسلطان كنيسة روما ، كما وضح في رسائله السابقة الذكر . كما أن فيليب السوابى ، لعلمه بهذا ، راح يمني انوسنت بتحقيق هذه الرغبة له وذلك في محاولة كسب وده واسترضائه . كذلك فعل ألكسيوس الرابع في مقابلته للبابا في روما ، وفي تعهداته لقادة الحملة الرابعة عند مدينة زارا .

ولم تكن سياسة انوسنت الثالث في هذا الصدد أمراً جديداً : ففي عام ١٠٧٤ فكر البابا جريجوري السابع جدياً في تحقيق هذا الغرض . كما أن هذه السياسة الهلدبراندنية في وحدة الكنائس دعت أقلام الكتاب في الغرب إلى تأييد هذه النظرية التي استندوا فيها إلى كتابات القديس أغسطينوس وتعاليم البابا جريجوري العظيم . وبذا أصبحت وحدة الكنائس تحت إمرة البابوية تمثل قانوناً أساسيا من القوانين الكنسية في العصور الوسطى . وأبرز أنسلم من لوكا ضرورة إجبار الهراطقة والانشقاقين على قبول الوحدة . كما نادى بونيزو من سوترى بمقاتلة الهراطقة والانفصاليين قبل التفكير في محاربة الكفار ، وذلك تحت الشعار

(٨٨) Diehl, Figures Byzantins, I, p. 222.

المعروف بإسم Schismatic(s et hereticos debellare (٨٩) وقد جاء انوسنت الثالث ليترجم هذه الشعارات والاتجاهات إلى واقع فعلى .

٧ – كانت كل الصليبيات فى مظهر من مظاهرها رحلة للحج ، فالصليبى الحق هو قبل كل شيء حاج إلى الأراضى المقدسة وبغيته رفع صليبه عالياً ، وقد وضح القسم الصليبى فى الأنشودة التى كان يتغنى بها الألمان فى حملة بربروسا فى عام ١١٨٩ :

Des tages do ich das Kriuze nam
. . . . als ein rehter bilgerin.(٩٠)

وكانت القسطنطينية تمثل مكاناً من هذه الأراضى المقدسة بالنسبة للعالم المسيحى ، لأنها كانت تحتوى على أعز ما لدى المسيحية من آثار مقدسة ؛ وفى مقدمة هذه الآثار صليب الصلبوت الذى هو شارة كل صليبى . وكان رجال الدين اللاتين يؤمنون إيماناً قاطعاً بضرورة تخليص هذا الصليب وبقية الآثار المقدسة من أيدى الهراطقة البيزنطيين . فلقد اهتم البابا أوربان الثانى عندما بشر بالحركة الصليبية لا بالضريح المقدس فى أورشليم وإنما بصليب الصلبوت . (٩١) كذلك نجد كاتباً بيزنطيا فى القرن الثالث عشر – هو نيقولاس ميزاريتس – يؤكد أنه برغم احتواء أورشليم على الضريح المقدس والجلجثة إلا أن أهل العاصمة البيزنطية كانوا يشعرون أن المسيح ذاته فى وسطهم وذلك بسبب احتفاظهم فيها بصليب الصلبوت والحربة المقدسة وإكليل الشوك وقطعة الإسفنج التى قدم اليهود فيها الخل إليه والمسامير التى سمرت جسده إلى خشبة الصليب والأكفان التى قمط بها الجسد بعد الصلب (٩٢) . ويرجح

(٨٩) Bonizo of Sutri, Liber ad Amicum et Liber de Vita Christiana, in P.L., Vol. CL, cols. 803 - 56.

(٩٠) M. Coleville, Les Chansons Allemandes des Croisades en Moyen Haut Allemand. Paris, 1936, p. 60.

(٩١) Gesta Dei per Francos, in R.H.C. OCC., Vol. IV, p. 138.

(٩٢) Nicolas Mesarites, Opera, in A. Heisenberg, Neue Quellen zur Geschichte des lateinischen Kaisertums, Munich, 1923, p. 27.

أن الرسالة التى قيل أن ألكسيوس الأول كومنين قد بعث بها إلى الكونت روبرت الأول من فلاندرز والتى احتوت قائمة كاملة بتلك الآثار المقدسة قد تليت على جند الصليبية الرابعة عشية غزوهم لمدينة القسطنطينية .

٨ ــ كان للبندقية حكومة وشعباً ، رغبة جد كبيرة فى تحطيم كيان بيزنطة لغرضين : الانتقام من أحداث ١١٧١ ، ثم الحصول على امتيازات تجارية واسعة بعد إسقاط الحكومة البيزنطية والفوز بنصيب كبير من أراضيها الساحلية . ولذا فإن نيكيتاس كونياتس المؤرخ البيزنطى المعاصر وشاهد العيان قد كتب فأوضح أن داندولو هو الـ actor rerum لما حل ببيزنطة من خراب فى عام ١٢٠٤ .

٩ ــ كان أفراد الصليبية الرابعة من علمانيين وأكليروس ينظرون إلى البيزنطيين على أنهم هراطقة إن لم يكونوا « كفاراً » يحل قتالهم وقتلهم بالسيف ، كما تنطق بهذا كتابات المعاصرين .

١٠ ــ إن ألكسيوس الرابع الذى أعطى الصليبيين الفرصة للقدوم إلى العاصمة البيزنطية سرعان ما اكتشف نواياهم ضد كيان إمبراطوريته . وهنا نجد المصادر الغربية تشير إليه على أنه « خائن كسائر أسلافه » .

وإنا إذ نفحص المصادر الغربية للبحث عن المبررات التى قدمها رجال الدين المسئولون فى الحملة لغزو القسطنطينية نجدها كالآتى :

ــ إن القسطنطينية تمردت ضد كنيسة روما .

ــ إن كنيسة بيزنطة منشقة ومهرطقة .

ــ إن البيزنطيين أعداء للسيدة العذراء .

ــ إن بيزنطة قد خانت قضية الحركة الصليبية مذ قيامها .

ــ إن الآثار المقدسة فى القسطنطية يجب ألا تبقى فى أيدى هؤلاء الهراطقة فقد آن الآوان لتخليص صليب الصلبوت من أيديهم .

ــ إن من يساهم فى غزو القسطنطية تغفر له خطاياه لأن البيزنطيين

يضمرون الكراهية والغدر ضد « الحجاج » اللاتين .

– إن الهجوم على مدينة قنسطنطين هو تحقيق فعلى « لإرادة الله » التى بشر بها أوربان الثانى وخلفاؤه من البابوات حتى أنوسنت الثالث (٩٣).

كان من بين أعوان ألكسيوس الرابع شخص يدعى مورتزوفلوس . وقد رأى هذا ضرورة مقابلة التحرشات الصليبية بالعاصمة وتهديداتهم المتكررة لحامل التاج بالقوة العسكرية . وعلى هذا فإنه ذات ليلة جهز سبع عشرة سفينة محملة بمواد مشتعلة ووجهها إلى مكان تجمع الأسطول الصليبى . ولكن البنادقة نجحوا فى إنقاذ أسطولهم من النار بأن دفعوا بالسفن المشتعلة من الميناء إلى المضايق حيث جرفها التيار .

بعد هذا دبر مورتزوفلوس وأعوانه انقلاباً ضد ألكسيوس الرابع ووالده ، ونجحت المؤامرة بسبب الكراهية الزائدة التى كان الشعب يضمرها لآل إنجيلى بصفة عامة ولألكسيوس الرابع بصفة خاصة . ولقد عمل قائد الانقلاب على خنق ألكسيوس الرابع ، بينما مات والده رعباً وحزناً . وقد تمت المؤامرة فى سرية تامة ، وروج صاحبها أن وفاة ألكسيوس كانت طبيعية ، كما وأنه نظم له جنازة فاخرة وراح ينوح عليه علانية (٩٤) .

وصلت أنباء وفاة الإمبراطورين إلى المعسكر الصليبى . ومع أن الدوج والبارونات كانوا قد هددوا الامبراطورين الراحلين بخلعهما عن العرش ، إلا أنهم راحوا الآن يتباكون عليهما ويهددون بالانتقام لهما من مرتزوفلوس . وواقع الأمر أن اللاتيين قى استانور قد ارتاحوا لهذه التطورات فى العاصمة البيزنطية والتى أعطتهم التبرير لإقدامهم على مهاجمة القسطنطينية . أما مرتزوفلوس فقد أدى واجبه كمواطن بيزنطى مخلص ، إذ خلص الإمبراطورية من أيدى شاب نزق وعجوز متهالك ؛ ويقال إنه برر فعلته

(٩٣) Robert de Clari, pp. 71 - 72, Villehardouin, XCVIII; Da Canale, p. 327; Gunther of Pairis, cols. 237 - 38.

(٩٤) Villehardouin, XCVIII; Gunther of Pairis, col. 238.

بقوله : « من الأخير اغتيال إمبراطور أحمق عن التضحية بمصير الإمبراطورية بسبب حماقته » (٩٥) . لم يكن مرتزوفلوس جنديا قادراً ، ولكنه بذل قصارى جهده فى مواجهة التحدى الصليبى . حقيقة أنه فشل فى كفاحه ولكن اللوم لا يقع عليه ؛ فقد كانت الدولة وقتها تعانى من انهاك شديد فى مالها ورجالها بعد أن تعرضت للمحنة تلو الأخرى بسبب الموجات الصليبية المتتابعة وهجمات سلطنة قونية وأرمينيا وأمراء الشرق اللاتينى .

نشب القتال بين الصليبيين والجيش البيزنطى بقياده مرتزوفلوس . وقام الكونت هنرى من فلاندرز بغزو مدينة فيليا ونهبها كما أسر عدداً كبيراً من أهلها . تعقب مرتزوفلوس ورجاله الكونت هنرى ، ولكن بقية أفراد الجيش الصليبى سرعان ما أحاطوا به وأوقعوا به هزيمة ساحقة . هرب مرتزوفلوس من الهلاك فى أرض المعركة بعد أن فقد للعدو رايته الإمبراطورية وأيقونة السيدة العذراء التى كانت تحمل أمام رايته وقت الحرب(٩٦) .

بعد هذه الواقعة عقد الفرنجة والبنادقة اتفاقاً للاستيلاء على القسطنطينية وتوزيع غنائمها فيما بينهم . كما عينوا اثنا عشرة رجلا نصفهم من البنادقة والنصف الآخر من الفرنجة لانتخاب إمبراطور من قادة الحملة يحكم الإمبراطورية البيزنطية « لإعلاء كلمة الله وشرف كنيسة روما » . والفريق الذى لا ينتخب الإمبراطور من بينهم يكون من حقهم تعيين واحد من جماعتهم لكرسى البطريركية فى آياصوفيا . وتقوم لجنة من أربعة وعشرين نصفهم من البنادقة والنصف الآخر من الفرنجة لمعاونة الإمبراطور المنتخب فى توزيع الوظائف العليا على رجال الصليبية وفى تقسيم الإقطاعات على البارونات . ويصدق السيد البابا على قرارات هذا الاتفاق ، ومن يعبث بها يكون عرضة لقرار الحرمان(٩٧) .

(٩٥) Gunther of Pairis, col. 328.

(٩٦) Villehardouin, XCIX; Choniates, 388, B.

(٩٧) Rerum Gallicarum Scriptores, Vol. XVIII, pp. 549 seq.

وقع هذا الإتفاق بين الفرنجة والبنادقة فى مارس ١٢٠٤ ، وهكذا تحدد بصفة قاطعة سقوط العاصمة البيزنطية على يد الحملة الصليبية الرابعة . ربط الصليبيون قطع أسطولهم اثنتين اثنتين لحمل المعدات اللازمة لمهاجمة القلاع من عل . أما مرتزوفلوس فقد وقف على رأس جيشه وراء أسوار المدينة لمواجهة اللاتين . وقامت السفينتان الصليبيتان « الحاج » و « الجنة » بهجوم مركز على أحد الأبراج ، وتمكن بهذا أحد البنادقة وأحد الفرسان الفرنجة من تساق السلم الذى كان على ظهر السفينة « الحاج » ودخول هذا البرج . وتبعهما جند صليبيون كثيرون فى وثوبهم على الحامية التى كانت تقوم بمهمة الدفاع عن سور المدينة . وهنا تدفق الجند الصليبيون على بوابات المدينة وحطموها فدخلوها شاهرين سيوفهم لمقاتلة مرتزوفلوس ورجاله . وبعد قتال مرير اضطر الجيش البيزنطى إلى التقهقر تحت وطأة الهزيمة ، وهرب مرتزوفلوس فى شوارع المدينة إلى قصر بوصوليون [٩٨] .

ولج الغزاة قلب مدينة قنسطنطين وعملوا نهباً وتقتيلا فى أهليها . وهلك قوم كثيرون من شعب العاصمة « حتى بات من العسير حصر أعداد القتلى » [٩٩] . وتسلل رب البيت — مرتزوفلوس — خلسة من خلال البوابة الذهبية تاركاً « أحلى المدائن » لمصيرها المحتوم . وبعدها أشعل الصليبيون حريقاً مروعاً فى الحى المكتظ بالسكان فى قلب المدينة ، بينما انتشرت جماعات منهم تنبش الدور والقصور والكنائس والحوانيت بحثاً عن الغنائم . وكان الحصاد وفيراً للغاية حتى فاق كل تقدير : فمن ذهب إلى زمرد وفضة « وكل ما تشتهيه الأنفس من ثمين على وجه المسكونة » ، كما يشهد بهذا فلهاردوان ذاته [١٠٠] .

وكان رجال الدين أشد جند الصليبية ضراوة ونهباً . وفى مسلك مارتينوس

---

(٩٨) Villehardouin, CVI.

(٩٩) Gunther of Pairis, col. 244; Villehardouin, CVII.

(١٠٠) Villehardouin, loc. cit.

مقدم ديربايرس الدليل المادى على فظاظة جماعة الإكليروس اللاتين وجشعهم . فقد اندس صاحبنا بين عصابة من اللصوص الفرنجة وهاجموا سويا دير بانتوكراتور . ولكى يحصل مارتينوس على مفتاح الخزانة المودعة فيها الآثار المقدسة للدير ، فقد هدد الراهب البيزنطى الهرم الذى كان يقوم بحراستها بالقتل إن لم يدله على مكان هذا المفتاح . وتم له ما أراد من نهب وسرقة داخل بيت العبادة هذا [١٠١] .

هذا وتفيض المصادر الغربية بذكر أعمال النهب التى قام بها الصليبيون داخل كنائس بيزنطة ولكأن هذا عمل بطولى كبير حقق ما كانت الحركة الصليبية تصبو إليه فى تخليص الآثار المقدسة من أيدى « الهراطقة » . استولى الصليبيون على كل شيء جميل احتوته المدينة . ولم يتوقفوا فى زحفهم المدمر إلا للقتل أو لهتك الأعراض . ولم يفلت من أيديهم أحد ؛ فقد اغتصبوا الراهبات فى عقر أديرتهن . ودخل الجند السكارى كنيسة آيا صوفيا وأجلسوا عاهرة على العرش البطريركى وجعلوها تغنى أغان بذيئة وترقص الرقصات الرخيصة أمام المذبح الكبير . وركلت الكتب المقدسة ووقعت تحت الأقدام ، بينما استخدمت الأوانى الطاهرة أقداحاً للخمر .

بعد ثلاثة أيام اكتوت بها القسطنطينية على هذا المنوال ، جمع قادة الصليبية الغنائم النفيسة لتوزيعها فيما بينهم . ومع أن أشياء كثيرة قد سرقت وأخفيت ، إلا أنهم أحرزوا غنائم قيمتها تعادل ٨٠٠,٠٠٠ جنيه من ذهب وفضة للتوزيع . وقد أضيف إلى هذا آيات الفن النادرة التى كانت فى المدينة من عهد قنسطنطين العظيم وخلفائه . ويعطينا نيكيتاس كونياتس ، وهو شاهد عيان ، قائمة بآيات الفن التى دمرها الصليبيون وصهروها لتحويلها إلى عملات والتى كان من بينها التمثال البرونزى للذئب وروميلوس وريموس ، وتمثال پارس مع التفاحة الذهبية ، وهيلين الطروادية ، والتماثيل النحاسية التى أقامها أغسطس بعد واقعة أكتيوم . وتناول هذا الجرم الصليبى أيضاً

---

(١٠١) Gunther of Pairis, col. 245.

آيات الفن المسيحى ، كما نبشوا قبور الأباطرة ومذابح الكنائس وستائرها لنهب ما فيها من معادن نفيسة . وعلى هذه الشاكلة القميئة الرذيلة حقق الصليبيون «أعظم فتح تم ، دونه مجد إسكندر المقدونى وسلطان شرلمان» كما تروى المصادر الغربية ؛ فى حين أن أهل بيزنطة باتوا ينوحون مع نيكيتاس كونياتس :

«أيتها المدينة .. المدينة ، يا خير المدائن .. يا حديث المسكونة ، يا منار الأرض ، يا حامية الكنائس ، يا سيدة الإيمان ، يا قلعة العلم ، يا ملاذ كل الخير ! لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس غضب الله ، ولقد حل بك أتون أبشع من ذاك الذى انصب لظاه قديماً على المدائن الخمس» (١٠٢).

بعد هذا اجتمعت لجنة الاثنى عشر واتخذت قراراً بانتخاب إمبراطور لاتينى للإمبراطورية البيزنطية ، ووقع الاختيار على بلدوين من فلاندرز ، وأذاع أسقف سواسون هذا القرار على الصليبيين وسط هتافات النصر والفرح (١٠٣) . وتم تتويج بلدوين فى حفل حافل فى كنيسة آياصوفيا ، حيث قام الماركيز بونيفاس من مونتفرات والكونت لويس من بلوا بأداء يمين الولاء والطاعة له . وعليه تم تسليم مدينة قنسطنطين ، وقد أتت النار على نصفها وجردت تماماً من كنوزها ، إلى أول إمبراطور لاتينى لبيزنطة . ولقد هرب من المدينة أربعة أخماس سكانها ، ولم يبق فيها سوى المتسولون والمعدمون والمرضى . وتلقى بلدوين أيضاً إقليم تراقيا والأقاليم الآسيوية ، بيثينيا وميزيا وليديا والتى كان يتحتم عليه إخضاعها فيما بعد . أما الماركيز بونيفاس ، الذى تزوج أرملة إسحق إنجليوس ، مارى ، فقد أصبح ملكاً على تسالونيكا وتلقى إقطاعاً من بلدوين عن مقدونيا وتساليا وإبيروس . أما الكونت لويس فقد أقطع دوقية نيقية ، بينما حصل رينيه من ترت على دوقية فيليبوبولس ، وهنرى من فلاندرز على أبيدوس وأعمالها . وعلى هذا المنوال

(١٠٢) Nicetas Choniates, Historia (Bonn ed.), p. 763.

(١٠٣) Villehardouin, CX.

قطعت أوصال الإمبراطورية البيزنطية بين بارونات الصليبية الرابعة .

وما إن وصلت أنباء سقوط بيزنطة فى يد الصليبيين إلى سوريا حتى سارع عدد من باروناتها إلى القسطنطينية بحثاً عن نصيبهم ؛ لأنهم لم يصادفوا حظا فى الشام : حصل ستيفن من پرش على دوقية فيلادلفيا إقطاعاً من بلدوين ، بينما حصل جيوفرى من ڤلهاردوين الأصغر على الإذن من بونيفاس دى مونت فرات لغزو إقليم المورة(١٠٤) .

أما البنادقة فقد حصلوا على ما يربو على ربع الإمبراطورية نصيباً لهم من الفتح ، فوقع فى أيديهم جزيرة كريت ، وجزر أيونيا ، وأجزاء من الساحل الغربى لليونان وألبانيا ، وجزر بحرايجة والرقعة الواقعة عند مدخل الدردنيل . وهكذا استولى البنادقة على الموانى الممتازة والقلاع البحرية المنيعة ، ولم يهتموا بالأراضى الواقعة فى الداخل وذلك تمشياً مع مصالحهم التجارية قبل كل شيء .

وجنباً إلى جنب مع عملية تقسيم أراضى الإمبراطورية سارت عملية أخرى لا تقل أهمية عنها ألا وهى مهمة خلع الأساقفة البيزنطيين من أسقفياتهم وإحلال أساقفة لاتين مكانهم . فاختير توماس موروسينى من أهالى البندقية ليحتل عرش بطريركية آياصوفيا بدلا من يرحنا العاشر كماتيروس الذى كان قد فر من العاصمة إلى تراقيا ، بعد أن اعتزل منصبه ليترك الباب مفتوحاً للإكليروس البيزنطيين الفارين من العاصمة ليختاروا مكانه واحداً من بينهم وهم إذ فى منفاهم . وفى آثينا نصب بيرارد الفرنسى أول رئيس أساقفة لاتينى فى المدينة ، فافتتح بهذا فرعاً من الهايربركية اللاتينية ظل مستمرا هناك حتى وقت الغزو التركى .

ومع أن البابا انوسنت الثالث قد عارض فى بادئ الأمر تعيين توماس موروسينى لمنصب البطريركية ، إلا أنه فيما بعد تخلى عن موقفه هذا وبارك

(١٠٤) Villehardouin, CXXXIII

بالامر الوقع فاقر الصليبيين على فعلهم فى غزو بيزنطه . ذلك لأن البابا كان يعلم علم اليقين أن الحملة الصليبية الرابعة كانت تستهدف الهجوم على القسطنطينية ، كما وأنه قد تواطأ فتباطئ فى إدانة « انحرافهم » على زارا ومدينة قسطنطين العظيم ، وبهذا فقد سمح لقادة الصليبية بالمضى قدماً فى مخططهم العدوانى ضد الإمبراطورية البيزنطية . ولو فحصنا مكاتبات أنوسنت الثالث بعد سقوط القسطنطينية لوجدنا أنه كان راضياً كل الرضا عن « النجاح المظفر » الذى حققته الحملة لإعلاء شأن كنيسة روما .

ففى عام ١٢٠٤ كتب بلدوين من فلاندرز ، أول الأباطرة اللاتين لبيزنطة ، إلى البابا أنوسنت الثالث يزف إليه نبأ سقوط القسطنطينية فى أيدى الصليبيين وانتخابه إمبراطوراً فى حضور القاصد الرسولى وبين الهتافات بالنصر والدعاء للسيد البابا وكنيسة القديس بطرس(١٠٨) .

رد البابا على بلدوين فعبر له عن الفرحة الغامرة التى ملأت قلبه عند قراءة رسالته وما احتوته من أنباء سارة عن سقوط دولة البيزنطيين وإخضاعها وكنيستها العاقة لسلطان الكرسى الرسولى الرومانى . وأشاد البابا بهذا الفتح المبين الذى « حول الكنيسة البيزنطية المنشقة المنحرفة إلى طريق السواء على شاكلة سيدتها كنيسة روما »(١٠٩) .

كذلك كتب البابا انوسنت الثالث إلى رجال الدين المشاركين فى الصليبية الرابعة فى القسطنطينية (١٢٠٤) يذكرهم بقول النبى دانيال عن حكمة الله

هذا التعيين ، بل ومنح موروسيني امتيازات كنيسة طائلة من بينها حق « مسح » الملوك عند تتويجهم . ومضى انوسنت الثالث فى سياسته الودية الجديدة قبالة هذا البطريرك من أهالى البندقية فراح يتحدث عن بطريركية بيزنطة على أنها وإن كانت آخر البطريركيات نشوءاً من الناحية الزمنية غير أنها أفضلها مكانة وتاريخاً بعد بطريركية روما[١٠٥] .

ولما قدم القاصد الرسولى ، بطرس من سان مرسللوس ، استدعى الإكليروس البيزنطى وأمرهم باتباع الطقوس اللاتينية فى كنائسهم . وفى إحدى المناسبات عطل موروسينى الصلاة فى الكنائس البيزنطية فى العاصمة لأن كهنتها رفضوا ذكر اسمه فى قداساتهم برغم كونه بطريركاً لآيا صوفيا . وسرعان ما اضطر الأساقفة البيزنطيون إلى الهروب من إبروشياتهم خوفاً من جبروت موروسينى . ولم يكتف الغزاة بإحلال أساقفة لاتين بدلا من البيزنطيين ، وإنما أقاموا أسقفيات لاتينية جديدة . كذلك وجدت الديرية اللاتينية طريقها إلى الإمبراطورية البيزنطية ، فلقد بدأ إرساء نفوذ السيستيرشيان غداة الفتح . ففى ٢٥ مايو ١٢٠٥ أرسل البابا أنوسنت الثالث رسالة إلى رؤساء أساقفة وأساقفة فرنسا يمتدح فيها جهود الإمبراطور بلدوين الأول فى « توثيق عرى العقيدة المسيحية فى الشرق » . وأوضح البابا أن بلدوين قد طلب إليه إيفاد « رجال من أهل التقوى من جماعة السيستيرشيان والكلونيين » إلى الإمبراطورية الجديدة[١٠٦] . كذلك أقطع بونيفاس دى مونت فرات ، ملك تسالونيكا (١٢٠٤ — ١٢٠٧) ، مقدم الدير بطرس من لوسيديو دير كورتايتون على أحد جبال سالونكا الذى كان أهلوه قد فروا منه عند الغزو اللاتينى للمنطقة . وكان هذا بمثابة نقطة البداية لنفوذ السيسترشيان فى الإمبراطورية البيزنطية . وبعد مضى عشرين عاماً من وقت الغزو صارت هناك ست بيوتات ديرية للسستيرشيان فى الإمبراطورية . وفى نفس الوقت وجدت الديرية الفرنسسكانية

---

(١٠٥) P.L., Vol. CCXV, cols. 574 - 75.

(١٠٦) Ibid., cols. 636 - 37.

طريقها هى أيضاً إلى قلب الإمبراطورية[١٠٧].

• • •

ليس من العدالة فى شىء أن يقال أن البابا انوسنت الثالث قد وجه بالأمر الوقع فأقر الصليبيين على فعلهم فى غزو بيزنطة . ذلك لأن البابا كان يعلم علم اليقين أن الحملة الصليبية الرابعة كانت تستهدف الهجوم على القسطنطينية ، كما وأنه قد تواطأ فتباطئ فى إدانة « انحرافهم » على زارا ومدينة قسطنطنين العظيم ، وبهذا فقد سمح لقادة الصليبية بالمضى قدماً فى مخططهم العدوانى ضد الإمبراطورية البيزنطية . ولو فحصنا مكاتبات أنوسنت الثالث بعد سقوط القسطنطينية لوجدنا أنه كان راضياً كل الرضا عن « النجاح المظفر » الذى حققته الحملة لإعلاء شأن كنيسة روما .

فى عام ١٢٠٤ كتب بلدوين من فلاندرز ، أول الأباطرة اللاتين لبيزنطة ، إلى البابا أنوسنت الثالث يزف إليه نبأ سقوط القسطنطينية فى أيدى الصليبيين وانتخابه إمبراطوراً فى حضور القاصد الرسولى وبين الهتافات بالنصر والدعاء للسيد البابا وكنيسة القديس بطرس[١٠٨] .

رد البابا على بلدوين فعبر له عن الفرحة الغامرة التى ملأت قلبه عند قراءة رسالته وما احتوته من أنباء سارة عن سقوط دولة البيزنطيين وإخضاعها وكنيستها العاقة لسلطان الكرسى الرسولى الرومانى . وأشاد البابا بهذا الفتح المبين الذى « حول الكنيسة البيزنطية المنشقة المنحرفة إلى طريق السواء على شاكلة سيدتها كنيسة روما »[١٠٩] .

كذلك كتب البابا انوسنت الثالث إلى رجال الدين المشاركين فى الصليبية الرابعة فى القسطنطينية (١٢٠٤) يذكرهم بقول النبى دانيال عن حكمة الله

---

(١٠٧) See E A.R. Brown, "The Cistercians in the Latin Empire of Constantinople and Greece, 1204 - 1276" in Traditio, Vol. XIV (1958), pp. 78-79.

(١٠٨) P.L., Vol. CCXV, cols. 447 - 54.

(١٠٩) Ibid., cols. 454 - 55.

وقدرته فى تبديل الأحوال والأزمان وإذلال من يشاء وإعلاء من يشاء . وعبر البابا عن بهجته الزائدة لأن نبوءة دانيال قد تحققت أثناء اضطلاعه ذاتيا بالبابوية ، فأذن الله بتحطيم دولة البيزنطيين وإنقاذ كنيستهم الضالة من « سحب الجهالة والضلال التى خيمت عليها مثلما كان الحال مع السيناغوغ » ، وإخضاعها لسلطان كنيسة روما . ومضى البابا يشرح لقارئيه أن البيزنطيين لم يكونوا يعون طبيعة المسيح المساوية للآب فى الجوهر ، ومن ثم « فقد أنكروا انبثاق الروح القدس من الابن » ؛ « لأنهم لم يتفقهوا بعد أصحاحات الكتاب المقدس » . واختتم انوسنت الثالث رسالته طالباً من رجال الدين اللاتين المثابرة على تثبيت المكاسب اللاتينية فى بيزنطة ونشر العقيدة القويمة ورفع ألويتها عالية بعد زوال الدولة الكريهة والكنيسة المهرطقة (١١٠) .

كذلك كتب الإمبراطور بلدوين إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمى الأديرة والبارونات والفرسان فى غرب أوربا يصف لهم كيف أن « يد الله قد أنفذت المعجزة ، فهوت دولة البيزنطيين وارتفع سلطان اللاتين » . وفسر بلدوين المذابح التى أحلها الصليبيون بسكان مدينة قسطنطين على أنها تمام للنبوءة القائلة : « وإن واحداً منكم ليفتك بمائة منهم » . ووصف بلدوين بيزنطة على أنها قد كانت دوماً العدو اللدود للصليب والحليف الأول للكفار ؛ ولذا « فقد انصب غضب الله على أهلها بسبب انحطاط خلقهم وعاداتهم » . ومضى الكاتب يعدد سيئات البيزنطيين فى أنهم لم يهتموا بذكر اسم أمير الرسل بطرس فى كنائسهم بسبب تعصبهم الأعمى ضد كنيسة روما ؛ كما وأنهم ما كانوا يشيرون إلى اللاتين إلا بقولهم : « هؤلاء الكلاب » الذين أحلت كنيستهم سفك دمائهم . ولذا فإن الله — كما عبر بلدوين ذاته — شاء أن تقلم أظافرهم فتزول دولتهم ويقضى على كنيستهم بواسطة سيفه المنتقم الجبار ألا وهو الحملة الصليبية ذاتها (١١١) . واختتم بلدوين رسالته هذه بحث

(١١٠) P.L., Vol. CCXV, cols. 456 - 61.

(١١١) Bibiliothéque de Valenciennes, Manuscript 482, ff . 134 - 139: "..Haec=

الإكليروس فى الغرب على ترغيب الناس فى الهجرة إلى القسطنطينية حيث تفيض الأرض عسلا ولبنا وحيث يحصلون الغفران من المسيح عن سابق زلاتهم (١١٢) .

ونجد هذه المعانى ذاتها فى رسالة للبابا انوسنت الثالث إلى رئيس أساقفة تور . تحدث البابا فى هذه الرسالة عن ألقانة من بلدة رامتايم صوفيم — والد النبى صموئيل — الذى كانت له امرأتان اسم الواحدة حنة واسم الأخرى فننة . وشبه الكاتب كنيسة روما بالمرأة الأولى وكنيسة بيزنطة بالثانية ؛ لأن حنة كانت تقية تسكب نفسها أمام الرب ، أما فننة فكانت قاسية القلب تغيظ ضرتها غيظاً شديداً لأن لها أولاداً فى حين أن الأخرى كان الرب قد أغلق رحمها . ومضى انوسنت فى تسفيه الكنيسة البيزنطية لحماقتها ، التى كانت من قبيل حماقة فننة ، ولمكابرتها فى قانون الإيمان ، ولانفصالها عن جسد الكنيسة الرومانية العالمية ، ولمخالفتها لها فى الطقوس والعقيدة . ثم أوضح كاتب الرسالة أن « الإرادة العلوية شاءت أخيراً أن تذل عجرفة البيزنطيين ويقضى على ضلال كنيستهم » ؛ وذلك بسقوط الدولة البيزنطية فى يد الصليبيين . وتحدث البابا عن الكسيوس الرابع فوصمه بالخيانة والغدر بحلفاءه الفرنجة ، مؤكداً أن مسلكه هذا دليل آخر على الخسة اللصيقة بجنسه . واستطرد البابا يزف إلى قارئيه نبأ اختيار بلدوين من فلاندرز امبراطوراً لبيزنطة . وجاءت خاتمة الرسالة لتحث الأساقفة على ترغيب المؤمنين فى الذهاب إلى القسطنطينية للحفاظ بسيوفهم على عطية الله لجنده الصليبيين ، واعداً من يلبى النداء بالأرض

= est quae Latinos omnes non hominum nomine dignabatur sed canum : qvorum sanguinem effundere pene inter merita reputabat . . . Haec et huivsmodi deliramenta, quae epistolaris explicare non valet angustia impletis iniquitatibus eorum quae ipsum Dominum ad nausiam provocabant, divina justitia nostro ministerio digna ultione percussit, et expulsis hominibus Deum odientibus et amantibus sese terram nobis dedit omnium bonorum . . ."

(١١٢) Ibid.

التى تفيض عسلا ولبناً ، وأيضاً بغفران للخطايا وبمركات من بطرس الرسول (١١٣) .

وفى نفس العام (١٢٠٤) كتب البابا انوسنت الثالث إلى رجال الدين اللاتين فى الصليبية الرابعة يأمرهم بضرورة إدخال الطقوس اللاتينية فى سائر كنائس الأمبراطورية البيزنطية ؛ وذلك حتى يكون الإكليروس كله متوافقاً مع العقيدة والطقوس الكنسية الرومانية ، وحتى يكون سائر أعضاء الكنيسة العالمية أهلا لرعاية أمير الكنيسة : البابا ذاته . وأعلن البابا فى ختام رسالته أنه موفد قاصداً رسولياً من لدنه للإشراف على أمور كنيسة بيزنطة (١١٤) .

* * *

على ضوء الوثائق سالفة الذكر يتضح موقف البابا انوسنت الثالث تجاه غزو القسطنطينية دون لبس ولا غموض . وليس من باب الصدفة أن نجد كثيراً من المعانى التى وردت فى هذه الرسائل مطابقة تماماً لما كان البابا ذاته قد كتب إلى السلطات البيزنطية فى عام ١١٩٨ ، حينما كان يهددها باتخاذ إجراءات عنيفة لإخضاع كنيسة القسطنطينية المنشقة . وفى هذا الدليل القاطع على دور انوسنت الثالث فى الصليبية الرابعة التى انتهت بغزو مدينة قنسطنطين . حقيقة أن البابا قد عبر عن استنكاره للمذابح التى وقعت فى العاصمة البيزنطية عند الغزو (١١٥) ، بعد أن وصلته التفاصيل عنها ، ولكن من الإنصاف أن نقول أن غضبة البابا قد انبثقت أولا وقبل كل شىء بسبب اختيار ترماس موروسينى الكرسى البطريركية البيزنطية دون أخذ رأيه فى هذا

(١١٣) Bibliothéque de Valenciennes, Manuscript 482, ff. 139 - 144 : "Fraternitatem vestram monemus et exhortamus in Domino per apostolica scripta mandantes, quatinus tam clericos quam laicos efficaciter inducatis ut ad capescendas spirituales et pariter temporales divitias ad praefatum imperatorem accedant . ."

(١١٤) P.L., Vol. CCXV, cols. 471 - 72.

(١١٥) Gesta Innocentii III, col. CXLI.

الاختيار[١١٦] . والذى ساء البابا كثيراً هو علمه بأن البنادقة كانوا يخططون لاحتكار عرش البطريركية لجمهوريتهم دون سواهم ، ولذا نجدهم يدعون موروسينى لأن يقسم بألا يقبل فى مجلس آياصوفيا أعضاءاً ليسوا بنادقة . غير أن البابا أجبر موروسينى على استنكار هذا القسم الذى أداه لبنى بلدته ، علانية . وبعدها اتسمت العلاقات بين موروسينى والبابا بالانسجام التام : فاعتمد البابا انتخابه وراح يتحدث عن بطريركية القسطنطينية « اللاتينية » على أنها أفضل البطريركيات جميعاً ، بعد بطريركية روما[١١٧] . وفى نفس الوقت نجد انوسنت الثالث يصدر قراراً بالغفران والعفو عن الدوج هنرى داندولو ويمنحه بركات القديس بطرس[١١٨] .

كذلك كتب البابا انوسنت الثالث إلى الماركيز بونيفاس دى مونت فرات ، ملك تسالونيكا ، يحثه على الثبات على حبه لأمه كنيسة روما . . ورد الماركيز فأكد للبابا ولاءه للكنيسة الرومانية والعمل على رفع شأنها ، مدللا على هذا بدوره الكبير فى إخضاع امبراطورية بيزنطة وكنيستها للسيد الأوحد « راعى وحامى المسيحية » : البابا ذاته[١١٩] . وكان بونيفاس قد تزوج من مارى أرملة اسحق انجيلوس . ولذا فقد كتب إليها البابا يهنئها على نبذها للطقوس البيزنطية وتحولها إلى الطقوس اللاتينية القويمة ، وكذا على تلقيها « جسد المسيح » ، فى شركة التناول ، من يد المندوب البابوى فى القسطنطينية . كما أعلن البابا فى نهاية رسالته لمارى أنه يرحب بها وزوجها وأملاكهما تحت حمايته وسلطان الكرسى الرسولى للقديس بطرس[١٢٠] .

• • •

(١١٦) P.L., Vol. CCXV, col. 516.

(١١٧) Ibid., col. 515.

(١١٨) Ibid., col. 521.

(١١٩) Ibid., col. 624.

(١٢٠) Ibid., col. 714.

لم يكن سقوط بيزنطة فى يد اللاتين عام ١٢٠٤ نتيجة لانحراف الحملة الصليبية الرابعة ، وإنما جاء خاتمة لفصل طويل ومرير من العلاقات بين روما القديمة وروما الجديدة .

* * *

BIBLIOGRAPHY

I. Original Sources

— Aimé de Monte Cassino, L'Ystoire de li Normant, (ed. O. Delarc), Rouen, 1892.

— Albanés, J., Gallia Christiana Novissima, 7 Vols., Montbéliard, 1895 - 1902.

— Albert of Aix, Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesia, in R.H.C. Occ., vol. IV.

— Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte, (ed. G. Paris), Paris, 1897.

— Anglo - Norman Texts, The Crusade and Death of Richard I. (ed. R. Johnston), Oxford, 1961.

— Anna Comnena, Alexiad, (ed. B. Leib), 3 Vols., Paris, 1937 - 45.

— Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum, (ed. L. Bréhier as Histoire de la Premiére Croisade,) Paris, 1924.

— Ansbert, Gesta Frederici Imperatoris in Expeditione Sacra, in M.G.H.SS., in usum scholarum, 1892.

— Baronius, Annales Ecclesiastici, Lucques, 1746.

— Baudri de Dol, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., Vol. IV.

— Benedict of Peterborough, Gesta Regis Henrici II, (ed. Stubbs), 2 Vols., Rolls Series, London, 1867.

— Bernard of Clairvaux, Opera, in J. Mabillon's Opera Omnia, 2 Vols., Paris, 1839.

— Canale, Martino da, La Cronica dei Veneziandi, (ed. Galvani), Frienze, 1845.

— Choniates, Nicetas, Historia, (C.S.H.B.), Bonn, 1835.

— Chronique Rimée de la Petite Arménie. in R.H.C. Arm., Vol. I.

— Chroust, A., Quellen zur Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I, Berlin, 1928.

— Duchesne, L., Liber Pontificalis, 2 Vols., Paris, 1884 - 92, 3 rd ed. C. Vogel, Paris, 1955 - 57.

— Einhard, Vita Karoli Magni, in Scriptores Rerum Germanicarum, in usum scholarum, Neudruck, 1947.

— Ekkehard of Aura, Hierosolymita, in R.H.C. Occ., Vol. V.

— Ernoul, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, (ed. Mas-Latrie), Paris, 1871.

— Estoire d'Eracles, in R.H.C. Occ., Vols. I and II.

— Foucher of Chartres, Gesta Francorum Hierusalem Peregrinantium, in R.H.C. Occ., Vol. III.

— Gerhoh, De Investigatione Antichristi, in M.G.H.SS., Libelli de Lite, III.

— Gregory the Priest, Chronicle, in R.H.C. Arm., Vol. I.

— Historia Belli Sacri, in R.H.C. Occ., Vol. III.

— Jaffé, P., Monumenta Gregoriana, Bernoldi, 1864. Bibliotheca Rerum Germanicarum, 6 Vols., Berlin, 1864 - 73.
Regesta Pontificum Romanorum, Leipzig, 1885 - 88.

— Kinnamos, John, Epitome Historiarum, in C.S.H.B., Bonn, 1836.

— Lambert of Arras, Canons of the Council of Clermont, in Mansi, Concilia, Vol.XX.

— Mlaterra, Geoffroi, Historia Sicula, (ed. Muratori), in Scriptores, V.

— Matthew of Edessa, Chronique, (ed. Dalaurieur), Paris, 1858.

— Michael the Syrian, Chronicle, (ed. Chabot), 4 Vols., Paris, 1899-1910.

— Odo de Deuil, De Profectione Ludovici VII in Orientem, (ed. V. Berry), New York, 1948.

— Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, (ed. A. Le Prevost and L. Delisle), 5 Vols., Paris, 1838 - 55.

— Radulph of Caen, Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., Vol. III.

— Raymond of Aguilers, Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem, in R.H.C. Occ., Vol. III.

— Robert de Clari, La Conquête de Constantinople, (ed. P. Lauer), Paris, 1924.

— Robert the Monk, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ., Vol. III.

— Villehardouin, Geoffroy de, La Conquête de Constantinople, (ed. N. de Wailly), Paris, 1872; New ed. by E. Faral, 2 vols., Paris, 1938 - 39; earlier ed. by P. Paris, Paris, 1838; early English trans. by T. Smith, London, 1829; recent paperback ed. by Sir Frank T. Marzials, N.Y. 1958.

— William of Tyre, Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum, in R.H.C. Occ.; Vol. I.

— Zonaras, Joannes, Epitome Historiarum, in C.S.H.B., Bonn, 1897.

II. Modern Works

— Bédier, J., Les Chansons des Croisades, Paris, 1909.

— Bréhier, L., Le Schisme Oriental du XIe Siècle, Paris, 1899.

— Bury, J., A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.

— Chalandon, F., Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicilie, 2 Vols Paris, 1907.

Les Comnenes, 2 Vols., N.Y., 1960.

— Diehl, C., Figures Byzantins, Paris, 1918.

— Dvornik, F., The Idea of Apostolicity in Byzantium and the Legend of the Apostle Andrew, Cambridge, Massachusetts, 1958.

— Fliche, A., "La Réforme Grégorienne et la Reconquête Chrétienne (10 57 - 1125), Vol. VIII of Histoire de l'Eglise, ed. Fliche, A. and Martine, E. Paris, 1950.

— Grümel, V., Le Patriarcat Byzantin, Paris, 1947.

— Hagenmeyer, H. Chronologie de la Premiére Croisade, Paris, 1902.

— Heféle, C.J. and Leclercq, Histoire des Conciles, Paris, 1907 - 14.

— Hill, G., History of Cyprus, 4 Vols., Cambridge, 1948 - 52.

— Hussey, J., The Byzantine World, Lond, 1957.

— Lamma, P., Comneni e Staufer, 2 Vols., Rome, 1955 - 57.

— Mas Latrie, L., Histoire de l'Isle de Chypre sous le Régne de la Maison de Lusignan, vol., I, Historie; vols. II and III, Documents, Paris, 1852 - 61.

— Norden, W., Das Papsttum und Byzanz, Berlin, 1903.

— Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, (trans. by J. Hussey, Oxford, 1956).

— Riant, P., Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades, Paris, 1881.

— Runciman, J.C.S., A History of the First Bulgarian Empire, London, 1930.

— Runciman, S. (Sir), A History of the Crusades, 3 Vols., Cambridge, 1951 - 54.

The Eastern Schism, London, 1955.

— Schlumberger, G., L'Epopée Byzantine au XIe Siècle, 3 Vols., Paris, 1896 - 1905.

Byzance et Croisades, Paris, 1927.

— Setton, K.M. and Baldwin (eds.),A History of the Crusades, Philadelphia, 1955 - 62.

— Vacandard, E., Vie de St. Bernard, Abbé de Clairvaux, 2 vols., Paris, 1895.

— Vasiliev, A., History of the Byzantine Empire (324 - 1453), (trans. by Blackwell, B.; Oxford, 1952).

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٠/٣٨٨٦

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠